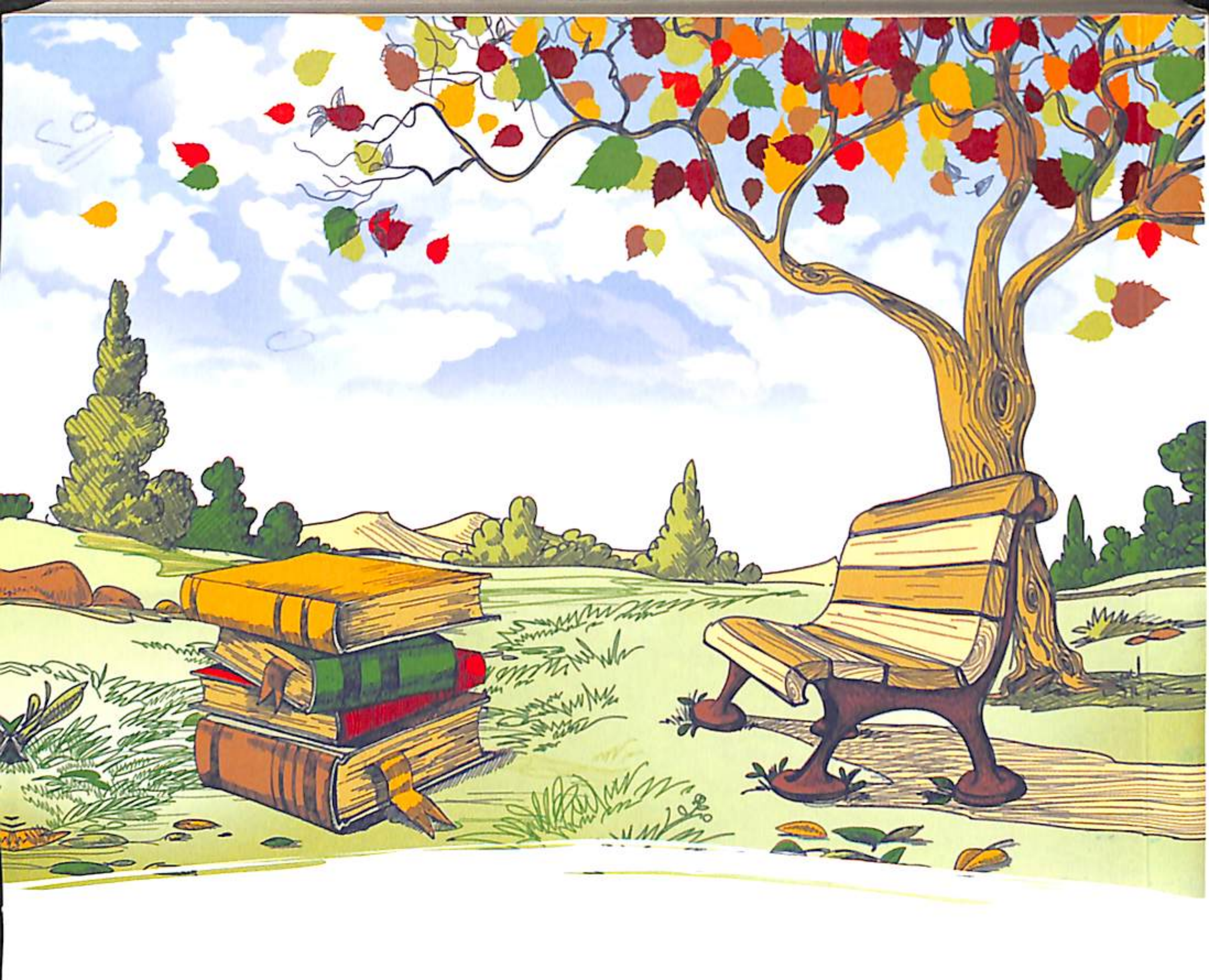


شرح كتاب التوحيد

للإمام محمد بن عبد الوهاب

تاليف: أ. د. عبد الله بن محمد الغنيمان

شـــرح
كتـاب التوحيـد

للإمام محمد بن عبد الوهاب

تأليف

أ. د. عبد الله بن محمد الغنيمان

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الغنيمان ، عبدالله محمد

شرح كتاب التوحيد / عبدالله محمد الغنيمان –
بريدة ، ١٤٣٦هـ
٤٥٤ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم
ردمك : ٢-٩-٩٠٤٩٦-٦٠٣-٩٧٨

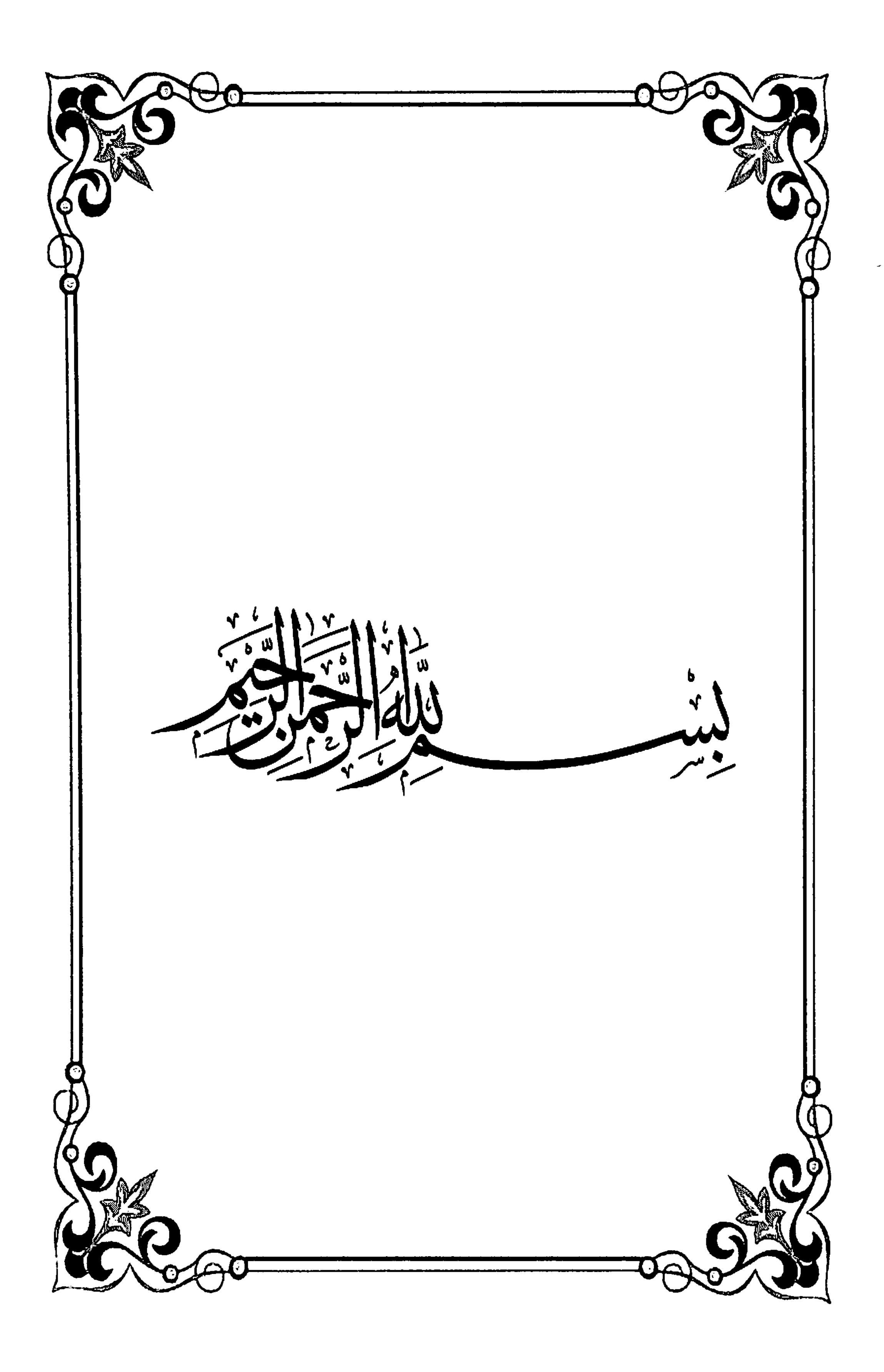
١- العقيدة الإسلامية ٢- التوحيد
أ- العنوان

ديوي ٢٤٠ ١٤٣٦/٣١٣

رقم الايـداع: ١٤٣٦/٣١٣
ردمك: ٢-٩-٩٠٤٩٦-٦٠٣-٩٧٨

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ / ٢٠١٤م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم مركز النُّخب العلمية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبيِّنا محمد، سيدِ الأولين والآخرين، وإمامِ المتقين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعه بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فإنَّ الاشتغالَ بالعلمِ من أفضلِ القُرَبِ والطَّاعاتِ، وآكَدِ العبادات، وقد تظاهرت على ذلك جملٌ من الآياتِ والأحاديثِ الصَّحيحاتِ؛ وأقاويلِ السَّلف الفَصيحاتِ، وأَمارةُ ذلك أن شريعتَنا مَبْنِيةٌ على الكِتاب والسنة؛ وعليهما مدارُ الأحكامِ لأهلِ السنة والجماعةِ.

ومما يُذكر هنا ليُشكَرَ ما يلقاه العُلماءُ وطَلَبةُ العلم مِن رعايةٍ واهتمامٍ من وُلاةِ الأمرِ وفَّقهم الله، حتى قامتْ سوقُ العِلم والعملِ، ودأبَ طلبةُ العلمِ على التَّعلُّمِ والمنافسةِ الشَّريفةِ فيه.

وإنَّ مَركزَ النُّخَب العلمية من المشاريع الرائدة في التَّأصيل العلمي، بعيدًا عن المثالية، قريبًا من النموذجية السَّهلة، متناغمًا مع الواقع الذي ننشد فيه التَّربية على التَّكامل العلمي النسبي الذي هو مقصِدٌ شريفٌ يتعلم طالبُ العلمِ من خلاله علومَ الشَّريعة؛ وذلك بإتقانِ كتابٍ جامعٍ أو أكثرَ في كلِّ فَنٍّ، مع تهيئةِ آليةٍ سهلةٍ لحفظه ومراجعةِ شرحه؛ وهذا نهج نحتاجهُ في زمنِ اضطرابِ المفاهيم الذي تَقاصَرَت فيه الهِمَمُ عن بلوغِ الرتبِ العاليةِ في الملكة العلمية.

لذلك نسعى -من خِلالِ هذا المركزِ- إلى تقْريبِ العِلمِ على طَلَبةِ العلمِ من خلالِ طباعةِ الكُتبِ التي مِن شأنها القِيامُ بملكةِ طالبِ العلمِ العِلمية، وغيرها من الكتب الهادفة.

كَما أنَّ مِن أهداف هذا المركز: التنشئةَ على محَاسنِ الأخْلاقِ والآدابِ، والرَّبطَ الوثيقَ بينها وبينَ العِلم، مِنْ خِلالِ المحاضراتِ واللقاءاتِ والدُّروسِ التَّربوية.

وكذلك توعيةُ طُلابِ العلم بطرائقِ التَّعامل الصَّحيحِ مع: (العلم - القرآن - السُّنة - الدَّعوة - المجتمع - الأسرة - مسائل الخلاف - الفِتَن - المستجدات المعاصرة - التقنية الحديثة) ونحوِ ذلك مما يَعني طالبَ العلمِ في هذا العَصرِ.

والله الموفقُ والهادي إلى سَواءِ السبيل، وصلى الله على نبينا محمد، وآلِه وصَحْبِه وسَلَّم.

إدارة الشؤون التعليمة - مركز النخب العلمية

بريد إلكتروني: alnokhab@hotmail.com



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الشارح

الحمدُ لله، نحمدُه، ونستعينُه، ونعوذُ به من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، مَن يَهدِه الله فلا مُضِلَّ له، ومن يُضلِلْ فلا هاديَ له، وأشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته وسلم، أما بعد:

فإنَّ مِن أهم المهمات وألزمِ الواجبات: توحيدَ ربنا جل وعلا، الذي بعث به رسلَه، وأنزل به كتبَه، ومن أفضل الكتب التي تعتني بالتوحيد -على وَجازتِها وسهولتها- كتاب «التوحيد» للشيخ محمد بن عبد الوهاب -غفر الله له وأعلى مقامَه-، فإنه جمع دلائلَ التوحيد، ولوازمَه التي تكمِّلُه، والقوادحَ فيه التي تُنافيه أو تَذهَبُ بكماله الواجب، حسَبَ حاجةِ الناس، فهو كتابٌ مبارك، قريبُ الفهم.

والحاجة داعية إلى تأمُّلِه وفهمِه، بل وإلى حفظه والاعتناءِ به غايةَ الاعتناء؛ لأن التوحيد عليه مدار السعادة، وبفقده تحصُلُ الشقاوةُ، فهو بالواقع دعوةُ الرسول ﷺ التي جاء بها إلى أمته، ولهذا كثر النفع به وانتشر، وإن كان هناك من يكره الحق، فهذه سنة الله -جل وعلا- في خلقه منذ خلق الخليقة، وبذلك باء إبليسُ باللعنة والبعد، وعادى الحقَّ وصار له أنصارٌ وأتباع، ولا يزال ذلك إلى يوم القيامة، وهذه سنة الله، ولكن الحق عليه نور وفيه صفاء، وتقبلُه النفوسُ وتطمئن إليه الفِطَرُ.

وهذا كتابٌ كلُّه مِن أوله إلى آخره: قال الله وقال رسولُه، ثم الاستنتاجُ القريبُ الذي يُعين الطالبَ، فإذا انتهى المؤلفُ من الباب قال: «فيه مسائلُ»، فذكر فقهَ الباب، فهو نافع جدًّا، ولا ينبغي لطالب العلم أن يَزهَد فيه، أو أن يقول: قرأتُه مرةً أو مرتين، بل يُستحسن تَكرارُه؛ فكلما كررتَه ستجد فيه فوائدَ لم تعرِفْها فيما مضى، ونسألُ الله -جل وعلا- السَّدادَ والتوفيقَ والفهمَ الذي يُوصِل إلى العمل.



بسم الله الرحمن الرحيم

كِتَابُ التَّوْحِيدِ

....

يقول المؤلفُ رحمه الله: (بسم الله الرحمن الرحيم): بدأ بالبسملة، كما هي عادةُ العلماء اتباعًا لكتاب الله جل وعلا، واقتداءً برسول الله ﷺ في مكاتبته التي كان يكتبها؛ فإنه كان يبدأ بالبسملة، وامتثالًا لما جاء من الأحاديث التي فيها: «كُلُّ أمر ذي بالٍ لا يُبدأ فيه ببسم الله فهو أَبْتَرُ»، والله -جل وعلا- قال لنا: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ﴾[العلق: ١] أول ما نزل من القرآن، فهذا يدل على أن البسملة في أول الأمور ذِكْرٌ مشروع يُستعان به، فالباء للاستعانة بالله، أي: أستعين بهذا الاسم المبارك الذي إذا ذُكِر على شيء كثَّره وبارَكَه وزاده.

قوله: (كتاب التوحيد): هذا العنوان أغنى عن الخُطْبة التي يمكن أن يُذكَر فيها الغرضُ من التأليف؛ أي: هذا كتابٌ فيه مسائلُ التوحيد التي يجب أن نَعلَمَها ونعملَ بها، كما فيه أيضا المسائلُ التي تكون مُضادَّة للتوحيد؛ من الشرك الأكبر أو الأصغر، وكذلك الأمورُ التي تَنقُص كمالَه الواجبَ؛ لأن الكمال الواجب هو الذي يَنقُص التوحيدَ، أما الكمال المستحب فهذا فَضْلٌ يَتسابقُ فيه أولو الفضل من عباد الله الذين يتسابقون إلى علو الدرجات.

والتوحيد معناه: أن يكون العملُ واحدًا لواحد، أي يكون خالصًا لله،

....

فالتوحيدُ هو الإخلاصُ في جميع ما أُمِر به الإنسان؛ لأن التوحيد يجب أن يكون مشروعًا مأمورًا به -كما سيأتي-، وهو الأمرُ الذي خُلِق العباد له، وقد قسم العلماءُ التوحيد إلى أقسامٍ ثلاثةٍ أو إلى قسمين:

الأول: توحيد العلم والاعتقاد؛ يعني أنك تعلم هذا وتَعقِد عليه قلبَك ولا بد من حصول النتائج لهذا العلم.

والثاني: توحيد الإرادة والعمل؛ يعني توحيد الإرادة والنية والقصد والعمل الذي هو توحيد العبادة.

وإن شئت قلت: إنه ثلاثة أقسام:

توحيد الربوبية: وهو توحيد الله بأفعاله، وهذا أمر اجتمع عليه بنو آدم لم يُخالِف فيه إلا بعضُ الجهلة الذين أوغلوا في الجهل، ومعناه: أن الله هو الذي تفرَّد في الخلق والتدبير، والإحياء والإماتة، والتصرف الظاهر في الكون كله؛ من الرياح والسحاب والأمطار والنبات، والإعزاز والإذلال، وغيرِ ذلك، فهو الواحد في هذا ليس معه مُشارِك، جل وعلا.

وتوحيد الأسماء والصفات: وهو توحيدُ الله فيما يخصُّه من أسماءٍ وصفات، وهذا كثُر ذكرُه في كتاب الله، كما أن الأول كثر ذكره وجُعِل دليلا على وجوب التوحيد العملي.

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وتوحيد الألوهية: وهو توحيد القصد والنية والإرادة والعمل، وهذا القسم هو موضوع الكتاب؛ لأن الخلل كان فيه، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قد شرح الله صدرَه ووهبه من الذكاء والمعرفة ما كان به أهلا لأن يكون إمامًا في التوحيد، فأنقذ الله -جل وعلا- به هذه البلادَ من عبادة الأحجار والأشجار، والجن والشياطينِ، والنجومِ، والمنجمين والسحرةِ فأنقذهم الله -جل وعلا- بسبب دعوته، وركَّز رحمه الله على المسائلِ التي يجب أن يُعمَلَ بها، ولا يجوزُ الإخلالُ بها؛ فقال: (**كتاب التوحيد**) يعني هذا كتاب تُذكَر فيه مسائلُ التوحيد التي يجب أن يعمل بها، وكذلك ما يُضادُّه من الشرك الأكبر والأصغر.

قوله: (**وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾**): جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كل عبادةٍ ذُكرت في القرآن فمعناها التوحيد»، معنى: (﴿لِيَعْبُدُونِ﴾) يعني: يوحِّدوني بما جاءت به الرسلُ من الأمر والنهي، فهذه الآية فيها الحكمة في خلق الجن والإنس، والجِنُّ: من الاجتنان؛ وهو الستر والتغطية، وسُموا الجنَّ؛ لأنهم لا يُرَون، وبدأ بهم قبل الإنس في هذه الآية؛ إما لأجل وجودهم قبلُ، أو لأنَّ الإيمانَ بهم لازمٌ؛ لأن مِن الناس مَن لا يؤمنون إلا بالمحسوس المشاهَد.

قوله: (**﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾**) هذا من أقسام التوحيد الفعلية التي هي من أفعال الله جل وعلا، فالخلق له وحده، والخلق: هو الإيجاد من العدم على غيرِ مثالٍ

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل:٣٦].

سابقٍ، فالضمير لله جل وعلا.

قوله: (﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾) يعني: ما خُلقوا لأمر آخرَ، وإنما خلقوا للعبادة، والعبادة جُعلت إليهم؛ لأنها لا بد أن تأتي باختيارهم، فلا يَلزَم من هذا اعتراضُ بعض المتكلمين الذين يقولون: إن قوله: (﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾) خبرٌ، والخبرُ يجب أن يكون مطابقا للواقع، والواقعُ لا يطابق ذلك؛ لأن أكثرَ الجن والإنس لا يعبدون الله، فيكون في هذا إشكالٌ، وحلُّ الإشكال أن نقول: إنه -جل وعلا- فَعَل الأولَ -وهو الخلقُ- ليفعلوا هم الثانيَ، ووَكَلَ الأمرَ إليهم، وجعل ذلك في مقدورهم وباختيارهم؛ إن فعلوه استحقوا الجزاءَ الأوفى، وإنِ امتنعوا فقد امتنعوا بقدرتهم وإرادتهم، فيستحقون العذابَ، فليس المقصودُ الإخبارَ عن الواقع، وأنه يفعلُه جل وعلا، وإنما المقصودُ الإخبارُ بأنهم كُلفوا بفعل التوحيد، وهذا هو المعنى الصحيح.

قوله: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾): الواو هذه واوُ القسم، والمُقسَم به هو الله جل علا، وتقديرُه: والله لقد، واللامُ للتَّوْطِئَةِ، و(قد) للتحقيق، والبَعْث: هو الإثارة، إثارةُ الشيء من مكانه، والمقصود هنا: إرسالُ الرسل.

....

(﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا ﴾): يعني أرسلنا في كل طائفة من الناس رسولًا، تقول هذه الرسلُ: (﴿اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾)، والأمة: يُقصد بها الجماعة، سواءٌ كانوا من الناس الذين أرسل إليهم أو من غيرهم، ولكن المقصود هنا بنو آدم، والجن تبع لهم يدخلون في هذا؛ لأن الجن ليس فيهم رسل، وإنما فيهم منذرون؛ كما قال الله تعالى في آيات عدة: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الجن:١]، ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ﴾ [الأحقاف:٢٩]، والرسول ﷺ رسولُنا بُعث إلى الإنس والجن كافةً، كل من على وجه الأرض من العقلاء؛ لأن الجن عقلاء، عندهم عقول، فهم مكلفون بعبادة الله كالإنس، و(الأُمَّة) في كتاب الله جاءت لأربعةِ معانٍ:

الأول: الجماعة من الناس، كما في هذا الآية.

والثاني: الطائفة من الوقت؛ كما في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ [هود:٨]، ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف:٤٥] يعني تذكر بعد وقت.

والمعنى الثالث: الملة والنِّحْلة والطريقة؛ كما في قوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]، ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [الأنبياء:٩٢] يعني: دينكم دين واحد.

....

المعنى الرابع: الرجل القُدْوة الذي يُقتدَى به؛ كما في قوله: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ ﴾[النحل:١٢٠].

و(الطاغوت): أُخِذ من الطغيان، وهو تجاوُزُ الحد الذي جُعل للمخلوق، ولهذا قال الله جل وعلا: ﴿ إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ ﴾ [الحاقة:١١]؛ لأن الماء خُلق لانتفاع الناس، ولا يطغى على الأرض، فإذا طغى فقد تجاوز الحدَّ الذي جعله الله من حكمته ورحمته منفعة للناس، وكذلك المخلوقُ؛ إذا تجاوز حدَّه فقد طغى؛ لأن كل مخلوق عبدٌ على حسَب عبوديته التي كُلف بها، وقد عُرِّف الطاغوت بأنه: «كل ما عُبِد من دون الله»، كما قال الإمامُ مالكٌ.

وقال عمرُ ﷺ: «الطاغوتُ: الشيطانُ»، وقال غيره من الصحابة: «الطاغوت: الكُهَّان»، وفي بعض أقوالهم: «إن الطاغوت هم السحرة»، كل هذه أفرادٌ من المعنى.

والطاغوت: كل ما تجاوز به العبدُ حدَّه؛ مِن معبودٍ أو متبوعٍ أو مُطاعٍ، يعني في هذه الأمور الثلاثة؛ لأن العبادة يجب أن تكون لله وحده، فإذا عُبِد مخلوقٌ - سواءٌ كان عاقلا أو غير عاقل- فهو طاغوت، وكذلك الطاعة يجب أن تكون لله ورسوله، ولا يُطاع مخلوق إلا تبَعًا لطاعة الله وطاعةِ رسوله، وكذلك الاتباع في الدين والعمل، يجب أن يكون تبعا لأمر الله وأمرِ رسوله، فإذا اختلت هذه الأمور

....

وصارت لمخلوق بغير علم واتباعٍ لكتاب لله وسنة رسوله، صار ذلك المتبوعُ طاغوتا، وقد يكون التابعُ أيضا عابدًا للطاغوت.

قوله: (﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾): العبادة: هي طاعةُ الأمر، واجتنابُ النهي، على وجه الذل والخضوع، وطاعة الله: عبادته؛ أن تطيعَه ذالًّا مستسلمًا خاضعًا، وتجتنبَ نهيَه على هذا السبيل، والعبادةُ: اسمٌ جامعٌ لما يحبُّه الله من الأقوال والأفعال والأعمال الظاهرةِ والباطنةِ؛ لقوله تـعالى: (﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾)، فهذا مـن المبالـغات في النـهي؛ لأن الاجتناب معناه: أن تكون في جانب بعيد عنه، بخلاف ما إذا قيل: اترُكْه، أو لا تَفعَلْ؛ فإنَّ (اجتنبوا) يعني كونوا في جانب بعيد عنه، فهذا يدل على بُغض الشر وأهلِه، والخلاصِ منهم؛ لأن الطاغوت: كل ما حال بينك وبين عبادة ربك.

فالطاغوت قد يكون عَيْنًا تُشاهَد، وقد يكون معنًى من المعاني؛ لأنه كما في صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: «تعِس عبدُ الدينار، تعِس عبدُ الدرهم»، فجعل العاقلَ عبدًا لقطعةِ ذهب أو قطعة فضة، ثم قال: «تعِس عبدُ الخميلة والخميصة»، والخميـلة: كساء له خَمْـل أي هُدْب، والخميصـة: قـد تكونُ كساءً، وقد تكونُ فراشًا يُوطأ بالأقدام، فيكون عبدًا لها، والمعنى: أنه يَعمَلُ مِن أجلها، ولهذا قال في نهاية الحديث: «إن أُعطِي رَضِي، وإن مُنِع سَخِط»؛ لأنه يعمل لهذا، ثم يقول الله جل وعلا: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [الفرقان: ٤٣]،

وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣].

فإذًا الهوى قد يكونُ مألوهًا، وقد يكونُ الإنسانُ عابدًا لشهوته أو للُعْبتِه أو لشيءٍ من مظاهر الدنيا، ولا يخلو ابنُ آدمَ من العبادة؛ إن لم يَعبُدِ اللهَ عَبَد مخلوقًا مثلَه، أو أقلَّ درجةً منه، أو أخسَّ بكثير.

ثم في تمام الآية يقول: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ ۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[النحل:٣٦].

قوله: ﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ﴾ هذا يدل على أن الهداية بيد الله، وأن الإنسان لا يستطيع أن يهتدي بقوته وعلمه وفكره ونظره إن لم يَهدِه الله، ومعنى ذلك أننا نتجهُ إلى ربنا في كل مطلب، وعلى كل حال، ونتعلق به؛ لأنه يهدينا لمصالحنا، ولما فيه عبادتُه -جل وعلا- وامتثالُ أمره.

قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُ﴾المعنى أن كثيرًا من الناس ليسوا أهلًا للهداية؛ فإن الهداية لا تصلُح أن تكونَ لهم، فحَقَّت عليهم الضلالةُ، فوُكلوا إلى أنفسهم وإلى أنظارهم، فضَلُّوا، وربُّك ليس بظلَّام للعبيد، تعالى وتقدس.

قوله: (﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ...﴾): قضى: بمعنى أمر، وألزم، وأوجب، أو وصَّى، كلُّها بمعنى واحد، يعني: حَكَم وأَمَر بأن تكون العبادةُ له، وهذا حكم شرعي؛ لأن أكثر الناس خالفوه، وليس حكما قضائيًّا قدريًّا، فحُكمُ القضاء والقدر لا يستطيع أحدٌ أن يخرُجَ عنه أو يخالِفَه.

....

قوله: (﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾): هذه الآية مثل الآية الأولى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فقوله: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ يدل على قَصْر العبادة لله جل وعلا، وأنها لا تجوزُ أن تكونَ إلا له.

وقوله: (﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾): بمعنى: وقضى أن تحسنوا بالوالدين إحسانًا، فهو أمرٌ مُلزم بالإحسان بالوالدين، وكثيرًا ما يُقرَن حقُّ الوالدين بحقه -جل وعلا- الذي لا يجوزُ الإخلالُ به، وحُذِف العاملُ في الإحسان؛ ليكون الإحسانُ عامًّا؛ أي كل إحسان تستطيعُ فعلَه.

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾: ذَكَر الكبرَ لأنه محلُّ الحاجة إليك، وهو مظنةُ الإعراض أيضًا؛ لأن الوالدين انتهى عملُهما فأصبح كثيرٌ من الناس لا ينظرُ إليهما؛ فنبَّه -جل وعلا- على ذلك فقال: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ﴾ يعني أن هذا محلُّ الرأفة ومحل الإحسان أكثرَ من أي وقت آخر، ﴿أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا﴾ لأنه قد لا تتفقُ الأمورُ بأن يكون كلاهما قد بلغ الكبر، وقد يذهبان كلاهما فلا يكونُ للمرء قدرةٌ على الإحسان إليهما، فيفوته الفضل العظيم.

جاء عن رسول الله ﷺ أنه صعِد المنبرَ فأمَّن ثلاثا، قال: «آمين، آمين، آمين»، فسُئل عن ذلك فقال: «أتاني جبريل، وقال لي: مَن أدرك رمضانَ، ثم خَرَج فلم يُغفَر له فأبعَدَه اللهُ، فقل: آمين، فقلتُ: آمين، ومَن ذُكِرتَ عنده فلم يصلِّ عليك

....

أَرغَمَ الله أنفَه، فقل: آمين، فقلتُ: آمين، ومَن أَدرَك والديه أو أحدَهما فلم يُغفَر له، فقل: آمين، فقلتُ: آمين».

فمعنى ذلك أن هذا أمرٌ عظيم. ويكفي كونُ ربِّنا -جل وعلا- قَرَن حقَّهما بحقه.

ثم قال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ يعني لا يَظهَرْ منك تضجُّرٌ نحوَهما؛ لأن هذا مظنةُ أن يخرج منهما شيءٌ تكرهُه، فلا تتضجرْ من ذلك، حتى هذا اللفظ (أف) لا تقله، يعني لتتحملْ كل ما يصدرُ منهما من أمور قد تكونُ غيرَ مناسبةٍ لك، ويجبُ أن تتحملَها ولا تتضجرَ منها، أو تُظهِرَ الكراهةَ في ذلك، فكيف بمن يضربهُما، أيُنهي عن التأفُّف ويُسمح بالضرب؟!

ثم إن الله -جل وعلا- مِن سُنَنه أنه جعل عقابَ العقوق للوالدين مُعجَّلا قبل الأجل، وقد جاء في الحديث: «لا يدخلُ الجنةَ عاقٌّ»، وكونُه معجلًا لأن السنة الإلهية في هذا أن العاقَّ لا بد أن يعُقَّه ولدُه.

يقول ثابت البُنَانيُّ رحمه الله: «رأيتُ رجلًا في البصرة يضرب أباه، فأردت أن أمنعه، وكان الأبُ جالسًا وهو يُضرب، فرفع إليَّ رأسَه، وقال: دَعْه فلقد كنتُ أضرب أبي في هذا المكان».

فالمقصودُ أن حق الوالدين عظيم، ولهذا عظَّمه الله جل وعلا، ثم قال:

....

﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ في الكلام أو الفعل؛ فيخرجْ منك فعلٌ فيه تضجُّرٌ أو فيه عدمُ قَبولٍ لما يصدُر منهما، وقوله: ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ النَّهر: بالكلام الذي يكون فيه زجرٌ أو شيء من سوء الأدب، ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ هذا يقابل النهرَ، فهذه الآية فيها الأمرُ بعبادة الله -جل وعلا- وحده، وأن هذا أمر لازمٌ لا بد منه.

قوله: (وَقَوْلُهُ: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾) كالآية الأولى، هذه الآية تُسمى آيةَ الحقوق العشرة؛ لأنه فيها عشرةَ حقوق، بدأها بوجوب عبادته فقال: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ثم قال: ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ من باب التأكيد؛ لأن عبادة الله لا تكونُ مع الشرك، إذا وُجد الشركُ انتفت العبادةُ، كما قال الله جل وعلا: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣ ﴾[الكافرون:١-٣]، فنفى أن يكونوا عابدين لله؛ لأنهم مشركون. فالشرك لا يكونُ معه عبادةٌ؛ لأن العبادة إن لم تكن توحيدًا خالصًا فهي مردودة، ليست عبادةً شرعية، وإن سُميت عبادةً في اللغة.

وقوله: ﴿ شَيْئًا ﴾ هذا نكرة في سياق النهي؛ لقوله: ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ ﴾، فيَعُم الشركَ الأكبرَ والأصغرَ، والخفيَّ والجليَّ، ولا تشركوا به شيئًا من الأشياء، وقوله: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ كما سبق.

....

أَرغَمَ الله أنفَه، فقل: آمين، فقلتُ: آمين، ومَن أَدرَك والديه أو أحدَهما فلم يُغفَر له، فقل: آمين، فقلتُ: آمين».

فمعنى ذلك أن هذا أمرٌ عظيم. ويكفي كونُ ربِّنا -جل وعلا- قَرَن حقَّهما بحقه.

ثم قال: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ يعني لا يَظهَرْ منك تضجُّرٌ نحوَهما؛ لأن هذا مظنةُ أن يخرج منهما شيءٌ تكرهُه، فلا تتضجرْ من ذلك، حتى هذا اللفظ (أف) لا تقله، يعني لتتحملْ كل ما يصدرُ منهما من أمور قد تكونُ غيرَ مناسبةٍ لك، ويجبُ أن تتحملَها ولا تتضجرَ منها، أو تُظهِرَ الكراهةَ في ذلك، فكيف بمن يضربهُما، أيُنهي عن التأفُّف ويُسمح بالضرب؟!

ثم إن الله -جل وعلا- مِن سُنَنه أنه جعل عقابَ العقوق للوالدين مُعجَّلا قبل الأجل، وقد جاء في الحديث: «لا يدخلُ الجنةَ عاقٌّ»، وكونُه معجلًا لأن السنة الإلهية في هذا أن العاقَّ لا بد أن يعُقَّه ولدُه.

يقول ثابت البُنَانيُّ رحمه الله: «رأيتُ رجلًا في البصرة يضرب أباه، فأردت أن أمنعه، وكان الأبُ جالسًا وهو يُضرب، فرفع إليَّ رأسَه، وقال: دَعْه فلقد كنتُ أضرب أبي في هذا المكان».

فالمقصودُ أن حق الوالدين عظيم، ولهذا عظَّمه الله جل وعلا، ثم قال:

....

﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ في الكلام أو الفعل؛ فيخرجْ منك فعلٌ فيه تضجُّرٌ أو فيه عدمُ قَبولٍ لما يصدُر منهما، وقوله: ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ النَّهر: بالكلام الذي يكون فيه زجرٌ أو شيء من سوء الأدب، ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ هذا يقابل النهرَ، فهذه الآية فيها الأمرُ بعبادة الله -جل وعلا- وحده، وأن هذا أمر لازمٌ لا بد منه.

قوله: (وَقَوْلُهُ: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾) كالآية الأولى، هذه الآية تُسمى آيةَ الحقوق العشرة؛ لأنه فيها عشرةَ حقوق، بدأها بوجوب عبادته فقال: ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ ثم قال: ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ﴾ من باب التأكيد؛ لأن عبادة الله لا تكونُ مع الشرك، إذا وُجد الشركُ انتفت العبادةُ، كما قال الله جل وعلا: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝ وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝ ﴾[الكافرون:١-٣]، فنفى أن يكونوا عابدين لله؛ لأنهم مشركون. فالشرك لا يكونُ معه عبادةٌ؛ لأن العبادة إن لم تكن توحيدًا خالصًا فهي مردودة، ليست عبادةً شرعية، وإن سُميت عبادةً في اللغة.

وقوله: ﴿ شَيْئًا ﴾ هذا نكرة في سياق النهي؛ لقوله: ﴿ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ ﴾، فيَعُم الشركَ الأكبرَ والأصغرَ، والخفيَّ والجليَّ، ولا تشركوا به شيئًا من الأشياء، وقوله: ﴿ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ﴾ كما سبق.

وَقَوْلُهُ:﴿ وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ [النساء:٣٥]. وقولُه: ﴿ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا .... ﴾ [الأنعام: ١٥١] الآيات.

قوله: (وقولُه: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .... ﴾): تعالوا يعني: هلُموا إليَّ، وأقبلوا عليَّ، أَقُصَّ عليكم أو أقرأْ عليكم الأمورَ التي حرَّمها الله -جل وعلا- بخلاف ما كانوا يفعلونه من تحريمِ بعضِ الأنعام وبعضِ ألبانها أو لحومِها أو الحَرْثِ أو غيرِ ذلك بالجهل، فأقبِلوا عليَّ أَقُصَّ عليكم ما حرَّم عليكم ربُّكم، أذكُرْه لكم وحيًا من الله تعالى، لا بتخرُّص وظنٍّ أهوجَ، أو بوحي الشيطان، بل بالوحي من الله، لا بالتخرص ولا بالقياس ولا بالتقليد بل هو حقٌّ أوحاه الله إليَّ، هلموا إلي أتلُ عليكم ذلك:﴿ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ .... ﴾ قال: ﴿ رَبُّكُمْ ﴾ لأن الرب هو المالك المتصرف الذي يتصرف فيكم ويَملِكُكم، ﴿ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ﴾ هذا أولُ شيء حَرَّم عليكم؛ أن تشركوا به، وأنتم واقعون في الشرك، فدل على وجوب التوحيد الخالص، وأن التوحيد لا يكون توحيدًا إلا إذا خلا من الشرك كثيرِه وقليلِه، ثم قال: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا .... ﴾ وقوله في هذا الآيات بعدها: من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه فليقرأْ قولَه تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ... ﴾ هذا القولُ له سببٌ، وهو ما ثبَت في «الصحيحين» أنه لَـمَّا مرِض رسولُ الله ﷺ قال مرَّةً وعنده بعضُ الصحابة: «ائْتُونِي بِكِتَابٍ أَكْتُبْ لَكُمْ كِتَابًا لَا تَضِلُّوا بَعْدَهُ»،

قال ابنُ مسعود ﷺ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ...﴾..

فاختلفوا؛ منهم من يقول هذا عن جِدٍّ وحقيقة، فلنأتِ بالكتاب، ومنهم من يقول: إن هذا يجوزُ أن يكون نتيجةَ المرض، فلما اختلفوا قال: «قوموا عني؛ ما ينبغي أن تختلفوا عندي»، فكان ابنُ عباس ﷺ يقول: «الرزيةُ كلُّ الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين الكتابةِ».

قوله: (**قال ابنُ مسعود ﷺ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْهَا خَاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعَالَى:...**)، يعني أن رسولَ الله ﷺ وصَّى بكتاب الله، وليس هناك وصية خُص بها بعضُ الناس كما تقوله الفئةُ الضالة، الذين يقولون: إنه وصَّى إلى علي بن أبي طالب ﷺ بالخلافة، ولكن الصحابة تمالؤوا على كتمانها، ويحتجون بمثل هذا، ثم عاد مرة أخرى وقال لعائشة ﷺ: «ادعي لي أخاكِ وأباكِ حتى أكتُب له كتابا؛ لئلَّا يَتمنَّى مُتَمَنٍّ، أو يقول قائلٌ، ثم قال: يأبى اللهُ والمسلمون إلا أبا بكر»، فعَدَل عن الكتابة، ولو أراد الكتابة ﷺ لم يَحُلْ بينه وبينها أحدٌ. فهم يقولون: حال بينه وبين الكتاب عمرُ بنُ الخطاب ﷺ، ولكن هذا قول بَهْتٌ وكذب صريح، فدينُهم مبنيٌّ على الكذب والدجل والتزوير، فابنُ مسعود ﷺ يفهم الأمرَ الذي أراده رسولُ الله ﷺ من الكتابة، وأنها الوصية بكتاب الله، فَهِمَ ذلك، وقال: إن وصيته في كتابه، وقد ثبت في «صحيح مسلم» أنه ﷺ قال: «تركتُ فيكم ما إن تمسكتُم به لن تضِلُّوا أبدًا؛ كتابَ الله»، فحث على كتاب الله

وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ، فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ؟ أَتَدْرِي...

والتمسكِ به، وهذه الآيات المحكمات يقول: إنها هي التي تتضمَّن وصيةَ رسول الله ﷺ؛ لأنها آيات فيها أمورٌ جامعه، وبدأت بوجوب عبادته جل وعلا، ثم الإحسانِ إلى الوالدين؛ لأن قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ يدل على أن الله -جل وعلا- قد حرَّم هذا، وتكفَّل برزق كل حي، ثم تحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطَن، وتحريم القتل بغير حق، وتحريم أكل الأموال بالباطل، وتناول مال اليتيم؛ يدخل في ذلك الضعفاءُ كلهم، ثم الحث على التمسك بصراط الله الذي هو دينُه وشَرْعُه الذي جاء به الرسولُ ﷺ؛ فهذه الآياتُ جامعةٌ للخير كلِّه.

قوله: (وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ ﷺ قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ...): هذا يدلنا على أن رسولنا ﷺ نبي متواضع، وليس مَلِكًا؛ لأن الملوكَ تأنفُ من ركوب الحمار، يتكبَّرون عن ذلك، فهو يركب الحمارَ ويُردِف عليه، والإردافُ أن يُركِب خلفَه راكبًا آخرَ، فقال: (يا معاذ) هنا فيه نداء، مما يدل على التنبيه؛ لأن الأمر مهم، وأنه سيقول له قولًا ينبغي أن يستجمعَ فكرَه له، ثم قال: (أَتَدْرِي) من الدِّراية؛ وهي العلم، بمعنى: أتعرفُ وتعلمُ، وهنا استفهام، فأخرج المسألةَ مخرجَ استفهامٍ ليكونَ أدعى إلى فهمها وقَبولها؛ لأن الإنسان إذا سُئل عن الشيء ثم لم يعرفْه تشوَّفت نفسُه للجواب فكان أدعى للقبول وألزمَ بذلك لثبوته، وهذا كثيرًا

مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله؟» قُلْتُ اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ، وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا»، أَخْرَجَاهُ فِي «الصَّحِيحَيْنِ».

ما كان يفعلُه رسولُ الله ﷺ، فهو من أبلغِ التعليم وأحسنِه.

قوله: (أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ؟) الحق: هو الشيءُ الذي ثبَت ولا يزولُ، ولا يجوزُ أن يتحوَّل، وحَقُّ الله على العباد حق ثابت؛ وهو عبادتُه جل وعلا، وأن لا يُشرَك في هذه العبادة أحدٌ، وتكون العبادة خالصة له، (أَتَدْرِي مَا حَقُّ الله عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله؟) قال معاذ ﷺ: (قُلْتُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ): ليس معنى هذا أن معاذًا يجهلُ أن عبادة العباد تجبُ عليهم أن يعبدوا الله، ولكن في مقام التنزيل ووقته يُحتمَل أن تتغيرَ أمورٌ، وأن ينزل شيءٌ جديد، ولهذا لما كان يومُ عرفة صار رسولُ الله ﷺ يسألهم: أيُّ يوم هذا؟ سكتوا، وما يجهلون أنه يوم عرفة، إذ يجوز أن يغير، أيُّ شهرٍ هذا؟ سكتوا، أيُّ بلد هذا؟ فكانوا يسكتون، مع أن هذا معلوم، هكذا هنا.

(وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى الله؟): فحق الله على العباد أمرٌ ظاهر، وهو ما سبق من وجوب عبادته والإخلاصِ في ذلك له وحده، وحقُّ العباد على الله؛ قال: أن لا يعذبَ مَن لا يشركُ به شيئًا، هذا حقُّهم عليه، ومعنى ذلك أن الله -جل وعلا- وعد بجزاء الموحِّدين، فالحقُّ الذي وعدهم به ثابتٌ لا شك فيه، وسوف يَلقَونه،

....

أما أن يكونَ هناك حقٌّ يُحِقُّه المخلوقُ ويُلزَم الخالقُ به، فهذا لا وجودَ له؛ لأن الحق الذي يكونُ على الله -جل وعلا- هو الذي أَحَقَّه على نفسه تفضُّلًا وإحسانًا منه، وليس كما تقولُ الفئةُ الضالة من المعتزِلة؛ أنه حقُّ مقابلةٍ وحقُّ عِوَض؛ لأن العباد يعبدون الله بقدرتهم وإرادتهم، وخَلَقوا ذلك، وفَعَلوه بدون أن يكون لله عليهم مِنَّةٌ أو فَضْلٌ؛ فهم يقولون: لا فضل لله عليهم في ذلك، فإذا عَبَدوا الله وَجَب عليه أن يُثيبَهم، وإذا لم يعبدوه وجب عليه أن يُعاقِبَهم، وهذا دينٌ ابتدعوه وجاءوا به، فالحق الذي أحقَّه الله على نفسه هو حقُّ تفضُّل وكرمٍ، وليس حقَّ مقابلةٍ، ولهذا يقول رسولُ الله ﷺ: «واعلموا أنَّ أحدًا منكم لن يُدخِله عملُه الجنةَ»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن يتغمَّدني الله برحمته».



بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ

....

قال رحمه الله: (بَابُ فَضْلِ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ)، (ما) تَحتمِلُ وجهين:

أحدهما: أن تكون موصولةً؛ فيكون المعنى: فضل التوحيد والذي يكفره من الذنوب.

الاحتمال الثاني: أن تكون مصدرية، وهذا أحسن؛ فيكون التقديرُ: فضل التوحيد وتكفيره الذنوب، وهذا أحسنُ؛ لأن الأول يُوهم أن هناك ذنوبًا لا يكفرها التوحيدُ، وهذا غيرُ مرادٍ، أما إذا جعلت (ما) مصدريةً فهذا الإيهامُ يذهب؛ لأن المصدر يعُم في هذا؛ يعني أنه فضيل ويُكفِّر الذنوبَ كلها، وهذا هو المقصودُ.

ثم استدَلَّ -كعادته في هذا الكتاب كلِّه- بآيات من كتاب الله وأحاديثَ عن رسول الله ﷺ؛ لأن هذا هو الأصلُ، أما العقولُ والآراءُ والاستنتاجاتُ والأمورُ الأخرى؛ فإنها لا تدُلُّ على يقين، وإنما تدل على ظنون وتخمين، إن لم تكن أُخِذت من كتاب الله نصًّا، أو من أحاديثِ الرسول ﷺ؛ فهذا هو العلم كما قال العلماء: «العلمُ قال الله وقال رسولُه، ليس قال فلانٌ وفلان»، كما في الكتب التي تسمى كتبَ التوحيد؛ كلُّها تقديراتٌ وأمور مبنيةٌ على عقولهم وأقيسةٌ، وإذا رأيته يقول: إن قلتَ كذا نقولُ كذا، كلُّها جدل ولا تُعطي علمًا، ولا تُفيد يقينًا، ولا تُوجِد عند

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

الإنسان إيمانًا وقوةَ عزيمةٍ في العمل، بل بالعكس تُثبِّط وتَشغَلُ.

قال: (وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾) فقولُه: (وقول الله تعالى) يجوز أن يكون بالرفع على الاستئناف، ويجوزُ أن يكون بالجر عطفًا على ما سبق؛ لأن كلمة (باب) مضافٌ، وما بعده مضاف إليه، والخبرُ مقدر.

وقول الله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ ثبت في «الصحيح» أن الآية لما نزلت شَقَّ الأمرُ على الصحابة، وقالوا: يا رسول الله أيُّنا لا يَلبِسُ إيمانَه بظلم؟ لأنهم فهِموا أن المقصودَ مطلقُ الظلم، يعني أنه ظلمُ الإنسانِ لنفسه، وهذا كثيرٌ فلا يَسلَم منه أحدٌ، كل واحد من بني آدم لا بد أن يَظلِمَ نفسه، لهذا نقولُ: هذا هو مقتضى الخلق، ومقتضى حكمةِ الله جل وعلا؛ لأنه الغفورُ الرحيمُ الجوادُ الكريم التوَّاب، فلا بد أن تَظهَر آثارُ أسمائه على عباده جل وعلا، فلما شَكَوا ذلك إلى النبي ﷺ، قالوا: أيُّنا لا يظلمُ نفسَه، قال: «ليس كما قلتم، ألم تسمعوا إلى قولِ لقمانَ لابنه: ﴿يَـٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، فجعل هذا ظلمًا خاصًّا، وهو ظلمُ الشِّرْكِ، والشركُ هو أظلمُ الظلم؛ لأن الظلم في اللغة وفي الاصطلاحِ الصحيحِ: هو وضعُ

....

الشيء في غير موضعِه، وأيُّ ظلم أعظمُ من كونِ الإنسان يَعبُد حجرًا أو يعبدُ قبرًا أو يعبد مخلوقًا مثلَه؟!

فوضعُ العبادة في غير موضعِها هو ظلمٌ عظيم، فجَعَل المقصودَ بالظلم الظلمَ المطلقَ الذي ليس معه أَمْنٌ مطلق، أما ظلمُ العبد لنفسه فهو ظلمٌ ولكنه لا يكون ظلمًا مطلقًا بحيث لا يكونُ معه أمنٌ ولا اهتداءٌ، وإنما يكونُ ظلما معه أمنٌ واهتداءٌ على حسَب حاله، وهذا على مذهب أهل السنة، ولا يتأتَّى على مذهب المتكلمين المرجِئة الذين يقولون: الإيمانُ شيءٌ واحد إذا ذهب بعضُه ذهب كلُّه، ولهذا جعلوا الناسَ في الإيمان كلَّهم سواءً، وإن كان هذا لا يسوغُ لا عقلًا ولا شرعًا؛ فإنه مجانبٌ للصواب.

فالناس يتفاوتون في إيمانهم، كما أنهم يتفاوتون في أعمالهم، كما أنهم أيضًا تتفاوتُ درجاتُهم في الجنة، كما ذَكَر الله -جل وعلا- ذلك حسَب ما يقومُ بقلوبهم وجوارحِهم من الأعمال، وكذلك في أصل الإيمان؛ فهم يتفاوتون فيه، فالإيمانُ لا يكون سواءً؛ فقوله -جل وعلا- في هذه الآية: ﴿**ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا** ...﴾ هذا حكمٌ حَكَم الله به بين إبراهيمَ وقومِه؛ لأن هذا في سياقِ قصةِ إبراهيمَ مع قومه لَـمَّا كان يناظرُهم، فإنه نظر إلى الكوكب وقال: هذا ربي، أيْ أهذا ربي؟ فلما أَفَلَ قال: لا أحب الآفلين؛ أَفَلَ: يعني ذَهَب، فكيف يذهبُ الربُّ؟ فالذاهب لا يكون ربًّا، وكذلك لما رأى القمرَ، ثم رأى الشمسَ ثم قال لقومه:

....

﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ﴾ [الأنعام:٧٩]، ثم قال لَمَّا خوَّفوه، كعادةِ الكفار يخوِّفون أنبياءَهم بمعبوداتهم؛ كما قالوا لهودٍ، وقالوا لنوحٍ، وقالوا لغيرِهما: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ۗ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِ ۖ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود:٥٤-٥٥] وهكذا قالوا لنبيِّنا ﷺ، يخوِّفونه بما يعبدونه، فلمّا خوَّفوه قال: كيف أخافُ ما أشرَكتُم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينـزِّلْ به عليكم سلطانًا، فأيُّ الفريقين أحقُّ بالأمن إن كنتم تعلمون؟ ثم جاء الحكمُ من الله: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾، فهؤلاء هم أهلُ الأمن التامِّ في الدنيا والآخرة، وهم أهلُ الاهتداءِ التامِّ في الدنيا والآخرة، و﴿يَلْبِسُوا﴾ يعني: يَخلِطوا؛ خلطوا الإيمانَ بشيء من الظلم، وهذا يتفاوتُ بتفاوُتِ الأعمال واقترافِ الذنوب التي إما أن تكونَ مُنقِصةً للإيمان وذاهبةً بكماله، أو أنها مُضعِفةٌ له ولعزيمةِ الإنسان، وأيضًا تحُطُّ من درجته في الجنة، فالآيةُ دلَّت على فضل التوحيد، وعلى أنه يكفِّر الذنوبَ كلها؛ لأنه قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم﴾ وهذا هو التوحيد الخالص؛ إذا لم يكن في إيمانه شيءٌ مما يشوبُه مما يخالفُه، فقد وحَّد وأخلَصَ لله في عبادته، فمِثلُ هذا يكونُ له الأمنُ المطلقُ في الدنيا بأن يَأمَنَ عذابَ الله؛ لأنه اتبع أمرَ ربه، مطيعًا مستسلمًا، منقادًا ذالًّا، عابدًا لربه

عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، ....

وحده، وهو كذلك مُهتَدٍ في الدنيا والآخرة، فتكون الآيةُ ظاهرةً في فضل التوحيد وتكفيرِه الذنوبَ.

قولُه: (**عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ...**): ذكر حديثَ عبادةَ بنِ الصامت ﷺ، قال: قال رسولُ الله ﷺ: «مَن شهِد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، سبق أن (الإله) هو المألوهُ الذي تَأْلَهُه القلوبُ خوفًا وإنابةً وذلًّا وخضوعًا ورجاءً.

وكلمة (شَهِدَ) تدل على التحلِّي بالعلم والتيقُّن له؛ لأن (شهد) يجِبُ أن تكونَ عن علمٍ، ثم عملٍ به ظاهرًا وباطنًا، وأن يتحلَّى القلبُ بهذا العلم، ويَشهدَ به، ويوقنَ به؛ كما قال الله جل وعلا: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ ﴾[آل عمران: ١٨] فقَصَرَ ذلك على نفسه وعلى الملائكة وأولي العلم؛ لأنه ليس كلُّ مَن يشهد تكونُ شهادتُه مستقيمةً، والشهادةُ -كما ذكر العلماء- تقتضي العلمَ ولا بد، وتقتضي الإخبارَ بذلك، فلا بد أن تشمَلَ هذه الأمورَ.

(**أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ**): (أَنْ) تدغم بـ (لَا) النافية، التي تنفي اسمَ الجنس، وأسماءُ الأجناس: التي تشيعُ في نوعها؛ مثل: رجل، امرأة، شجرة؛ يُطلق اسمُ الجنس على كل منها، ومعنى ذلك أنه نفيٌ لكل ما يُتألَّه، ومعلومٌ أن الآلهة التي

وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ....

تُعبَد من دون الله في الأرض كثيرةٌ جدًّا، أما في السماء فلا وجودَ لها، فأهلُ السماء هم الملائكةُ الذين لا يعصون الله طرفةَ عينٍ، ولكن الأرض مملوءة من الآلهة، فـ(لا) التي هي النافية تَعمَلُ عملَ (إنَّ) يعني أنها تنصِبُ الاسمَ ويكونُ لها خبرٌ، واسمُها يكونُ مبنيًّا على الفتح، ولهذا قال: (لا إلهَ)، هذا اسمُها، أما الخبرُ فهو مقدَّر محذوفٌ، تقديرُه (لا إله بحقٍّ) أو (لا إله حقٌّ إلا الله)، وأكثرُ النحويين في كتبهم يقولون: «لا إله موجودٌ»، وهذا خطأ؛ لأنه خلافُ الواقع؛ فالآلهةُ موجودة؛ مُلِئت الأرضُ من قبورٍ وأحجارٍ وأشجارٍ وأشخاصٍ وغيرِها، ولا بد أن يكون الكلامُ صحيحًا بالتقدير، وكلامُهم هذا لا يصحُّ أصلًا، وإنما التقديرُ الصحيح هكذا (لا إلهَ حقٌّ) أو (لا إلهَ بحقٍّ إلا اللهُ)، فـ(الله) هو بدل من المقدر، وقوله: (وحده) هذا تأكيدٌ للإثبات، لا إله إلا الله وحده، (لا شريك له) تأكيدٌ للنفي، فهي تأكيداتٌ جاءت للإفصاح والإيضاح.

قوله: (**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**)، معطوف على (شهد أن..)، وقَدَّم العبدَ على الرسول؛ لأنه هو الأصل، فالأصل في الإنسان أنه عبدٌ، والرسولُ لا بد أن يقوم بأفضلِ العبودية وأكملِها من أمته، وقد كمَّلها صلواتُ الله وسلامُه عليه حسَبَ طاقةِ البشر، وإلا فلا أحدَ يعبدُ اللهَ كما يجِبُ له، غيرَ أنه -جل وعلا- أوجَبَ القليلَ مِن حقه و عفا عن الكثير، (**عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**) هذا إشارةٌ إلى وجوب الاستقامة، والتجنُّب لما ينافي ذلك: تجنب الجفاء والغلو، فالجفاء: أن لا يَرَى له

وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ..

حقًّا، أو أن لا يُثبِت حقَّه، والغلو: أن يزيدَ في حقه مما هو حقٌّ لله جل وعلا، ويجعلَه له، فالشهادةُ: أن تشهدَ أن محمدًا عبدُه ورسوله، وهذه الشهادةُ كان يتشهَّدُها رسولُ الله ﷺ بهذا اللفظ (**وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ**)، والآن ترى كثيرًا من الخطباء يَستحْيِي أن يقولَ: "أشهد أن محمدًا عبده ورسوله"، ولا بد أن يقول: أشهدُ أن سيدَنا محمدًا.

قوله: (**وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**)، وبقِي رسلٌ كثيرون غيرُ عيسى لم يَذكُرْهم، وإنما نصَّ على عيسى عليه السلام فقط؛ والسببُ في هذا أن عيسى عليه السلام حصَل فيه الجفاءُ، وحصل فيه الغلوُّ، فقومٌ زعموا أنه ابنُ بَغِيٍّ، قاتلهم الله؛ وهمُ اليهودُ، وزعموا أنهم قتلوه، فأكْذَبَهم الله عز وجل، وقومٌ رفعوه عن مَقامه إلى مقام الربوبية والإلهية؛ وهم النصارى، فجاء هذا التبيينُ؛ لأن هذا معناه التبرِّي من الأديان التي تخالفُ هذه العقيدةَ، كما قال النووي: هذا الحديثُ مِن أجمَعِ الأحاديث التي جَمَعَتِ العقائدَ والتبرُّؤَ من الأديان الأخرى، (**وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**) أي: ليس إلهًا ولا ربًّا، فهو عبدُ الله جل وعلا، تعبَّده الله بعبوديته، وقام بها، وهو رسولُه، وأكرمه الله برسالته.

قوله: (**وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**): كلمته: يعني أن عيسى تكوَّن بالكلمة التي أرسلها الله مع جبريلَ عليه السلام إلى مريمَ لَمَّا جاء إليها، وقد تمثَّل لها بشرًا سويًّا يعني:

وَالجَنَّةَ حَقٌّ، وَالنَّارَ حَقٌّ ....

مستقيمًا حسنًا، فقالت: ﴿ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴾ [مريم: ١٨-١٩]، فنَفَخ في جيب دِرْعها، فدخلت النفخةُ إلى فَرْجها، فحَمَلت، وكانت هذه الكلمة، وهذا من آيات الله جل وعلا؛ لأن خلقَ الإنسان جاء متنوِّعًا أربعةَ أنواع: فخُلِق أبو البشر من الطين، وخُلقت زوجتُه منه، خُلِقت من بَضْعة مِن ضِلَعه وهو نائم، فلما استيقظ إذا هي امرأةٌ جالسةٌ بجواره، ثم خُلِق بقيةُ بني آدمَ من ذكر وأنثى كما هو معروف، وهذا من العجائب، ولكن صار كأنه عادةٌ وليس شيئا يَعتَبِرُ به الناس لكثرته؛ ولأنهم عايَشُوه وشاهدوه، ولهذا أكثَرَ الله -جل وعلا- من ذكره للاعتبار؛ فإن هذا يدل على أنه -جل وعلا- قادرٌ على الإعادة، وأنه سيُعيدُهم من تراب، والقسمُ الرابع: ما ذُكِر هنا في عيسى؛ فهو مخلوق من أنثى بلا ذكر، وإذا شاء الله -جل وعلا- خلق ما يشاء ﴿ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ ﴾ [القصص:٦٨].

قوله: (**أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ**) أي بواسطة جبريلَ؛ بمعنى أنه تكوَّن بالكلمة، وليس هو الكلمة؛ لأن الكلمة من صفات الله، وإنما وُجِد بالكلمة؛ فإما أن تكون الكلمة هي قوله (كُنْ) أو أنها النفخة التي أُرسِل بها جبريلُ، فحَصَل فيها تكوُّنُ عيسى عليه السلام.

قوله: (**وَالجَنَّةَ حَقٌّ....**)، والحق: هو الشيء الثابت الذي لا يتغير؛ يقال:

أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ» أَخْرَجَاهُ.

وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: ....

حَقَّ في المكان: إذا ثَبَتَ فيه، كما في لغة العرب، (وَالجَنَّةَ حَقٌّ) أي أنها حق ثابت، وهو دليلٌ على وجودها، وأنها مخلوقة، وأنها مَقَرُّ المؤمنين الذين آمنوا بالرسل واتبعوهم، وأنها تبقى ما بقِيتِ السماواتُ والأرض، وسكانُها كذلك، والنارُ كذلك حقٌّ لأهل المعاصي والكفر والشرك بالله جل وعلا.

قوله: (أَدْخَلَهُ اللهُ الجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ) يعني إذا جاء بهذه الأمور، أدخله الله الجنةَ، على ما كان من العمل، يعني: على تقصيره بالعمل، ولكن المقصود بهذا -كما سيأتي في حديث عِتْبان وحديثِ أنسٍ وغيرِه- التوحيدُ الخالص الذي لا يكون معه تقصيرٌ في الأعمال، ومعنى ذلك أن الأعمال السابقة التي حصَل فيها التقصيرُ قبل الإخلاص أنها تَضمحِلُّ وتزولُ وتنتهي بتكفير التوحيد لها، فلا يكونُ في هذا إشكالٌ كما يستشكلُه بعضُ الشُّرَّاح. وقيل: أدخله الله الجنةَ على حاله التي هو عليها، ولكن الأول أصح، ويكون أظهرَ في الاستدلال على ما ذكره المؤلفُ في الموضوع، وهو ظاهرُ النص.

قوله: (وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ...): الحديث طويل، وهو في «الصحيحين»، والمؤلفُ اقتصَرَ على موضعِ الشاهد فقط، فإنَّ عتبانَ ﷺ أنكر بصرَه، فجاء إلى النبي ﷺ يقول: يا رسول الله، أنا إمامُ قومي، وقد أنكرتُ بصري، والمدينةُ كثيرةُ الهوامِّ، وإذا جاء السَّيْلُ حالَ بيني وبين مسجدِ قومي، فأريدُ أن تأتيَ إليَّ في بيتي،

«فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ».

وتصليَ فيه في مكانٍ أتخذُه مسجدًا، فقال: «أنا فاعلٌ» فواعَدَه فأتى إليه، يقولُ: فثابَ إليه أناسٌ من الصحابة لَّما علِموا بقدوم الرسول ﷺ إلى البيت، فصاروا يتحدثون، فقالوا: أين مالكُ بنُ الدُّخْشُم؟ فقال رجل: هو منافق لا يحبُّ الله ورسولَه، فقال له رسولُ الله ﷺ: «أليس يَشهَدُ أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله؟» قال: بلى، ولكنه لا شهادةَ له، فقال: «مَن شهِد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله ﷺ يبتغي بذلك وجهَ الله، حرَّمه الله على النار»، فاقتصر المؤلفُ على الجملة الأخيرة.

وقوله: (فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ): هذا فيه إشكالٌ سيأتي التنبيهُ عليه.

قوله: (يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ) فيه منزلةُ الإخلاصِ والصدقِ والمحبة واليقين؛ بأنْ لا يريدَ غيرَ هذا من الأمور الأخرى، وأغراضِ الدنيا، وغيرِها، فدل على فضل التوحيد وأنه يكفر الذنوب؛ فتكون النارُ عليه حرامًا، وهذا وجهُ تكفير الذنوب؛ فإن الله حرَّم النار على مَن قال: لا إله إلا الله.

ولا يقال: إن هذا يخالفُ القرآنَ؛ لأن الله -جل وعلا- يقول: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم:٧١]، فهذا قَسَمٌ من الله، ويعني أن كلَّ واحد من بني آدمَ سوف يردُ النارَ، فهذا لا يخالفُ الحديثَ؛ لأن الورودَ ليس هو الدخولَ، فالورودُ يجوز

....

أن يكونَ العَرْضَ أو العبورَ على الصراط؛ لأنه يقال: ورد الإنسان البلدَ وإن لم يدخل فيها، ولكن وجه الإشكال أنها تواترت الأحاديثُ عن رسول الله ﷺ أن فئامًا من المسلمين يدخلون النارَ، وهم يقولون: لا إله إلا الله، وقد ذكر رسولُ ﷺ أن النار لا تأكلُ مواضعَ السجود مِن بني آدم: الجبهةِ والأنفِ والراحتين والركبتين وأطراف القدمين، هذه محرمةٌ على النار، ومعنى ذلك أن كثيرًا من المصلين يدخلون النار، وهم يقولون: لا إله إلا الله، فلا تحرِّم (لا إله إلا الله) النارَ عليهم.

وجاءت الأحاديثُ أيضًا في أن من قال: «لا إله إلا الله» يحرم على النار غيرُ هذا الحديث؛ أنه يحرُم على النار؛ كحديث أبي هريرة ﷺ في قصة جَمْع المتاع الذي في غزوةِ تبوكَ، لَمَّا دعا الله -جل وعلا- وتَفَل فيه وهو قليلٌ جدًّا، فقال: خذوا، فملؤوا كلَّ وعاءٍ معهم، وهو كما هو لم يَنقُص، قال: أشهدُ أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ﷺ، قال: «لا يَلقَى بها عبدٌ ربَّه غيرَ شاكٍّ فيهما إلا حرَّم الله عليه النارَ»، أو نحو هذا.

والأحاديث في هذا كثيرة، فكيف نجمعُ بين هذه الأحاديثِ، وكلها متواترةٌ أو شبهُ متواترة في كونِ مَن يقولُ: لا إله إلا الله صادقا و يبتغي بذلك وجهَ الله، تحرمُ عليه النارُ؛ وبين أن كثيرًا من المسلمين يدخلُ النارَ، مع أنه يقولُ: لا إله إلا الله؟.

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ ....

نقولُ: وجهُ الجمع كما قال البخاريُّ في صحيحه، وأشار إليه الإمامُ أحمدُ وغيرُه، أن هذا في رجلٍ قال: «لا إله إلا الله» صادقًا مخلصًا تائبًا، ثم مات على ذلك، فتحرُمُ عليه النارُ بهذه الصفة، أمَّا أن يقولَ: «لا إله إلا الله» ثم يأتي بالذنوب التي تُضعِفُ هذا القولَ، وتَذهَبُ بكماله، فهذا لا يَحرُم على النار، ولكنه تحت مشيئة الله؛ إن شاء عذَّبه، وإن شاء غَفَر له، وهذا هو الجمعُ، ويدُلُّ على هذا الحديثُ الذي في «الترمذي» حديثُ صاحبِ البطاقةِ أنه ﷺ يقول: «يُصاحُ برجلٍ مِن أمتي يوم القيامة على رؤوس الناس -يعني يُدعَى باسمه- فإذا حضَر نُشِر له تِسعةٌ وتِسعون سِجِلًّا، كلُّ سِجِلٍّ مَدُّ البصر، كلها سيئات، فيقال له: أتُنكِر مِن هذا شيئًا؟ فيقول: لا، هذه أعمالي، فيقول الله جل وعلا: ألك عذرٌ؟ فيقول: لا، ألك حسنة؟ فيَهابُ فيقول: لا، فيقول الله ﷻ: بلى إنَّ لك عندنا حسنةً، وإنك لا تُظلَم اليومَ شيئًا، فيُؤتَى ببطاقةٍ مكتوبٍ فيها: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، فيقول: يا رب، وما هذه البطاقةُ مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلم اليومَ شيئًا، فتُوضَعُ البطاقةُ في كِفَّةٍ والسجلاتُ في كفة، فطاشت السجلاتُ وثقُلت البطاقةُ»، فهذا الرجل قالها صادقًا مخلصًا تائبًا، فمات على ذلك، بدون أن يُحدِث ذنوبًا تُضعِف هذه الكلمةَ أو تذهب بكمالها، فهكذا يُقال في مثل هذا الحديثِ.

قوله: (وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ...): ثم ذكر حديث

قَالَ: «قَالَ مُوسَى ﷺ: يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ، قَالَ: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟ قَالَ يَا مُوسَى! لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، وَ(لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ وَصَحَّحَهُ.

أبي سعيد الخدري ﷺ الذي رواه ابنُ حِبَّانَ في صحيحه، وكذلك الحاكمُ وصحَّحه، ورواه غيرُهما.

قال: (قَالَ مُوسَى ﷺ: يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ...): يعني أريدُ شيئا تخُصُّني به أدعوك وأذكُرك؛ لأحظَى بقُرْبك مِن بين عبادِك، فقال: قُلْ يَا مُوسَى: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، قَالَ يَا رَبِّ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا؟ ....»

قال المؤلف على هذا: إن الأنبياءَ يحتاجون إلى التنبيه على فَضل لا إله إلا الله، وموسى ﷺ من أولي العَزْم، بل هو الوَجِيهُ عند ربه تعالى وتقدَّس، فهو من أفضلِ الرسلِ، ولهذا جاء في حديث الإسراء والمعراج أن الرسولَ ﷺ شاهَدَ موسى في السماء السابعة في رواية، وفي الأخرى في السادسة؛ لفَضْل تكليمِ الله له، فهذا من خصائصه، كلَّمه مباشرةً بدون واسطة، فدَلَّ هذا على أن هذه الكلمةَ أفضلُ الذكر وأفضلُ الدعاء، فقد جاء في السُّنَنِ قولُه ﷺ: «أفضلُ الدعاءِ دعاءُ يومِ عرفةَ، وأفضلُ ما قلتُ أنا والنبيُّون مِن قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له ... ».

وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ ﷺ: ....

وكثيرٌ من الناس يَعدِل عن هذا إلى أدعيةٍ لا تبلُغُ مِن هذا الفضل شيئًا، وربما تكونُ مُبتدَعةً لم ترِدْ عن النبي ﷺ، ولم ترد في كتاب الله، ثم هذا يدُلُّنا على أن الذاكرَ بها يأتي بها كاملةً، والذكرُ لا بد أن يكون بجملةٍ مفيدة، أمَّا ما يفعلُه البعضُ مثلُ الصوفيَّةِ الذين يقتصِرون على لفظةِ الجلالة: الله ... الله ... فهذا ليس ذكرًا، فهو ليس جملةً تامَّةً، ولا يُعترَض على هذا بما جاء في صحيح مسلم «أنه لا تقومُ الساعة حتى لا يُقالَ في الأرض: الله الله»؛ لأن المقصود أنه لا يُعرَف اللهُ ولا يُعبَد، وأسوأُ من ذلك الذي يقول: هو.. هو.. هو؛ كأنه يَنبَحُ نُباحَ الكلاب، ويجعلُه أفضلَ الذكر، وقد ألَّف رئيسُهم ابنُ عربي كتابًا سمَّاه (كتاب الهو)؛ الهو: يهوي به في النار، نسألُ الله السلامةَ.

فالمقصودُ بالتوحيد: الإخلاصُ؛ الذي ينطق به اللسانُ، ويكون قلبُه متحليًا به، وجوارحُه عاملةً به، ليس مجردَ كلام فقط. فهذا هو الذي فيه الفضلُ.

قوله: (وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ...): الحديث الذي ذكره عن أنس أيضا مختصرٌ، وهو حديثٌ قُدُسي، والحديث القدسي: ما أُضيف إلى الله لفظًا ومعنًى، وليس قولُ الله الكتبَ التي أنزلها تعالى على رسله فقط، فكلامُ الله كثيرٌ؛ فهو يتكلمُ إذا شاء وبما شاء، تعالى الله وتقدَّس.

قوله: «يا ابن آدم، إنك ما دعوتَني ورجوتَني غفرتُ لك على ما كان منك ولا أبالي» هذه جملة، ثم قال: «يا ابن آدم، لو بلغَتْ ذنوبُك عَنانَ السماء ثم

سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً».

استغفرتَني غفرتُ لك ولا أبالي»، ثم الجزء الثالث: (يَا ابْنَ آدَمَ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الْأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لَا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لَأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً)، وهذه كلُّها تقديراتٌ لفضلِ التوحيد، وفضلِ الاستغفار، وفضلِ الدعاء مع الرجاء، وهذه الثلاثةُ هي أسبابُ المغفرة.

والاستغفار معناه: التوبةُ والرجوعُ وتركُ الذنب، أما الاستغفار مع الإقامة على الذنب فهو استهزاءٌ بالله، ويُسمَّى استغفارَ الكذابين كما قيل.

والمؤلف اقتصر على ما يدل على تكفير الذنوب من التوحيد؛ لأنه في فضل التوحيد وتكفيره الذنوب.

قوله: (لَقِيتَنِي) يقول العلماء في هذا: إن كل لقاء في الكتاب والسنة يتضمَّنُ المعاينةَ، ففيه دليلٌ على رؤية الله ﷻ.

أما قوله: (لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي) ففيه نصٌّ على أن السماواتِ سبعٌ، وهذا ليس فيه خلاف، وأن لها عُمَّارًا، والعمار: يعني أهلَ الطاعة؛ لأن السماوات والأرض لا تَعمُرُ إلا بطاعة الله، وهي لا تَفسُد إلا بالمعاصي؛ كما قال الله ﷻ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]؛ فإصلاحُها: بالتوحيد ودعوةِ الرسل، وإفسادُها: بالمعاصي، ولهذا لما قيل لإخوةِ يوسفَ:

....

﴿إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾ قالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَٰرِقِينَ﴾ [يوسف:٧٠-٧٣].

فالسرقة معصية، وهذا أيضًا فيه دليل على علو الله ﷻ وأنه في السماء؛ لأنه استثنى نفسَه من أهل السماء، أما الأرضُ فلم يَستثنِ من أهلها أحدًا، والسماء يُقصد بها العلوُّ، فالله ليس داخلَ السماء بل فوقَ السماوات، والعرشُ سقفُ المخلوقات، وليس فوقَ العرش مخلوقٌ، بل فوقَه اللهُ، والعرشُ أكبرُ المخلوقات وأعظمُها وأكرمُها وأحسنُها؛ ولهذا وُصف بأنه كريمٌ وبأنه مجيدٌ.

ثم فيه أن الأَرَضين سبعٌ: وقد اختلف فيه المفسرون، ولم يأتِ في القرآن النصُّ على أن الأرضين سبع إلا في آية واحدة، وليس نصًّا كالسماوات، بل قال: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق:١٢]؛ فمن المفسرين مَن يقول: إنها الأقاليمُ أو القارَّات السبع، والحديثُ يدل على خلافِ هذا؛ ففي «صحيح البخاري»: «مَن ظَلَم قِيدَ شبرٍ من الأرض طُوِّقَه يوم القيامة من سبع أرضين»، فالصحيح أنها طبقات، واحدةٌ تحت الأخرى، ولكنها دون فُتُوقٍ، لا كما يقولُ القرطبي ؒ في تفسير هذا الآيةِ التي هي في نهاية سورة الطلاق؛ يقول: إنها أرَضون؛ كل أرض بينها وبين الأخرى مسافةٌ بعيدةٌ، وفي كل أرض سكانٌ مثلَ ما على الأرض الأولى، وهذا الكلامُ ليس عليه دليلٌ؛ فالصحيحُ أنها سبعُ أرَضين؛ واحدةٌ تحت الأخرى دون فتوق، حتى تنتهيَ بمركزِ الأرض؛ وهو نارٌ

....

ملتهبة لا تُطاق.

وفيه دليلٌ على أن الأعمال تُوضَع في الميزان، وأن الميزان له كِفَّتان: واحدة تُوضَع بها الحسناتُ، والأخرى تُوضَع بها السيئاتُ.

❁ ❁ ❁

بَاب: مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ

وقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٠].

قال: (بَاب: مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ) ولا عذاب؛ لأن الذي لا يُحاسَب لا يُعذَّب. لَمَّا ذَكَر وجوبَ التوحيد، وذكر أنه مُتعيِّن على كل فردٍ، وذكر فضلَه وما يكفِّرُه من الذنوب؛ ذَكَر في هذا الباب أن مَن حقَّقه يدخلُ الجنةَ بلا حساب ولا عذاب، وهذا مرتقًى عظيمٌ؛ لأن الإنسان خُلق للبقاء في الجنة أو في النار، وفَرْقٌ بين هذا وهذا، فتحقيقُ التوحيد هو تخليصُه من الشوائبِ، وتصفيتُه من البدع والذنوب؛ فمَن كان على هذه الصفة ومات على ذلك يدخلُ الجنةَ بلا حساب ولا عذاب.

ثم ذكر ما يدُلُّ على ذلك؛ فقال: (وقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾)؛ فذكر أربعَ صفاتٍ لإبراهيمَ عليه السلام:

الصفة الأولى: أنه أُمَّة؛ والأمة: هو القُدْوة الذي يُقتدَى به، وكما قال ابنُ مسعود رضي الله عنه: «أمة يعني أنه وحده على التوحيد»، ولا ينافي هذا القولَ الأولَ.

الصفة الثانية: أنه قانت؛ والقنوت: دوام الطاعة؛ يعني: أنه دائمُ العبادة في جميع حالاته وأوقاته.

الصفة الثالثة: أنه حَنيفٌ، وهو: المائلُ إلى الحق قصدًا وإرادةً واختيارًا.

وقال تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾[النحل:٥٩].
وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ..............

الصفة الرابعة: أنه لم يَكُ من المشركين؛ أي ما كان على الشرك؛ لا في العمل ولا في الاجتماع مع المشركين، يعني زايَلَهم وعاداهم، وصار بهذه الصفات الأربعة خليلًا للرحمن جل وعلا، وأمَرَنا بالاقتداء به.

قال تعالى: ﴿ قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾ [الممتحنة: ٤]؛ الذين معه: هم الرسل الذين جاؤوا مِن بعده، وكل رسول بُعث مِن بعده فهو مِن ذريته، ﴿إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ ﴾، ثم استثنى الله تعالى: ﴿إِلَّا قَوۡلَ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسۡتَغۡفِرَنَّ لَكَ ﴾؛ يعني: أمَّا هذا فلا تتأسَّوْا به؛ لأن هذا -كما بيَّن جل وعلا- كان عن موعدةٍ وعدها إبراهيمُ لأبيه، ثم بعد ذلك تبرَّأ منه، ودلَّت الآية على أن مَن كان بهذه الصفات فقد حقَّق التوحيد؛ لأن هذا من أعظم تحقيق التوحيد.

الآية الثانية: يقول: (﴿ وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ ﴾) فأثنى الله -جل وعلا- على سادة المؤمنين بأنهم لا يشركون بالله، فدل على أن اجتنابَ الشركِ دقيقِه وجليلِه، وظاهرِه وخفيِّه؛ أنه عزيزٌ، وأنه يُوصَف به الساداتُ من المؤمنين، وهذا أيضًا مِن تحقيق التوحيد.

قوله: (وَعَنْ حُصَيْنِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، فَقَالَ:

فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: «لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ»، ....

أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟) انقض يعني: سَقَط، البارحة: تُطلَق على الليلة التي مضت إذا كنتَ بعد الزوال، أما إذا كنت قبل الزوال فإنك تقول: الليلة، (فَقُلْتُ: أَنَا): يعني حصين. قوله: (أَنَا) يحتمل أنه كان يتعبَّد، فلما كان هذا فيه احتمالٌ نَفَاه عن نفسه فقال: (أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ) يعني: لا تظنوا أني لما رأيت الكوكبَ كنتُ قائما أصلي أو أتهجد، ولكني أُرغِمت على السهر، وهذا يدل على الإخلاص والصدق والبعدِ عن المدح بما ليس فيه، كما هو الحال عند بعض الناس الآن، فالسلفُ هم أبعدُ الناس عن التمدُّح بما ليس فيهم، أو التزيُّن بشيء لم يعملوه.

قوله: (ولكني لُدِغت): يعني أُرغِمت على السهر، قال سعيد: فما صنعتَ؟ قال: (ارْتَقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟): هذا يدلُّنا على أن كل عمل يقومُ به الإنسانُ يجبُ أن يكون له دليلٌ من الشرع؛ لهذا سأله: فما حملك على ذلك؟ و(ارْتَقَيْتُ) يعني: طلبتُ الرقية، والرقيةُ هي: القراءة بالنَّفْث على المريض.

قوله: (حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بْنِ الْحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: (لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ): معنى قوله: (لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ

قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ وَلَكِنْ حَدَّثَنَا ابْنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: (عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ.........................

عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ)» يعني: الرقيةَ النافعةَ المُجدِيَة هي: من هذين المرضين، وإلا فالرقيةُ الشرعية من أي مرض تنفعُ، فقال سعيد: **(قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ)** ومعنَى (من انتهى إلى ما سمع) أنه عَمِلَ بما علِم.

قوله: **(وَلَكِنْ)** هذا فيه استدراك، **(ولكنْ حدَّثنا ابنُ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: عُرِضَتْ عَلَيَّ الْأُمَمُ)**: عَرْضُ الأمم: إما أن يكون بالتمثيل؛ مَثَّلها الله له كيوم تأتي يومَ القيامة، أو أنها رؤيةٌ، وكلا الأمرين صَحَّ أنه من الوحي للنبي ﷺ.

قوله: **(فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ)**: هكذا في صحيح مسلم، والرهط هو: العددُ من الثلاثة إلى العشرة.

قوله: **(وَالنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ)**: هذا من العجائب، كيف يكونُ هذا؟ نبيٌّ معه المعجزاتُ، يأتي قومًا عقلاءَ، وأمةً كبيرة، ثم لا يؤمنُ به إلا اثنان أو عشرةٌ، وآخَرُ لا يؤمنُ به إلا رجلٌ، وآخَرُ لا يؤمنُ به أحدٌ، مثل لوط عليه السلام، وإبراهيم -الذي هو خليلُ الرحمن- لم يُؤمِن به إلا رجلٌ واحد، ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ﴾ [العنكبوت:٢٦]، فهاجر وتركهم، فهذه من العجائب، فالرسل معهم المعجزاتُ والدلائل، مع ما في الكون من مخلوقات وعلاماتٍ تدُل على الله الخالق لهذا كله، وأنه هو الذي يجبُ أن يُعبَد، وهو الضار

إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ الْآخَرِ، فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ، ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ، فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولَئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الْإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا بِاللهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ:

النافع، ليس لأحد معه تصرُّفٌ ولا إلهية، وكل مخلوق لا يَملِك لنفسه موتًا ولا نشورًا، ومع ذلك يَكفُر بنو آدمَ.

لذلك جُعِلت جهنمُ لهم؛ لأن كفرَهم عن عناد وعلمٍ وإعراضٍ، ليس عن جهل، وغالبُه عن إعراضٍ وعدمِ اهتمامٍ، كما هو الواقع الآن، وصار الذي يَدخُل في الإسلام محتقَرًا عند كثيرٍ منهم، وسوف يعلمون.

ثم يقول ﷺ: (إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ): السواد يعني: يَرَى صُوَرَهم ولا يميِّز وجوهَهم، (ظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْأُفُقِ) الأفق: هو الذي أمامَك إذا نظرتَ مستقيًا مِن أيِّ جهةٍ كانت، وفي رواية «فنظرتُ فإذا وجوهُ الرجال قد سَدَّتِ الأفقَ، فقيل: انظُر إلى الأفق الآخرِ، فإذا هم كذلك، فقيل له: هذه أمتُك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب».

ثم نهض ودخل منزلَه، فصار الصحابةُ يخوضون في المسألة: مَن هؤلاء؟

«هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ، ....

لأنهم يريدون أن يكونوا من السابقين إلى الجنة بلا حساب، وفي هذا دليل على جَوازِ بحثِ المسائلِ وإن كان هناك مَن يبيِّنُ؛ لأنهم بإمكانهم الرجوعُ إلى الرسول ﷺ، قالوا: لعلهم الذين صحِبوا رسولَ الله ﷺ، وهذا له وجهٌ؛ لأن الصحابة ﷺ لا يساويهم أحدٌ في كونهم تعلَّموا الإيمانَ والعلم مِن رسول الله ﷺ وجاهدوا معه بأنفُسهم وأموالهم في سبيل الله، وقال بعضُهم: لعلهم الذين وُلدوا في الإسلام، أما نحن فقد أشركنا قبل الإسلام، وذكروا أشياءَ، فخرج رسولُ الله ﷺ، فسألوه عنهم، فقال: (**هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ**)، وفي رواية:«لا يَرْتَقون» (**وَلَا يَكْتَوُونَ، وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ**)، هذه أربعُ صفات، والأخيرةُ هي الجامعةُ لها في تمام التوكل على الله، وفي صحيح مسلم: «لا يَرْقُون».

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية: هذا خطأ من الراوي؛ لأن النبي ﷺ رَقَى ورُقِي، والراقي مُحسِن، والإحسانُ لا يكونُ مانعًا مِنَ السَّبْق إلى الجنة، ولكن الصحيح كما هو في البخاري «**لَا يَسْتَرْقُونَ**» يعني: لا يَطلُبون مِن غيرهم أن يَرقِيَهم، وليس معنى هذا أن الرقية ممنوعة، ولكن الممنوع الطلبُ من الناس؛ لأن فيه افتقارَ القلب إلى المخلوق والتفاتَه إليه، ولو اعتمد المسلمُ على ربه ولم يَطلُب ذلك مِن أحدٍ لكان ربُّه هو الذي يتولاه، وهذا في عامة الطلب من الناس؛ سواء كان مالًا أو نفعًا أو رقيةً، وهؤلاء لا يَسألون الناسَ شيئا، لهذا كان رسولُ الله ﷺ يبايعُ خاصةَ أصحابه على أنه لا يَسألُ الناسَ شيئا، فكان أحدُ أولئك الذين بويعوا

وَلَا يَكْتَوُونَ، ....

على ذلك إذا ركِب دابتَه وسقط سَوْطُه من يده ينزلُ ويأخذُه، والناس تحته فلا يطلبُ منهم؛ لأنه يريد أن يفيَ بما بايع عليه رسولَ الله ﷺ، أما مسألةُ المال فهي محرمةٌ إلا في ثلاثِ حالات:

الحالة الأولى: أن يُصابَ الإنسانُ بفاقةٍ، ويَشهَدَ له ثلاثةٌ مِن ذوي الحِجَى من قومه، فيَحِلُّ له السؤالُ حتى يجد سَدادًا مِن عَيْش ثم يحرُم عليه.

الحالة الثانية: مَن أُصيب بجائحةٍ، والجائحةُ: هي حريق أو سَيْلٌ أو غيرُ ذلك، ذهب بماله، فيَحِلُّ أن يسأل الناسَ المالَ حتى يجد سَدادًا من عيش.

الحالة الثالثة: أن يَتحمَّل أموالًا في سبيل الإصلاح بين الناس المختلفين أو المتقاتلين، فهذا يحلُّ له المسألةُ وإن كان غنيًّا، حتى لا يَزهَد الناسُ في الإصلاح والسعيِ به، وهذا مطلوبٌ، وما عدا ذلك فالمسألةُ سحْتٌ؛ أي حرام، وخُدوشٌ وكُدوشٌ؛ يأتي السائلُ يومَ القيامة ليس على وجهه مُزْعةُ لحم، كل هذا لأجل صيانة المؤمن؛ حتى لا يفتقرَ إلى مخلوق مثلِه، فيكونُ قلبُه سليمًا مِنَ الإلتفاتِ لغير الله، وهذه هي الحكمةُ في كونهم لا يَسْتَرْقون.

(ولا يَكْتَوُون) الكَيُّ: علاج، وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «الشفاءُ في ثلاثٍ: شَرْبةِ عسلٍ، وشَرْطةِ مِحْجَم، وكَيٍّ بالنار، وأكرَهُ الكيَّ»، فهو علاج مكروه، فهؤلاء الذين يَسبِقون إلى الجنة يَترُكون المكروهاتِ بعد الابتعاد عن المحرمات، وبعد فعلِ الواجبات والمستحبات، وهؤلاء أحدُ الذين ذكرهم الله

وَلَا يَتَطَيَّرُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» ....

في كتابه فقال: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾[فاطر:٣٢]، فهؤلاء هم السابقون بالخيرات.

(ولا يَتطيَّرون): التطيُّر هو التشاؤم بنحوِ فعلِ الطيور وأصواتها، وهذه أوهامٌ من الشيطان، ولكن عادة العرب هكذا؛ كانوا يتشاءمون بالطيور والبهائم، ويخصُّون بعضَها أكثرَ من غيرها؛ مثل الغراب، فإنهم كان أحدُهم إذا سمِع نَعِيبَه نفَر وتطيَّر ورجَع، ويقولون: الغراب يدل على الغُرْبة، فإذا ذهب لا يرجع، ومثل البُومة؛ لأنها تألَف الخرابَ، فإذا وقعت على بيته تشاءم أنه سيموتُ، أو يموتُ ولدُه أو قريبُه، وكل ذلك أوهام من الشيطان وتخويفٌ منه، ولا حقيقة له.

قوله: (وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ) المسألة الرابعة التي تجمعُ هذه الأمورَ أنهم على ربهم يتوكلون؛ يعني مِن تمام توكلهم أنهم لا يَلتفِتون إلى شيء مما ذُكر، والتوكلُ معناه فعلُ السبب الشرعي مع اعتمادِ القلب على الله تعالى. والأسبابُ تنقسم قسمين: أسبابٍ شرعية، وأسبابٍ ممنوعة، فهؤلاء يفعلون الأسبابَ، ويعتمدون في حصول المسبَّب أو المرادِ على الله، ولا يعتمدون على السبب، فالاعتماد على السبب شركٌ، وتعطيلُ السبب قَدْحٌ في الشرع وفي العقل، فلا بد مِن فعلِ السبب مع الاعتماد على الله إذا كان السببُ مشروعًا.

فهؤلاء هم الذين حقَّقوا التوحيدَ؛ بتخليصه من كل شائبة تكونُ في تعلُّقِ

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

القلب بغير الله، أو شائبةٍ تكونُ في عمل الجوارح، أو في عَزْمِ قلبه وعقلِه، يجتنبون هذا كلَّه؛ ثقةً بالله، وإيمانًا به، واتباعًا لأمره، وطاعةً له، واتباعًا لرسوله ﷺ. فقام عكاشةُ بنُ مِحصَن الأسديُّ، وهو مِن أسدِ بَنِي خُزيمةَ، من المهاجرين الأولين، ومِن شُجعانِ الرجال، وهو أيضًا من أجملِ الرجال، قام وقال: (**ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»**)، وفي رواية: «اللهم اجعَلْه منهم»، فهذه شهادةٌ من رسول الله ﷺ أن عكاشةَ بنَ محصن من السبعين ألفًا، وهو ممن شهِد المشاهدَ مع الرسول ﷺ، وقُتل في قتال أهلِ الردة بيد طُلَيحةَ الأسدي، وهو ليس من قبيلته، فهذا من بني أسد الذين في نَجْد، وهي قبيلةٌ انقرضت لا وجودَ لها الآن، خلافَ أسدِ بَنِي خُزيمةَ.

وكان طُليحةُ قد تنبَّأ في قومه، مثلَ مُسيلِمةَ وسَجاحَ وغيرِهما، فقاتله الصحابةُ ﷺ، فكان عكاشةُ مع خالدِ بن الوليد وهو يقاتلُهم، فهرَب طليحةُ بعد ما كان كامنًا ينتظرُ نزولَ الوحي عليه، وهو وَحْيٌ من الشيطان، فتبِعه عكاشةُ وقال: عيبٌ عليك! تهرُب؟ فرجَع إليه وقتله، فكان عكاشةُ شهيدًا، ثم رجع طليحةُ إلى الإسلام؛ أسلم وقاتلَ في قتال الفرس، وقُتِل شهيدًا في وَقْعة الجسر فيكونُ هذا مِمَّنْ يَضْحَكُ اللهُ إليهم؛ واحدٌ يقتلُ الآخَرَ، ثم يُقتَل شهيدًا فيدخلان الجنةَ جميعًا، فالحديثُ يدلنا على تحقيق التوحيد.

بَابُ الْخَوْفِ مِنَ الشِّرْكِ

وَقَوْلِ الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ [النساء:٤٨].

لما ذكر المؤلفُ ؒ وجوبَ التوحيد، وأنه فرضُ عينٍ على كل أحد، ثم ذكر فضلَه وأنه يكفِّر الذنوبَ كلها، ثم ذكر أن مَن حقَّق التوحيد دخل الجنة، ناسَبَ أن يذكر الخوفَ من الوقوع في الشرك، وهذا الخوف من جهتين:

الأولى: أن الشرك كثير، ومتعددُ الأنواعِ، ومنتشرٌ بين الناس، وبه شيءٌ من الخفاء عند كثير من الناس.

الثانية: أن الله -جل وعلا- أخبر أنه لن يغفرَه، فمَن مات عليه فميؤوسٌ منه، وهو مِن أهل النار قطعًا، فيُخاف من هذا، والموتُ قريب جدًّا من الإنسان.

لهذا قال: (وَقَوْلِ الله ﷻ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾)؛ جعل كلَّ الذنوب ما عدا الشركَ تحت مشيئته؛ إن شاء غفرها بدون عقاب، وإن شاء عاقب عليها، ويكون مآلُه إلى الجنة، أما الشرك فالله لا يغفره، ومعلومٌ أن المقصود بهذا مَن آمن واتبع الرسلَ؛ لأنه يوجد مِن الكفار مَن يعيبُ الشركَ ولا يُشركُ.

فلمَّا كان الشركُ أعظمَ الذنوب، ورُتبت عليه عقوباتٌ عظيمة في الدنيا والآخرة؛ فمَن مات مشركًا فهو في النار؛ نـاسَبَ أن يذكر المـؤلفُ الخـوفَ منـه؛

وَقَالَ الخَلِيلُ ﵇: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].
وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ، فَقَالَ: الرِّيَاءُ». وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ» رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ. وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ ﵁ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

وذلك لعِظَم العقاب عليه، ولكثرةِ مَن وقع فيه؛ قال الله تعالى عن خليله إبراهيم ﵇: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٥-٣٦]، ولكثرة أنواعه وخفائها على أكثر الناس؛ كما في الحديث: «الشركُ في هذه الأمة أَخفَى مِن دبيبِ النمل في ظُلمة الليل على الصَّفا»، وكل ذلك يُوجب للعاقل الخوفَ من الوقوع فيه، ووجهُ الدليل من حديث ابنِ مسعود ﵁: (مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ النَّارَ) أن الموت قريبٌ من العبد؛ فقد يأتيه وهو مُقيمٌ على نوعٍ مِن أنواع الشرك، فيدخل النارَ بعد موته مباشرةً، كما هو ظاهرُ الحديث.

وقوله في الحديث الآخرِ: (أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ: الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ، فَسُئِلَ عَنْهُ، فَقَالَ: الرِّيَاءُ) يعني أنه مَخُوفٌ على الصالحين والعلماءِ فضلًا عن عامةِ الناس.

وقوله: (مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ) أيضًا يقتضي الخوفَ؛ لأن الموت قريب من العبد؛ ولأنه قال: (يُشْرِكُ

فَقَامَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: اُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ»، ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: اُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ».

بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ)، فـ (شيئًا) نكرةٌ في سياق النفيِ فتعُمُّ أنواعَ الشرك.

❁ ❁ ❁

بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

قال ﷺ: (بَابُ الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ) يعني الدعاءَ إلى الإسلام؛ لأن شهادة (أن لا إله إلا الله) هو الإسلام، ولا يمكنُ أن يدخل أحدٌ في الإسلام حتى يشهدَ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله، هذه ركنٌ واحد، ومعنى الشهادة: الإخبارُ عن العلم اليقيني الذي في القلب والعملُ في ذلك، وهذه المسألةُ هي فرضُ كفاية على الأمة؛ إذا قام به مَن يكفي، وإلا كانت الأمةُ آثمةً كلها؛ لأن الله -جل وعلا- قال: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران:١١٠] فلا بد مِن امتثال أمر الله جل وعلا؛ قال تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ ﴾ [آل عمران:١٠٤] الأمة هنا: الطائفة، فإذا لم تكن هناك أمةٌ تكفي هذا، صار الأمرُ متعلقًا بالأمة عمومًا.

ثم قوله: (الدُّعَاءِ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ): مقصودُه في هذا أن هذا يتضمَّن كلَّ ما أوجبَه اللهُ أن يُفعل، وما حرَّمه الله أن يُجتنَب وأنه داخل في هذا قولُ الله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (قل) هذا أمرٌ من الله إلى رسوله، وهذا مما استدل به العلماءُ على

....

أن محمدًا ﷺ بلَّغ كلَّ حرف جاء به جبريلُ من عند الله، حتى الأمرَ الموجَّه إليه قاله لنا، وقد سُئل عن ذلك فقال: قيل لي (قل)، فقلتُ كما قيل لي ﴿هَٰذِهِۦ﴾ إشارةٌ لما هو عليه ﷺ، فحياته كلها دعوة إلى الله؛ إما جهادٌ ظاهر في قتال الكفار، وإما دعوة بالكلام والفعل، وهو -صلواتُ الله وسلامُه عليه- في ليله ونهاره داعٍ إلى الله -جل وعلا- في بيته، وفي المسجد، وفي الخارج، وفي غير ذلك، فالإشارةُ إلى هذا كله بقوله: ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ ﴾ يعني لستُ ممن يتأخرُ ويعملُ غيرَ ذلك مما يَشغَلُ الناسَ عن هذه السبيل، وإنما حياتي هي دعوةٌ إلى الله، ولهذا قرَّر العلماء أن سنته ﷺ هي: أقوالُه، وأفعالُه، وتقريراتُه؛ فأفعاله كلها داخلة في السنة، والمقصود الاقتداء بها، ثم فَسَّر الدعوةَ المشارَ إليها؛ لأن الإشارةَ تحتاج إلى تفسيرٍ؛ فسَّرها بقوله: ﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ ﴾ والبصيرة هي: العلم اليقيني الذي لا ريب فيه ولا شك، يعني بصيرةً من الله جل وعلا، أدعو إلى الله على علم يقينيٍّ علَّمني إياه ربي جل وعلا.

والإتيان بالضمير البارز ﴿أَنَا۠﴾ هنا لأجل العطف؛ أن يُعطَف عليه ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾؛ يعني أتباعي كذلك يدعون إلى الله، وهم كذلك أهلُ البصيرة.

﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾: سبحان الله أن يُشرَك به، وهذا يدل على أن الشرك مَسَبَّةٌ لله جل وعلا، ولهذا سبَّح ربَّه؛ لأن التسبيح معناه البعدُ

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما؛ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى الْيَمَنِ قَالَ لَهُ:.....

والتنزيهُ عن الأمور التي لا تليق به جل وعلا، مأخوذ من السَّبْح وهو الجريُ السريع؛ لذلك يقال: فرس سَبُوحٌ إن كانت تُسرع بالجري، ﴿ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾: ما أنا من المشركين؛ لا فعلًا ولا عقيدةً ولا اجتماعًا معهم، بل أُزاوِلُهم وأعاديهم، وذلك في جميع حالاته، فدلت الآية على الدعوة إلى الله جل و علا، وأنها فرضٌ من الله، وهي الدعوة إلى شهادةِ أن لا إله إلا الله؛ ولأنها هي الإسلامُ، ولا يدخل العبدُ الإسلامَ إلا بها، ثم الواجبات كلها من حقوقها، وكذلك تركُ المحرمات كلِّها مِن حقوق لا إله إلا الله.

قوله: (عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ لما بعث معاذًا إلى اليمن): البَعْث: مِن بَعَث الشيءَ؛ إذا أثارَه، ﴿ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي ٱلْقُبُورِ ﴾ [الحج:٧] أي إخراجها حيةً. ثم البعثُ هنا معناه الإرسال؛ ﴿ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا ﴾ [النحل:٣٦] أي أرسلنا في كل طائفة من الناس رسولا. (بَعَث معاذًا) يعني معلمًا وداعيًا وحاكمًا ونائبًا عن رسول الله ﷺ، وبَعْثُه كان في السنة العاشرة على ما ذكره البخاري في كتاب الغزوات، كما يقول الحافظُ ابنُ حجر رحمه الله، والواقديُّ يقولُ: إنه في آخرِ السنة التاسعة، وقد اتُّفِق على أنه بقي في اليمن إلى خلافة أبي بكر رضي الله عنه، ثم ذهب إلى الشام فمات في طاعون عَمْواسَ الذي كان في الشام.

ومعاذ رضي الله عنه من سادة الصحابة وفقهائهم وعلمائهم، وقد جاء في «الترمذي»

«إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»

وغيره: «أنه يُحشَرُ أمامَ العلماء برَتْوةٍ»؛ لفضله عليهم بالعلم يتقدمُ عليهم، واختُلف في الرَّتْوةِ ما هي؟ قيل: رَمْية حجر، أو رمية سهم، أو مُرتفَع، أو غير ذلك.

قوله: (إلى اليمن) سُمي (اليمنَ) يقولون: لأنه عن أيمَنِ الكعبة، وهذه تسمياتٌ لا تُعلَّل، وتسميتُه قديمةٌ جدًّا، قال له: **(إنك تأتي قومًا أهلَ كتاب)** هذا كالتَّوْطِئةِ والاستعداد؛ كأنه يقول له: استعِدَّ للمسألة، وما يُورَد عليك من إشكالات؛ لأن أهل الكتاب ليسوا كالوثنيين الجهلةِ الذين ليس عندهم شيءٌ بل لا بد أن يكون عندهم إشكالاتٌ ومسائلُ وأمورٌ قد تَشتَبِهُ عليهم.

وأهلُ الكتاب هم اليهود والنصارى، ووجودُهم في اليمن منذ القِدَم، والنصارى حدث وجودُهم في اليمن؛ جاءوا للانتصار لمن اتبع دينَ عيسى؛ كما في القصة التي ذكرها مسلمٌ في صحيحه عن النبي ﷺ في قصة أصحاب الأخدود، ثم بقُوا في اليمن زمنًا طويلًا

(فليكن أولَ ما تدعوهم إليه شهادةُ أن لا إله إلا الله) (أولَ) خبر مقدم، و(شهادة) اسم مؤخر، ويجوز العكس، فيدل هذا على أن الأعمال لا تُقبَل إلا بالتوحيد، وأن الداعي يجب أن يبدأ به، وأن أول ما يجبُ على المكلف أن يَعلم أن لا إله إلا الله، وهذا ما دل عليه القرآنُ في قصص الأنبياء، فكل نبي يـأتي قومَـه

....

يقولُ: اعبدوا الله ما لكم من إلهٍ غيرُه، أولَ دعوة يدعوها، فلا يَطلُب منهم أن ينظروا في الكون، ويستدلوا على وجود الله ثم يؤمنوا به، هذا لم يأتِ كما يقوله المتكلمون الذين قصَروا التوحيدَ على توحيد الربوبية، فإذا اجتهدوا ووصلوا إلى الغاية استدلوا على وجود الله بالأدلة الموجودة في المخلوقات، ويجعلون هذا غايةَ التوحيد، مع أن هذا أقرَّ به المشركون كلُّهم.

كان الفَخْر الرازي يمشي يومًا في أسواق نَيْسابُورَ، وخَلْفه تلامذتُه أكثرَ من ثلاثِمائةٍ، وعجوزٌ واقفة ببابها، فقالت لأحدهم: مَن هذا الملِك؟ فقال: ليس هذا ملكًا، هذا فخر الدين الرازي، يَعرِفُ على وجود الله ألفَ دليل، فضحِكت العجوزُ ساخرةً وقالت: والله لو لم يكن عنده ألفُ شَكٍّ ما احتاج إلى أن يعرفَ على وجود الله ألفَ دليل، وجودُ الله لا يحتاجُ إلى دليل ﴿أَفِي ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[إبراهيم:١٠]

المقصود أن التوحيد الذي اختَلَف فيه الناسُ ولم يَمتَثِلْه أكثرُهم هو توحيدُ العبادة، ليس توحيدَ الربوبية ومع ذلك لو آمن الإنسانُ بوجود الله بلا شَكٍّ فلا تُنجيه من النار، بل لا يُدخِله الإسلامَ حتى يأتي بتوحيد العبادة الذي جاءت به الرسلُ، المقصودُ أن هذا يدل أن أولَ ما يجبُ على العبد أن يشهدَ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسولُ الله، والعبد الذي يُولد لوالدين مسلمين يتعلمُ من أبويه الشهادةَ، وهذا يكفي لدخوله الإسلامَ، فلا نقولُ: إذا بلَغ يجبُ أن يشهد أن لا

وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ فَإِنْ هُمْ ....

إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ليدخل الإسلامَ، والشهادةُ -كما يقول العلماءُ- لا بد أن تكون عن علم ويقين، ولا بد أن يُعمَل بمقتضاها؛ فالله يقول: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾[محمد:١٩]؛ بدأ بالعلم.

قوله: (وَفِي رِوَايَةٍ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ) هذا في البخاري، وفي رواية ثالثة: (إلى أن يعبدوا الله)، وكل هذه بمعنًى واحدٍ، وهو يدل على فقه الراوي، وأنه عرَف أن شهادةَ أن لا إله إلا الله هي توحيدُه وهي العبادة.

ثم قال: (فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ؛ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ) (فَإِنْ هُمْ) الفاء تدل على ترتيب ما بعدها على الماضي؛ يعني إن استجابوا لك وشهِدوا أن لا إله إلا الله فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمسَ صلوات، وإلا لا تنفعُ، فمفهومُ هذا أنه لا يُعْلِمُهم بوجوب الصلاة إذا لم يستجيبوا للشهادة، وكل هذا يدل على أن كلَّ الأعمال مبنيةٌ على العقيدة، على شهادةِ أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وهذا هو الصحيح، ولهذا يخطئُ العالمُ الذي يدعو الناسَ فيقول: حسِّنوا أخلاقَكم، وحسِّنوا صحبتكم مع الناس، وصلُّوا وصوموا؛ ويتركُهم على عبادة غيرِ الله؛ بدعوى أن هذا ينفِّرُ الناسَ ويُوجِدُ العداواتِ؛ لأنهم -بزعمه- يتعلَّقون بالأولياء ويتركونه. نقول: هذا كله لا ينفعُ؛

....

لأن أيَّ عمل يعملُه الإنسانُ وهو على الشرك فهو مردودٌ، وكذلك العملُ بالبدع غيرُ مقبول ولا ينفعُ عند الله.

فالشرك نجسٌ، ينجِّس كلَّ الأعمال؛ كما قال الله ﷻ: ﴿ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾[الكافرون:١-٣]. معنى (ولا أنتم عابدون ما أعبد) أنهم كانوا يحجون ويصلون ويفعلون أعمالا كثيرة، ومع هذا قال الله ﷻ: ﴿ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ﴾[الكافرون:٤]، فالعبادةُ مع الشرك كأنها ليست موجودةً؛ لأنها ليست عبادةً شرعيةً، وإن كانت عبادةً في اللغة، فالعبادة الشرعيةُ يجب أن تكونَ خالصةً لله وحده، وإن لم تكن خالصة فهي مردودة، فالله أغنى الشركاء عن الشرك؛ مَن أشرَكَ في عملٍ غيرَ الله، فإنَّ الله يترُكُه لهذا المُشْرَكِ به، وفي هذا دليلٌ على أنه لا يجبُ على العبد إلا الصلواتُ الخمس، لا يجبُ وترٌ ولا غيرُه؛ لأنه قال: في كل يوم وليلة، ومعلومٌ أن هذا في آخرِ حياة الرسول ﷺ، فلا يُقال: إنه جاء بعده واجباتٌ، أو إنه منسوخٌ، وقد جاء في قصة معاذ ﷺ أن الرسول ﷺ كان يُشيِّعُه ماشيًا، ومعاذٌ راكب، فقال معاذ: إمَّا أن تركبَ، وإما أن أنزِلَ، فقال: «ما أنت بنازلٍ ولا أنا براكب»، ثم قال: «لعلك لا تراني بعد اليوم»، فبكى معاذ ﷺ فقال: «لا تبكِ»، ولم يَرَه بعد ذلك؛ لأنه تُوُفي بعد وقت ليس طويلا؛ لأنه ﷺ حج ولَمَّا رجَع بقِي ثلاثًا وثمانين يومًا فقط.

أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً؛ تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ...

قوله: (فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ) أيضًا هذا رُتِّب على الاستجابة للدعوة، ولكنه رُتب على الأُولى، ويدلنا على أن الصلاة هي أعظمُ الواجبات بعد الشهادتين، ثم بعدها الزكاةُ، وهي فريضةٌ على كل مسلم، ولكن الزكاة على الأغنياء، ويدل على أن الزكاة على الأغنياء أنها تُرد للفقراء، وهذا يدل على أن الزكاة يجوزُ أن تُفرَّق في صِنف من أصناف الزكاة؛ وهي ثمانية كما ذكرهم الله جل وعلا، وقوله: (مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ) هذا فيه اختلاف بين الفقهاء؛ منهم مَن استدل به على أن الزكاة لا يجوزُ نقلُها من بلد إلى آخَرَ؛ لأن الضمائر تعود إلى أهل اليمن، وهذا فيه نظر، ثم قال: (فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ): (إِيَّاكَ) هذا تحذيرٌ من الظلم، يعني: إياك أن تأخذ من كرائم الأموال في الزكاة، (الكرائم) جمع كريمة، وهي: السمينة الحسنه الجميلة، كثيرة اللبن أو كثيرة الصوف، فهذا معناه أن الأطيبَ في المال؛ من الغنم والإبل، وكذلك الثمارُ وغيرُها؛ أنه لا يؤخذ في الزكاة إلا أن يشاء صاحبُ المال، وأن يؤخذ من الوسط؛ لا يؤخذُ الدنيءُ الرديء، ولا الأعلى.

ثم قال: (وَاتَّقِ دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ): اتق: يعني اجعل بينك وبينها واقيًا، والواقي

فَإِنَّهُ لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ.

وَلَـهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، ....

الذي يكونُ من دعوة المظلوم هو القيامُ بالعدل، اتق دعوة المظلوم، (فَإِنَّه) ضمير الشأن، وهو لا بد أن يُفسَّر، فُسر بقوله: (لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ) يعني أن دعوة المظلوم مستجابةٌ لا تُحجَب، وهذا كله مقيد بمشيئة الله جل وعلا؛ لأن كل شيء لا يقعُ إلا بمشيئة الله.

قوله: (وَلَـهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ...): أتى الحديثُ الثاني عن سهل بن سعد ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال يومَ خيبرَ: لأُعطِيَنَّ الراية غدًا رجلًا يحب اللهَ ورسولَه ويحبُّه اللهُ ورسولُه، هذا فيه أن الرسول ﷺ أقسم: لأعطين؛ فهذا قسمٌ تقديرُه: والله لأعطين، فيجوز أن يُقسِم على الشيء المتحقِّق، ولو لم يُطلَبِ القسمُ، وفائدةُ ذلك -كما هو معلومٌ- التحقُّق من ذلك؛ لأنه خبر من عند الله جل وعلا؛ ولأنه ﷺ لا ينطق عن الهوى، إنْ هو إلا وحيٌ يوحى، والراية: هل هي العَلَم؟ أو العَلَمُ غيرُ الراية؟ جاء ما يدل على هذا وهذا، والعلم قالوا: إنه أبيض، والراية سوداء، وهذا جاء في رواية البزار، والله أعلم، كان مكتوبًا فيها: «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»، ولا بد أن تكون مع القائد، فهو الذي يحمِلُها أو مَن بجواره، وما دامت قائمةً فأَمْرُهم قائمٌ، أما إذا سقطت فمعنى ذلك أنهم اخْتَلُّوا وأنهم

وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللهُ عَلَى يَدَيْهِ»، فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ؛ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا، فَلَمَّا أَصْبَحُوا، غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا، فَقَالَ: ..

سينهزمون، هذه هي علامة النصر، فكان يَنصِبُ رايتَه ﷺ.

قوله: (وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ) هذا الذي جعلَ الصحابةَ ﵃ يدوكون ويقومون تلك الليلةَ ساهرين يتحرَّون مَن تُدفع له؛ لأن الرسول ﷺ أخبر أنه يحبه الله ورسولُه، أما كونُ الرجل يحبُّ الله ورسوله فهذا لا بد منه لكل مسلم؛ لا بد أن يحب الله ورسوله؛ إلا أن محبةَ الله محبةٌ خاصةٌ تتضمَّنُ الذلَّ والخوفَ والرجاءَ، فهي عبادة، أما محبةُ الرسول ﷺ فهي محبةٌ في الله، وليست محبةً مع الله، بل نُحبه لأن الله يحبُّه، وأمر بحُبِّه، وقد جاء أنه لا يؤمن أحدُنا حتى يكون أحبَّ إلينا من ولدِنا ووالدِنا والأنفُسِ والناسِ أجمعين.

فسَّر المؤلف (يَدُوكُونَ): يخوضون، فدَوْكُهم وخَوْضُهم في أي واحد يعطي الراية؟ ولهذا لَمَّا أصبحوا كلهم ذهبوا إلى رسول الله ﷺ، يقول عمرُ: لقد رأيتُني أتطاولُ حتى يراني رسولُ الله ﷺ لعلَّه يدفعُها إليَّ، ولم أُحِبَّ الإمارةَ إلا في ذلك اليوم.

ومحبتُه كلها من أجْلِ الخبر؛ لأن الرسول ﷺ إذا أخبر عن شيء فهو شيءٌ مؤكد، وإلا فإن الله يحب المؤمنين ويحب التوابين والمتطهرين.

وهناك آياتٌ كثيرة تدل على حب الله ورسوله للمؤمنين، ولكن خبر

«أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: هُوَ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ، فَأُتِيَ بِهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ، وَدَعَا لَهُ، فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ، فَقَالَ: انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ، حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ ....

الرسول ﷺ مؤكد، وذلك مثلُ الشهادة؛ إذا شهِد لأحد بالجنة؛ كما قال لثابتِ بنِ قيسٍ ﷺ إنه في الجنة، ولعبد الله بن سَلَام، وعبدِ الله بنِ عمر، والحسنِ، والحسينِ، والعَشَرةِ، وأهلِ بَيعةِ الرِّضوانِ وغيرِهم في الجنة.

قوله: (أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟) فهذا يدلُّنا على أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيبَ، فعليٌّ ﷺ كان يشتكي عينيه، ولهذا سأل عنه: أين هو؟ فقالوا له: يشتكي عينيه، قال: «فأرسلوا إليه»، وفي رواية: «فأرسل إليه، فأُتِي به يُقادُ، فبَصَق في عينيه ودعا، فبَرَأ في الحال كأن لم يكن به وجعٌ»، وجاء عن علي ﷺ أنه قال: «لم أرمَدْ بعد تلك التَّفْلة والدعاءِ، ولم أُصَدَّعْ، ولا أَرْمَدُ»، وهذا من آيات الله جل وعلا، كما أن الإخبار بأنه يَدفع الرايةَ لمن يَفتحُ خيبرَ من علامات النبوة، وفيه الإيمان بالقدر؛ لأنها دُفِعت لمن لم يَتعرَّضْ لها ومُنِعت ممن تعرَّض لها وتطلَّع إليها، ولكن لا بد من الأخذ بالأسباب، فأعطاه الراية، وقال: (انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ)، (انفُذْ): يعني امضِ في سبيلك، (على رسلك) أي على التأني والرفق والطُّمَأنينةِ، وليس على السرعة والإزعاج، (حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ)، ساحة القوم: الفضاءُ الذي أمام البيوت، (ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ) هذا هو الشاهد، وهذا فيه وجوبُ الدعوة قبل القتال، ولكن هذا فيه تفصيل عند العلماء؛ فإذا كانت الدعوةُ قد بـلغت القومَ فليس هنـاك داعٍ

وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله تَعَالَى فِيهِ، فَوَالله لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ». (يَدُوكُونَ) أَيْ يَخُوضُونَ.

لدعوتهم قبل القتال، وإن كانت لم تبلُغْهم فلا يجبُ دعوتُهم، ولا يجوزُ قتالُهم إلا بعد الدعوة؛ لأن القتال من أجل الإسلام، فإنِ استجابوا للدعوة فلا داعيَ لقتالهم، (ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ) يعني شهادةَ أن لا إله إلا الله.

(وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله تَعَالَى فِيهِ)، وحَقُّ الله: في إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وغيرِها من الحقوق التي أوجبها اللهُ تعالى عليهم، ثم أقسم مرة أخرى فقال: (وَالله لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ): (حُمْر) بضم الحاء وإسكان الميم، وإذا ضُمت الميمُ صار المعنى شيئًا آخرَ؛ صار بمعنى الحمير، لكن الحُمْر: جمع أحمر، أي ذو اللون الأحمر، واللون الأحمر: هو أغلى وأنفَسُ الإبل عند العرب.

يقول النووي: تشبيهُ أمور الآخرة بأمور الدنيا إنما هو للتقريب إلى الأفهام، وإلا فذَرَّةٌ من الآخرة خيرٌ من الأرض بأَسْرِها وأمثالِها معها. وكونُ الإنسان مثلًا يُؤمِن بدعوته رجلٌ واحد خيرٌ له من الدنيا، يقول: هذا هو المعنى؛ خيرٌ له من الدنيا لو حِيزَت إليه بدون إثم ولا قطيعةِ رحمٍ.

❁ ❁ ❁

بابُ تفسيرِ التوحيدِ وشهادةِ أنْ لا إلهَ إلا اللهُ

وقولِه تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾[الإسراء:٥٧].

المؤلف ﷺ شرَح هذا البابَ ووضَّحه تمامَ الإيضاح، فقولُه: (**تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله**) هذا من عَطْفِ الخاص على العام؛ لأن التوحيدَ هو شهادةُ أن لا إله إلا الله، فالتوحيد يكون في العبادات كلِّها، أما شهادةُ أن لا إله إلا الله فهي تتضمَّنُ الإسلامَ كلَّه، يعني تتضمَّن فعلَ كلِّ واجبٍ وتركَ كلِّ محرم، (**وقوله تعالى:** ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾): هذه الآية تتعلق بالتي قبلها ﴿ قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا ﴾ [الإسراء:٥٦] يعني أن المدعوين لا يَملِكون شيئًا؛ إذا نزَل الضُّرُّ لا يَملِكون كَشْفَه ولا تحويلَه إلى مكان آخر، فهم فقراءُ ضعفاءُ، وسواءٌ كان المدعوُّ من الأولياء أو جنيًّا أو ملَكًا أو نبيًّا أو غيرَ ذلك، فالخلقُ في هذا سواءٌ كلُّهم، ودل على أن الكفارَ دعاؤهم متفرقٌ؛ منهم مَن يدعو حجرًا، ومنهم مَن يدعو جِنيًّا، ومنهم من يدعو الملائكةَ أو النجمَ أو الشمسَ أو الميتَ، ويزعمون أنه وليٌّ، كما في اللات، وكذلك في هذا الآية، واختُلف في سببِ نزولِ هذه الآية؛ لأن سبب النزول يُعينُ على فهم المعنى؛ فمنهم مَن يقول: إنَّ أولئك كانوا يَدْعون الملائكةَ، وأخبرَ الله تعالى أن الملائكةَ يَتسابقون في الخيرات؛ كلُّ واحدٍ يريدُ أن يكونَ أقربَ إلى الله، وهم

وقوله: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴾[الزخرف: ٢٦ – ٢٧] الآية، وقوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١]

غافلون عنِ الداعِينَ لهم، وإن علِموا بذلك كفروا به؛ كما أَخبرَ اللهُ تعالى عنهم في آياتٍ عِدَّةٍ، ومنهم مَن يقولون: إنَّ هؤلاء في قومٍ كانوا يعبدون رجالًا مِنَ الجن؛ فأسلم الجنيُّون، وبقِي العابدون على الشرك على عبادتهم، فأَخبرَ الله أن المعبودَ عَبْدٌ لله؛ يُتقرَّبُ إليه وهو غافلٌ عن عبادة هؤلاء، فإذا كان العابدُ يَخافُ ويَحذرُ العذابَ؛ لأنه متوقع، فكيف يُطلب منه النجاةُ من العذاب؟!، ثم الآية الثانية: (﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ... ﴾): يَعني أن إبراهيم عليه السلام تبرَّأ من المعبودات كلِّها، ثم استَثْنى مِن معبوداتِهم ربَّه فقال: ﴿ ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾، فدلَّ على أنهم يعبدون اللهَ ويعبدون معه غيرَه، فبهذا يَتبيَّنُ تفسيرُ التوحيد، وأن التوحيد أنْ تعبُدَ الله وحدَه ولا تجعلَ معه أحدًا في العبادة، وقال: ﴿ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ لأن قوله: ﴿ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴾ هو معنى (لا إله)، وقوله: ﴿ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى ﴾ هو معنى (إلا الله)، لذلك كثيرٌ من السلف يقولون: معنى (جَعَلها) -أي جعل لا إله إلا الله- معنى الكلمة التي هي نَفْيُ التألُّه عن غير الله وإثباتُه له وحدَه.

قوله: (﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾[البقرة:١٦٥].

ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾)، والآية التي بعدها يقول: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ ﴾، أما اتخاذُ المسيحِ ابن مريم فكانوا يقولون: هو الله، وابنُ الله، أو ثالث ثلاثة، بعضهم لا كلهم، والأحبار هم: العلماء، والرُّهْبان: العُبَّاد؛ فاليهود يعبدون أحبارَهم، وعبادتُهم: طاعتُهم في المعصية، وليس السجودَ والركوعَ لهم وسؤالَهم؛ لذلك فسَّرها الرسولُ ﷺ لعديِّ بنِ حاتمٍ ﷺ؛ لأن عَدِيًّا كان نصرانيًّا، ولَمَّا أتى إلى النبي ﷺ وذهب معه إلى بيته سمِعه يقرأُ في هذه الآية، فقال: ما عبدناهم، أو قال: ما عبدوهم، فقال: «بلى؛ ألم يحرِّموا الحلالَ عليهم فيتَّبِعوهم، ويحلِّلوا الحرامَ فيتبعوهم؟» قال عدي: بلى، قال: «تلك عبادتُهم».

وعبادتُهم: طاعتُهم في معصية الله جل وعلا، وهذا فيه تفصيل؛ كما هو معلومٌ أن المتبع مثلًا قد لا يكونُ عالمًا بأن متبوعَه ضالٌّ، ويظن أنه على حق، وقد يكون له عذرٌ من هذا الوجه.

وقوله: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ المقصودُ بالآية أن (النِّدَّ) في المحبة هنا، وليس في الخلق والتدبير والإحياء والإماتة وغيرِ ذلك، ولهذا قال: ﴿ يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾؛ لذا

وفي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «مَنْ قالَ: لَا إلهَ إلَّا اللهُ، وكفَر بما يُعبَدُ مِن دُونِ اللهِ؛ حَرُمَ مالُه ودمُه، وحِسابُه على الله ﷻ» .

وشَرْحُ هذه التَّرْجَمَةِ: ما بَعْدَها مِنَ الأَبْوَابِ.

مَن أحبَّ مخلوقًا كمحبته لله وشارَكَه في ذلك؛ فهو الشركُ الأكبرُ الذي أَخبَرَ الله عن صاحبه بأنه ليس بخارجٍ من النار.

أمَّا الحديثُ الذي في «صحيح مسلم» أنه ﷺ قال: (**مَن قالَ: لا إله إلا الله، وكفَر بما يُعبَد مِن دون الله؛ حرُم مالُه ودمُه، وحسابُه على الله ﷻ**) فالمقصودُ أنه لم يَجعَلِ التلفظَ بـ(لا إله إلا الله) عاصمًا مِنَ القتل، بل لا بد أن يَكفُر بما يُعبَدُ من دون الله.

ومعلومٌ أن مَن قال: (لا إله إلا الله) يجبُ أن يكونَ عالمًا بها، والكفارُ يعرفون معناها، ولهذا لَّما قال لهم رسولُ الله ﷺ: «قولوا لا إله إلا الله» قالوا: (أجعَلَ الآلهةَ إلهًا واحدًا)؟! فنفَروا، ولَّما قال لعَمِّه وهو على فراش الموت: «يا عَمِّ، قل: لا إله إلا الله؛ كلمةً أحاجُّ بها لك عند الله»، فقال له مَن حوله مِن الكفار أبو جهل وغيرُه: أترغَبُ عن ملةِ عبد المطلب؟ عرَفوا أنه إذا قال هذه الكلمةَ خرج مِن ملة عبد المطلب إلى ملة محمد بن عبد الله، فليست هي مجردَ الكلام كما يَفُوهُ به كثيرٌ ممن يزعمُ أنه مسلمٌ؛ يقولُ: (لا إله إلا الله) ثم يذهبُ إلى القبر؛ يُنزِلُ به حاجتَه ويدعوه أن يُنِيلَه العزَّ والغنى، وينصرَه على عدوه، وما أَشْبَهَ ذلك، فإنَّ هذا

....

شركٌ أكبرُ ينافي كلمةَ (لا إله إلا الله) فهي لا تنفع في هذه الحالة.

❋❋❋

بَاب مِنَ الشِّرْك لُبْسُ الْحَلْقَة وَالْخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ

....

ثم المؤلفُ رحمه الله شرَح هذا وبيَّنه؛ قال: (باب مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلْقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ الْبَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ) يعني كلَّ ما لُبِس على هذه الصفة لرفعٍ أو دَفْعٍ؛ فالرَّفْع: يكون بعد النزول، والدَّفْعُ: قبل النزول، فالنياتُ والمقاصدُ هي التي تتعلقُ بها الأعمالُ، وهذا مُطلَق، قال: (من الشرك) فهل هذا شركٌ أكبر أو أصغرُ؟ هذا يختلفُ حسَبَ القصد من اللابسِ ونيتِه وعقيدتِه؛ فإنِ اعتقدَ أن هذا الخيطَ أو هذه الحَلْقةَ مثلا هي بنفسها تنفعُ وتدفعُ؛ فهذا مِنَ الأكبر، وإنِ اعتقدَ أنه سببٌ؛ فهذا مِنَ الشرك الأصغر.

والشركُ الأصغر -كما يقول العلماءُ- أكبرُ من الزنا ومن السرقة ومن شرب الخمر، فهو أكبرُ الكبائر، وهناك خلافٌ هل يَدخُلُ تحت المشيئة أو لا يدخلُ؛ مِن العلماء مَن قال: إنه مثلُ الكبائر تحت مشيئة الله، ومنهم مَن قال: لا بد من التوبة وإلا لا يُغفر.

قال: (لُبْسُ الحَلْقَة وَالخَيْطِ)، الحلقة هنا عُمِلت من أي شيء؟ قد تكونُ من صُفْر، أو قد تكونُ من نُحاس، أو قد تكونُ من خَيْط، أو من غيرِ ذلك، فلُبْسُها مطلقًا لا يجوزُ، إذا كان يُقصَد به النفعُ أو دفعُ المرض كما سبق، وقد تكونُ من سلسلةٍ من نُحاس؛ يقولون: تدفعُ الروماتزم، وتُفرِغ الشِّحناتِ الكهربائية؛ كل

وَقَوْلُ الله تَعَالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾[الزمر: ٣٨] الآية.

هذا لا يجوزُ؛ لأن هذا كله داخلٌ في ما قاله ﷺ؛ سواءٌ قالوا تدفع أو تنفع، حتى لو كان فيها نَفْعٌ فهي محرمة، وهي داخلة في الشرك؛ لأن المحرمات التي حُرِّمت كثيرٌ منها لا تخلو من النفع، ومع ذلك لا تجوزُ، كما قال الله جل وعلا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾[البقرة:٢١٩].

الرسولُ ﷺ أخبرنا بخبر، ثم جاءنا طبيبٌ يُخبرُنا بخلاف ذلك؛ أيُّهما نصدق؟ الواجبُ أن لا نصدق الطبيبَ، ونقول: الرسول أخبرنا ذلك؛ فيجبُ أن نتجنبَه.

وقوله: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يقول مجاهد: إنه سألهم فسكتوا؛ لأنهم يعرفون أنها لا تنفع، و(التي يدعون من دون الله) الشجر والحجر والقبر وغيرها، وقد امتلأت الأرضُ بمعبوداتهم في ذلك الوقت حتى كان حولَ الكعبة أكثرُ مِن ثلاثِمائةِ صنم، فلما فتَح الرسولُ ﷺ مكةَ أخذ يهوي إليها برُمحه، فتَساقطُ على وجوهها، ويقولُ: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾[الإسراء:٨١]، وطهَّرها صلواتُ الله وسلامُه عليه كغيرها مما استولى عليه،

عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﵄ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ، فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟» قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ، فَقَالَ: «انْزِعْهَا؛ فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا،

فالمقصودُ أنهم يَعرفون أنها لا تنفعُ ولا تضرُّ، وإنما يقولون: إنها وسائطُ ندعوها لتقربَنا إلى الله زُلْفى؛ لتشفعَ لنا؛ نسألُها وهي تسألُ اللهَ؛ لأنها إذا كانت حجرًا أو شجرًا فليس لها ذنوبٌ، أما نحن فكلُّنا مذنبون، وكل ذلك من باب القياس الفاسد؛ قاسوا ربَّ العالمين على المخلوق، وزعموا أن هذا من التعظيم؛ لأن الكبيرَ العظيمَ كالملك والرئيس لا يُدخَل عليه مباشرةً إنما يُدخَل عليه بواسطةِ مَن هو مقرَّبٌ منه حتى تَنجَحَ الطَّلِبةُ، هكذا زعموا، وهو أصلُ الشرك.

ثم قال: (**عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﵄ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ**) والصُّفْر: معروف؛ معدن نحاس، ولا يزال يستعمل، (**فَقَالَ: «مَا هَذِهِ؟**) وهذا السؤالُ إما من باب الإنكار، وإما من باب الاستفسار عن المقصد، والأول أقربُ، (**قَالَ: مِنَ الْوَاهِنَةِ**)، الواهنة كما يقول ابنُ الأثير: (عِرْق يأخذُ في المَنكِب وفي اليدِ كلِّها فيُرقى منها، وقيل: هو مرضٌ يأخذُ في العضُد). ويزعمون أنه يصيبُ الرجُلَ دون المرأة، وهو الذي يُسمَّى (الروماتزم)، ويقولون: إن هذه الخيوطَ تنفعُ منه، والآن يقولون: إن هذه السلاسلَ تنفع من الروماتزم، وهو من أمور الجاهلية، ثم قال: (**انزِعها**)، هكذا قال المؤلف، والذي في المسند «انبِذْها» والنَّبْذُ أبلغُ من النزع، والنزع معناه اطرَحْها بعيدًا؛ (**فَإِنَّهَا لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا**)، والوَهْن: هو الضعف، إذا تعلق القلبُ بغير الله فهو واهن ضعيف.

فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا»، رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ.

وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ ....

وقوله: (فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا) والفلاح: هو إدراكُ المقصود من السعادة والنعيم، وهذا يدل على أن هذا ليس من الشرك الأصغر بالتأكيد؛ لأنه قال: (مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا)، والشركُ الأصغر لا يجعلُ الإنسان خالدًا في جهنمَ، وإن دخلها فإنه إذا طهُر يخرجُ منها، وهذا يُشكِلُ على قول المؤلف: إن الشرك الأصغرَ أكبرُ من الكبائر، والظاهرُ أن هذا يختلفُ باختلاف المقاصد، ولهذا قال له: (مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا)؛ لأنه تعلق بغير الله.

وقوله: (وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ): التميمة: مأخوذةٌ من المقصود أنه يُتِم الأمرَ الذي صُنِعت من أجله؛ وهي قسمان: تميمةٌ في هذا المعنى؛ وهي خَرَزاتٌ أو غيرُ ذلك تُنْظَم وتُلبَس؛ إما لصبيٍّ أو لدابةٍ أو غيرِه، لدفع العينِ أو دفعِ الجنِّ، وقد تكونُ التميمةُ في نسيجٍ يُخاط، ويُوضَعُ فيه مثلًا شيءٌ مكتوبٌ من القرآن أو الطلاسم أو غيرِها، وهذا ما يُصنع الآنَ، وسيأتي الخلافُ في ما إذا كانت من القرآن، والصحيحُ أنها لا تجوزُ مطلقًا، لا من القرآن ولا من غيره، وليست هي من الرُّقَى، فالرقيةُ غيرُ التميمة؛ يقول ﷺ: «مَن تعلَّق تميمةً فقد أشرك» كما سيأتي، ويقول: «مَن تعلَّق تميمةً فلا أتمَّ الله له»، والتعلُّقُ من أفعال القلوب.

والثاني: أن يكون بآيات الله وأسمائه.

وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً؛ فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ»، وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى، فَقَطَعَهُ ....

قوله: (فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ) يحتمِلُ أمرين:

الأول: أن يكون الرسولُ ﷺ دعا عليه، ومَن دعا عليه الرسولُ ﷺ فلن يَتِمَّ أمرُه أبدًا.

الثاني: يحتمل أنه خبرٌ، والخبرُ أبلغُ في هذا؛ أنه لا يَتِمُّ أمرُه مطلقًا، وأن يُعامَل بضدِّ مُرادِه.

قوله: (وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً) الودعة: شيءٌ يُؤخذ من البحر ثم يُعلِّقونه على أنفُسِهم أو أولادِهم أو على بهائمِهم لدفعِ الجن والعينِ؛ لأنهم يخافون من الجن كما يخافون من الحسد، فمَن فعلَ ذلك فلا وَدَعَ اللهُ له.

والوَدْع: هو السعة والسكون؛ يعني يجعلُه في حَرَجٍ وضيقٍ، هذا إذا كان دعاءً، وإذا كان خبرًا فهو كذلك؛ فيُعامَل بضِدِّ مُرادِه، (وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ») هذا صريحٌ في أن تعليق التمائم شركٌ، وإذا كان شركًا فهو مُطلَق لا يَخرُج منه الذي يُعَلَّقُ من القرآن أو من صفات الله وغيرها.

قال: (وَلِابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى، فَقَطَعَهُ...) هذا يدُلُّنا على أن الصحابةَ يَعرِفون هذا تمامًا؛ لأن الرسولَ ﷺ بلَّغ ذلك.

وَتَلَا قَوْلَهُ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦].

قوله: (﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾): وشركُهم أنهم يعبدون مع الله غيرَه، وجَعَل حذيفةُ ﷺ تعليقَ الخيط من الشرك، وفي رواية: «أنه قال: لو مِتَّ وهو عليك ما صليتُ عليك» يقوله للمريض؛ لأن العادة أن العائدَ للمريض يضعُ يدَه على المريض ليرى حرارتَه أو ما أشبهَ ذلك، ويدعو له، والرجلُ الذي في هذا الحديث هو عِمْرانُ بنُ حُصَين؛ لأنه جاء مصرَّحًا به كما في المسند أنه دخل وبيده الخيط، وهذا من تفسير التوحيد، وشهادةِ أنْ لا إله إلا الله؛ لأن تعليقَ الخيوط وما شابه ذلك، إذا كان الإنسانُ يطلُبُ مِن ذلك نفعًا أو يريدُ منه رفعَ شيءٍ وَقَع به؛ فهو تعلُّقٌ بغير الله، وهو مِن الشرك؛ سواءٌ كان من الشرك الأصغر أو الأكبر، والأمورُ تتبيَّنُ بأضدادِها، فإيضاحُ الشيء يكونُ بذكر ضدِّه، أو بذكر ما يكملُه، أو ما ينقصُه.

❁ ❁ ❁

بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا ....

قال رحمه الله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الرُّقَى وَالتَّمَائِمِ) الرُّقَى: جمع رُقْية، والتمائم: جمعُ تميمة، والرقية هي: ما يُقرأ على المريض طلبًا لشفائه أو تخفيفِ المرض عنه، فإذا كانت الرقيةُ من أسماء الله وصفاته، أو آياته القوليَّة الأمْريَّة الدينيَّة، فهي مشروعةٌ.

وأما التمائم فهي: جمعُ تميمة، وسُميت تمائمَ أخذًا من التفاؤل، وأنه يَتِمُّ المرادُ الذي عُلِّقت من أجله؛ كعادة العرب يُسمُّون الشيءَ الذي يريدونه بما يحبون أن يؤول إليه، كتسميتِهم الأرضَ المهلكة: مفازةً، تفاؤلًا بأن سالكَها يفوزُ وينجو من الهلكة، وسمَّوُا اللَّديغَ: سليمًا، تفاؤلًا بأنه سيَسْلَم، وهكذا تسمية التمائم؛ يعني: تفاؤلًا ورجاءً من المخلوقات التي يتعلَّقون بها أنَّ أمرَهم سيتمُّ، والله -جل وعلا- من سنته في خلقه أنه يعاملَ العاصيَ بنقيض قصده.

قال: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرٍ الْأَنْصَارِيِّ ﷺ: أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولًا) لم يُعيِّنِ السفرَ؛ أيُّ نوعٍ من الأسفار هو؟ ومعلومٌ أن أسفارَ الرسول ﷺ كلَّها إما في جهادُ الكفار وقتالهُم، أو في العمرة والحج، ولم يُسافِرْ بعد أن أرسلَه الله إلا في هذه الأمور، والرسولُ الذي أُرسِل جاء تعيينُه أنه أسامةُ بنُ زيد ﷺ، ومع ذلك لا فائدةَ في تعيينه؛ لأن المقصودَ ذكرُ الحكم الذي شرَعه اللهُ ورسوله.

أَنْ لَا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٌ ....

والقِلادة: هي الشيء الذي يُوضَع في رقبة المخلوق؛ سواءٌ كان بعيرًا أو آدميًّا أو غيرَ ذلك.

فالقلادة تكونُ للمرأة، وتكونُ للبعير، وتكونُ لغير ذلك من المقاصد التي تُقصَد، ولكن هنا خُصَّت بالوَتَر.

والوتر: هو الذي يُربَط به طَرَفا القَوْس، وقد جُهِل الآن لا يُعرَف، هذا كان سلاحًا في الماضي، ويكون قويًّا، ويكون الوترُ من شيء خاص، فإذا بَلِيَ واخلَولَقَ علَّقوه في رقبة البعير تفاؤلًا، بل اعتقادًا بأنه يمنعُ الجنَّ ويمنعُ عينَ الإنسان أن تصيبَ البعيرَ، ولهذا قال: (قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ).

وأما قوله: (أَوْ قِلَادَةٌ) يعني مطلقًا، والصحيحُ أنه مقيَّد، وأن هذا شكٌّ من الراوي: هل قَيَّد القلادةَ بأنها من وتر أو أطلَقَها؟ والصحيحُ أنه مقيدٌ؛ لأن هذا بسبب اعتقادهم في الوتر أنه يمنعُ عينَ الإنسان، وكذلك يمنعُ الجانَّ، حسَبَ خرافاتِهم وزعمِهم، ولهذا وقعوا في الشرك من هذا الجانب.

وهذا هو وجهُ مرادِ المؤلف للباب؛ أنه إذا عُلِّق شيءٌ يُطلَب به دفعُ ضُر أو جلبُ منفعة؛ سواءٌ كان ذلك قبل حصول المحذور أو بعد وجوده؛ فإنَّ هذا من الشرك، وهو مما ينافي توحيدَ الله جل وعلا، أو ينافي كمالَه الواجبَ.

والقلادة أيضًا قد تكون لمقاصدَ أخرى، مثلًا يُجعَلُ في رقبة البعير حبلُ

إِلَّا قُطِعَتْ.

وَعَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ؛ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ

قلادةٍ حتى يُربَط به أو يُعقَل أو يُقادَ به، أو غير ذلك من المقاصد الصحيحة.

وقوله: (إِلَّا قُطِعَتْ) يعني أُزِيلت؛ ففيه إزالةُ المنكر باليد، وأنه لا يجوزُ أن يُترَكَ ولا سيَّما إذا كان من أمور الشركِ.

قال: (عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: إِنَّ الرُّقَى) الرقى هنا جاء فيها بالتعريف، يعني الرقى المعهودةَ المعروفةَ للجاهلية، التي يصنعونها ويفعلونها، يتعلقون بها أنها تنفعُ مِنَ الشيء الذي لم يقَعْ ومن الشيء إذا وقَعَ؛ أنها إما تَرفَعُه أو تخفِّفه أو تزيلُه من مكان إلى آخرَ، فمَنِ اعتقد ذلك في الرقية فإنه يكونُ شركًا.

والرقى قد تكون بأسماء الشياطينِ، وقد تكونُ بالطِّلَّسْمات: يعني الخطوطَ والأمورَ التي تشتمِلُ على اسم شيطانٍ أو صورته أو غيرِ ذلك، حتى تكون الاستعانةُ به، فتدخل في الشركِ من هذا الباب.

أما إذا كانتِ الرقيةُ بأسماء الله أو بآياته القولية الأمرية الدينية، أو بكلماته الكونية القدرية؛ فإنها مشروعةٌ؛ لأن الرسولَ ﷺ رَقَى ورُقِي، وهي نافعةٌ من المرض مطلقًا، ولكن نفعها من العين والحُمَة أشهرُ وأظهرُ وأكثر كما هو معلوم.

قال: (وَالتَّمَائِمَ) يعني التي يصنعُها المشركون من الأوتار وغيرها؛ لأنهم

وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاودَ.

يصنعون تمائمَ من الخَرَز ومن الوَدَع ومن غير ذلك، وكلها يعتقدون أنها تدفعُ عنهم عينَ الجانِّ، وكذلك ضررَ الإنسانِ العائنِ الذي يصيبُ بعينه، وقد يعتقدون أنها تدفعُ الجنَّ فلا يلاقي الإنسانُ سُوءًا.

قال: (وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ) أما التولة فهي: نوعٌ من السحر، ولهذا قال: (شِرْكٌ)، والسحر لا ينفكُّ عن الشرك؛ لأن السحر -كما سيأتي إن شاء الله- لا بد أن يكون بواسطةِ الشياطين، ولا يُعمل عملُه إلا بذلك.

والشيطان لا يأتي للإنسان إلا إذا كفر بالله جل وعلا وعبدَ الشيطانَ، ولهذا نجدُ السحرة الآن إمَّا أنه يمزِّقوا المصحف، أو يبولوا عليه، أو يدوسوه بأقدامهم، أو يذبحون ذبيحةً للشيطان.

والمقصود أنه لا بد أن يأتي بشيء يكفِّره ويخرجُه من الدين الإسلامي، فيطيعه الشيطان في بعض مُرادِه وليس في كل مراده، فالشياطينُ عندها عقولٌ وعندها أفكارٌ لا يمكنُ أن تأتي للإنسان هكذا لمجرد الطلب فقط، لا تأتي إليهم إلا إذا عبدوهم وخضعوا لهم وذلُّوا، أو خرجوا من الدين الإسلامي أصلا؛ لأنَّ الشيطانَ أحرصُ ما يكونُ على أن يكونَ ابنُ آدمَ معه في جهنم، هذا هو سَعْيُه ومطلبُه.

فالتولة نوع من السحر، ويسمونه محبِّبًا؛ لأنه يحبِّب المرأةَ إلى زوجها،

وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبُو دَاودَ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وُكِّلَ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

التَّمَائِمُ: شَيْءٌ ....

وكذلك بالعكس يحبب الزوج إلى امرأته، والسحر سيأتي أنه كفر بالله جل وعلا، وأن الساحر يجب أن يقتل، فحَدُّه ضَرْبُهُ بالسيف حتى يموت؛ لأنه مشرك.

قال: (**وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُكَيْم مَرْفُوعًا: مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا؛ وُكِلَ إِلَيْهِ**) الغالبُ أن كلمة (تَعَلَّقَ) تكونُ من فعل القلب، و(عَلَّقَ) من فعل اليد، يقال: تعلَّق كذا؛ يعني أن قلبه تعلق بذلك، فمن تعلق قلبُه بشيء وُكِل إلى ذلك الشيء.

فالذي يعلقُ خرقةً يوُكَلُ إليها، أو يعلق مثلًا خرزةً أو غيرَ ذلك، فإذا وكل إلى الشيء التافه فذلك لأنه ضائع وهالك، فإذا لم يتعلَّقِ العبدُ بربه فلا بد أن يتعلق بالأمور المخلوقة التي هي أقلُّ قُدرةً منه، أو تكونُ مثلَه أو فوقه في القدرة، ولكن لا تنفعُ ولا تضُرُّ. فالمقصودُ أنه يُوكَل إلى ما تعلق قلبُه به، فمَن تعلقَ الشيءَ وُكل إليه: يعني أن الله يتخلى عنه ويقطعُ الأسبابَ التي يمكن أن تنفعَه؛ لأن الأمور كلَّها بيد الله جل وعلا، فمَنْ توكل على الله كفاه، ومَنِ اهتدى به وقاه وهداه، أما إذا كان تعلقُه على مخلوق فإنه سوف يضِلُّ ويَهلِكُ في كل وادٍ، وتتعاوَرُه الشياطينُ.

قال في تفسير التمائم: (**التَّمَائِمُ شَيْءٌ يُعَلَّق عَلَى الْأَوْلَادِ**): يقال: (شَيْءٌ) لأنه

التَّمَائِمُ: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الْأَوْلَادِ يَتَّقُونَ بِهِ الْعَيْنَ لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ.....................

غيرُ محدد بشيء معين؛ فقد يكونُ خرزًا، وقد يكون وَدَعًا، وقد يكون من غير ذلك؛ من الشيء الذي يَرْقُون فيه أو يكتبون فيه أسماءَ الشياطين ويجعلونه في جِلْد أو وَرَق أو ثوب أو غيرِ ذلك، فيعلقونه يزعمون أنه يمنعُ أن يُصابَ الذي عُلِّق عليه بشيء من الأذى؛ فمَنِ اعتقد ذلك فقد اعتقد النفعَ في غير محله فأشرك بالله جل وعلا.

أما قوله: (**عَلَى الْأَوْلَادِ**) فهذا يعني أنه في الكثير يكونُ على الأولاد الصغار، وإلا فقد يكونُ على الكبار، ويكونُ على النساء، ويكون على البهائم، وقد يكون في السيارة، وقد يكون في الحانوت، وقد يكون في البيت معلقًا، وغير ذلك، وأغراضُ الناس كثيرةٌ في هذا، والحكمُ يتعلَّق بالمقاصد؛ فإذا قصَد الإنسانُ شيئًا من ذلك فالحكم يتعلقُ به، ولهذا يقولُ ﷺ: (**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بالنِّيَّاتِ**).

قوله: (**يَتَّقُونَ بِهِ الْعَيْنَ**) يعني عينَ الإنسان، وكذلك يتقون به الجنَّ، وهذا هو أكثرُ ما تُصنَع التمائمُ من أجله؛ إما أن يكون لما يزعمون أن هذا أُصيب بعين فتُكتب له التميمةُ أنه داخلُه أو أنه يعتريه بعضَ الأحيان، لذا يكتبون التميمة ليخرُجَ أو لتمنعَه.

استثنى المؤلفُ رحمه الله فقال: (**لَكِنْ إِذَا كَانَ الْمُعَلَّقُ مِنَ الْقُرْآنِ؛ فَرَخَّصَ فِيهِ**

وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمُ ابْنُ مَسْعُودٍ ﷺ.

بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ الْمَنْهِيِّ عَنْهُ...) لنعلمَ أن (المنهيَّ عنه) هنا المقصود به التحريم؛ أي المنهي عنه تحريمًا، وكذلك الكراهية، فقالوا: كرِهه، يعني: كراهةَ التحريم، فهذا كأنَّ فيه ترددًا من المؤلف؛ يعني ما بيَّن لنا ما الراجحُ؟ هل هو التعليق أو المنعُ؟ يعني إذا كان هذا المعلقُ من القرآن، أما الرقيةُ فأمرُها واضحٌ، ولكن مثلَ ما يقول السُّيوطيُّ: إذا اجتمعت فيها ثلاثةُ شروط فهي جائزة بالإجماع:

الشرط الأول: أن تكونَ بأسماءِ الله وآياته.

والثاني: أن تكونَ باللسان العربي المعروف.

الثالث: أن يُعتقد أنها لا تنفعُ بنفسها، وإنما هي سبب.

فإذا اجتمعت هذه الشروطُ فهي جائزة بالإجماع.

أما التميمةُ فإذا كانت من القرآن أو بأسماء الله وصفاته، فقد رخَّص فيها بعضُهم، والصحيح أنها داخلة في النهي؛ لأمور:

الأول: عموم الأدلة، ولا مخصصَ لذلك؛ فمن زعَم أن هذا خُص من الأدلة فليأتِ بالدليل، ولا دليل على ذلك.

الأمر الثاني: أن تعليقَ مثل هذا يُعَدُّ طريقًا إلى امتهانه؛ يعني أسماءَ الله وآياته

والرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ، ....

وصفاته، ولا سيما أنه قد يكونُ على طفل فيدخلُ به الخلاء، وقد يجعلُه تحت رأسه أو تحت ظهره كما هو معلوم، وهذا لا يجوز.

الأمر الثالث: أن هذا قد يكونُ وسيلةً إلى ما لا يجوزُ.

الأمر الرابع: أن هذا منعُه من سَدِّ الذرائع، وأنه لم يأت دليل يدل عليه كما سبق.

وابنُ مسعود -يقول- هو وأصحابُه من أئمة السلف التابعين وكبارهم وعلمائهم كانوا يرون أنه محرمٌ، وهو كثيرٌ، ولكن جاءت روايةٌ عن الإمام أحمدَ أن ذلك جائز، وكذلك عن غيره.

أما ما يُروى عن عبد الله بنِ عمرٍو فإنه ليس صريحًا، وكذلك ما روي عن عائشة ليس صريحًا، فعبدُ الله بنُ عمرٍو رُوي عنه أنه كان يكتب الكلماتِ التي كان الرسول ﷺ يقولُ: (**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ**) يعلقُها في رقبة الطفل، قال بعضُ العلماء: يعلقُها حتى يحفظَها لا لأنها تميمة، والدليلُ إذا احتَمل فلا يكون دليلًا، إذا احتمل معنًى آخرَ فلا يكونُ دليلا، وهذا هو القول، يعني: يعلقها ليحفظها الصغيرُ، أما الكبيرُ فلم يكن يعلقها عليه، مع أن بعض العلماء طعَن في نفس السند.

قال: (**الرُّقَى: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى الْعَزَائِمَ**) القراءةُ تُسمى عزيمةً؛ عَـزَمَ عليـه

وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ؛ فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ.

يعني: قرأ عليه بنية أن الله -جل وعلا- يشفيه؛ لأن القراءةَ بنفسها لا تَشفي، وإنما الشافي هو الله، ولكنْ هذا سبب.

يقول: (**وَخَصَّ مِنْهَا الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ**)؛ لأنه جاء في الحديث عنِ النبي ﷺ أنهم قالوا له: يا رسولَ الله، أرأيتَ رُقًى نَرتقي بها، وعزائمَ نَعتزمُ بها في الجاهلية، فقال: (اعرِضوا عليَّ رُقاكم، لا بأسَ بالرُّقى ما لم يكن فيها شركٌ).

قال: (**فَقَدْ رَخَّصَ فِيهَا رَسُولُ الله ﷺ مِنَ الْعَيْنِ وَالْحُمَةِ**)؛ يعني هو خَصَّها بالعين والحمة فقط كما في حديث البخاريِّ الذي مضى في (مَنْ حقق التوحيد دخل الجنة).

وهو قولُ حُصَينِ بنِ عبد الرحمن لَمَّا قال سعيدٌ: (**أَيُّكُمْ رَأَى الْكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ الْبَارِحَةَ؟ قُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلَكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَاذَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ**: ارتقَيْتُ -أي طلبتُ مَن يَرْقِيني- وفي رواية: **اسْتَرْقَيْتُ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟** قال: **حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، فَقَالَ: وَمَا حَدَّثَكُمْ الشَّعْبِيُّ؟** قال: **حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ، فَقَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلَكِنْ...**) إلى آخر الحديث.

وهذا هو الذي خَصَّ الدليل: (**لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَةٍ**)، وسبق أن معنى

والتِّوَلَةُ: هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا وَالرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ.

هذا: أنَّ الرقيةَ من العين والحمة أنفعُ من غيرها، فهذا قيل على سبيل المبالغة، مثلَ ما إذا قلتَ: لا عالمَ إلا فلانٌ؛ لأنك لا تَنفي العلمَ عن العلماء، لكن تقولُ: إنَّ فلانًا هو العالم الذي تَحقَّق بالعلم، وكذلك: لا مُفتيَ إلا فلانٌ، أي هو المفتي حقًّا، هذا هو الصحيحُ الذي دلَّت عليه الأدلةُ.

قال: (وَالتِّوَلَةُ: هِيَ شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ)؛ لأن السحر يُتعلم، لكنه إذا كان سحرًا حقيقيًّا فلا يكونُ إلا بواسطةِ الشيطان؛ لأن هناك أشياءَ تُلحَق بالسحر وليست سحرًا، كما سيأتي، فمَن عقَد عُقدةً ثم نفَث فيها فقد سَحَر، وكذلك سُمي النمَّام ساحرًا، وقال رسولُ الله ﷺ: (إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ سِحْرًا)، وما أشبه ذلك من الأمور التي أُلحقت بالسحر وهي ليست سحرًا.

أما هذا فهو سحرٌ حقيقي؛ لأنه يُصنع بأدويةٍ وعلاجاتٍ، ثم كذلك فيه عَقْد ونَفْث عليها، مع اجتماع الشيطان، شيطانِ الإنس وشيطان الجن، على أذيةِ من أُرِيدَ أن ينعقد الشرُّ له، وسواءٌ كان فَعَل ذلك أو فُعِل له؛ لأن بعض الناس يشتريه، فيكونُ مثلَ الصانع؛ لأنه فَعَله ورضِي به، ولو كان يُحسنه لصنعه، ولكنه لا يحسنه، فلهذا اشتراه من الساحر، فيكون حكمُه مثلَ حكمه.

قال: (يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا) كلمة (يـزعمون) تدُلُّ على أن

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ؛ قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الْحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ؛ فَأَخْبِرِ النَّاسَ..

المؤلفَ يرى أنه لا يَفعل شيئًا ولا يَصنعُ شيئًا، ولا يحبِّب ولا يبغض، ولكن الواقعَ أنه يفعلُ شيئًا من ذلك؛ لأن السحر له حقيقةٌ، ويُمرِض، وقد يقتلُ، وقد يَجعَلُ الإنسانَ بلا عقل، كما هو الواقعُ عند كثير من الناس الذين وقعوا في السحر، نسألُ اللهَ السلامةَ.

وثبت في «الصحيحين» أن النبي ﷺ سَحَره بعضُ اليهود؛ تقول عائشة رضي الله عنها: حتى إنه يُخيَّل إليه أنه يصنعُ الشيءَ ولا يصنعه، يخيلُ إليه أنه يأتي النساء ولا يأتيهن، وهذا مِن أشدِّ السحر، فأنزل الله المعوِّذتين، واستعاذ بهما وشُفي.

قال: (وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ الله ﷺ: يَا رُوَيْفِعُ، لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ..)، ورويفع رضي الله عنه طالت به الحياةُ كما قال ﷺ، وهذا لا يَخُص رويفعًا رضي الله عنه، بل كُلُّ مَن كان عنده علمٌ يحتاج الناسُ إليه وجَب عليه أن يُبلغَه، وأن ينشرَه ويُعلِم الناسَ به، وإلا أُلجِم بلجامٍ من نار يوم القيامة؛ لأن كاتم العلم ملعون.

(فَأَخْبِرِ النَّاسَ) أي عمومَ الناس، وهذا يدل على أن الإنسانَ إذا علِم حكمًا من الشرع وجب عليه أن ينشرَه، ويعلِّمَه الذين لا يعلمونه من الناس، أو الذين يحتاجون إليه، أما إذا سُئل فيتعيَّنُ عليه ذلك.

أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ..................

(أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ) اختَلَف شراحُ الحديث في عقد اللحية على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنه معالجَتُها وتعقيدُها بالفعل، حتى يكون المنظرُ كريهًا ومخيفًا، وكانوا يفعلون ذلك في الحرب، ويفعلُه بعضُ الأعاجم، فإذا رأيته رأيتَ كأنَّ وجهَه وجهُ حيوان، يكون مخيفًا، فنَهَى أن يكونَ الإنسانُ هكذا؛ لأنه تشكُّل بغير شَكْله، نسأل الله العافية.

القول الثاني: أنه معالجةُ الشعر حتى يتعقَّد ويتجعَّد، تشبُّهًا بالنساء، ومَن يكونُ على صِفَتهن، وهذا منهي عنه أيضًا.

القول الثالث: ذكره أبو زرعة: أنه عَقْدُها في الصلاة، لأثرٍ جاء في هذا، فيكون ذلك منهيًّا عنه.

والصحيح: أن الأمور الثلاثةَ كلَّها داخلةٌ فيه.

(أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا) سبق أنه يُتَقلد لأجل جَلْب منفعة أو دفعِ مضرَّة، ومَن فعل ذلك فقد وقع في الشرك.

(أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ) ؛ استنجى: أزالَ أَثَرَ النَّجْوِ، أي أثَرَ النجاسة، يُزيلها بالرجيع، والرجيعُ: هو رَوْث البعير، أو روث الحمار، أو البقرِ، أو غيرها، وفي ذلك أقوال:

أَوْ عَظْمٍ؛ فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ».

القولُ الأول: قيل: إن السبب أنه نجس لا يُطهِّر، بل يزيدُ المكانَ تلويثًا وتنجيسًا، كما يقول الحنفيةُ رحمهم الله.

القول الثاني: أن هذا لأجل الجن؛ لأنه جاء عن النبي ﷺ أن الجن الذين آمنوا به سألوه الطعامَ، فقال: «لكم كلُّ عَظْم ذُكِر عليه اسمُ الله، تجِدُونه أوفَرَ ما كان لحمًا، ورجيعُ الدوابِّ تجدونه علفًا لدوابِّكم»، وهذا بقَدَر الله جل وعلا، فإذا ثبَت الحديثُ بهذا فيكفي عن التعليل الثاني.

القول الثالث: جاء في حديث ابن مسعود ﷺ: أن النبيَّ ﷺ قال: «**ابْغِني ثلاثةَ أحجار**»، عندما ذهب إلى الخلاء، قال: فالتمستُ ذلك، فوجدتُ حَجَرين، وجئتُ برَوْثه، فرماها وقال: (إنها رِجْس)، أي نجس، فهذا أيضًا تعليلٌ ثالث.

أما العَظْم فلا يصح ذلك فيه، وإذا استنجى به الإنسانُ فإنه لا يجوزُ أن يطهِّره، ولا يجوزُ أن يصلي بذلك الاستجمار؛ لأن المعروف -عند العلماء- أن الاستنجاء يكونُ بالماء، والاستجمار يكون بالحجارة.

(**فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ**): يقول النوويُّ: بريءٌ من فِعْله، وهذا تأويلٌ بعيد، فالصحيحُ أنه يَبقَى على ظاهره، (بريء منه): أي من الإنسان نفسِه، الرسولُ ﷺ بريء منه، ومَن تبرَّأ منه الرسولُ ﷺ يكونُ هالكًا، ولكن هذا من نصوص الوعيد التي ينبغي أن لا تُفسَّر، بل تُذكر كما جاءت، وتُترك ليكون هذا أردعَ وأبعدَ عـــن

وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ؛ قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ». رَوَاهُ وَكِيعٌ وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ؛ قَالَ: «كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمَائِمَ كُلَّهَا مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ».

اقتراف هذه المعاصي.

قال: (وَعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ قَالَ: مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ؛ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ) العَدْل: المثل، يعني: يكونُ مثلَ إعتاق الرقبة.

وذِكرُ فضائلِ الأعمال لا يجوزُ أن يكونَ إلا بالنص، ولا دخلَ للاجتهاد فيه، وهذا له حكمُ الرفع؛ لأنه حكم لا يدخلُه الاجتهادُ.

قال: (وَلَهُ عَنْ إِبْرَاهِيمَ) إبراهيم النَّخَعي رحمه الله، وهو من أصحاب ابنِ مسعود رضي الله عنه.

قال: (كَانُوا يَكْرَهُونَ) أي أصحابُ ابن مسعود رضي الله عنه، (يكرهون): الكراهةُ عندهم للتحريم، يعني يحرِّمون.

قال: (التَّمَائِمَ كُلَّهَا؛ مِنَ الْقُرْآنِ وَغَيْرِ الْقُرْآنِ)، وهذا هو القولُ الصحيح من أقوال العلماء.

قال: (الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذِهِ الثَّلَاثَةَ كُلَّهَا مِنَ الشِّرْكِ مِنْ غَيْرِ استثناء)؛ هذه الثلاثة: الرُّقَى والتمائمُ والتِّوَلَة: من الشرك، بدون استثناء، لكن سَبَق أن الرقى فيها تفصيل، لكن على قول المؤلف لئلا يكون هناك إشكالٌ: مقصودُه بالرقى: الرقى

....

الجاهلية، التي فيها شركٌ، التي سُئل عنها الرسولُ ﷺ؛ لأن (ال) هنا للعهد، فالمراد الرقى المعهودة عند الجاهلية.

(وَالحُمَةُ) الحُمَة: سبق تفسيرُها: أنها ذات السموم، مثل العقرب والحية والزنبور، وسُميت: حمةً لأن مَن أصابته أصابته الحُمَّى.

قال: (**أَنَّ تَعْلِيقَ الأَوْتَارِ عَلَى الدَّوَابِّ عَنِ الْعَيْنِ مِنْ ذَلِكَ**) وهذا لا يخُصَّ الأوتار فقط، بل كل شيء يعلِّقه الإنسانُ يريد بذلك دفعَ شر متوقَّع، أو جلب نفع؛ فهو من الشرك.

والناس يعلقون مصاحفَ الآن، هل يدخل في ذلك؟ نعم، يدخل في هذا.

وإن كان بعضُ الناس يصنع ذلك، وتجد بعضَ الناس مثلًا يتكسَّب به، لكن: كل هذا لا يجوزُ على القول الصحيح.

قال: (**السَّابِعَةُ: الْوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنْ تَعَلَّقَ وَتَرًا**)، كونُ الرسول تبرَّأ منه هذا وعيدٌ شديد.



بَابُ مَنْ تبرَّكَ بِشَجَرٍ أوْ حَجَرٍ ونَحْوِهِمَا

وَقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [النجم: ١٩-٢٠]

قال: (بَابُ مَنْ تَبَرَّكَ بِشَجَرٍ أَوْ حَجَرٍ وَنَحْوِهِمَا)، لم يذكر الحكم، يُريدُ أن الحكمَ يُستنتَج من الدليل الذي يذكره، والحكم: أن ذلك شركٌ؛ من تبرك بشجرة أو حجر أو مكانٍ أو قبرٍ أو ما أشبَهَ ذلك فقد وقَع في الشرك، كما سيأتي.

قال: (وَقَوْلِ الله تَعَالَى: وَقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾﴾) ينبغي أن تعرف: ما اللات؟ وما العزى؟ وما مناة؟ فـ(اللاتُ) صخرة منقوش عليها نقوشٌ، يجلسون عندها، يعكُفون عندها ويطلبون البركة، فصاروا مشركين بهذا الفعل.

و(العُزَّى): شجرة، أو ثلاث سَمُرات، يتبرَّكون بها، ويعكفون عندها، ويقدِّمون لها نذورًا كاللات.

أما (مناة): فهي صَخَرات قرب قُدَيْد، كانوا يريقون عندها الدماءَ، ولذا سُمي: مناةَ، من كثرة الدماء، التي تُراق، مناة: من الإمناء: الذي هو إراقةُ الدماء تقرُّبًا إليها.

فهذه معبوداتُ الجاهلية، فمَن تبرَّك بالشجر أو بالحجر أو بالقبر أو بالحيطان، وحتى بجدار الكعبة، أو مَقامِ إبراهيمَ ﷺ؛ مَن تمَسَّح به، أو بالأبواب،

....

أو بالشباك الذي عند قبر الرسول ﷺ، وغيرِه، كلُّ هذا مِنَ الشرك، مَن تمسَّح به وطلَب بركتَه فإنه وقَع في الشرك.

كما أن هؤلاء عبادتُهم للات والعزى ومناة: هي طلبُ البركة وطلب الشفاعة، فهم يجلسون عندها لتهَبَ لهم البركةَ، وكذلك يطلبون منها الشفاعةَ؛ لأن الشفاعة في أمور دنيوية أو أخروية عندهم، وهو ما عَلِمنا.

وهذه كانت أكبرَ معبوداتِ الجاهلية، وإلا فمعبوداتُهم كثيرة، حتى إن الرسول ﷺ لمَّا فتح مكةَ وجد حولَ الكعبة أكثرَ من ثلاثِمائةِ صنمٍ منصوبة، فجَعَل يطعُنُها بشيء في يده ويقول: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [الإسراء: ٨١]، فصارت تَتَهاوَى قبل أن يصل إليها ما يضر بها به، وكذلك اليوم: كثير ممن هو محسوب على المسلمين، وهو من عوامِّ المسلمين، وقد يكونُ من خواصهم، يُهرَع إلى القبور يطلُب منهم البركاتِ، ويطلب منهم المنافعَ ودفعَ المضرات، والانتصارَ على العدو، ويطلب أيضًا أن يُوصلوه إلى الجنات، ويمنعوا النارَ أن تصيبه صراحةً، ويقدِّمون النذور من الأموال، وقد يقدمون أولادَهم، كل ذلك جهلٌ فظيع، بل شركٌ شنيع، نسأل الله العافية.

ولما فَتَح رسولُ الله ﷺ مكةَ أرسل خالدَ بن الوليد ﷺ إلى العُزَّى، وقال: «اهدِمْها»؛ لأن تحتها بناءً، فهي شَجَرات تحتها بناء، فذهب وقطع الشجراتِ

عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اَللَّيْثِيِّ قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ.........

وهدم البناء ورجَع، فقال: «رأيت شيئًا؟»، قال: ما رأيت شيئًا، قال: «ما صنعتَ شيئًا، اذهَبْ فاهدِمْه»، فذهب فوجد عجوزًا ناشرةً شعرَها تحثو الترابَ على رأسها تقول: يا ويلَه، والسَّدَنة يقولون: يا عُزَّى: انتصري، ولما رجَع قال رسولُ الله ﷺ: «تلك الشيطانةُ التي تكلِّمُهم منها».

أما مناةُ فأرسل إليها عليَّ بنَ أبي طالب ﷺ، فكسرها كذلك.

وكذلك اللاتُ، وهي اللاتُّ في قراءة ابن عباس ﷺ ومجاهد بالتشديد، ويقول: إنه رجل كان يلُتُّ السَّوِيقَ بالزيت أو بالسَّمْن، ويقدمه لمن يأتي إليه من الضيوف، أو مَرَّ عليه من الحجاج، ومن أكل منه سَمِن، فافتَتَنوا به، فلما مات دفنوه تحت الصخرة، فعبدوها معه، وذكر السهيلي اسمَ هذا الرجل.

وهذا من الإلحاد في أسماء الله؛ لأن قولهم: اللات، يعني: أخذًا من (الله)، أخذوا اسمَها مِن اسمِ الله، تعالى وتقدَّس عن قولهم، والعُزَّى: من العزيز، ومناة: من المنَّان، هكذا قال المفسرون.

وذكر ابنُ القيم أن هذا نوعٌ من الإلحاد، وهو اشتقاقُ أسماءٍ للمعبودات من أسماء الله جل وعلا، فهو إلحادٌ في أسماء الله وصفاته، ومن ذلك: تسميةُ هذه المعبودات آلهةً، والإلهُ: كل ما تَأْلَهُه القلوبُ: أي تعبُده وتقصِدُه.

قال: (عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ قَالَ :خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ) يعني

وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ! وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا ....

بعد فتح مكةَ، الرسولُ ﷺ بلَغه أن هَوازِنَ يجمعون له ليقاتلوه، وكانت سُنَّته أنه إذا سمِع بمَن يُريدُه، يَقصِدُه قبل أن يأتيَه، وهذا هو الواجبُ على المسلمين: أن يَغْزُوا الكفار قبل أن يغزوهم، ولكن الآن كثير من الناس يريد أن يصرِفَ المسلمين عن جهاد الكفار، ويزعمون أن القتال المشروع قتالُ الدفع فقط، ويسعَون إلى مهادنة الكفار، ويريدون أن يتعايَشوا سواءً، ولكن لن يستطيع أحدٌ إبطالَ ما شرَع الله وحَثَّ عليه في كتابه، فلا يبدلوا كلامَ الله وما جاء به رسولُ الهدى من سُنَّته، وتبعه خلفاؤه وأصحابُه والمسلمون بعده، حتى قال شيخُ الإسلام وغيرُه من العلماء: يجب على المسلمين أن يغزوا الكفار كلَّ سنة مرتين، فإن لم يكن يجبُ عليهم أن يغزوهم مرةً واحدة، فإن لم يفعلوا سلَّطهم الله عليهم وأخذوا بعضَ بلادهم، كما هو الواقعُ الآن، وأما ما يزعمون نسبتَه إلى شيخ الإسلام مِن أنَّ القتالَ للدفاع فقط، فقد كذَبوا عليه، فهو يصرِّح بخلاف ذلك، كما في كثير من كتبه ورسائله، وكذلك غيرُه من العلماء.

قال: (**وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ**) هذا من باب الاعتذار، وبيان أن غيره لا يجهل ذلك.

قال: (**وَلِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا**) أي يجلسون عندها؛ لأن الجلوس عند الشيء نوعٌ من العبادة، فالجلوسُ في المسجد عبادةٌ، ولهذا يقول الفقهاءُ: إذا دخل المسجد ينبغي أن ينويَ الاعتكافَ؛ لأن الاعتكاف هو خُلُوٌّ

وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ يُقَالُ لَهَا ذَاتُ أَنْوَاطٍ! فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا يَا رَسُولَ الله اِجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: الله أَكْبَرُ! إِنَّهَا اَلسُّنَنُ! قُلْتُمْ -وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ- ....

بربك جلا وعلا، وقَطْعُ مشاغل الدنيا.

قال: (وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ)، وينوطون بها: أي يعلِّقون بها أسلحتَهم لتنال البركةَ منها، لتكونَ أَمْضَى في ضربها، إذا ضَرَبت تَقتُل، وهذا شركٌ بالله جل وعلا.

(يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ) ذات: أي صاحبة؛ لأنهم ينوطون بها أشياءهم.

(فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ، فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله) فقلنا: أي قال بعضُنا.

(اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ) ظنوا أن هذا أمرٌ محبوب إلى الله وإلى رسوله ﷺ؛ لأنهم ما تمكَّن الإسلام في قلوبهم، لهذا: اعتذر عن ذلك، وقصد أن غيره لا يجهل هذا.

(فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: اللهُ أَكْبَرُ) وللترمذي: (سُبحانَ الله)، وكله صحيح، (الله أكبر) أي: الله أكبر أن يُجعل للمسلمين ذاتُ أنواط.

(إِنَّهَا السُّنَنُ) يعني: إنكم ستَسْلُكون سُنَنَ اليهود والنصارى، ولهذا قال: (قُلْتُمْ -وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ-..) هنا أقسم ﷺ وما طُلب منه القسم؛ ليكون ذلك تأكيدًا.

كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨] لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ). رَوَاهُ اَلتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ.

(..كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]) فهذا دليل على أن هذا الطلب من الشرك، ولكن: هل وقع هؤلاء في الشرك؟ نقول: هؤلاء ما فعَلوه، وإنما ظنُّوا أن هذا شيءٌ يكون محبوبًا، فطلبوا مِنَ الرسول ﷺ أن يأذَنَ لهم في ذلك، فبيَّن لهم أن هذا لا يجوزُ، فصُرِفوا عنه، ولكن: مجردُ الطلب نوعٌ من الشرك.

وقوله: (إِنَّهَا السُّنَنُ...) أي سنن الأمم السابقة من اليهود والنصارى، كما قال ﷺ: (لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ)، وقد وقع كما أَخبَر به ﷺ.

قال: (**العِشْرُونَ: أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّ العِبَادَاتِ مَبْنَاهَا عَلَى الأَمْرِ، فَصَارَ فِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَى مَسَائِلِ القَبْرِ** ...) في هذه المسألة تنبيهٌ على مسائلِ القبر؛ لأن مسائلَ القبر تُؤخَذ من أنه يُخبِر عن الله، ويخبر بالمَغيباتِ.

فكل ما جاء به الرسول؛ من الأمور المستقبلة، أو التي مضت؛ فهو من أمور الغيب التي مبناها على الأمر، ومِن ذلك ما يكون بعد الموت؛ سواءٌ مسائلُ القبر وغيرُها، كلُّ ما أخبر به وجب الإيمانُ به والعمل به.

فمسائلُ القبر لا بد أن يُسأَلَ عنها كلُّ مكلف؛ ولهذا قال: (**فِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَى مَسَائِلِ القَبْرِ؛ أَمَّا مَنْ رَبُّكَ؟ فَوَاضِحٌ**) أن الله هو الخالق المالك المتصرف، وكذلك

....

(مَنْ نَبِيُّكَ؟) واضحٌ من خلال الدلائل الدالة على أنه نبي، كأنه يقول: أما السؤالُ عن النبي ﷺ؛ فلا يكونُ للإنسان عذرٌ في هذا؛ فيُسأل؛ لأنه جاء بالأدلة الواضحة التي تدُلُّ على أنه نبي، أمور واضحة كالأمر الأول الذي هو: عبادة الله، فهو واضح وجلي، لكونه هو الخالقَ الرازقَ المتصرفَ الذي بيده كلُّ شيء، ولا يُمكِنُ أن يقولَ قائلٌ: إن شيئًا من هذه المخلوقات خَلَقَه فلان، أو خلقه مَلَك، أو خلقه رسولٌ، أو خلقه وليٌّ، أو جني، أو شيطان، بل هذا أمر أَقَرَّ به كلُّ الناس: أنه هو الخالق لكل شيء، والمالك لكل شيء، وهو المتصرف في كل شيء.

وكذلك مجيء الرسول ﷺ بالآيات الواضحات، كلها تدل على أنه نبي، ومن ذلك: الأمورُ التي تكون في نفسه، من كونه إذا دعا استُجيب له، وكونِه نصره الله، وأظهر أمره، كما أخبر به، ومن ذلك: إخبارُه بأمور الغيب، وكذلك: الذي يحدث بفعله ﷺ، يعني أنه سبب، مثل: نَبْع الماء من بين إصبعيه، ومثل تكثير الطعام القليل، حتى يكفي الناسَ الكثيرين، وغير ذلك من الآيات.

قال: (وَأَمَّا مَا دِينُكَ، فَمِنْ قَوْلِهِم: اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا...) هذا الذي دل عليه (اجعل لنا)، أي لأنه متقررٌ عندهم: أن العبادة مَبْناها على أمر الرسول ﷺ.

فلا تكونُ العبادة بالبدع ولا بالرأي، ولا بما يجدُ الناسَ عليه، بل لا بد أن تكون بأمرٍ مِنَ الله، فنبَّه على هذا، وليس أن هذا الحديث يدل على هذه الأمور،

....

وإنما يقول: فيه التنبيه عليها، وهذه المسألة أَشكَلَت على كثيرٍ ممَّن يشرحُ كتابَ التوحيد ويتكلم عليه؛ لأنهم يظنون أن المؤلف رحمه الله أخذ هذه من الحديث، وهو يقول: الحديث فيه التنبيه؛ لأنهم قالوا: (اجعل لنا).

❊❊❊

بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ الله

وَقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ [الأنعام: ١٦٢].

قال: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ الله) أي أنه من الشرك الأكبر، وأنه مُنافٍ للتوحيد الذي يجبُ على كل مكلَّف.

قال: (وَقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي﴾) الصلاةُ قَرَنها الله بالنَّسِيكة، والنُّسُك: هو الذبيحة، والذَّبح: المقصودُ به إراقةُ الدماء تقرُّبًا إلى مَن يُذبَح له، والذبيحة يجب أن تكون على اسمِ الله، وإلا تكونُ حرامًا؛ لقول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَأۡكُلُواْ مِمَّا لَمۡ يُذۡكَرِ ٱسۡمُ ٱللَّهِ عَلَيۡهِ﴾ [الأنعام: ١٢١]، ولا بُدَّ من ذلك، وهي تختلف؛ فإن كانتِ الذبيحةُ نسيكةً مثلَ الأضحيَّةِ والهَدْي الذي يُهدى إلى البيت؛ فهذه مِن أعظم القُرُبات، وهذه هي التي قُرنت بالصلاة.

والنُّسُك يُطلَق على الذبح، ويطلق على الدِّين، ويُطلق على فِعْل الحج والمناسكِ، ويُطلق على غير ذلك.

﴿لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ يعني أن أفعالي التي أفعلُها امتثالًا لأمر ربي خالصةٌ له، مخالفًا بذلك فِعلَ الجاهلية، وفعلَ مَن يتقرَّب إلى المخلوقين، وكذلك ﴿وَمَحۡيَايَ﴾

....

أي حياتي كلها فهي لله جلا وعلا؛ لأنَّ حياتَه ﷺ كلَّها جهادٌ، وكلها دعوة إلى الله تعالى، والدعوة من أفضل الجهاد، وكذلك ﴿وَمَمَاتِي﴾ أي كل ما أموت عليه من الأعمال التي أُمرت بها، فهي خالصةٌ لله جلا وعلا، لهذا قال: ﴿لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يعني أنها عبادةٌ له خاصَّة به، ليس لأحد فيها شيءٌ، وهو رب العالمين الذي يَرُبُّهم ورَبَّهم بما يُصلِحهم، وهو الذي أوجدهم، وهو الذي يَملِك التصرفَ فيهم؛ إن شاء هداهم، وإن شاء أضلَّهم، وإن شاء أحياهم، وإن شاء أماتهم.

﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ العالمين: جمع عالَم، وكل نَوْع من المخلوقات عالَم، فالإنسُ عالم، والجن عالم، والملائكة عالم، والطيور عالم، وكذلك غيرهما من البهائم، وهو رَبُّ الكلِّ، ومعنى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أنه هو الذي يملكهم ويتصرفُ فيهم، وهو الذي أوجدهم.

﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ فيما أفعلُه، وما أَحيا به، وما أموتُ عليه، بل هو الله وحده.

﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ أي أمرني ربي -جل وعلا- أن تكون أفعالي كلُّها خالصةً له، وأَمَر أمته بذلك، فأمرُه هو أمرٌ لأمته.

﴿أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ ؛ لأنه هو الذي تلقَّى أمرَ الله بالإسلام، فصار هو أولَ مسلم، ثم دعا إلى ما استجاب له واعتقَده وعمِل به ﷺ، ولهذا قال ﷺ:

وَقَوْلِهِ: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ۝٢ ﴾ [الكوثر: ٢].

«بَدَأَ الإِسْلَامُ غَرِيبًا، وَسَيَعُودُ غَرِيبًا كَمَا بَدَأَ»، فبَدَأ به، ثم تبِعه أبو بكر وبلالٌ رضي الله عنهما، كما في صحيح مسلم عن عمرِو بنِ عَبَسةَ السُّلَمي رضي الله عنه قال: كنتُ في الجاهلية أرى أن الناسَ ليسوا على شيء، فكنت أتقفَّر الأخبارَ، فكنتُ أذهبُ إلى مواردِ المياه، وأسألُ الرُّكبانَ: هل من خبَر؟ فلا أجد مَن يخبرني، فجاء رَكْبٌ مِن قِبَلِ مكة، فقلتُ: هل من خبر؟ قالوا: نعم، رجلٌ يُخبر خبرَ السماء، فقَعَدتُ على راحلتي، فوجدتُ الناس عليه جُرَآءَ، فتلطَّفت حتى دخلتُ عليه، فقلتُ: ما أنت؟ قال: «أنا نبيٌّ»، قلت: وما نبي؟ فقال: «أرسلني الله»، فقلت: وبِمَ أرسلك؟ قال: «بكَسْر الأصنام، وصِلَةِ الأرحام، وأن يُوحَّد اللهُ لا يُشرَك به شيءٌ»، قلتُ: هل معك على هذا أحد؟ قال: «حُرٌّ وعبد»، ومعه يومئذ أبو بكر وبلال، فقلت: إني متبعُك، قال: «لا تستطيعُ، ألا ترى ما أنا فيه؟ ولكنِ اذهب إلى قومك، فإذا سمعتَ بي قد خرجتُ فأتِني»، فلمَّا سمعتُ بأنه ذهب إلى المدينة ذهبتُ إليه، فقلت: أتعرفُني؟ قال: (نعم، أنت الذي لَقِيتَني بمكة)... إلى آخر الحديث.

المقصودُ أنه يقول: فقلتُ: هل معك على هذا أحد؟ قال: (حر وعبد)، ليس معه إلا أبو بكر وبلال.

(وقوله: ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ ﴾ هذا كقوله: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي ﴾.

﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ﴾ اجعل صلاتَك خالصةً لله جل وعلا، ولا يُقبَلُ إلا ما كان

....

خالصًا.

﴿وَٱنۡحَرۡ﴾ وانحر لله، والنَّحِيرةُ، هي الذبيحة.

وبهذا يَتبيَّن أن النحر يكونُ للإبل، والذبحَ يكون للضأن والبقر، وهذه بهيمةُ الأنعام: الإبل والضأن والمَعْز والبقر، هذه التي أنعمَ الله بها على عباده، بالنعم الكثيرة، ومِن أعظم النعم: أنهم يتقرَّبون بها إلى الله، رَزَقهم إياها، وطلب منهم أن يتقربوا بها إليه، فهو يعطي ويُثيب على عطائه، سبحانه عز وجل، تعالى وتقدس، لكرمه وَجُوده، ومثلُ ذلك: الصدقاتُ كلها: ﴿أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ [البقرة: ٢٥٤]، يَرزقُنا ويأمرُنا بأن نُنفِقَ من الرزق الذي أعطانا، ويُثيبنا على ذلك، هل تجد أحدًا يعطيك مالًا يقول: تصدَّقْ به وأثيبُك؟ وأُعطيك أكثرَ منه؟ لا يوجد، فكرمُ الله ﷻ على عباده واسعٌ، ولكن ابن آدم ظلومٌ كفور.

فهذه الذبيحة أيضًا إذا كانت للأكل، أو كانت لإكرامِ ضيفٍ، تُذبَح له ويُقدم اللحمُ، حتى يكرمه؛ لأن اللحم هو أطيب المأكولات، فيقدم له، فهذه لا بد أن يكون فيها عبادةٌ، وإلا يكونُ الإنسانُ قد وقع في الشرك، والعبادةُ معناها أنه لا بد أن يُذكر اسمُ الله عند الذبح، يقول: بسم الله، والله أكبر.

ثم كذلك يجب أن يَشكُر نعمةَ الله، وشُكرُ النعمة واجبٌ، ومن ذلك: كونُه

عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قَالَ: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ

يَعرِفُ أن هذا فضلٌ من الله ونعمةٌ، فيشكرُه عليها، وشكرُ النعمة: معناه: أن يستعملَها في طاعة الله، ويُثني على المُنعِم بها، ويتقوَّى بها على طاعته، وبذلك يكونُ شاكرًا.

فإذا ثَبَت أن النحيرةَ عبادةٌ لله يجبُ أن تكونَ خالصةً، تبيَّن أن جَعْلَها لمخلوقٍ هو من الشرك الأكبر، وكونُه يَذهب يذبحُ عند القبر، أو يذبح للجن، أو يذبح لمخلوق، فإنه يتقرَّب إليه بإراقة الدماء؛ لأن الميت ما يأكل، وإنما يريدون أن يتقربوا إليه بهذا، فهم يأكلون، أو يأكلها السَّدَنةُ الذي يزيِّنون الشركَ للناس.

فهذه من أكبر أنواع الشرك، الذي إذا دافَعَه الإنسانُ ومات عليه يكون خالدًا في جهنم، وبهذا يتبيَّن أن الذبح لغير الله شركٌ أكبرُ.

قال: (عَنْ عَلِيٍّ ﷺ قال: حَدَّثَنِي رَسُولُ اللهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ) هذا يدُلُّنا على أن المقصود بالكلمة: هي الجملة، وليست الكلمةَ التي تكون اسمًا أو فعلًا أو حرفًا، كما يقول النحاةُ.

قال: (لَعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ) هذه كلمة، أي جملة تامة تُفيدُ.

واللَّعْنُ من الله هو: الطَّرْد عن رحمته، وإبعادُ الملعون عن أن ينالَه شيءٌ من فضل الله، فمَن لَعَنه الله فهو الملعونُ المُبعَد المطرود، يكونُ مع إبليسَ؛ لأن إبليس لَعَنَ

اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، لَعَنَ الله مَنْ آوَى مُحْدِثًا، ....

قد لعنه الله، ومَن لُعِن من بني آدم صار مع إبليس، وهذا يدُلُّنا على عظم هذا الأمر.

وبدأ بالذبح لأنه هو أعظمُ المذكورات هنا، وهذا يدل على أن مَن ذبح لغير الله -جل وعلا- وقع في مُوجِب النار، وموجبِ البعد عن رحمة الله، ومِن أبعدِ الناس عن رحمة الله: المشركُ.

قال: (**لَعَنَ اللهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ**) هذا لأن حقَّ الوالدين مقرونٌ بحق الله، ومِن حق لله: الذبح؛ يجب أن يكونَ لله، بل العملُ كله يجب أن يكون خالصًا لله، وكذلك: حق الوالدين جاء مقرونًا في كتاب الله بعبادة الله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾[النساء: ٣٦] في آياتٍ عدةٍ، ولَعْنُ الوالدين قد يكونُ صراحةً من بعض الأشقياء -نسأل الله العافية - وقد يكون سَبَبًا؛ كما في الحديث: قيل له ﷺ: كيف يَلعَنُ الرجلُ والديه؟ قال: «يلعن أبا الرجل فيلعنُ الرجلُ أباه، ويلعن أمَّه فيلعن أمه»، وفي رواية: «**يَسُبُّ أبا الرجل فيسب أباه، ويسُبُّ أمَّه فيسب أمه**»، يعني: يكون سببًا في لعن والديه، فيكونُ ملعونًا بهذا؛ لأنه تسبَّب في لعن والديه، وحق الوالدين مقرونٌ بحق الله جل وعلا في آيات متعددة.

قال: (**لَعَنَ اللهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا**) أو (**مُحْدَثًا**) كلاهما صحيح، بكسر الدال

لَعَنَ اللهُ مِنْ غَيْرِ مَنَارَ ٱلْأَرْضِ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ

وبفتحها، ولكل واحدٍ معنًى، والإيواءُ: الحمايةُ، أو: كونُه قَبِلَه ورضِيَه وعمِلَ به، على التفسير الثاني الذي سيأتي.

فإذا كان محدِثًا فمعناه أن صاحبَ الحَدَث يكون في حمايته، ويحولُ بينه وبين أن يُقامَ عليه الحدُّ أو يُمنعَ من الإحداث، فيكونُ ملعونًا، وكذلك المُحدِث يكون معه ملعونًا.

أما إذا كان مُحدَثًا فيكون الحدثَ نفسَه، وإيواؤه عملُه والرضا به والدعوةُ إليه، فيكونُ مَن وَقَع في هذه ملعونًا.

قال: (**لَعَنَ اللهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ**)، منارُ الأرض: أي المراسيمُ والعلاماتُ التي تَفصِل بين الحقوق، وتغييرُها: إما بالتقديم والتأخير، أو بالإزالة، حتى يَلتبِسَ حقُّ هذا بحق هذا.

وقد يكونُ هذا لمصلحته، وقد يكونُ لمصلحةِ غيره، والمقصودُ: أنه ملعون، وهو ظالمٌ بذلك، وقد جاء في الحديث الصحيح: «**مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنْ أَرْضٍ، طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ يَوْمَ القِيامَةِ**»، يعني يُجعَل طوقًا له في رقبته، مَن يستطيع أن يحملَ الأرضَ؟ لكن ابن آدمَ ظلومٌ جهول. ويدخلُ في هذا تغييرُ علامات الطُّرُق التي تُوضَع للدلالة على المسالك، فالطريقُ سالك لكذا وكذا، وبعضُ العابثين يغيرها، أو يمحو ما فيها، وما أشبَهَ ذلك؛ لجَهْله، ولكونه ما عَرَف ما يجبُ عليه،

وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ...

فيكون داخلًا في اللعن.

ومِنَ العلامات العظيمة التي تكونُ دليلًا على السعادة ودليلًا للناس: الدعوةُ إليه، وأصلُ هذا: كتابُ الله وسنة رسوله ﷺ، فمَن غيَّر شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فهو ملعونٌ، داخل في ذلك؛ لأن هذا مِن أعظمِ معالمِ الدين ومعالم الحق.

ويدخلُ في ذلك: الدعاةُ الذين يدعون إلى الله، فالذي يَمنَعُهم، أو يقتلُهم، أو يَسْجُنُهم فهو ملعون، داخل في ذلك؛ لأنه أعظمُ من تغييرِ منار الأرض، وكلامُ الرسول ﷺ يكونُ جامعًا.

قال: (**وَعَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، وَدَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ**)، هذا يدلنا على أن سببَ دخول الجنة والنارِ الذبابُ، وأن هذا الذي دخل النارَ ما كان مُشرِكًا قبل هذا، وإنما كان مسلمًا؛ إذ لو كان مشركًا لكان دخولُه النارَ بالشرك أعظمَ من ذبح الذباب، وكذلك: دخولُ الآخَرِ الجنةَ، فهذا له ذنوبٌ، ولكن لمَّا صَبَرَ على هذه البليةِ عبادةً لله صار هذا مُكفِّرًا لذنوبه، ودخل الجنة منذ مات.

وهذا دليلٌ على قرب الجنة والنار من الإنسان، وهذا من العجب.

قَالُوا وَكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ الله ؟ قَالَ مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ

الصحابة ﷺ تعجَّبوا.. ذباب! تافه، مِن أخسِّ الأشياء، ولا أحدَ ينتفعُ به، بل هو مُؤذٍ فقط، ومع ذلك صار سببًا لشقاء رجلٍ وسعادةِ آخَرَ، ثم هذا لَمَّا كان عجيبًا سألوا: كيف هذا يا رسولَ الله؟ قال: (مَرَّ رَجُلَانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لَا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا) بالقوة وإلا يقتلونه، (فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ، قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُهُ)، التقريبُ يكونُ في شيء يُؤكَل، (قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا)، فأرادوا صورةَ الأمر، وأرادوا فعلَ القلب، الذي هو تقرُّبُ القلب إلى هذا الصنم، بالذبح له متقربًا إليه، فذَبَح تخلُّصًا مِن شرِّهم، فدَخَل النار، يعني أنه مات بعد ذلك ودخل النار.

والآخر لما قالوا له: قرِّب، قال: ما كنتُ لأقرب شيئًا لغير الله جل وعلا، فضربوا عنقَه، قتلوه صابرًا؛ لأنه موحِّد لله عز وجل، فكُفِّرت عنه سيئاتُه ودخل الجنة بذلك.

والذي يَظهَر -والله أعلم- أنه ليس في هذه الأمة، وإنما هو في الأمم السابقة؛ لأن في مثل هذه القضية يجوزُ -وليس هو بواجب- للرجل أنه يوافقهم في الظاهر إذا كان قلبُه مطمئنًّا بالإيمان، حتى يتخلَّص مِن شرِّهم، كما قال الله جل وعلا: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل: ١٠٦]، أما الذين قَبْلَنا فيجبُ على الواحد منهم أن يصبرَ حتى يموتَ، والإكراهُ غيرُ معفُوٍّ عنه عندهم.

حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لِأَحَدِهِمَا قَرِّبْ قَالَ لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُهُ قَالُوا لَهُ قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلُّوا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ وَقَالُوا لِلْآخَرِ قَرِّبْ فَقَالَ مَا كُنْتُ لِأُقَرِّبَ لِأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ ﷻ فَضَرَبُوا عُنُقَهُ؛ فَدَخَلَ الْجَنَّةَ. رَوَاهُ أَحْمَدُ

قال: (رَوَاهُ أَحْمَدُ)، يعني في كتاب الزهد؛ والعلماء عندهم إذا قيل: «رواه الإمام أحمدُ» ينصرفُ الإطلاقُ إلى «مسند الإمام أحمد»، الذي هو جامعٌ لأحاديثَ كثيرةٍ جدًّا، وهو بحر كبير، ولكن هذا الحديث رواه في كتاب الزهد.

قال: (**السَّابِعَةُ: الفَرْقُ بَيْنَ لَعْنِ الْمُعَيَّنِ وَلَعْنِ أَهْلِ الْمَعَاصِي عَلَى سَبِيلِ الْعُمُومِ**)، يعني في هذه المسألة: أن لعنَ النوعِ في أصحاب المعاصي جائزٌ، ولكنْ: لعنُ المعيَّنِ بعينه فيه خلافٌ بين العلماء، والصحيحُ: جوازُه؛ لِمَا جاء عن النبي ﷺ أنه لعن أناسًا بأعيانهم.

أما العمومُ، فكأن تقولَ: «**لعن الله السارقَ يسرقُ البيضةَ فتُقطَعُ يدُه، ويسرقُ الحبلَ فتُقطع يدُه**»، «**لعن اللهُ شاربَ الخمر**»، «**لعن الله آكِلَ الربا**»، وهكذا، بدون تعيينِ شخصٍ.

ثم يُقال أيضًا: من الفوائد: أن الذبح لغير الله، ولو كان بشيء تافه، وقُصِد التقرب إليه، فهو مُوجِبٌ للنار؛ لأنه شرك أكبرُ، ولا فرق بين كونه يَذبح جملًا أو يذبح دجاجة، لجِنِّي أو لغيره.

❋ ❋ ❋

بَاب لَا يُذْبَحُ لِلَّهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللَّه

....

قال: (بَابُ لا يُذْبَحُ لله بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ الله)؛ لأن التشبُّهَ بالمشركين والكافرين ممنوعٌ شرعًا، و"مَنْ تشبَّه بقومٍ فهو منهم"، وكذلك التشبه بالأفعال، كونُك تتشبَّهُ بأفعال المجرمين، أيضًا هذا فيه نوعٌ مِنَ التقرب إليه به، والقلبُ قد يميل إلى مَن يُشابِهُه؛ ولهذا: إذا رأيتَ وأنت مسافرٌ في بلادٍ غيرِ بلادك، رأيتَ مَن يلبس لباسَك، تجدُ ميلَ قلبِك إليك، وسكونَك إليه، وهذا أمرٌ طَبَع الله عليه العبادَ، وهذا يدُلُّ على أن المسلم يجبُ أن يكون مفارقًا للمشركين ظاهرًا وباطنًا، بأقواله وأفعاله، وكذلك في بدنه إذا أَمْكَنَ ذلك.

ثم الذبحُ لله بالمكان الذي يُذبَح فيه لغير الله ليس شركًا، وإنما هو معصية؛ لأنه قد يكونُ مُوهِمًا أنه يذبح لغير الله؛ لأن المكان عُرْفٌ، فيغتر به غيرُه، أو يكون فيه الموافقةُ في المكان وفي الفعل، فيكون أيضًا من المحرمات، كما في الحديث: «مَن تشبَّه بقوم فهو منهم».

ثم استدل المؤلفُ -من باب القياس- بالآية التي نزلت في مسجدِ الضرار، ومسجدُ الضرار: مسجدٌ بناه المنافقون، أصحابُ أبي عامرٍ الفاسق، الذي يُسمُّونه: راهبًا، وسمَّاه الرسولُ ﷺ: فاسقًا، وهرَب ووعَد أصحابَه أنه سوف يأتي بالجنود لقتال رسول الله ﷺ، فأمرهم أن يَبْنوا له مكانًا، إذا أَرسَل رسلًا أو كُتُبًا

وَقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾ [التوبة: ١٠٨] الآية.

تكونُ قد عَرَفت هذا المكان، فيكون ذلك عونًا على الكفر؛ لهذا قال جل وعلا: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا ﴾[التوبة: ١٠٧] أي مُضارَّةً لأهل قُباءَ؛ لأنه كان بجوار مسجد قباء، ولما قيل لهم، قالوا: بنيناه للَّيلةِ المَطِيرة أو الباردة، وللضعيف أو المريض أو الكبير، وزعَموا كما يزعم المنافقون هكذا أن أفعالَهم للإصلاح، وهي للإفساد بلا شك.

فاتخذوا مسجدًا ضرارًا وكفرًا وتفريقًا بين المصلين؛ لأنَّ بناءَ مسجدٍ بجوار مسجدٍ لا يجوزُ؛ لأنَّ فيه تفريقًا، ثم أتَوْا للنبي ﷺ وهو يتجهَّز للسفر إلى غزوةِ تبوكَ، فقال ﷺ: «نحن الآن على جَنَاحِ سفر، لكن إذا رجَعتُ أصلي لكم فيه»، يريدون أن يكونَ ذلك حجةً لهم، فلما رجَع وصار قُربَ المدينة أنزل الله عليه هذه الآيات، فدعا قومًا من بني عَوْف، من أهلِ قُباءَ، وأمرهم أن يذهبوا ويحرقوا المسجد على من فيه، فصاروا يَشتدُّون، واحدٌ يأتي بالحطب، وواحد يأتي بالنار، فحرقوه، فهكذا مساجدُ الضرار يجب أن تحرق.

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾، قيامُ الرسول ﷺ في هذا المسجد لو حصل، من المعلوم أنه يقومُ فيه لله، ومع ذلك نهاه الله: ﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) ﴾، هذا في مسجدِ قباءَ، وقد صح في «صحيح مسلم» وغيرِه،

....

أنه سُئل النبي ﷺ: ما المسجدُ الذي أُسِّس على التقوى؟ قال: «مسجدي هذا»، وهذا معناه: أن مسجدَه أولى أن يكون أُسِّس على التقوى، ولا ينافي أن تكون الآيةُ نزلت في قباء، وقد سأل بني عوف، أهلَ قباء: «ما هذه الطهارةُ التي أثنى الله عليكم فيها؟» قالوا: ما هو إلا أن لنا جيرانًا من اليهود، رأيناهم يغسلون أدبارَهم بعد قضاء الحاجة، ففعلنا ذلك، فقال: «هو ذاك».

وهذا معناه أن الصحابة ﷺ كانوا يكتفون بالحجارة، يَسْتَجْمرون بالحجارة ولا يستنجون بالماء، وهذا أمرٌ متفق عليه، بلا خلاف بين العلماء: مَن استجمر بثلاثة أحجار مُنْقِية فإنه لا يَلزَمُه أن يغسل مكانَ الخارج، ولكن غَسْله أفضل، كما تدل عليه هذه الآية.

﴿ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ﴾، قيامُه فيه بأن يكونَ مصليًا لله، فنهاه عن القيام؛ لأنه كان محلَّ معصية، فهذا يدلنا على أن المعاصي تؤثِّر في الأماكن، كما قال الله جل وعلا: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩]؛ يقول المفسرون: ﴿السَّمَاءُ﴾: أي المكان الذي يَصعَد منه عملُه، يبكي عليه إذا مات، ﴿وَالْأَرْضُ﴾: المكان الذي يسجد عليه ويتعبَّد فيه، يبكي عليه إذا مات، أما أهلُ المعاصي والغفلةِ الذين لا يعبدون الله، فلا تبكي عليهم لا سماءٌ ولا أرضٌ.

....

ولَمَّا ذهب ﷺ إلى تبوكَ، ومَرَّ على ديارِ ثمودَ، قنَّع رأسَه وأسرعَ، وقال: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذَّبين إلا أن تكونوا باكِينَ، لئلَّا يُصيبَكم ما أصابكم»، وقد سبَقه بعضٌ من الصحابة ﷺ، وأخذوا شيئًا من الماء وعجَنوا عجينًا، فلما علِم قال: «لا تأكلوه، واعلِفُوه البهائمَ»، فنهاهم أن يأخذوا شيئًا من مائهم، إلا مِن بئرِ الناقة، وكانت بئرُ الناقة معروفةً في ذلك الوقت، أما اليومَ فهي غيرُ معروفة.

ومثل ذلك: ما كان يفعلُه في الحج ﷺ لَمَّا جاء إلى وادي مُحَسِّر أسرعَ، وهذه هي السنة؛ لأن وادي محسر هو المكان الذي أُصيبَ فيه أصحابُ الفيل، جاءتهم الطيورُ ورَمَتْهم بحجارة من سجيل، وأهلكهم الله في هذا المكان، فصار محلَّ معصية.

فإذَنْ الطاعةُ لها أثر في صاحبها ومكانه، والمعصيةُ مثل ذلك، وأفضلُ الأماكن بيوتُ الله، المساجدُ التي يُذكَر فيها اسمُ الله، ويُسبَّح له بكرةً وعشيةً فيها، وشَرُّ الأماكن الأسواقُ، محلُّ اللهو والغفلة وإغارة الشياطين على الناس.

﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ﴾ (التَّقْوَى): هي طاعةُ الله وطاعةُ رسوله ﷺ.

﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ﴾ ، والذي خَطَّ مسجدَ قُباءَ هو رسول الله ﷺ، مِنْ أولِ يومٍ وصَل مِن مكةَ مهاجرًا، أولَ ما نزل على أهلِ قباء.

وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ اَلضَّحَّاكِ ﷺ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلاً بِبَوَانَةَ، فَسَأَلَ اَلنَّبِيَّ ﷺ؟ فَقَالَ «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ اَلْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟»

﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾، فيه دليل على إثباتِ المحبَّة لله، إن الله يحب من يكونُ متقرِّبًا إليه بما يأمرُ به ويرضاه، فهو يحب ويَكرَهُ، ويمقتُ جل وعلا، هذه من صفاته التي يجب أن تُثبَت له تعالى وتقدس.

قال: (وَعَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ ﷺ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبَوَانَةَ)، والسبب أنه: نَذَر إن وُلِد له مولودٌ ذَكَرٌ أن يَذبَح خمسين شاةً أو خمسين ناقة ببوانة، فسأل النبيَّ ﷺ فاستَفْصَل منه، هل كان بها وَثَن أو عيدٌ من أعياد الجاهلية، فيدُلُّنا على أن الإنسان لا يجوزُ أن يُقدِم على فعل من الأفعال حتى يعلمَ الحُكمَ فيه؛ لأنه نذَر هذا الشيء، ولم يُنَفِّذْ حتى عرَف الحكم، فهذا هو الواجبُ على كل مسلم؛ أنه لا يُقدِم على فعلٍ من الأفعال التي يفعلُها تديُّنًا وعبادةً حتى يعرفَ الدليلَ فيها.

قال: (هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟)، الوَثَنُ: اسمٌ لما يُعبَد من دون الله؛ مِن شجرٍ أو حجرٍ أو قبرٍ، والصَّنَمُ: ما كان على صورةِ حيوانٍ أو إنسان، وهذا هو الفرقُ بين الوثن والصنم، و«أَوْثَان الجَاهِلِيَّةِ» يعني أنها كثيرةٌ منتشرة في الأرض.

قال: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِم؟» العيدُ: اسمٌ لما يعودُ ويتكرَّر بتكرُّر

قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.

الزمن، أو يُعاوَد بالفعل ويُكرَّر العَوْدُ إليه، ولا بد أن يكون فيه أفعالٌ؛ إنشادُ أشعارٍ أو ما أشبَهَ ذلك من الأمور التي كانوا يفعلونها، مثل: سوق عُكاظَ وذي المَجَازِ وغيرها.

وأعيادُ الجاهلية كثيرةٌ، وزادت الآن في جاهليةِ الوقت الحاضر، ازدادت الأعيادُ بكثرة، والمسلمُ ليس له إلا عِيدانِ: عيدُ الأضحى وعيد الفطر، أما الجُمُعة فهو عيدٌ أيضًا لكن لا تُعطَّلُ الأعمالُ فيه، وفي هذا دليلٌ على أن الإنسان إذا سُئل يجبُ أن يَستفصِلَ ويسأل عن الأمور المُجمَلة التي يَحتمِلُها الكلامُ؛ لأن الحكم على الشيء فرعٌ عن تصوُّره، فلا بد أن يُتصوَّرَ الشيءُ تمامًا ثم يُحكَمَ عليه.

قال: «**قَالُوا: لَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: أَوْفِ بِنَذْرِكَ؛ فَإِنَّهُ لَا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللهِ**...»، هذا يدُلُّنا على أن النذر في مكان يُعبَد فيه غيرُ الله، هو نذرُ معصية، وأن الوفاء بهذا النذر لا يجوزُ، بل هو محرمٌ، وكذلك لو كان فيه عيدٌ لا يجوز، لو نَذَر أنه يذهب إليه، أو أنه يصليَ فيه، أو يجلسَ فيه، أو ما أشبَهَ ذلك، فلا يجوزُ أن يفِيَ بنذره؛ لأنه نذرُ معصية.

والنذر: هو إيجابُ عبادةٍ لا تجبُ عليه؛ أن يوجب على نفسه عبادةً غيرَ واجبة في الشرع، والنذرُ: مكروهٌ في الأصل؛ لقول الرسول ﷺ: «النذرُ لا يأتي

....

بخير، وإنما يُستخرَج به من مال البخيل»، فالنذر لا يقدِّم ولا يؤخِّرُ، وبعضُ الناس يظن إذا نَذَر يحصُلُ له مقصودُه، كأن يَنذِرَ إن نجَح أن يفعلَ كذا وكذا، وقد يقعُ في حرج؛ لأنه مثلَ ما قال الرسولُ ﷺ: «لا يأتي بخير»، فقد يَنذِرُ ويحصُلُ له مرادُه، ثم يَعجِزُ عن الوفاء، أو يتساهل، فيقع في الإثم، ولكن: إذا نَذَر نَذْرَ طاعةٍ، فيجب أن يأتي بها، فالوفاءُ هو الواجب، وليس النذر، يعني: إنشاءُ النذر وابتداؤه مكروهٌ، وإذا كان طاعةً فإنه يجبُ الوفاءُ به، وإذا كان لمعصية: لا يجوز الوفاء به.

أغار قومٌ من المشركين على سَرْحِ المدينة (أي المواشي التي تسرح للرعي)، فأخذوه، وكان فيه امرأةٌ من الأنصار، سارت راكبةً على بعيرها، فلمَّا أمسى الليلُ وباتوا وأناخوا السَّرْحَ وعقَلوه، ذهبت تبحث عن بعير لتهرُبَ، فكلما أتت إلى بعير رغا، حتى أتت ناقةَ رسول الله ﷺ التي لم تَرْغُ، فركبتها وهربت، فلحِقوها فما استطاعوا، فنَذَرت أنها إذا نَجَتْ فعليها أن تَنحَرَها، فأخبرتِ الرسولَ ﷺ بذلك فقال: «بِئسَ ما جَزَيتيها! تنجين عليها وتنحرينها... ولا نَذْرَ لابن آدمَ فيما لا يَملِكُ»، فلا وفاء لهذا النذر.

فكذلك: إذا كان الإنسانُ لا يملِكُ الشيءَ؛ كأن يَنذِرَ أن يذبحَ شاةَ فلان، أو ينفق من مال فلان، فلا يجوزُ الوفاءُ به، وكذلك المعصية، نذر أن يشربَ الخمر، أو نذر أن يعُقَّ والديه، أو قريبَه، أو أنه لا يأتي يصلي بالجماعة، فإن هذا نذرُ معصية لا

....

يجوزُ أن يفيَ به، ولكن على القول الصحيح: أنَّ عليه كفارةَ يمين، كما هو معروف.



بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ الله

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧] .

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾ [البقرة: ٢٧٠] .

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ الله

قال: «بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ الله»، النذرُ سَبَق أنه عبادةٌ، وإذا ثبت أنه عبادة فجَعْلُ العبادة لغير الله -جل وعلا- من الشرك الأكبر.

استدل المؤلفُ على أن النذر من الشرك بقوله جل وعلا: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ حيث أثنى الله -جل وعلا- على المُوفِينَ بالنذر، فدل على أنه محبوبٌ لله مأمورٌ به، فإذا كان كذلك فهو عبادةٌ، وإذا ثَبَت أنه عبادة فصَرْفُها لغير الله -جل وعلا- شركٌ، هذا هو وجهُ الاستدلال.

ومثل ذلك الآية الثانية: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ في ضِمْن قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ أي: يجازيكم عليه، فدل على أنه يثيبُ عليه، فهو يرضى به، فهو إذن عبادة، فإذا كان عبادةً فجَعْلُه لغير الله جل وعلا من الشرك.

قال: «وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: مَنْ نَذَرَ أَنْ

فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ».

يُطِيعَ الله فَلْيُطِعْهُ ...»، هذا الحديثُ فيه تقييدُ الذي يجب أن يوفي به أن يكون عبادةً لله يُثابُ عليها؛ وهو ما كان طاعةً، وأما ما كان معصية فإنه لا يجوزُ الوفاء به؛ لأنه معصية.

والنذرُ قد سبق أنَّ إنشاءَه وابتداءَه مكروهٌ؛ لأنه كما قال المصطفى ﷺ: «**لا يأتي بخير، وإنما يُستخرَج به من مال البخيل**»، ولا يُقدِّم ولا يؤخِّر، وإنما الواقعُ هو ما كتبه الله -جل وعلا- وعلمه، قبلَ وجودِ الناذرِ والنذرِ، فالنذر لا يغيرُ شيئا من الواقع، ولكن قد يُوقِعُ الإنسانَ في الإثم، من حيث إنه ينذِرُ ثم لا يفي، فإذا لم يفِ فقد أثِم، ومِن هنا يُكرَه.

والنذرُ تدخلُه الأحكامُ الخمسة: فقد يكونُ واجبًا، أي الوفاء به، وقد يكون الوفاءُ به حرامًا، وقد يكون الوفاءُ به مستحبًّا، وقد يكونُ مكروهًا، وقد يكون مباحًا، حَسَبَ الأحكام، وقد ذكرها بعضُ العلماء في كتب الفقه.

فإنشاءُ النذر وابتداؤه يكونُ مكروهًا، لكن يجبُ أن يفي به إذا كان طاعة، أما إذا كان معصيةً فلا يجوز الوفاءُ به، وسبق أنه إذا كان معصية فلا يجوزُ الوفاء به، ولكن يكون عليه كفارةُ يمين، على القول الصحيح الذي دل عليه حديثُ رسول الله ﷺ.

❋❋❋

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

قال: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ الِاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ الله)، الاستعاذةُ عبادةٌ، فيجبُ أن تكونَ لله وحده جل وعلا، ومعناها: اللجوءُ والاحتماء من المكروه، ولا حاميَ للإنسان إلا الله جل وعلا، فإذا خاف الإنسانُ أمرًا من الأمور، سواءٌ كان من أمور الآخرة أو الدنيا، فإنه يلوذُ بجانب الله جل وعلا، بعد ما يمتثل أمر الله جل وعلا.

قال: (وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾) بيَّن جل وعلا أنَّ الجنَّ منهم رجال، وكذلك منهم نساء، وأنهم يفعلون أفعالًا باختيارهم، فهم لهم عقولٌ، ولهم اختيارات؛ ولهذا كُلِّفوا، وأن مِن الإنس مَن يعوذُ بهم ويلتجئُ إليهم من المكروه.

وسببُ نزول هذه الآية كما هو معلوم: أن المشركين كانوا إذا سافر أحدُهم ثم آواه الليلُ، يصوِّت ويقولُ: أعوذُ بسيِّد هذا الوادي من سفهاء قومه، ومقصودُه بسيد هذا الوادي كبيرُ الجن ورئيسُهم، فأنزل الله جل وعلا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

﴿فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ زادوا: فِعْل، والضميرُ مفعول، ولكن زادوا فيه أيضًا

وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيمٍ قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا

ضميرٌ ثان، ﴿رَهَقًا﴾ مفعول، وضمير الفاعل يجوز أن يكون للجن، يعني: زاد الجنُّ العائذين بهم خوفًا وهلعًا؛ لأنهم صاروا يعوذون بهم، فتجبَّروا وتكبروا وقالوا: سُدْنا الإنس والجن، ويجوزُ أن يكون الضمير للإنس، ويكون المعنى: فزاد الإنسُ الذين عاذوا بالجنِّ الجنَّ رهقًا، حيث صار هذا سببًا لتكبُّرهم وتجبرهم، والصحيحُ أن المعنى يشمل الأمرين، كل واحد زاد الآخر شرًّا وإرهاقًا وأوقعه في الشرك، فهذا هو المقصود: أن العائذ بمن لا يشاهدُه، أو بمَن لا يقدر على إعاذته، أو بمخلوقٍ ضعيف: أنه يكون مشركًا.

والاستعاذة بالجن وغيرِهم مِنَ الأموات، أو ممن لا يستطيعُ، إذا استعاذ بهم فإنه يكون مشركًا، ولكن إذا استعاذ الإنسانُ من إنسان يقول: أعوذ بالله من شَرِّك، وَجَب عليه أن يعيذه، أما الاستعاذة بالإنسان نفسِه فهي شركٌ على كل حال، سواءٌ كان قادرًا أو غيرَ قادر؛ لأن الاستعاذة عبادةٌ أمر الله -جل وعلا- بها، كما قال جل وعلا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾[الفلق: ١]، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [الناس: ١]، فيجبُ أن تكون الاستعاذةُ بالله وحده، فإذا جُعلت لمخلوق، فقد وقع ذلك المستعيذُ في الشرك.

قال: (مَنْ نَزَلَ مَنْزِلًا)، الظاهرُ أن هذا يُقصَد به المسافرُ، ويجوزُ أن يكون عامًّا لمنازلِ البلد ومنازلِ السفر، إذا نزل فيه وقال هذا الكلامَ صادقًا مؤمنًا بذلك

فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ » رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

مخلصًا؛ فإنه لا يضرُّه شيءٌ حتى يرتحلَ، وهذا دليلٌ على أن الاستعاذة يجب أن تكون بالله أو بصفاته؛ لأن الكلماتِ صفاتٌ لله جل وعلا، وكلماتُ الله تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: كلمات قولية دينية أمرية، كالقرآن والتوراة والإنجيل ونحوهما.

القسم الثاني: كلمات كونية شرعية قدرية. وكلاهما من صفات الله، ولكن الكونية القدرية لا أحدَ يتجاوزُها، وهي التي جاء الحديثُ فيها: «**أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ التي لا يُجاوزُهن بَرٌّ ولا فاجر**»، وهي كلماتُه الكونية القدرية.

يجوز أن يستعيذَ الإنسانُ بهذه وبهذه، فكلها من صفات الله جل وعلا.

والمستعيذ بالصفة هو مستعيذٌ بالموصوف تعالى وتقدس، كما أن السائل يسأل بالصفة، وقد استدلَّ العلماءُ بهذا الحديث على أن كلام الله غير مخلوق؛ لأن الرسولَ ﷺ أخبر أن الاستعاذة بمخلوق شركٌ، وأخبر خبرًا حقًّا أن مَنِ استعاذ بكلمات الله، أعاذه الله وحماه أن يصيبَه مكروهٌ، وبيَّن فضلَها، ثم هذا الذي ذكره أنه (لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ) ليس لمن يقولُها على سبيل التجرِبة، وإنما هو لمن يقولها صادقًا مخلصًا مؤمنًا بها، فمَن كان كذلك فإنَّ خبرَ الرسول لا يتخلفُ عن مُخبَره،

....

(لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ).

قال: (الخامِسَةُ: أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَنْفَعَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ، مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ ...)، مقصودُه بهذا: قولُ الله جل وعلا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾؛ يعني أن الإنسيَّ إذا استعاذ بالجني فقد ينتفعُ بشيء من ذلك؛ لأن الجنَّ مثلًا يَمنَعُ بعضُهم سفهاءَ الجن أن يأتوا إليه؛ لأن هذا أمرٌ مظنون، قد يكونُ وقد لا يكون، فإذا وُجِد فلا يدل على جوازه، بل يكون محرَّمًا، ومن ذلك الأمورُ التي حرَّمها الله جل وعلا، فإنه وإن كان فيها نوعٌ من النفع فإنها محرمة، كما قال جل وعلا: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ [البقرة: ٢١٩]، الإثمُ إذا كان أكبرَ وأكثرَ فإنه يكون محرمًا وممنوعًا.

❋ ❋ ❋

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ

....

قال: (بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ الله أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ)، الاستغاثةُ أخصُّ من الدعاء، فهذا مِن عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ؛ لأن الاستغاثة دعاءٌ خاص، دعاء مِمَّن وقَع في كَرْب، أما الدعاء فهو عام، قد يكون ممن هو في الرخاء، وقد يكونُ ممن وقع في الكرب، أو غير ذلك.

ومقصودُ المؤلف أن يبيِّن أن الدعاء بنوعَيْه: دعاءِ المسألة ودعاءِ العبادة، كلاهما يجبُ أن يكون خالصًا لله جل وعلا، فمَن جعله لغير الله؛ مِن ميتٍ أو نبيٍّ أو مَلَكٍ أو غيرِه من المخلوقات؛ فقد وقع في الشرك.

وهو بهذا يرُدُّ على الذين يقولون من عُبَّاد القبور: إن دعاء المسألة ليس من الشرك، وإنما الذي يكونُ من الشرك دعاءُ العبادة، وهذا ضلالٌ بيِّن، فلا فرقَ بين كونه مسألةً وكونه عبادة؛ لأن السائل لا بد أن يكون عنده شيءٌ من الذل والخضوع والعبادة، وكذلك العابد: لا بد أن يكون سائلًا، فيَلزَم من دعاء المسألة أن يكون عابدًا، ويلزم من دعاء العبادة أن يكون سائلًا، فكلاهما يَستلزِمُ الآخَرَ، وقد فُسِّر قولُه جل وعلا: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ ﴾ [غافر: ٦٠] بهذا وبهذا، وكذلك قولُه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا

وَقولُ الله تَعالى: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ

دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ [البقرة: ١٨٦]، إلى غير ذلك.

﴿ وَلَا تَدْعُ ﴾، الأمرُ وُجِّه إلى النبي ﷺ، وغيرُه تَبَعٌ له، فإذا كان مثلًا هذا لو وَقَع منه، فإنه يكون من الظالمين أي المشركين، فغيرُه من باب أولى وأحرى.

وكل مخلوق هذه صفتُه: أنه لا يضر ولا ينفع، فالضارُّ النافعُ هو الله جل وعلا، أما كونُه قد يكون سببًا، فالسبب يخلُقه الله، وهو الذي يجعله سببًا، ويجعله مُقتَضِيًا لمسببَّه، وإن شاء لم يقتض المسبَّب.

﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ لا دعاءَ مسألةٍ ولا دعاءَ عبادةٍ، والفَرْقُ: أن دعاء المسألة أن تسألَ شيئًا معينًا، كأن تقولَ: رَبِّ: أسأُلك الجنة، أو تقول: رب: أسألك رزقًا حلالًا وعملًا صالحًا، أما دعاءُ العبادة فهو أعمُّ من هذا، مثل أن تصليَ أو تصومَ أو تَصَدَّقَ أو تحُجَّ أو تذكر الله أو تكبِّره أو تقرأ القرآن، فكلُّ عمل تَعمَلُه أَمَرَ اللهُ به فهو عبادةٌ ودعاءُ عبادة؛ لأن معنى ذلك: أنك ترجو بهذا إثابةَ الله وتخاف عقابَه، كل ما كان بهذه الصفة فهو دعاءُ عبادة، فدخل فيه العبادة كلها.

﴿ فَإِن فَعَلْتَ ﴾ أي دعوتَ مخلوقًا؛ لأن كل مخلوق هذه صفته: لا يضر ولا ينفع.

إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ﴾[يونس: ١٠٦ - ١٠٧]

﴿فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ يعني من المشركين، والشركُ هو أعظمُ الذنوب.

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾: بيَّن أن الذي يكشِفُ الضرَّ هو كذلك الذي يُنِيل النفعَ، ولا يكون إلا الله جل وعلا.

﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، كلُّ الخلق لوِ اجتمعوا على أن يضُرُّوك بشيء لم يُرِدْك الله به لا يستطيعون، ولو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يرده الله لك لم يستطيعوا ذلك، فالأمر كلُّه بيد الله، ولكنَّ كثيرًا من الناس يتعلَّقُ بالسبب الذي جعله الله سببًا، فيَعتمِدُ عليه فيكونُ مشركًا بالله جل وعلا؛ لأن السبب يجب أن يُفعَل على أنه سبب، ويُفعل إذا كان سببًا شرعيًّا؛ لأن مِنَ الأسباب ما لا يجوزُ فعلُه؛ لأنه محرم، فتفعلُه على أنه سبب، وتعتمدُ في حصول المقصود الذي تريدُه على الله -جل وعلا- وحده، والاعتمادُ هو فِعلُ القلب، ولكن لا يُترك السببُ، فالسبب يُفعل على أنه سبب فقط، أما حصولُ المراد فإنه لا يكونُ إلا بالله جل وعلا، فيُعتمد على الله جل وعلا؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾.

﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي كثيرُ المغفرة وكثيرُ الرحمة لمن تعرَّض لذلك، فهو -جل وعلا- يصيبُ بفضله مَن يشاء، كما أنه يعذب من يشاء، فالأمرُ كلُّه له،

وقوله: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ﴾ [العنكبوت: ١٧]

والملك كله بيده، تعالى وتقدس.

قال: (وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوۡثَٰنٗا وَتَخۡلُقُونَ إِفۡكًاۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾) كل مَن عُبد مِن دون الله فهو لا يَملِك شيئًا؛ لأنه مخلوق، والمخلوق لا يملك لنفسه شيئًا، فكيف يملك لغيره.

﴿لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾، الرِّزْقُ: قد يكونُ الذي يُتقَوَّت به، كالمأكول والمشروب ونحوِه، وقد يكونُ ما هو أخصُّ من هذا، الذي فيه هدايةُ القلب والدلالةُ إلى الخير، فهذا كله لا يكون إلا بيد الله جل وعلا.

﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾، (عِندَ) ظَرْفٌ، والفعل المؤثر فيه: (فابتغوا)، و(الرزق) مفعولُه، وهذا الظرفُ حقُّه في اللغة أن يكون متأخرًا عنِ المفعول؛ لأنه فَضْلة، وإذا قُدم فهو لغرض مقصود، كقوله جل وعلا: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، الأصلُ: نعبدُك، و ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾، الأصلُ: نستعينُك، فلما قُدم المفعولُ دل على الحَصْر، يعني حصرَ العبادة في الله جل وعلا، وهكذا في هذه الآية، يعني المقصود: أن يكونَ أصلُ طلب الرزق من الله.

﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ لا عند غيره، ودل هذا على أن طلبَ الرزق من الله -جل وعلا- عبادةٌ، يُثيبُ عليها؛ لأنه أمر به، وعَطَف عليه العبادةَ، قال:

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥)﴾ [الأحقاف: ٥] الآيتين.

﴿وَاعْبُدُوهُ﴾.

﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ لأنه هو الذي خَلَقكم، وهو الذي ربَّاكم بالنِّعَم، وهو الذي يكثر لكم ما تحتاجون إليه من أمور الدنيا وغيرها، فيجب أن تشكروه، فالشكر واجب.

﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ يعني سوف يكونُ مآلُكم ومُنقلَبُكم إليه، فيحاسبكم؛ إن كنتم شاكرين عابدين له أثابَكم أفضلَ إثابة، وإن كنتم بخلاف ذلك فإنكم لا تُعجِزونه، فسوف يعذبكم.

(وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ أي لا أحدَ أضلُّ ممن هذه صفتُه، لأنه بَلَغ في الضلالة نهايتَها.

﴿مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ﴾ دَخَل في هذا كل مَدْعُوٍّ؛ لأن صفةَ المدعُوِّ -سواءٌ كان ملكًا أو نبيًّا أو وليًّا أو جنيًّا أو حيًّا أو ميتًّا- أنه لا يستجيبُ للإنسان بما يريده، إذا كان يَسأل شيئًا مما هو مُغيب، أو مما هو هداية، أو مما هو من أمور الآخرة، أو مما هو نَصْر على العدو، أو مما هو إنزالُ غيثٍ ورزقٌ وغير ذلك، مَن سأل مخلوقًا مِن هذه الأنواع فقد وَقَع في الشرك.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ۝٥ ﴾ [الأحقاف: ٥] الآيتين.

﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾: يدل على أن المقصود بالمسؤول الميتُ أو الغائبُ؛ لأن الغائب لا يَدري ما سُئل منه، والميتُ وإن سمِع فإنه لا يستجيبُ ولا يقدر، ومثلُ ذلك: الحجرُ والشجر والمكان وغير ذلك، فإنه لا يستجيب، ولكن إذا كان يوم القيامة يُستَنْطَقُ، ويقال للعابد: اذهب إليه فتحصَّل أجرَك منه، يقول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ۝٩٨ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الأنبياء: ٩٨ – ٩٩].

فإذا كان يومُ القيامة يُؤتى بالعابد والمعبود، ويُسأل المعبودُ: هل أَمَرت بعبادتك؟ فإن كان ممن هو مِن عباد الله، إما نبيٌّ أو مَلَك أو ولي، فإنه يَتبرَّأ ويقول: ولكنَّهم عَبَدوا الشياطينَ، عبدوا الجنَّ؛ لأنهم هم الذين أمروهم بهذا؛ ولهذا قال: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].

﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾ يعني يومَ القيامة، إذا جُمِعوا وسُئلوا كانوا لهم أعداءً، يعني: كانت المعبوداتُ مُعادِيةً للعابد وتَلعَنُه.

﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾ يعني أن المعبودين يكفرون بعبادتهم ويتبرَّأون منها،

وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾[النمل: ٦٢] .

ويقولون: نَبرأُ إلى الله مِن ذلك؛ لأن هذا هو حقُّ الله جل وعلا، فيصبح المشركُ ليس بيده إلا الإفلاسُ الذي دعاه الشيطانُ له، ثم حتى الشيطانُ يتبرأُ منه، قال جل وعلا: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ﴾؛ يخطُبُ الشيطانُ ويقول: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ ﴾، يعني ما لي حجةٌ ولا دليلٌ أدعوكم به، أو أستدلُّ به، وإنما هو مجردُ دعوة، ﴿ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ ﴾؛ لأنكم اتبعتموني بلا دليل ولا برهان، ثم يتبرأ فيقول: ﴿ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ ﴾؛ ما أنا بمُغيثِكم بشيء، وما أنتم بمُغيثِيَّ بشيء، ﴿ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾[إبراهيم: ٢٢]، يَكفُرُ بعبادتهم واستجابتهم، ويتبرأُ منهم، وهكذا: كلُّ معبود يتبرأ مِن عابدِه؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴾ [الأحقاف: ٦].

فدَلَّ على أن الذي يدعو غيرَ الله -سواءٌ كان دعاءَ شيءٍ مقصود يحصُلُ له في الدنيا، أو دعاءَ شيءٍ مِن شفاعة أو تقريب مِن الله أو غير ذلك- فإنه يكونُ مشركًا، وسوف يكونُ مَن دَعاه عدوًّا له يوم القيامة ومتبرئًا منه.

(وَقَوْلُهُ: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ ﴾الآية)، فهذا مِنَ الأدلة التي يَستدِلُّ

وَقَوْلُهُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾[النمل: ٦٢] .

الله -جل وعلا- بها على المشركين؛ لأنه يجبُ عليهم أن يعبدوا الله وحده؛ لأنهم إذا وقعوا في الشدائد لا يجدون من يجيبُهم إلا اللهَ.

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ ما هناك مَن يُجيبُ المضطرَّ كما يعلمون إلا الله، فإذا كان هو الذي يجيبُ المضطرَّ، فمِن بابِ أولى أن يتوجَّه الذي لم يقعْ في الضرورة إلى الله، وإلى سؤاله وعبادته، يعني في الرخاء وفي الشدة، وكانت عادةُ المشركين التي دلَّتهم عقولُهم عليها: أن أحدَهم إذا وقع في الشدة أخلصَ الدعاء إلى الله -جل وعلا- وعبده وحده، ولكن إذا ذهبت الشدةُ عاد إلى شركه.

كما أنهم كانوا إذا رَكِبوا في البحر وعصَفت بهم الريحُ أخلصوا لله الدعاءَ، فإذا نجَّاهم إلى البرِّ إذا هم يُشركون.

وهذا مِن بابِ الإلزام؛ أنه يَلزَمُهم إذا كان لا يجيبُ المضطرَّ ولا يكشفُ السوءَ إلا اللهُ، فإنه يجبُ أن يكونَ هو المعبودَ دائمًا في الشدة وفي الرخاء من باب أولى، فعبادتُهم معبوداتِهم في الرخاء لا تنفعُ ولا تفيدُ شيئًا؛ لأنها لا تنفعهم في الشدة، فكذلك لا تنفعُهم في الرخاء، فهذا ضلالٌ، يجب أن يرجعوا إلى عقولهم، ويَرْعَوُوا إلى ما يُرشِدُهم الله إليه، فهو الذي يكشِفُ السوءَ، وهو الذي يجعل لهم الأولادَ الذين يَخْلُفُونهم ويكونون بعدَهم في عمارة الأرض وإرْثِهم، وغير ذلك، كما أن هذا معلومٌ منذ نزل آدمُ إلى اليوم، فالله -جل وعلا- جعلهم أجيالًا، جيلًا

وَرَوَى ٱلطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي ٱلْمُؤْمِنِينَ،

بعد آخَرَ، كلما هلَك جيلٌ جاء آخرُ، فيجب أن يكون هو المعبودَ.

قال: (**وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ**)، المنافق مِن شأنه الأذيّةُ دائمًا، إلا إذا خاف، والنفاقُ: هو إظهارُ الموافقة وإبطانُ المخالفة، وبأوضَحَ من ذلك: هو إظهارُ الحق والإيمانِ وإبطانُ الكفر والباطل.

فهو على الكفر والباطلِ، قلبه مُنْطَوٍ على الكفر والباطل، ولكن ظاهره أنه يكونُ مع المؤمنين حتى يُعايِشَهم ويَسلَمَ من القتل ومن إلحاقه بالكافرين، فهم يزعمون أنهم أصحابُ العقول؛ لأنهم يعيشون مع الكافرين ومع المؤمنين، مع هؤلاء ومع هؤلاء، والواقع: أنهم هم أصحابُ الفساد، وهم أصحاب العقول المُنتكِسة؛ لأن العقول لو كانت صحيحةً لجلبت لصاحبها السعادةَ في الدنيا والآخرة، والنفاقُ لا يجلب لصاحبه إلا الشقاءَ في الدنيا والآخرة، وإن كان في الدنيا ينالُ بعضَ مراداتِه، ولكنه سوف تكون عاقبتُه إلى السوء بلا شك.

وأذيتُهم للمسلمين مقصودةٌ، قد تكون خفيفةً، وقد تكونُ كبيرةً، حتى وصلت أذيتُهم إلى رسول الله، بل وإلى الله جل وعلا، فهم يُؤذون الله ورسولَه ﷺ، والأذى: هو ما خَفَّ أثَرُه وضعُف، بخلاف الضُّرِّ، فإن الله لا يضُرُّه أحدٌ، أما الأذى فإنَّ ابنَ آدم يؤذي اللهَ، كما قال الله -جل وعلا- في الحديث القدسي:

فَقَالَ بَعْضُهُمْ قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بِي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِالله».

«يؤذيني ابنُ آدمَ! يسُبُّ الدهرَ، وأنا الدهرُ، أقلِّبُ ليلَه ونهارَه»، فهم يُؤذون اللهَ ويُؤذون رسولَه، ويؤذون المؤمنين.

(قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ الله ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ)، (قوموا): جاء أن الإنسان الذي قال ذلك: هو أبو بكر ﷺ، والمنافق: عبدُ الله بنُ أُبَيٍّ بنِ سَلُول.

والرسولُ ﷺ يستطيعُ أن يُغيثَهم بقتله، أو يأمر أحدًا ليقتله، لو أشار مجردَ إشارة إلى أحد الصحابة ليقتله لأسرع إلى ذلك وقَتَله، فلماذا قال:(إِنَّه لَا يُسْتغاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِالله) فكل هذا حمايةٌ لجناب التوحيد، وأدبٌ مع الله جل وعلا، إذ نهاهم أن يُطلقوا لفظَ الاستغاثة عليه، قال: (إِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِالله)، وقولُ الله جل وعلا: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾[القصص: ١٥] يدُلُّ على جوازِ مثلِ ذلك؛ لأن هذا مِن باب الجَوازِ، وهذا مِن بابِ الاستحباب والنَّدْب.

فدل على أن الاستغاثة في الكمالِ، كمالُ الأمور أنه يجبُ أن تكونَ كلُّها بالله جل وعلا، وإن جازت في بعض الأشياء، بشرط أن يكون المستغاثُ به حاضرًا حيًّا قادرًا، إذا كان بهذه المنزلة جاز، لكن تركها أولى، فهذا الذي دل عليه الحديثُ.

....

قال: (الرَّابِعَةُ: أَنَّ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ فَعَلَهُ إِرْضَاءً لِغَيْرِهِ، صَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ)، هذا مأخوذٌ من قوله: ﴿ وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [يونس: ١٠٦]؛ لأن الخطابَ للرسول ﷺ؛ ولهذا قال: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ [الزُّمَر: ٦٥].

قال: (السَّادِسَةُ: كَوْنُ ذَلِكَ لَا يَنْفَعُ فِي الدُّنْيَا مَعَ كَوْنِهِ كُفْرًا)؛ لأن دعوةَ غيرِ الله ضلالٌ، وإن قُدِّر مثلًا أنه حَصَل نفعٌ فهو كذب، لا يحصلُ له نفعٌ، ولا سيَّما إذا كان المدعوُّ ميتًا أو غائبًا، فلا يحصل له إلا الضر، ولكن الشيطان قد يأتيه بشيء ينفعُه به حتى يستمرَّ على شركه، كما هو الواقع.

قال: (السَّابِعَةَ عَشْرَةَ: الأَمْرُ العَجِيبُ، وَهُوَ إِقْرَارُ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ أَنَّهُ لَا يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِلَّا اللهُ)، هذا بخلاف المشركين اليوم؛ لأنَّ أحدَهم إذا وقع في الشدة أخلص الدعاءَ لمعبوده من دون الله جل وعلا، وصار يَبكي ويُهْرَعُ إلى القبر ويتضرَّع أشدَّ التضرُّعِ، أما عَبَدةُ الأوثان السابقون فكانوا إذا وقعوا في الشدائد طلبوا ممن بيده أزِمَّةُ الأمور كلِّها، وأخلصوا له الدعاءَ، فيحصل لهم مرادُهم، ذُكِر أن عكرمةَ بنَ أبي جهل ﷺ لَمَّا دخل الرسولُ ﷺ مكةَ فرَّ هاربًا، فوافى سفينةً مُبحِرة بجُدَّةَ، وركِب معهم، فعَصَفت بهم الريحُ، فقال صاحبُ السفينة: أخلِصوا الدعاءَ لله؛ فإنه لا ينفعُكم في هذا المقام إلا اللهُ، وإن كان معكم أصنامٌ فأَلْقُوها في البحر، ففكَّر في نفسه وقال: إذا كان ما ينفع في هذا المكان إلا اللهُ فكذلك إذا

....

خرجت إلى البَرِّ، لئن نجّاني الله لأذهبَنَّ إلى محمد وأضع يدي في يده، فليصنعْ بي ما شاء، وكان هذا سببَ إسلامه.



بابُ قول الله تعالى

﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾ [الأعراف: ١٩١ - ١٩٢]

وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣]

قال: (وقوله: ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾) القِطْميرُ: يقولون: هو القشرةُ التي تكونُ على نَواةِ التمرة، وهو شيءٌ لا ينفع، ولا لذةَ فيه، ولا يُسمِن ولا يُغني من جوع، والمقصودُ: أن المدعُوِّين من دون الله لا يَملِكون شيئًا وإن تَفِهَ أصلًا، فكيف يدعون؟ ومعنى هذا: أن المدعُوَّ يجب أن يكون مالكًا لما يُدْعَى له، فإن لم يكن مالكًا له ينبغي أن يكون شريكًا للمالك، فإن لم يكن شريكًا ينبغي أن يكون مساعدًا ومعاونًا له، فإن لم يكن كذلك ينبغي أن يكون شافعًا، وكل هذه الأمور مَنْفِيَّةٌ عن معبودات المشركين، فليس عند المشرك إلا الإفلاسُ والخيبة والخسارة، ولكن لا يتبيَّن ذلك إلا إذا جُمِع مع معبوده يوم القيامة، فيكون البيان الواضح الجلي الذي يَنفي ما كانوا يعتقدون، وإلا فالأمرُ واضح في هذه الحياة، معلومٌ أن كل مخلوق لا يَملِك مع الله شيئًا.

(﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ ﴾) الذين: اسم موصول، وهو من ألفاظ العموم، أي: كُلُّ مَدْعُوٍّ، سواءٌ كان عاقلًا أو غيرَ عاقل، كل من دُعِي من دون الله فهو لا يَملِك شيئًا: ﴿ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ ﴾.

....

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾؛ لأنهم إما ميت وإما غائب، وإما أن يكون حاضرًا ولكن لا يَسمَعُ سماعَ الإجابة، ولا ينفع، لو كان حاضرًا ودُعِي فإنه لا يستجيب؛ لأن السمع يُطلق على إدراك الأصوات، ويطلق على إجابة الدعوة، كما يقول المصلي: سمِع الله لمن حمده، يعني استجابَ دعاءَه.

﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ لو قُدِّر أنهم يسمعون ما استجابوا؛ لأنهم ضعفاءُ وفقراءُ لا يَملِكون شيئًا، فالذين يدعونهم مثلُ الغريق الذي يستنجد بالغريق الذي تحته.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يعني أن المدعُوِّين يكفرون بدعاء الداعين يوم القيامة، كما قال جل وعلا: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴿١٦٧﴾﴾ [البقرة: ١٦٥-١٦٧].

هذه هي الحقيقة ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦]،

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ : شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟ ....

﴿ ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا ﴾ [العنكبوت: ٢٥]، فهم يجتمعون مع مَن يرون أنه سببُ ضلالهم؛ لأن الشر كلّه يُجمَع ويكونُ في جهنم، فتجتمعُ عليهم حَسَراتُ الندامات، والعذابُ الذي يكون على أبدانهم، عذابٌ في نفوسهم وأبدانهم، عذابٌ فوق عذاب، هذه حقيقةُ مآلِ المشرك، إلى هذه الصورة، ولكنه في هذه الحياة أعمى، لو جِئته بكل آية ما آمَنَ إلا أن يشاء الله.

﴿ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾ ﴾ [فاطر:١٤] أي خبير بالأمور، فهو ربُّنا جل وعلا، وهو خبيرٌ بكل شيء.

قال: (وفي الصحيح) أي: في «صحيح البخاري».

قوله: (عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَ كُسِرَتْ رَبَاعِيَتُهُ)، الشَّجَّةُ تكون في الرأس، والشج: إزالة الجلد واللحم، ويومَ أحد حصَل ذلك للنبي ﷺ من الكفار أذًى بالغٌ، وشجُّوا وجهه، وكسروا رَباعِيَتَه، ودخلت حَلْقَة المِغفَر في وجنة وجهه، فعسُر إخراجُها، حتى جهِد الصحابة ﷺ لإخراجها، عضَّها أحدُهم بأسنانه فانخلعت أسنانُه لقوة ثباتها.

قوله: (كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟) يعني أن نبيهم يدعوهم إلى السعادة،

فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وَفِيهِ: عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الْأَخِيرَةِ مِنَ الْفَجْرِ «اللهمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَفُلَانًا» بَعْدَمَا يَقُولُ: سَمِعَ الله لِمَنْ حَمِدَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ، فَأَنْزَلَ الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾

وإلى عبادة الله جل وعلا، ثم هم يحاولون قتلَه بكل ما استطاعوا، كيف يُفلحون؟، استبعد أن يكونَ لهؤلاء فلاحٌ، فقال الله جل وعلا: هؤلاء عبادي، وأنت رسولي، وليس عليك من هداية الناس شيءٌ، ولا من تعذيبهم شيء، فأنا الذي أتصرفُ فيهم، إن شئتُ عذَّبْتُهم، وإن شئت هَدَيتُهم، وأنا أنعمت عليهم، هذا معنى قوله جل وعلا: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

(﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾) يعني أن الأمرَ -الذي هو التصرُّفُ في الخلق- لله وحده، فيهدي من يشاء ويُضل من يشاء.

قال: (وَ فِيهِ) أي في الصحيحين.

(عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ: «اللَّهُمَّ الْعَنْ فُلَانًا وَ فُلَانًا») وجاء تسميةُ فلان في الرواية الآتية: صَفْوانُ بنُ أُمَيَّةَ، وسُهَيْلُ بْنُ عَمْرٍو، والحارثُ بنُ هشام، وأبو سفيانَ؛ لأن هؤلاء هم قادةُ المشركين يومَئذٍ.

وَفِي رِوَايَةٍ: «يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بْنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بْنِ عَمْرٍو وَالْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾.

وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾﴾[الشُّعَرَاء ١٤]، ....

وكل هؤلاء الأربعة هداهم الله وأسلموا وحسُن إسلامُهم، وجاهدوا في سبيل الله، ومنهم مَن قُتل شهيدًا، حتى قال سهيلُ بن عمرو ﷺ: كان رسولُ الله ﷺ مِن أبغضِ الناس عندي، ثم صار أحبَّ الناس إلي، حتى لو كُلِّفت وَصْفَه ما استطعت؛ لأني لا أُجِدُّ نظري فيه تعظيمًا له وإكرامًا له، ومثلُ ذلك قاله عمرُو بنُ العاص ﷺ.

وليس في هذا -كما يزعم بعضُ الناس- نَسْخُ لَعْن المعين؛ لأنا فهِمنا قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي في عباد الله، يعني لا تستطيع أن تُضِل أحدًا، أو تعذبَ أحدًا، والأمرُ إلى الله جل وعلا، فلهذا هداهم الله جل وعلا.

قال: (وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ: قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾) في الحقيقة هذا عن أبي هريرة ﷺ أخذه عن أحد الصحابة ﷺ؛ لأن أبا هريرة لم يُسلِم إلا في السنة السابعة من الهجرة، والآيةُ نزلت في مكة، والقصةُ كانت في مكة، وأبو هريرةَ لم يحضُرْها، فهو رواها عن الصحابة،

فَقَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ -أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا-! اِشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنْ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بْنَ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ! ....

وكثير من مروياته أخذها عن الصحابة ﷺ.

(حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾) خاف رسولُ الله ﷺ أن يكونَ قد قصَّر في النِّذارة، فعمِل عملًا لو عمِله إنسانٌ اليومَ لقيل: إنه مجنون، وهُم أيضًا رمَوْه بالجنون، إذ قام إلى أقربِ مرتفع عند بيوتِ مكةَ، فصعِد وصار يهتفُ بأعلى صوته: «واصباحاه»، وهذه عادةُ العرب، إذا دَهِمَهم عدوٌّ ولم يشعُروا به، ولم يَنْذَروا به، صار الذي يراه يصيحُ: واصباحاه، أي صبَّحكم أو مسَّاكم، ومَن يستمِعُ الصوت يذهب إليه، والذي لم يذهب إليه أَرسَلَ مَن ينظر ماذا حدث؟ فلمَّا اجتمعوا قال لهم: **«أرأيتم لو أخبرتكم أنَّ خَلْفَ هذا الجبل جيشًا يريدُكم، أكنتم مُصَدِّقِيَّ؟»**، قالوا: نعم، ما جرَّبنا عليك كذبةً واحدة، قال: **«أنقِذوا أنفُسَكم من النار، إني نذيرٌ لكم بين يَدَيْ عذابٍ شديد»**، ثم صار يخص: **«يا بني عبدِ مَنافٍ، يا بني عبد المطلب»**، ثم صار يعيِّن الأقرباءَ له، صفيةَ والعباسَ، حتى قال: فاطمة، كل هذا يقول: **«أنقذوا أنفسكم من النار لا أُغني عنكم من الله شيئًا»**، يعني أنقذوا أنفسكم من النار بالتوحيد، بعبادة الله وحده، أما إذا أشركتم فالنارُ أمامكم، فسوف تُلاقُونها.

ومعنى هذا أن الرسول ﷺ لا يَملِكُ مع الله شيئًا، وهذا هو المقصودُ بهذا

لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنْ الله شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ الله ﷺ! لَا أُغْنِكَ مِنْ الله شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ! سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنْ الله شَيْئًا».

الباب، فإذا كان الرسولُ ﷺ، وهو أقربُ الناس إلى الله، وهو أكرمُ الناس على الله؛ ومع ذلك يقول لابنته فاطمةَ: (**لا أُغني عنكِ مِنَ الله شيئًا، سَلِيني مِن مالي ما شئتِ**)؟ فقط يملك المالَ الذي عنده، أما أمورُ الآخرة والسعادةِ والشَّقاوةِ فهي بيد الله جل وعلا، ولا ينجو أحدٌ من النار إلا بعبادة الله وحده واتباعِ رسوله ﷺ، ولا أحدَ يدخلُ الجنة إلا بالتوحيد الخالص الذي جاء به المصطفى، أما أن يتعلق بمخلوق فهذا ضلالٌ بعيد، وإن كان نبيًّا أو وليًّا أو ملَكًا، فإن الخلق لا يملكون حبةَ خردلٍ، فمَن تعلَّق بمخلوق وزعَم أنه يشفعُ له، أو ينفعُه عند الله، فإن هذا شركٌ بالله جل وعلا، مُبعِد له عن الجنة، وموجب للنار له، هذا هو مراده، وسيأتي في الباب بعده زيادةُ إيضاح.

قال: (**الثَّانِيَةُ: قِصَّةُ أُحُدٍ**)، قصةُ غزوةِ أحد وحُنَين وبَدْر وغيرِها مِن مواقفِ رسولِ الله ﷺ وجهادِه مما يتعيَّنُ على المسلم قراءتُه والاعتبارُ به؛ لأن هذا يزيدُه إيمانًا ومعرفةً برسول الله ﷺ، ولا تثبت معرفتُه لرسول الله ﷺ إلا بالنظر في سيرته وأحواله التي كان يعيشُها، بذلك يثبت عند الإنسان أنه رسولٌ حَقٌّ، جاء بالحق من عند الله، أما أن يقتصرَ على أنه محمدُ بنُ عبدِ الله بنِ عبدِ المطلِب إلى آخره؛ فإن هذا لا يكفي.

....

فدعا عليهم في ذلك الوقت؛ لأنهم ليسوا مجردَ كفار، بل هم قادةُ الشرك، الذين قادوا المشركين لمحاربة الله ومحاربة رسوله ومحاربة دينه، ولكنَّ الله يهدي مَن يشاء ويُضل مَن يشاء، فالأمر بيده يتصرفُ كما يشاء، وهو أعلمُ حيثُ يضعُ هدايتَه، كما أنه -جل وعلا- أعلمُ حيثُ يضعُ مواضعَ ضلاله.

فهو الذي يتصرف في عباده جل وعلا، وليس لأحد معه تصرفٌ في ذلك، فالذي مثلًا يدعو الرسولَ ويستنجدُ به، ويقول: إنه سيشفعُ لي، أو يسألُه الشفاعةَ في هذه الحياة، هذا كله على خلافِ ما جاء به كتابُ الله، وجاءت سنتُه، فالذي يقول:

يا أكرمَ الخلقِ ما لي مَن ألوذُ به	سواك عند حُلول الحادثِ العَمِمِ
إن لم تكن في معادي آخذًا بيدي	فضلًا وإلا فقل: يا زَلَّةَ القدمِ
فإنَّ مِن جُودك الدنيا وضَرَّتَها	ومِن عُلومِك علمَ اللوح والقلمِ
ولن يضيقَ رسولُ الله جاهُك بي	إذا الكريمُ تحلَّى باسمِ مُنتَقِمِ

إلى آخر هذا الشرك؛ إذ جعَل كلَّ شيء بيدِ الرسول، وصار يستغيثُ بالرسول من الله، فهل هذا عَرَف ما جاء به الرسولُ؟ يقول:

فإنَّ مِن جُودك الدنيا وضَرَّتَها	ومِن عُلومِك علمَ اللوحِ والقلمِ

....

يعني: من جملة جود الرسول ﷺ الدنيا والآخرة، ومن جملة علومه علم اللوح والقلم، هل بقِي لله شيءٌ؟ هكذا الغلوُّ الذي ما وصل إليه غلوُّ النصارى.

فمقصودُ المؤلف أن يبيِّن أن هؤلاء الذين يَدْعون الرسولَ ويَدْعون الأولياء، هم مِن أبعدِ الخلق عن الله جل وعلا، وكل أفعالهم التي يفعلونها يزعمون أنها تقرِّبُهم إلى الله وتكسبهم سعادةً، هي أسبابُ دخول جهنمَ وخُلودِهم في النار، ولكن إذا كان جاهلًا جهلًا مركبًا: أي جاهل ويجهلُ أنه جاهل، فلا حيلةَ إلا أن يَمُدَّ يديه لربه -جل وعلا- طلبًا للهداية ومعرفةِ الحق.



بابُ قَوْلِ اللهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾ [سبأ: ٢٣]

....

قال: (بابُ قَوْلِ الله تَعَالَى) مضافٌ، لا بد من الإضافة هنا، بابُ قولِ الله تعالى.

﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، قبلَها: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾[سبأ: ٢٣، ٢٢]، وهذه الآيةُ قال بعضُ العلماء: إنها تَقْلَعُ شجرةَ الشرك مِن عُروقِها من قلوب الكافرين، ولكنْ لِمَنْ فهِم ذلك وعَقَله، وكثيرٌ في كتاب الله جل وعلا أمثالُ هذه الآية.

ذَكَر في الآية أربعةَ أمور يجبُ أن تكونَ متوفرةً في المدعو:

الأمر الأول: المِلْك، ملك الشيء الذي يُدعى من أجله، فنفاه بقوله جل وعلا: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾، فالذي لا يملك هذا المقدارَ كيف يُدعَى؟ قد يقال:

....

هب أنهم لا يملكون شيئًا، ولكن هم شركاءُ للمالك، فنفي هذا التوهُّمَ فقال: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ أي مِنِ اشتراك، فإذَنْ المِلْكُ والاشتراكُ مع المالك انتفى، بقِي المظاهرةُ والمساعدةُ والمعاونة، فقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ أي مِن مُساعِدٍ، بقيت الشفاعةُ، فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ ، فلم يَبْقَ عند المُشرِك أي تعلُّق في هذا، وهذا مَعنَى قولِهم: تَقلَع شجرةَ الشرك من عروقها، ولكنْ لِمَنْ فَهِم وعلِمَ.

(﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾) الصحيحُ: أن الضمير يعود إلى الملائكة، وإن لم يَسبِقْ لهم ذكرٌ؛ لأنهم فُهِموا من السياق.

(﴿قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾) يَسألُ بعضُهم، والسؤالُ ينتهي إلى جبريل؛ لأنه أقربُ الملائكة إلى الله، وهو الذي يَتولَّى الوحيَ، فيقولُ لهم: (الحق)، فيقتنعون بهذا كلُّهم ويقولون: قال الحق، قال الحق؛ لأنهم لا يتجرؤون أن يسألوا سؤالًا أكثرَ من الأمر الظاهر الذي كُلفوا به (﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾).

(﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾) (العليُّ) يشمل: عُلُوَّ الذات، فهو فوق عرشه، وليس على عرشه غيرُه، تعالى وتقدس، وعرشُه سقفُ المخلوقات كلها، ولا مخلوقَ فوقه، وأقربُ المخلوقات إلى العرش الجنةُ، فسَقْفُها عرشُ الرحمن جل وعلا،

وَفِي ٱلصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ ٱلنَّبِيِّ ﷺ قَالَ: (إِذَا قَضَى الله ٱلْأَمْرَ فِي ٱلسَّمَاءِ؛ ضَرَبَتِ ٱلْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا ....

وهي جنان؛ واحدةٌ تحت الأخرى، وهو (الْعَلِيُّ)، وكذلك يشمل علوَّ القدر؛ ولكن في قلوب مَن يعرفه، أي العارفين له، ويشمل علوَّ القهر؛ فهو القهار لكل شيء، وكل الخلق سيأتون إليه صاغرين خائفين ذليلين.

قال: (**وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى الله الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ»**) (قضى): يعني تكلَّم به، كما سيأتي في الحديث؛ لأن القضاء يأتي بمعنى الفِعْل، ويأتي بمعنى الأمر والإلزام، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، فهنا (قضى) بمعنى أمر وتكلم.

(**ضَرَبَتِ المَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ**) ذُلًّا له، وخوفًا منه، والملائكةُ هم أعظمُ المخلوقات العاقلةِ التي تعبد الله، فأحدُهم لو أُذِن له أن يحملَ السماءَ حَمَلها؛ ولهذا: حَمَل جبريلُ عليه السلام مدائنَ قومِ لوط ﷺ على طَرَفِ جناحه، وهي سَبْع مِن تُخُوم الأرض، وطار بها، حتى صار الملائكةُ الذين في السحاب يسمعون صياحَ الديكة ونباحَ الكلاب؛ لأنها حُملت بمَن فيها، ثم قَلَبها، أي جَعَل أعلاها أسفلَها، ثم أُتبِعوا بحجارة من سِجِّيل، وصاح في ثمودَ، قومِ صالح ﷺ، فتقطَّعت قلوبُهم في أجوافهم، فخَمَدوا كنفس واحدة.

فالملائكةُ جعل لهم الله -جل وعلا- مِنَ القوة والعظمة ما وهب لهم، ومع

خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ ....

ذلك: إذا سمِعوا كلام الله صَعِقوا خوفًا وذُلًا، وصاروا يرتعدون خوفًا من الله جل وعلا، فإذا كان الملائكةُ الذين هم أقربُ الخلق إلى الله، وهذا عملُهم وفعلُهم إذا سمعوا شيئًا من كلام الله، فكيف بمَن يتَّجِهُ إلى مقبور تحت التراب ويستغيثُ به ويسألُه؟ كيف حاله؟ وكيف يُقال فيه؟ هل عرَف الله؟ هل عرف حقه؟

فهذا هو المقصود؛ أن يبين أن المشرك ضل ضلالًا واضحًا جليًّا، ولم يَعرِفِ اللهَ ولم يعرف قدرَه، ولم يعرف حقَّه، فهو وَضَعَ العبادةَ في غير موضعها، فصار ظالمًا، والظلم الذي هو الشرك، الذي يكون مُوجَبُه جهنَّم.

ومثل ذلك: السماء على عظمتها ترتعدُ وتضطربُ خوفًا من الله جل وعلا، إذا سمِعت كلام الله جل وعلا.

(خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ) أي لقول الله جل وعلا.

(كأنه سِلْسِلَة عَلَى صَفْوانٍ)، كثيرٌ من الناس ما يجرؤ أن يقولَ: إنَّ هذا تشبيهٌ لكلام الله بجَرِّ السلسلة، مع أنه واضح، وتكلم به الرسولُ ﷺ، وهو أعلمُ الناس بالله وأتقاهم لله، وكثيرٌ منهم إذا جاء هذا قال: هذا صوتُ السماء، يعني أنها تصوِّت، ثم تخضع لصوتها.

قال: (يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ) يعني أن هذا الصوتَ يبلغُ جميعَ الملائكة، وهذه صفةُ

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴾ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ ٱلسَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ ٱلسَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ، وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَّفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ ٱلْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا ٱلْآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ ٱلسَّاحِرِ أَوْ ٱلْكَاهِنِ..................

صوت الله جل وعلا، أنه يسمعه البعيدُ كما يسمعه القريبُ، فيتكلمون بالأمر الذي تكلم الله -جل وعلا- به، فيصلُ الكلامُ إلى الملائكة الذين في السحاب، والشياطين يصطفُّون بعضُهم فوق بعض ليسترِقوا السمعَ، حتى يُضلوا بني آدمَ.

قال: (وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ؛ فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ) يعني أن بعضَهم يركبُ فوق بعض، إلى أن يصِلوا قربَ السحاب، يستمعون للملائكة ماذا يقولون؛ لأنهم يُؤمَرون بالأمر الذي تكلم الله به، فيسترِقُ الأعلى الكلمةَ ثم يُلقِيها على مَن تحته، وهذا إلى من تحته، إلى أن تصِلَ إلى مَن في الأرض، ثم يُسرع بها إلى وليِّه من الناس، الكاهنِ، فيَكذب معها مائةَ كذبةٍ، وكل هذا لأجل إضلال بني آدم، وأحيانًا يَنزِلُ عليه الشهابُ فيدركُه قبل أن يوصلَ الكلمةَ التي سرقها إلى من تحته، وأحيانًا ينجو، وكُلُّه بأمر الله، وأحيانًا يُذهِب عقلَه، وأحيانًا يقتلُه، ومع هذه الأمور الخطيرة يُخاطرون حتى يُضِلُّوا بني آدم بأن هذا الكاهنَ يعلم الغيب، فيصدِّقونه بذلك فيكفرون.

هذا مقصودُ الشيطان؛ ولهذا قال: (فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الكَاهِنِ)، (فالساحر): الذي يكونُ

، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ اَلشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبَ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ اَلْكَلِمَةِ اَلَّتِي سُمِعَتْ مِنْ اَلسَّمَاءِ).

الشيطانُ وليَّه، و(الكاهنُ) له وليٌّ من الشياطين يأتيه بالأخبار.

قال: (فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا)، الشهابُ: الذي يُلقى عليهم من النجوم.

(وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ)، يعني يكذب الشيطانُ مع هذه الكلمة مائةَ كذبة، وقد يكذب كذلك الكاهنُ، وكلاهما يكذب.

قال: (وَعَنِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: إِذَا أَرَادَ الله تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ)، فيه التصريحُ بأن الله يتكلم، والكلامُ المعقولُ هو ما كان بحَرْف وصَوْت.

قال: (أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ، أَوْ قَالَ: رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ) يعني أنها إذا سمِعت كلامَ الله ارتجفت وارتعدت خوفًا من الله جل وعلا.

قال: (فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ؛ صَعِقُوا)؛ يعني أنهم يخِرُّون صَعْقًا خوفًا من الله جل وعلا، يذهب إحساسُهم، والصَّعْقُ: يكونُ من الشيء المَخُوف الذي قد يَبغَتُ الإنسان، وقد لا يبغته، ولكن لا يتحمله فيَصعَق.

وَعَنْ اَلنَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «إِذَا أَرَادَ الله تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالْأَمْرِ؛ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ؛ أَخَذَتِ اَلسَّمَوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ -أَوْ قَالَ رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ- خَوْفًا مِنْ الله ﷻ فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ اَلسَّمَوَاتِ؛ صَعِقُوا وَخَرُّوا لله سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ فَيُكَلِّمُهُ الله مِنْ وَحَيِّهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى اَلْمَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ، سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ ؟ فَيَقُولُ: قَالَ اَلْحَقَّ، وَهُوَ اَلْعَلِيُّ اَلْكَبِيرُ فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَ مَا قَالَ جِبْرِيلُ، فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ الله ﷻ ».

فإذا ذهب هذا (خَرُّوا لله سُجَّدًا، فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ)، وهو أقربُ الملائكة إلى الله.

قال: (فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى المَلَائِكَةِ)، وقد يكونُ لغيره من الملائكة الذين يكلِّفُهم اللهُ جل وعلا.

والمقصودُ من هذا أن يبين أن السماوات هي أكبرُ المخلوقات، وأن الملائكة هم أعظمُ مَن يَعبُد الله، وأقرب من يعبد الله، ومع ذلك: إذا سمِعوا صوتَ رب العالمين بالوحي، يَأخذُهم مِنَ الخوف ما عظُم حتى يُصعقون، والسماء ترتجف وترتعد، فكيف يجرؤ ابنُ آدمَ الذي جُعل فيه عَقْل، وجُعل محلًّا للأمر والنهي؛ أن يَعبُد مع الله غيرَه، ويدعوَ مَن هو مثلُه أو أقلُّ منه، بأن يهبَ له منفعةً أو مضرةً؟!

وهذا كله بيِّن وظاهر، وأن المشرك ليس عنده أيُّ تمسكٍ بدليل من الأدلة، فهو

....

ضالٌّ ضلالًا بينًا، وقد وَضَع العبادةَ في غير موضعها، ولم يعرفِ اللهَ، ولم يعرف قدرَه.

قال: (**الرَّابِعَةُ: سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ**)، وسببه أنهم سمعوا صوتَ الوحي ولم يفهموه؛ ولهذا قال: (**كجَرِّ السلسلة على الصفوان**)، والسلسلة إذا جُرت على الصفا صار لها صوتٌ غيرُ متبين، فهُم لم يتبيَّنوا الكلام؛ ولهذا سألوا: (**ماذا قال ربنا؟**)، ولكن علِموا أنه كلام الله.

قال: (**الخَامِسَةُ: أَنَّ جِبْرِيلَ يُجِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِك بِقَوْلِهِ: قَالَ: كَذَا وَكَذا**)، يعني قال الحق، والله لا يقولُ إلا حقًّا، تعالى وتقدس، فليس هذا جوابًا لهم بالتفصيل، بل جواب مجمل.

قال: (**العِشْرُونَ: إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ خِلافًا لِلأَشْعَرِيَّةِ المُعَطِّلَةِ**) يعني إثبات علو الله، وإثبات أنه يتكلم بكلام يُسمَع، وكِلا الأمرين يُنكِرُه الأشاعرةُ، وضلُّوا في هذا.

❁ ❁ ❁

بَابُ الشَّفَاعَةِ

....

قال المؤلف رحمه الله: (بَابُ الشَّفَاعَةِ) لَمَّا كان المشركون قديمًا وحديثًا يَدخُلون إلى الشرك عن طريق الشفاعة، أراد أن يبينَ الشفاعةَ الْمُثْبَتة التي لا نصيبَ للمُشرِك فيها، أي التي أثبتَها اللهُ وأثبتها الرسولُ ﷺ، والشفاعةُ المنفيةُ التي يزعمُها الكاذبون لا وجودَ لها، ولا تقعُ؛ فهو زَعْمٌ كاذب، وهذا أمرٌ مُهِم؛ يجبُ أن نميزَ بين هذا وهذا. ثم ذَكَر حقيقةَ الشفاعة وذكرَ أن الشفاعةَ لله جميعًا، والشفاعةُ مأخوذةٌ من الشَّفْع الذي يقابلُ الوَتْرَ، قال تعالى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ۝٢ وَٱلشَّفْعِ وَٱلْوَتْرِ ۝٣﴾[الفجر:١-٣] قال بعضُ المفسرين: الشفعُ: المخلوقُ؛ كل مخلوقٍ تجدُ له نظيرًا، والوَتْرُ: اللهُ لا نظيرَ له، وقيل: الشفعُ: اليومُ العاشرُ من ذي الحِجَّة، والوترُ: اليومُ التاسع، وقيل غيرُ ذلك، المقصودُ أن هذا الذي ذُكر -أن الله وترٌ- له وجهٌ، وقد ثَبَت في الصحيحين: «إن الله وترٌ يحب الوترَ».

والشفاعةُ في اللغة مأخوذةٌ من الشَّفْع، وذلك أن الداعيَ الذي يدعو لغيره ضَمَّ دعاءَه لدعاءِ المدعوِّ له، فبَدَلَ أن يكونَ وترًا صار شفعًا، والشفاعةُ ضَمٌّ معناها طلبٌ إلى طلب، أما تعريفُ بعضهم: (إرادةُ الخير للغير) فهذا عام.

ذَكر المؤلفُ الأدلةَ التي تُبطِل تعلقَ المشركين بالشفاعة، والمشركون يقولون إنهم يَدْعُون أصنامًا وأحجارًا، ورجالًا صالحين من بني آدمَ، أو ملائكةً لا ذنوبَ

وقول الله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [الأنعام:٥١].

لهم؛ فهم يَدْعونها لأجلِ أن تدعوَ لهم؛ كما قال اللهُ تعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾[الزمر:٣]، أما الذي يزعمُ أن المشركَ يدعو معبوداتِه لأن لها شَرِكةً مع الله في التصرُّف والمُلك والخلق والإيجاد، فهذا باطلٌ، ما اعتقَدَه أحدٌ، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾[الزمر:٣٨].

قوله: (وقول الله: **﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾﴾**) هؤلاء الذين يخافون ويتَّقون، ليس لهم وليٌّ من دون الله، فكيف المشرك؟ والنِّذارةُ إعلامٌ بمواقعِ الخوف القريبِ، **﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾** الضميرُ يعود إلى القرآن، والأمر مُوَجَّهٌ للمُنذِر وهو الرسولُ ﷺ، أي: وأنذِرْ بهذا الوحيِ الذين يخافون أن يُحشروا، والإنذارُ: الإعلامُ بمواقع الخطر، وبشيءٍ مَخُوفٍ متوقَّعٍ أن يقعَ، وأهلُ المخالفات والكفر والمعاصي يُخْشَى أنْ يُعاجِلَهم اللهُ بالعقوبة، أما الآخرةُ فالأمرُ واضحٌ، أليس الرسولُ ﷺ مُنذِرًا عامًّا لكل عاقل من الجن والإنس؟ نقول: نعم، لكن مَنِ الذي ينتفِعُ بنِذارته؟ الذي يخافُ، أما مَن لا

....

يخافُ، فسواءٌ أأنذرتَهم أم لم تُنذِرْهم لا يؤمنون، فهذا نذارتُه وعدمُها سواءٌ بالنسبة إليه، وإن كان لا بد أن يقيمَ اللهُ الحجةَ على عباده. وأنذر بهذا القرآن؛ لأنه كلامُ الله الذي فيه الفَصْل، وليس بهَزْل، بل هو الحق الذي لا حجةَ لأحدٍ بعده، ﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓاْ﴾ الحَشْر: يعني الجمعَ؛ يعني يُحْيَون ويُخْرَجون من قبورهم، ثم يُوقَفون في موقِف يجتمعُ أولُهم وآخرُهم وإنسُهم وجِنُّهم لرب العالمين، ثم يحاسبُهم ربُّهم، ثم بعد ذلك الجزاءُ، فهذا هو الحشرُ، فإذًا إلى هنا ابتداء، والانتهاء الرب جل وعلا، والابتداء من القبور، يُجمعون في يومٍ مقدارُه خمسون ألفَ سنة، ثم الحاكم الله، يقول المصطفى: «واعلموا أنَّ كلَّ واحد منكم سيكلمُه ربُّه ليس بينه وبينه تَرْجُمانٌ»، فهذا الخطابُ لمن يؤمن ويستجيبُ ويَقبَل النذارةَ، أما مَن لا يقبلُ النذارةَ فلا بد من تقريرهم بسيئاتهم، ولا يَنظُر الله إليهم ولا يكلمُهم، ﴿لَيْسَ لَهُم﴾ جملة محلُّها حالٌ، والتقديرُ (متخلين ليس معهم شيء)، هذا حال المؤمنين ليس لهم مِن دون الله وليٌّ ولا شفيعٌ، فكيف المشركُ الذي يَعبُد مع الله غيرَه؟!

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾[النساء: ٤٨]، وقال: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة:٧٢]، هذه الآيةُ تدل على أن الشفاعةَ لله وحده، وأن المؤمنَ المتقيَ ليس له من دون الله ولي ولا شفيع، الولي

....

للشخص: هو الذي يَتولى أمورَه أو يدافعُ عنه في ذلك اليوم، ليس هناك ولي ﴿ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ ۖ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ ۚ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾ ﴾ [الأنعام:٩٤]؛ يعني أن الظنونَ الكاذبة تَذهَبُ لا قيمة لها، وإن كانت أضلَّت الكثيرَ من بني آدمَ، (وليٌّ) نكرة و(شفيعٌ) نكرة في سياق النفي، فتعُمُّ كلَّ مَن يدخلُ تحت هذه الكلمة من الولي والشفيع، فإذًا لا مَلَكٌ مُقرَّب ولا رسولٌ مُرسَل ولا ولي ولا غيره يشفع، وهذا معنى ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾، وسيأتي بيانها لاحقًا.

﴿ يَخَافُونَ ﴾ الخوفُ مِن أركان الإيمان، أما الإنسانُ الذي لا يخاف فهذا لا تُفيدُه النذارةُ، ﴿ أَن يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ ﴾ يُجمَعون بين يديه في تلك الحالة، ليس معهم إلا عملُهم، وأما التعلقُ بالمخلوقات فيذهبُ ويَضمحِلُّ، بل يضُرُّ صاحبَه، ﴿ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾.

قوله تعالى: ﴿ أَمِ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ ۚ قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الزمر:٤٣] يعني: يتخذون شفعاءَ، وهم بهذه المنزلة لا يَملِكون شيئًا ولا يعقلون؛ لأنهم إما غائبٌ، وإما ميتٌ، وإما جمادٌ، وإما شجرٌ أو

وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ [الزمر:٤٤].

حجر؛ فهؤلاء الذين يزعُمون أنهم شفعاءُ لهم هم أقدَرُ منهم على العمل وعلى غير ذلك، وقولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ [الزمر:٤٣] يعني: تتخذونهم شفعاءَ وهم بهذه الصفة لا يملِكون شيئًا ولا يعقلون؟! وهذا عام لكل مَنِ اتُّخِذَ شفيعًا.

قوله: (وقوله: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾) هل هناك أوضحُ من هذا الخطاب؟ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعقلون، يقول: أذهبُ للولي الفلاني أدعوه حتى يَنصُرَني، أو يهبَ لي ولدًا، وما أشبه ذلك مما يفعلُه مَن يزعم أنهم عقلاء أو مسلمون، ولا هم عقلاءُ ولا مسلمون، ما داموا بهذه الصفة، ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ قد يقول قائلٌ: الرسولُ أخبر أنه يشفعُ، وأن الملائكة تشفعُ، وأن الأطفال يشفعون لآبائهم إذا ماتوا صغارًا، وأن المؤمنين يشفعُ بعضُهم لبعض؛ فهم شفعاءُ، وهنا يقولُ جل وعلا: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾؟ نقول: الأمرُ واضح؛ هؤلاء الذين يشفعون لهم شفاعة، بيَّن المؤلفُ -بذكره كلامَ أبي العباس- حقيقتَها كما سيأتي، وذلك أن حقيقة الشفاعة هي: إرادةُ رحمة الله للمشفوع له، وإظهار كرامة الشافع فقط لا أكثر من ذلك، فإذًا الأمرُ عاد كلُّه لله؛ إذا أراد أن يرحمَ مَن يشاءُ أمر مَن أراد أن يُكرِمه فيقول: اشفَع لـه، وذلـك الذي يَـشفعُ لا

....

يُمكِنُ في أي حال من الأحوال أن يَشفعَ قبل أن يقول الله له: اشفَعْ، ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، هذا استفهام استنكاري؛ يعني لا وجود له، فإذا وَقَعت شفاعةٌ فهي بأمر الله، ولا تكون الشفاعةُ إلا لِمَنِ ارتضى، ووقوعُ الشفاعة له شرطان:

١- أن يأذن اللهُ لشافعٍ أن يشفع.

٢- أن يرضى الله عن المشفوع له.

وبدون ذلك لا تقعُ، هذا ما أراد المؤلفُ أن يبينه؛ لأن كثيرًا ممن يزعم أنه مسلمٌ، يُهرَع إلى القبور، أو إلى الرسول ﷺ، أو من يزعمُ أنه وليٌّ؛ ثم يسألُهم.

فإذًا الإنسانُ على خطر، فقد يضِلُّ ويزِلُّ، وهذا الكتاب مهم جدًّا في حياة الإنسان؛ لأنه يبينُ حقيقةَ التوحيد والعبادة، ويُبين الشركَ الذي ينافي التوحيدَ، ويجعل الإنسانَ إذا مات مَقَرُّه جهنمُ خالدًا فيها، والذي لا يهتمُّ بهذا فهو لا يهتمُّ بحياته، لا يهتم بنفسه، فهو مُفرِّط، أمرُهُ فُرُط، وهذا الكتاب يعتمد على كلام الله وكلام رسوله ﷺ، ليس مِن عنده ولا مِن فلانٍ ولا فلان، فهي أمورٌ واضحة أمور جليَّة، غير أن كثيرًا من الناس خفِيَت عليه، ووقع في خلاف ذلك، فكثيرٌ من الناس لا يزالُ الآن يقع في الشرك، فلو ذهبتَ إلى المدينة مثلًا إلى مسجد الرسول ووقفتَ عند قبر الرسول ﷺ، فسوف ترى العجبَ، ترى الناسَ يأتون من بعيدٍ،

....

يُنفِقون أموالًا، ويُتعبون أنفسَهم، فيأتي أحدُهم عند الرسول ﷺ فيُشرك، فيقول: «يا رسولَ الله؛ أنا جئتُك مِن بلادِ كذا وكذا أريدُك أن تعملَ لي كذا وكذا»؛ شيءٌ عجيب !!، لعلَّهم لا يفهمون كلامَ الله، وفي كتابه جل وعلا؟! ولكن قد يُقال: هؤلاء جَهَلة، لكن يجبُ أن يتعلَّموا ما يجبُ عليهم، وما يحرمُ عليهم، أما إذا كان على التقليد واتباع العادة فهذا خطرٌ؛ أن يموتَ على هذه العقيدة الفاسدة، فيكون خاسرًا، خسِر نفسَه وهَلَك، ولا يُمكِن أن يستدركَ الأمرَ، والأمرُ قد يكونُ متعديًا للجاهل الذي لم يتعلم، وقد يضل، كمثل ما اتفق أن إنسانًا كان يكتبُ الكتبَ ويقول: إنه يتبركُ بفلان وفلان، بل يتبركُ باسمه فضلًا عن ذاته، يعني إذا ذكرتَ اسمَه حصَل لك الخيرُ وحصل لك البركةُ، هذا باطل، وإنما يحصلُ الخيرُ والبركة بذكر اسم الله لا اسم مخلوق، أما المخلوقُ فليس له إلا عملُه، ثم قد يتعدى الأمرُ إلى العلماء مثل هذا، فإذا كان إنسانٌ مثلا يكتبُ في السيرة، ويكتب في شروح الحديث، ويكتب في تفسير القرآن، ثم يتجهُ إلى رسول الله ﷺ ويقول:

يا أكرمَ الخلْقِ ما لي مَنْ ألوذُ به ... سِواكَ عند حدوثِ الحادثِ العَمِمِ

إن لم يكن في معادي آخذًا بيدي ... فضلًا وإلا فقل: يا زلةَ القدمِ

ولن يضيقَ -رسولَ الله- جاهُك بي ... إذا الكريمُ تحلَّى باسمِ مُنتقِمِ

....

يستغيثُ بالرسولِ مَن الله !! يليقُ هذا؟! أَعُوذُ بالله من الضلال، ثم يقول:

فــإنَّ مِــن جــودِك الــدنيا وضَرَّتَهــا ... ومِن علومِك علـمَ اللـوحِ والقَلَـمِ

قل لي: ماذا بقي لله؟! إذا كان مِن جملة جود الرسول «الدنيا وضرتها» أي الآخرة، ومن جملة علومه علم «اللوح» الذي كُتب فيه كلُّ شيء و«القلم» الذي خَطَّ الله به كل شيء، فماذا بقي لله؟! ثم يُقال: إن هذا استشفاع! وغيرُ هذا؛ إنسانٌ يأتي أمامَ قبر الرسول ويقولُ: أنا الفقيرُ، أنا المسكينُ، أنا المظلومُ، أنا المريضُ، أنا كذا أنا كذا، ثم يقول:

هــذه عِلَّتــي وأنــتَ طبيبــي ... لـيسَ يَخفَـى عليـك في القلـبِ داءُ

ماذا يكونُ هذا شفاعة أم ماذا؟ إذا كانت العللُ التي يقعُ فيها يُريدُك أن تزيلَها وتغيثَه منها، وأنت لا يخفى عليك شيءٌ؛ يعني علام الغيوب! مع أنه لا يعلم ما في الغيب إلا ربُّ العالمين، والرسولُ ﷺ يقول: «أُمِرتُ أن أقاتلَ الناس حتى يَشهدوا أنْ لا إلهَ إلا اللهُ، وأنَّ محمدًا رسولُ الله، ويُقيموا الصلاةَ، ويُؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك عصَموا مني دماءَهم وأموالَهم إلا بحقِّ الإسلام، وحسابُهم على الله تعالى»، لماذا حسابُهم على الله؟ لأنه لا يَعلم ما في القلوب إلا الله؛ لأن الإنسانَ يُمكن أن يقول: (آمنتُ واتبعتُ) وهو كاذب، فالله يحاسبُه.

وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾[البقرة:٢٥٥].

قوله: (وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾) هذه جملةٌ من آية الكرسي، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ... ﴾[البقرة: ٢٥٥] مِلْك وتصرُّف؛ فلا يَبقى شيءٌ لا لرسولٍ ولا لملَكٍ ولا لأحد.

ثم يقول: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾؛ فإن هذا من تمام المُلك لا أن لا تقعَ الشفاعةُ إلا لمن أذن له، بخلاف الملوك والرؤساء؛ فإنه قد تقعُ الشفاعةُ عندهم بدون إذنهم وبدون رضاهم، قد تكون الزوجةُ تشفعُ في شيء لا يريدُه فيُضْطَرُّ إلى إجابتها، والخادمُ، والوزيرُ، تعالى الله.

إنَّ الله مِن تَمامِ مُلكه أنه لا أحدَ يشفعُ إلا لمن أذِن له، ولا أحدَ يجرؤ أن يطلبَ الشفاعةَ إلا بإذنه؛ حتى المصطفى ﷺ بيَّن كيف يشفع، وكثيرٌ من الناس عندهم شُبَهٌ في الشفاعة، جاء في الحديث أن الناس يَفزَعون إلى الأنبياء بالموقِف، فيقولوا: اشفعوا لنا، وهذا دليلٌ على أن طلبَ الشفاعة مِنَ المخلوق؛ نقول: صحيحٌ إذا كان المخلوقُ حاضرًا حيًّا تَطلُبُ منه أن يدعوَ لك، لكن إذا ما دعا أتُقبَل شفاعتُه؟ لا يَلزَم؛ لأنها مجردُ دعاءٍ، فيومَ القيامة الرسلُ واقفون مع الناس، ولهذا يعتذرون يوم القيامة. عن أنسِ بنِ مالكٍ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «يَجمَعُ اللهُ الناسَ يوم القيامة، فيَهتَمُّون لذلك»، وقال ابنُ عبيد: «فيُلهَمون لذلك،

....

فيقولون: لوِ استَشْفَعْنا على ربِّنا حتى يُرِيحَنا مِن مكاننا هذا، قال: فيأتون آدمَ ﷺ، فيقولون: أنت آدمُ أبو الخَلْق؛ خلَقكَ اللهُ بيده، ونفَخ فيك مِن رُوحه، وأمر الملائكةَ فسجدوا لك، اشفَعْ لنا عند ربك حتى يُرِيحَنا مِن مكانِنا هذا، فيقولُ: لستُ هُنَاكُمْ، فيَذكُرُ خطيئتَه التي أصابَ، فيَستحْيِي ربَّه منها، ولكنِ ائتُوا نُوحًا أولَ رسولٍ بعَثه اللهُ، قال: فيأتون نُوحًا ﷺ، فيقول: لستُ هناكم، فيَذكُر خطيئتَه التي أصابَ، فيستحيي ربه منها، ولكنِ ائتُوا إبراهيمَ ﷺ الذي اتَّخذه اللهُ خليلًا، فيأتون إبراهيمَ ﷺ، فيقول: لستُ هناكم، ويذكرُ خطيئتَه التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن ائتوا موسى ﷺ الذي كلَّمه الله، وأعطاه التوراةَ، قال: فيأتون موسى ﷺ، فيقول: لستُ هناكم، ويذكرُ خطيئتَه التي أصاب، فيستحيي ربه منها، ولكن ائتوا عيسى رُوحَ الله وكلمتَه، فيأتون عيسى رُوحَ الله وكلمتَه، فيقول: لست هناكم، ولكن ائتوا محمدًا ﷺ؛ عبدٌ قد غُفِر له ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر، قال: قال رسول الله ﷺ: فيأتوني، فأستأذنُ على ربي فيُؤذنُ لي، فإذا أنا رأيتُه وقعتُ ساجدًا، فيَدَعُني ما شاء الله، فيُقال: يا محمدُ، ارفَعْ رأسَك، قُلْ تُسْمَع، سَلْ تُعْطَهْ، اشفَعْ تُشَفَّعْ، فأرفعُ رأسي، فأحمدُ ربي بتحميدٍ يُعَلِّمُنيه ربي، ثم أشفعُ، فيَحُدُّ لي حَدًّا فأخرجُهم من النار، وأُدخلُهم الجنةَ، ثم أعودُ فأقعُ ساجدًا، فيَدَعُني ما شاء الله أن يدعَني، ثم يقال: ارفع رأسك يا محمد، قل تسمع، سل تعطه، اشفع تشفع، فأرفعُ رأسي، فأحمدُ ربي بتحميدٍ يعلمنيه، ثم أشفعُ، فيَحُد لي

وَقَوْلِهِ: ﴿ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ ٢٦ ﴾ [النجم: ٢٦]

حدًّا، فأخرجهم من النار، وأدخلهم الجنة، قال: فلا أدري في الثالثة أو في الرابعة، قال: فأقولُ: يا ربِّ، ما بقِي في النار إلا مَن حبَسَه القرآنُ»، رواه مسلم.

فالشفاعةُ كلُّها لله، إذًا تعلقُ الناس بالشفاعة تعلقٌ خاطئ، فالشفاعة التي تقع هي لله ولا تقع إلا بعد إذنه؛ ليُكرِم مَن يشفعُ لذلك، يقول الله: اشفع حتى يكرم، ولذا قال الله في حق الرسول ﷺ: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء:٧٩]، المقامُ المحمودُ: هو الشفاعة، هذا ما وَعَده الله، ولكن ليس على ما يعتقدُه المشركون الذين يقولون: نحن مِن أمةِ محمد، وسيشفعُ لنا. إذا كنتَ مشركًا وعبدتَ غيرَ الله فلا تنفعُك الشفاعةُ؛ ﴿فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨].

فالمقصودُ أن الشفاعة التي بيَّنها اللهُ في القرآن هي مِلكٌ له، وقد يأمُرُ مَن يريدُ أن يكرمَه أن يشفعَ فيمَنْ أرادَ رحمتَه جلَّ وعلا.

قوله: (وَقَوْلِهِ: ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا ... ﴾)

﴿ وَكَم ﴾ يقولُ المفسرون وكذلك علماءُ النحو: إنها تكثيرية، معناها كثيرٌ من الملائكة في السماوات لا تُغني شفاعتُهم شيئًا إلا بعد أن يأذن اللهُ لمن يشاء منهم أن

وقوله: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سبأ: ٢٢]

يشفع ويَرضَى عن المشفوع له، فإذًا الشرطان موجودان في هذه الآية، وكذلك في الآية التي قبلها.

قوله: (وَقَوْلِهِ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ... ﴾) هذا الأمرُ يُسمَّى تعجيزًا، ادعوا مُشرِكيكُم، فلن ينفعوكم، ﴿ زَعَمْتُم ﴾ زعمَ كذبٍ، بئس مطيةُ الإنسانِ (زَعَم)؛ فإن استعمال (زعم) في القرآن جاء في الكذب: ﴿ زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[التغابن:٧]

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾[النساء:٦٠]؛ يعني هو أمرٌ وقَع في غيرِ موضعِه؛ إذِ ادَّعَوْا أن أصنامهم تشفع لهم، والله -جل وعلا- يقول: ادعوهم، فهم لا يملِكون مع الله شيئًا، لا يملكون مثقالَ ذرة في السماوات ولا في الأرض، والذي لا يملِكُ هذا المقدارَ كيف يُدعَى؟

قوله: (وَقَوْلِهِ: ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾) قد يقال مثلا: هَبْ أنهم لا يَملِكون مثقالَ

قَالَ أَبُو اَلْعَبَّاسِ: «نَفَى الله عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ اَلْمُشْرِكُونَ...........

ذرة لا في السماوات ولا في الأرض، والملك كله لله، ولكنْ قد يَرِدُ احتمالٌ وهو أنهم يُشاركون اللهَ في مِلْكه؟ فنَفَى الله هذا التقديرَ.

﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾ (فيهما) يعني في السماوات والأرض، بقي تقديرٌ ثالث؛ وهو أنهم قد يكونون مُعاوِنين أو وُزراءَ، فنفى هذا الزعم بقوله: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، بَقِيَتِ الشفاعةُ؛ فقال: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، فما بقِي في أيدي هؤلاء الزاعمين غيرُ الإفلاس.

أما ما ذكره أبو العباس، فأبو العباس هو شيخُ الإسلام ابن تيميَّةَ، وهو لم يكن له ولد ولم يتزوَّجْ، فكان منشغلًا بالعلم ثم الجهادِ، فما كان له وقتٌ يَفرُغ لزوجة، ومع هذا يُكْنَى أبا العباس؛ لأنه يجوزُ أن يُكنَى الإنسانُ ولو لم يكن له ولدٌ.

وقد ثبت في «الصحيح» أن الرسول ﷺ قال لغلامٍ صغيرٍ كان معه عُصفورٌ يَلعَبُ به اسمُه «النُّغَيْر» فقال له الرسول ﷺ: «ما فعل النغيرُ يا أبا عُمَير؟» وهو صغير، فهذا دليلٌ على جوازِ أنْ يُكْنَى ولو لم يكن له ولدٌ.

قوله: (قَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ: نَفَى الله عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِهِ الْمُشْرِكُونَ) يقصدُ في الآية الأخيرة.

فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا للهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُّ؛ كَمَا قَالَ: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا الْمُشْرِكُونَ هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ كَمَا نَفَاهَا الْقُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ وَيَحْمَدُهُ -لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً- ثُمَّ يُقَالُ لَهُ ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ».

وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ..

(فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ) أي من الملك؛ لقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾، أو أن يكون عونًا لله؛ قال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾، ولم يبق إلا الشفاعة، فنفاها وأثبت شفاعةً لا حظَّ للمشرك منها في شيء.

ثم استدَلَّ بما جاء عن أبي هريرة ﷺ: (وَقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ ﷺ) يعني أنه سأل الرسولَ: (مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ؟ قَالَ: مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ)، يعني يَصْحَبُه إخلاصٌ بالتوحيد، والذين يُخلِصون العبادةَ لله هم أسعدُ الناس بشفاعته ﷺ، أما المشركُ فلا يَنالُ الشفاعةَ، كما قال الله عن هؤلاء:

خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ» فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ بِإِذْنِ الله، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِالله.

وَحَقِيقَتُهُ أَنَّ الله سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الْإِخْلَاصِ، فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أَذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ؛ لِيُكْرِمَهُ، وَيَنَالَ الْمَقَامَ الْمَحْمُودَ.

فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا الْقُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِأَهْلِ الْإِخْلَاصِ وَالتَّوْحِيدِ انْتَهَى كَلَامُهُ.

﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ (٤٢) قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ (٤٦) حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ (٤٨)﴾ [المدثر:٤٢-٤٨].

قوله: (خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ) الإخلاص: هو أن يكونَ العملُ لله وحدَه ليس لأحدٍ فيه شيءٌ، مِن أغراض الدنيا؛ من المال، أو المناصبِ، ولا أشخاص بأعيانهم، ليس له غرضٌ فيه لا ثناءٌ ولا محبةٌ، وعلامة هذا أن كلَّ عملِه واحدٌ سواءٌ، بخلافِ الإنسانِ الذي لو كان وحدَه فَتَر، وإذا كان عنده أحدٌ نشِط، ثم بيَّن حقيقةَ الشفاعة وأنَّ الله هو الذي يتفضَّل على أهل الإخلاص فيأمرُ مَن يريدُ أن يكرمَه أن يشفعَ، فإذًا الشفاعةُ التي نفاها القرآنُ ما كان فيها شركٌ، يعني: ما كان فيها طلبٌ من غير الله، بأن يطلب من الشافع نفسه، ولهذا أثبت الشفاعة بإذنه؛

....

يعني بالإذن الأمر؛ أنه يأمر الشافعَ أن يشفع بإذنه في مواضعَ بالقرآن، وقد بيَّن الرسولُ أنها لا تكونُ إلا لأهل الإخلاص والتوحيد.

❁❁❁

بَابُ

قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾[القصص: ٥٦].

قوله: (بَابُ قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾) الهدايةُ في كتاب الله تنقسمُ إلى قسمين:

١- هدايةٌ بمعنى الدَّلالةِ والإرشادِ وتبيينِ الأمر وإيضاحِه؛ فهذه للنبي ﷺ، والدعاةُ مِن بعده يبيِّنون ويوضِّحون أمرَ الله، ويرغِّبون بترغيب الله وتخويفه.

٢- هدايةٌ هي خَلْق الهُدَى في القلوب؛ فهذه إلى الله لا أحدَ يقدِرُ عليها، وهذي التي يقولُ اللهُ فيها: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٨﴾ ﴾[الحجرات: ٧ - ٨]، فالذي في هذه الآية ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾ يعني: لا تستطيعُ أن تجعلَ في قلبِ الإنسان محبةَ الخير وإرادتَه، وإنما هذا إلى الله؛ يَتفضَّلُ به على مَن يشاء، أما الإنسانُ فعنده عقلٌ واختيارٌ وإرادةٌ، فهذا إليه، لكنه بحاجةٍ إلى هدايةِ الله، ولهذا أمرَ اللهُ أن نسألَه الهدايةَ منه في كل ركعة من ركعات الصلاة؛ ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ ﴾[الفاتحة: ٦]، وليس معنى هذا كما يقول المفسرون (اهدنا: ثبتنا)، التثبيتُ مطلوبٌ، ولكن ليس هذا؛ لأن

وَفِي ٱلصَّحِيحِ: عَنِ ٱبْنِ ٱلْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ؛ قَالَ: لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ ٱلْوَفَاةُ؛

الهداية لا تتمُّ حتى يضعَ الإنسانُ أولَ قدم له في الجنة، وأمَّا قبلَ ذلك فهو بحاجةٍ دائمًا إلى الهداية؛ إذا هُدي فهو بحاجةٍ إلى زيادةِ الهدى، وزيادةُ الهدى لا حدَّ لها حتى يستقرَّ في مسكنِه الذي أُعِد له في الجنة، فقال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾ فجعَل الهدى إليه جل وعلا، وجعَل ذلك إلى مشيئته، وهو أعلمُ بمواضعِ الهدى، كما أنه أعلمُ مَن لا يَستحِقُّ ذلك، فيَمنَعُه الهدى الذي هو فَضلُه، أمَّا مقدورُ الإنسان وإرادتُه وعملُه فهذا إليه؛ جَعَله اللهُ له، وبه يختارُ، ولكن قد يختارُ الأمرَ الذي فيه الرَّدَى.

ثم ذَكَر الحديثَ الذي في الصحيح، فقال: (وَفِي الصَّحِيحِ) يعني في الحديث الصحيح، وإلا فالحديث في «الصحيحين»، (عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ) أبوه هو المسيَّبُ وهو صَحابيٌّ، ويجوزُ أنه حضَر المجلسَ؛ لأنه مِن بني أميةَ؛ قريبُ عبدِ الله بنِ أمية.

قوله: (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ) يعني: علاماتُها، وأما الوفاةُ فإذا حضَرتْ فلا تنفعُ التوبةُ؛ عندما يُعاينُ الإنسانُ الملائكةَ ويَنقطِعُ من الدنيا، ولهذا يَرجِعُ كلُّ فاجرٍ في ذلك الموطنِ إلى الحق، ولكن لا يُفيد، كما ذكر اللهُ جل وعلا ذلك عن فرعونَ أنه لمَّا أدركه الغرقُ قال: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ

جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ وَعِنْدَهُ عَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ يَا عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا الله كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله ....

وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ ﴾ [يونس: ٩٠-٩١]، وكل مُحتَضَرٍ تكونُ هذه حالتَه، لكن لا يُفيدُه ذلك، ولذلك يقولُ الرسولُ ﷺ: «تُقبَل التوبةُ ما لم يُعاينْ»، أي: يُعاينُ الموتَ والملائكةَ الذين يقبضون رُوحَه، ويقول ﷻ: ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ ﴾ [النساء: ١٧- ١٨].

قوله: (لَمَّا حَضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ) فيه تجوُّز، يعني حَضَرت علاماتُها وأماراتُها، فهذا معناه أن الإنسان إذا كانت حياتُه مستقرةً قبلَ أن يعاينَ الموتَ وينقطعَ رجاؤه مِنَ الدنيا فإنَّ توبتَه مقبولةٌ، وإذا كان كافرًا ثم أسلَمَ في هذه الحالة كان مسلمًا.

قوله: (جَاءَهُ رَسُولُ الله ﷺ، وَعِنْدَهُ عَبْدُ الله بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبُو جَهْلٍ، فَقَالَ لَهُ: يَا عَمِّ) قوله: (يَا عَمِّ) هذا فيه تلطُّف لمن أراد أن يدعوَه لعلَّه يَقبَلُ، (يَا عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله؛ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله) قل: لا إله إلا الله، فهذه الكلمةُ هي أصلُ الدينِ، وهي التي يكونُ بها الإنسانُ الكافرُ مسلمًا؛ بشرطِ أن يفهمَ معناها، أمَّا

فَقَالَا لَهُ أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ؟ ....

مجردُ التلفُّظ بدون فهمِ المعنى، فهذا لا يُجزئُ؛ مثلًا لو قالها أعجميٌّ لا يعرفُ معناها؛ هذا نتوقفُ في أمره حتى يتبيَّن لنا أيعرفُ معناها حقيقةً أو أنه قالها هكذا؟ لأن هذا لا يفيد شيئًا، وإذا تبين أنه يعرفُها وقالها وأسلمَ وأنه يعملُ بمقصودها ويتبرأُ مما يخالفُها من الشرك، فهذا هو المطلوبُ؛ لأنها تنفي الشركَ أصلًا؛ لأن معنى الإله: هو المألوهُ الذي تَأْلَهُه القلوبُ خوفًا ورجاءً وتعلقًا به فقط.

والإلهُ: اسمُ جنس، واسمُ الجنس هو الشائعُ في نوعه، فالإله يُطلَق على الصَّنَم، وعلى الإله المعبودِ، وعلى مُرادِ النفوس التي تسعى له؛ ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الفرقان: ٤٣] يعني الهوى قد يكونُ إلهًا، والشهوةُ قد تكون إلهًا، وألعابُه التي يلعبُها قد تكونُ إلهًا تَصرِفُه عن مُرادِ الله، فكل ما صَرَف عن عبادةِ الله ومراده فهو إلهٌ، لهذا بُنِيت على النَّفْيِ والإثبات؛ (لا إله) هذا نفي، ثم جاء الإثباتُ (إلا الله)، فصار فيه إبطالُ كلِّ مألوهٍ وإثباتُ الإلهية لله وحده، فهذا يجبُ أن يُفهَم، والعربُ يفهمونه؛ ولهذا لَمَّا قال الرسولُ ﷺ: «قولوا: لا إله إلا الله» قالوا: أجعل الآلهة إلهًا واحدا؟! أنكروا ذلك؛ لأن الآلهة عندهم كثيرٌ كُلٌّ له إله؛ فأبَوْا أن يقولوا ذلك.

فقال له رسول الله ﷺ: (يَا عَمِّ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله؛ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله، فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟) انظر كيف يَفهَمون كلمةَ لا إله إلا

....

الله؛ لأنهم يعلمون أنه لو قالها رغِب عنِ الشرك؛ لأن ملة عبد المطلب هو الشرك، هي عبادةُ الأصنام، عبادةُ المألوهات التي مَلأتِ الأرضَ، **(أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟)** وهذا يدُلُّ على مضرَّةِ التقليد وتعظيمِ الآباءِ والأسلاف، ويدخُلُ في هذا تعظيمُ الأوطانِ والترابِ والأموالِ؛ لأنها قد تَصرِفُ عن عبادة الله، وتجعلُ الإنسانَ معبودًا؛ لذلك الأمرِ فالحياةُ يجب أن تكونَ كلُّها لله، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾﴾[الأنعام: ١٦٢].

قوله: **(يَا عَمِّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ؛ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ الله، فَقَالَا لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ، فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرَ مَا قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)** ليس هذا قولَه هو، وإنما هذا قولُ الراوي؛ لأنه استبشعَ الكلمةَ أن يقول: أنا؛ لأنها كلمة بشِعةٌ خبيثةٌ، كلمةُ شركٍ وكفرٍ بالله، فأراد الراوي أن لا يُضيفَ لنفسه هذا الشيءَ، وقد جاء في روايةٍ على الأصل: «أنا على ملةِ عبدِ المطلب، فمات على ذلك»، وفي رواية أنه قال: «لولا أن تُعيِّرَني بها نساءُ قريش لأقرَرْتُ عينَك بها»، صار تعييرُ نساء قريش أعظمَ عنده مِنَ النار!!

ولكن الله يقضي بالضلال على مَن يشاءُ، ويمُنُّ بالهداية على مَن يشاءُ، وليس الأمرُ بالشرف والرِّفْعة في الدنيا، وإنما الأمرُ يعود إلى الله جل وعلا، فقد هَدَى بلالًا وصُهَيْبًا وابنَ مسعود ﷺ والضعفاءَ والمساكين الذين كانوا منبوذين في

فَأَعَادَ عَلَيْهِ اَلنَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخَرَ مَا قَالَ هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ اَلْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا الله فَقَالَ اَلنَّبِيُّ ﷺ «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» . ...

قريش، وهؤلاء الكبارُ العظماءُ صاروا حطبَ جهنمَ، ولا تنفعُهم رِفعتُهم في الدنيا، وهذا فيه بيانُ مضرَّةِ جُلساءِ السُّوء، وهذا أمرُه واضحٌ؛ فجليسُ السوء يدعو إلى السوء والضلالِ والكفرِ بالله جل وعلا، والشقاءِ، بخلاف الجليسِ الصالح؛ الذي إمَّا أن يُرشِدَك أو يُثبِّتك على الحق بإذن الله جل وعلا.

قوله: (**وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لَا إِلَهَ إِلَّا الله**) هذا فيه نصٌّ واضحٌ في أن أبا طالب مات كافرًا؛ خلافًا لما يقولُ الرافضةُ أنه مسلم وأنه في الجنة، كما يقولون: مسيلمةُ الكذابُ هو مسلمٌ وفي الجنة، ولكن الصحابة ظلموه وقاتلوه؛ لأنهم يريدون معاكسةَ أمرِ الله تمامًا، ومعاكسةَ أمرِ الرسول ﷺ، ولكنهم يتستَّرون بزَعْمهم أنهم يُحِبُّون أهلَ البيت، كَذَبوا وإنَّما اتخذوهم جدارًا يرمون الإسلامَ مِن ورائه، هذا هو حقيقةُ الأمر، فهم مجوسٌ كَفَرة، ومضرَّتُهم أعظمُ مِن مضرةِ اليهودِ والنصارى، يجبُ أن يُقاتَلوا قبلَ قتالِ اليهود والنصارى لو كان المسلمون يَعقِلون، ولكنهم لا يعقلون حتى يَنْشَبَ السلاحُ في رقابهم، هنالك يعرفون أذاهم، وقد تبيَّن ماذا فعلوا في أهل سوريا والعراق؛ يسلخون الإنسان سلخًا وهو حيٌّ، ويقتلون الأطفالَ والنساءَ وكلَّ مَن قدَروا عليه من أهل السنة.

قوله: (**فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ**) هذا تأكيدٌ من الرسول

فَأَنْزَلَ الله ﷻ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [القصص:٥٦]

ﷺ؛ حتى يكونَ ذلك جزاءً له عندما كان يحميه ويحُوطُه ويُسانِدُه في دعوته، حتى تحمَّل مقاطعةَ قريش وحصارَهم في الشِّعْب سنتين، فَقَدوا فيهما الطعامَ وكلَّ شيء، وهو قائمٌ بحماية الرسول ﷺ، هذا من حكمة الله أنْ جعل الذي يحميه ليس على دينه، لو كان مثلًا على دينه لقِيل: هذا يحميه لأجل الدين، وإن كان هذا عصبيةً قَبَلية فالعصبيةُ تنفعُ في بعض الأحيان مثل هذا، لأستغفرن لك ما لم أُنْهَ عنك: يعني أطلبُ لك المغفرةَ من الله ما لم أُنْه، ولهذا قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ ﴾، وهذا فيه إشكالٌ؛ لأن هذه القضيةَ وقعت في مكةَ في أولِ الأمر، والآيةُ في سورة التوبة مِن آخِرِ ما نزل مِنَ القرآن، معنى ذلك أنه حصَل الاستغفارُ وصار له مدةٌ، ولَمَّا سمِع المسلمون استغفارَ الرسول قالوا: نستغفِرُ لآبائنا الذين ماتوا كافرين، ولهذا قال: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣]، فمَن مات كافرًا فهو مِن أصحاب الجحيمِ الكافرين بلا تردُّد.

قوله: (وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن

....

﴿يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾) في سورة القصص، وهي مكيةٌ، ويكونُ فيه مدةٌ بين الآيتين، وحصولُ الاستغفار، وفي هذا إيضاحٌ بأن الهداية بيَدِ الله يهدي مَن يشاء، وأن الهداية تُطلَب من الله، وأما الرسولُ ﷺ فلا يَملِك أن يهديَ أحدًا، وإنما يُبلِّغُ أمرَ الله جل وعلا، ويدعو إلى جنته، ويحذِّر مِن عذابِه.

❋❋❋

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ

وَقَوْلِ الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾[النساء: ١٧١].

قوله: (بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ)، والغلو: هو مجاوزةُ الحد الشرعي، والضررُ يأتي للمسلمين من جهتين:

١- الزيادةُ على المشروع.

٢- النقصُ منه أو تبديلُه بالبدع، ولا يأتي نقصٌ في الدين إلا مِن هاتين الجهتين، ولا يأتي الشيطانُ إلا منهما.

قولُه: (وَقَوْلِ الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾)؛ لأنهم قالوا: المسيحُ ابنُ الله، تعالى اللهُ عمَّا يقولون، ولا يَزالُ كثيرٌ منهم على هذا القول، (﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ﴾) أي: لا تتجاوَزُوا الحدَّ المشروعَ، والخطابُ لليهود والنصارى، وتدخلُ فيه هذه الأمةُ.

قولُه: (﴿وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ﴾): والحقُّ أن اللهَ هو الخالقُ المتصرِّف المعبودُ الواحدُ الأحدُ، الذي لا شريكَ له في مُلكه ولا في حقِّه الذي يجبُ أن يقومَ

وَفِي الصَّحِيحِ: عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣]. قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصُبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمْ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا وَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ، وَنُسِيَ الْعِلْمُ عُبِدَتْ».

به المسلمُ.

قوله: «وَفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما ...» أي: «صحيح البخاري».

واضحٌ من هذا الكلام أن ذلك ليس على عهد نوح، وإنما ذلك قبل إرسال نوح، وأن الناس قبل ذلك كانوا على التوحيد مسلمين ليس عندهم شرك، كما قال ابنُ عباس: كان بين آدمَ ونوحٍ عشرةُ قرون كلهم على التوحيد. ثم طرأت هذه القضية فيهم، يعني كان عندهم رجالٌ مجتهدون قدوةٌ لهم في الاجتهاد والعلم والعمل الصالح، فهلكوا في وقت متقارب، فأسِفوا عليهم أسفًا شديدًا، فجاءهم الشيطانُ بصورة ناصحٍ، ظهَر لهم مواجهةً كما ظهر لقريش عندما أرادوا أن يتآمروا في شأن الرسول ﷺ، فجاءهم في صورة شيخ من أهلِ نجدٍ، وقد كانوا أخفَوْا أمرَهم يتواعدون ليلًا، فقالوا: ما شأنُك ومَن أنت؟ قال: رجل من أهل نجد، سمعتُ بأمركم فأحببتُ أن لا تَعدَموا مني رأيًا، فكلما ذَكَروا أمرًا قال: لا يَصلُح، حتى ذكروا قتلَه، وأنهم يأخذون مِن كل قبيلةٍ رجلًا، وأنهم يضربونه

....

ضربةَ رجل واحد؛ حتى يتفرقَ دمُه بين القبائل، وتَرْضى بنو هاشم بالدية، قال الشيطان: هذا هو الرأيُ. فالشيطان أتى هؤلاء كما أتى أولئك، فأتى لهم وقال: إنكم لو صوَّرتم صُوَرهم ونَصَبْتموها بالمجالس التي كانوا يجلسونها، فإذا رأيتم صورَهم، فتذكَّرتم ما فعلوا، فاجتهدتم باجتهادهم. فاستحسنوا الفكرةَ، وهذا هو أولُ مبدأ الصُّوَر وتعظيمِ القبور الذي دخل الشركُ على الناس منهما، فصوَّروها وصاروا يجتهدون كما يقول، ولكن بعد وقتٍ مات هؤلاء الناسُ الذين يعرفون الأصلَ، وأتى جيلٌ بعد جيل ونُسي السبب؛ فلما نُسي السببُ أتى إليهم الشيطانُ فقال: إنَّ آباءَكم ما صوَّروا هذه الصورَ إلا ليطلبوا شفاعتَها ويتقرَّبوا بها إلى الله، فكان مبدأ الشرك هو تصوير صور الصالحين والغلو فيهم، والغلوُّ: زيادةُ الحب الذي فرَضه اللهُ؛ أن يزيد ويتعدَّى الحدَّ المشروعَ، فيكون سبب الضلال، فبعث الله نوحًا إليهم وبقِي وقتًا طويلًا يدعوهم، فأخذ بعضُهم يوصي بعضًا: إياكم أن تغترُّوا بدعوة نوح، لا تذرُنَّ آلهتكم، هذه وصية الكافرين بعدم ترك الآلهة عمومًا، وانتشرت الآلهةُ وصار الشركُ منتشرًا، ﴿ **وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا** ﴾، فهذه أسماءُ الرجال الصالحين الذين سمَّوْهم وصوَّروا صُوَرَهم وأصبحت معبودةً عندهم.

فمقصودُ المؤلف أن يُبينَ أن زيادةَ الحب للصالحين وتعظيمَهم قد يكونُ سببًا

قَالَ اِبْنُ اَلْقَيِّمِ : قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنْ اَلسَّلَفِ : «لَمَّا مَاتُوا، عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِمْ، ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ اَلْأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ».

وَعَنْ عُمَرَ؛ : أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : « لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتْ اَلنَّصَارَى اِبْنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ » أَخْرَجَاهُ.

لترك الدين وعبادةِ أولئك، كما هو الواقعُ الآنَ في كثير من البلاد؛ تجدُهم مثلًا إذا عظَّموا رجلًا بنَوْا على قبره وعظَّموه وصاروا مثلا يقولون: إن الدعاءَ مستجابٌ عنده، ثم يتمادى الأمر، وقد يسألونه ويعبدونه كما فعل أولئك تمامًا، ويتبرَّكون بالذهاب إليه ويجلسون عند قبره؛ فيكون ذلك مِنَ العُكوفِ والعبادةِ التي لا تكونُ إلا لله.

وقوله: (أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: لَا تُطْرُونِي): الإطراء: زيادةُ المدح؛ يقال: فلانٌ أَطْرَى فلانًا، أي: مَدَحَه وزاد في مدحه، فالرسول ﷺ يقول: لا ترفعوني فوق منزلتي، قوله: (عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ) وبدأ بالعبودية، ولهذا قال: (فَقُولُوا: عَبْدُ الله وَرَسُولُهُ)، وسيأتي أنه نَهَى أن يُقال: «سيدُنا، أنت سيدُنا وابنُ سيدِنا، وقال: السيدُ اللهُ، قولوا قولَكم أو بعضَ قولِكم، لا أُحب أن ترفعوني فوقَ منزلتي التي أنزلني الله إياها»؛ وهي أنه عبدٌ لله ورسولٌ له، فقال: لا تُطْروني كما أطْرَتِ النصارى ابنَ مريم النصارى؛ أي: زادت في مدحه وأعطَتْه ما لله جل وعلا، فضَلُّوا وهلَكوا في ذلك.

وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ الْغُلُوُّ»

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ - قَالَهَا ثَلَاثًا».

قوله: (قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ ...») جاء عند ابن ماجه أن له سببًا، عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما، قال: قال رسولُ الله ﷺ غداةَ العقبةِ، وهو على ناقته: «القُطْ لي حَصًى»، فلَقطتُ له سبعَ حَصَيات، هُنَّ حَصَى الخَذْف، فجَعَل ينفُضُهن في كفِّه ويقول: «بأمثالهنَّ فارْمُوا»، ثم قال: «يا أيها الناس! إياكم والغلوَّ في الدين، فإنما أهلك مَن كان قبلَكم الغلوُّ في الدين»، يعني: إياكم أن تفكروا أن زيادةَ كِبَر الحصى أبلغُ في الرمي فتهلِكوا في ذلك، وهذا عامٌّ في الرمي وغيرِه، فالغلوُّ هو مجاوزةُ الحدِّ الذي حدَّه الشرعُ، فمَنْ جاوَزَه هلَك، ومثلُ ذلك حُبُّ مَن أمر الله بحبه مِنَ الصالحين يجبُ أن يكونَ وَفْقَ أمرِ الله به.

قوله: (وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ)، التنطُّعُ: المبالغةُ في الشيء؛ سواءٌ كان في الكلام أو الفعل، وهو قريب من الغلو؛ فهذا يُهلِك الإنسانَ، وقد يكونُ سببًا في ضلاله وضلالِ غيره.

❋❋❋

بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟!

فِي اَلصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ اَلْحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنْ اَلصُّوَرِ، فَقَالَ أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمْ اَلرَّجُلُ اَلصَّالِحُ أَوْ اَلْعَبْدُ اَلصَّالِحُ، بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ اَلصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ اَلْخَلْقِ عِنْدَ الله) فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ اَلْفِتْنَتَيْنِ فِتْنَةَ اَلْقُبُورِ، وَفِتْنَةَ اَلتَّمَاثِيلِ.

قوله: (بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ...) التغليظُ في الشيء: هو التشديدُ، وتعظيمُ أمره؛ بذكر الوعيد، وما يترتبُ عليه من العذاب، يعني العبادة عند القبر، كما في هذه النصوص وغيرها.

قوله: (فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها: «أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ الله ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا بِأَرْضِ الحَبَشَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ) أم سلمة رضي الله عنها كانت من المهاجرين إلى أرض الحبشة، (فَقَالَ:) أي: رسولُ الله ﷺ: (أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ -أَوِ الْعَبْدُ الصَّالِحُ- بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله)، ثم يقول المؤلف: (فَهَؤُلَاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الْفِتْنَتَيْنِ: فِتْنَةِ الْقُبُورِ، وَفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ)، وبهاتين الفتنتين افتتن الناسُ وعبَدوا غيرَ الله؛ فالصورُ هي مبدأُ الغلو كما سبق، أما القبورُ فهي كذلك، فالنفوس مولعةٌ بالقبور وساكنها؛ إذ يعتقدون أنه ولي، والولي أعطاه الله، ويزين لهم الشيطانُ أن

وَلَهُمَا عَنْهَا، قَالَتْ: لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ الله ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا فَقَالَ وَهُوَ كَذَلِكَ: «لَعْنَةُ الله عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»، يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، ....

الله أعطاه، والإنسانُ ليس له إلا عملُه، والله يجزيه به، فإذا أخطأ الإنسانُ أمرَ الله الذي جاء به المصطفى فلا بد أن يتولاه الشيطانُ، ولا يرضى إلا أن يكونَ قرينًا معه في النار، وآخرُ ما يأمرُه به الشركُ؛ لأنه هو الذنب الذي لا يَغفِرُ الله لصاحبه إذا مات عليه، فعبادةُ الله عند القبر مردودةٌ، وصاحبُها ممقوتٌ عند الله؛ ولهذا لا تصحُّ الصلاة في مكان فيه قبورٌ كما تقتضيه النصوصُ أنهم شرارُ الخلق.

قوله: «**لما نُزِلَ برسول الله ﷺ**» يعني علامات الموت، قوله: «**طفِق يَطرَح خميصةً له على وجهه**» الخميصة: كساءٌ يُغطَّى به الوجهُ، والمُحتضَر يَضِيق نفَسُه بشدة، فكان يَطرَحها لأنه ضاق نفَسُه ﷺ.

قوله: «**فإذا اغتمَّ بها كشَفَها**»، وهذه حالةٌ شديدةٌ، ومع ذلك يحذِّر الرسولُ ﷺ هذا الأمر، فهذا خطير جدًّا بحكم أنه حذَّر أمتَه في هذه الحالة الشديدة.

قوله: «**لعنةُ الله على اليهودِ والنصارى؛ اتَّخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ؛ يحذِّر ما صنعوا**» يعني وهو ﷺ في هذه الحالة من المرض يحذِّر أمتَه فعلَ اليهود والنصارى، واللعنُ: الطردُ عن مظانِّ الرحمة، ومَن لَعَنه اللهُ فهو مطرودٌ مُبْعَد، والرسولُ ﷺ يَلعَن مَن لعنه اللهُ، فالذي يَسلُك مسلكَهم ويكونُ على هذه الطريقة

وَلَوْلَا ذَلِكَ؛ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا. أَخْرَجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ سَمِعْتُ اَلنَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وَهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ فَإِنَّ اللهَ قَدْ اِتَّخَذَنِي خَلِيلاً كَمَا اِتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

قد لعنه الرسولُ ﷺ، ولَعْنَتُه ﷺ يُتوقَّعُ أنها واقعةٌ، وهذا هو الأقرب، ولهذا قالت: «يحذِّر ما صنعوا» يعني يحذر أمتَه، وإلا فأولئك قد فُرِغ منهم.

ثم تقول: «ولولا ذلك أُبْرِز قبرُه» يعني: لولا تحذيرُه وذكرُه هذه الأمورَ لوُضِع قبرُه في البقيع مع أصحابه، ولكن خُشِي أن يُتخذَ قبرُه مسجدًا ويُقصدَ للعبادة، فدُفِن ﷺ في بيته صيانةً له أن يقعَ في موضعٍ يقعُ فيه الشركُ.

قوله: «**ولمسلم عن جُندَبِ بنِ عبدِ الله قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ قبلَ أن يموت بخمسٍ وهو يقولُ: «إني أَبْرَأُ إلى الله أن يكونَ لي منكم خليلٌ**» البَراءةُ: هي الخُلوصُ من الشيء، والخُلةُ: هي المحبَّةُ التي كَملت حتى أصبح القلبُ لا يتسعُ لغيرها؛ لتخلُّلِها أجزاءَ القلب كله، فالرسولُ ﷺ اتخذه اللهُ خليلًا، وهذه الخلة لا تحتملُ المشاركةَ؛ لذلك برئ الرسولُ مِن أن يكون له خليلٌ، ثم قال: «**ولو كنتُ متخذًا مِن أمتي خليلًا لاتخذتُ أبا بكرٍ خليلًا**»، وأبو بكر ﷺ أفضلُ الصحابة،

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي اَلسِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، وَالصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وَإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ : (خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا) فَإِنَّ اَلصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتِ اَلصَّلَاةُ فِيهِ، فَقَدِ اِتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ، يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ : «جُعِلَتْ لِيَ اَلْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا».

وَلِأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْ اِبْنِ مَسْعُودٍ ﷺ مَرْفُوعًا : «إِنَّ مِنْ شِرَارِ اَلنَّاسِ ......

«ألَا وإنَّ مَن كان قبلَكم كانوا يتَّخذون قبورَ أنبيائهم مساجدَ، ألا فلا تتخذوا القبورَ مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك»، هذا التكرارُ مبالغةٌ مِنَ الرسول ﷺ، وكُلُّ هذه المبالغاتِ تدلُّ على أن الأمرَ شديدٌ، وأنه قد يقعُ؛ لأن الله قد أطْلَعَه على ما يكونُ في أمته، فقام بهذا التحذير والإنذارِ إبلاغًا من الله وإقامةً للحجة، ولئَلَّا يكون لأحدٍ من الناس عذرٌ.

ثم قال: «فقد نَهَى عنه في آخر حياته، ثم إنَّه لعن -وهو في السياق- مَنْ فَعَله» يعني في سياق الموت، ثم يقول: والصلاةُ عند القبور اتخاذٌ لها مساجدَ، فكلُّ موضعٍ يُصلَّى فيه يُسمَّى مسجدًا، كما قال ﷺ: «جُعِلت لي الأرضُ مسجدًا وطهورًا».

قوله: «ولأحمدَ بسندٍ جيدٍ عنِ ابنِ مسعودٍ ﷺ مرفوعًا: إنَّ مِن شرارِ الناس مَن تُدرِكُهم الساعةُ وهم أحياءٌ، والذين يتخذون القبورَ مساجدَ ... »، يعني أن

مَنْ تُدْرِكُهُمْ اَلسَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَاَلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ اَلْقُبُورَ مَسَاجِدَ» وَرَوَاهُ أَبُو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ.

الذين في آخرِ الزمان ما يَعرفون اللهَ، وإنما يَتهارَجُون تهارُجَ الحُمُر، مثلُهم مثلُ الذين يتخذون القبورَ مساجدَ؛ لأن هذه الفتنةَ مِنَ الفتن التي كثيرًا ما يقعُ منها الشركُ، فأَخبَرَ أن هؤلاء هم شرارُ الناس.



بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ

رَوَى مَالِكٌ فِي اَلْمُوَطَّأِ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : «اللهمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ اِشْتَدَّ غَضَبُ الله عَلَى قَوْمٍ اِتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»

قوله: «بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا»، الأوثانُ: كُلُّ ما عُبِد على غير صورةٍ، والأصنامُ: هي التي تكونُ على صورةِ إنسانٍ أو حيوان؛ هذا هو الفرقُ بين (الوثن) و(الصنم) الذي ذكره أهلُ اللغة.

والقبورُ إذا قُصِدت بقَصْد بَرَكتِها أو بركةِ مَن يكونُ فيها أو للطلبِ؛ تكونُ آلهةً تُقصَد من دون الله.

قوله: «رَوَى مالكٌ في المُوطَّأ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **اللَّهُمَّ لا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ على قومٍ اتَّخَذوا قبورَ أنبيائِهم مَساجِدَ**»، هذا الحديثُ رواه مالكٌ في الموطأ ورواه غيرُه، وفيه دعوةُ الرسولِ ﷺ ربَّه أن يصون قبرَه ألَّا يقعَ معبودًا، ودل هذا اللفظُ على أنَّه إن عُبِد صار وَثَنًا، وإن كان قبرَ الرسول، ولهذا قال: «اللهمَّ لا تجعَلْ قبري وثنًا يُعبَد»، ثم قال: «اشتد غضبُ الله على قوم اتخذوا قبورَ أنبيائهم مساجدَ»، ومعلومٌ أن الرسولَ ﷺ يَلعَنُ مَن يفعل ذلك، ويَكرَه ذلك أشدَّ الكراهية، فإذا وَقَع فليس عليه شيءٌ من ذلك، وإنما الإثمُ والوزرُ على مَن فَعَل ذلك، أو كان سببًا لهذا الشيء، وقد استجاب اللهُ دعوتَه فصانَ قبرَه

....

باالجُدْران التي حَمَتْه، فلا أحدَ يصِلُ إليه، وإن كان الناسُ الآن يزعُمون أنهم يذهبون يسلِّمون عليه، فهم يُسلِّمون مِن وراء حوائطَ عِدَّةٍ، فصانه الله، ثم لَمَّا فَعَل الوليدُ بنُ عبد الملك ما فَعَل بدون النظرِ إلى الأمر الشرعي، وإنما سياسةً منه؛ أَدخَلَ حُجَرَ أزواجِ النبيِّ ﷺ في المسجدِ خوفًا مِن أن يجتمعَ أولادُ عليٍّ من ذرية الحسنِ والحسينِ في هذا البيت؛ يَخشى أن يتآمَروا عليه ويأخذوا مُلكَه، فليس أمرًا شرعيًّا، اعترضه العلماءُ حتى قُتِل أحدُهم، وبعضُهم ضُرِب وأُهِين، وقد أنكروا عليه أشدَّ الإنكار، ولكنَّ الملوك لا ينظرون للأمر الشرعيِّ، بل ينظرون إلى مصالحِ مُلكِهم، وكان الأميرَ مِن قِبَل الوليدِ على المدينة عمرُ بنُ عبد العزيز، فأمَرَه أن يهدِمَ الغُرَفَ ويُدخِلَها المسجدَ، ففعل ذلك، ولكنه جعل حولَ القبرِ ثلاثةَ جدران، وجعل الجدرانَ التي تُحيط به على شبه مثلَّث قاعدتُه مِن جهة القبلة ويَنتهي من جهة الشمال بزاويةٍ؛ حتى لا يستطيعَ أحدٌ أنْ يستقبلَ القبرَ، وبقي إلى الآن على هذا، ولكنه بُني من خلفِه حوائطُ أخرى فسَتَرَت هذا، فالناسُ لا ينظرون إلى هذا المثلث.

فالواقعُ أن قبرَ الرسول ﷺ ليس في المسجد، وإنما هو في بيته، وإدخالُه فيه مِن فعلِ الملوك الذين لا يَعتبرون الأمرَ الشرعيَّ، فليس دليلًا ولا يُستدَل به على ذلك.

وَلِابْنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ مَنْصُورٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩﴾ [النجم: ١٩] قَالَ: «كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ، فَمَاتَ، فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ».

وَكَذَا قَالَ أَبُو الْجَوْزَاءِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: «كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلْحَاجِّ»

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ الْقُبُورِ، وَالْمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا الْمَسَاجِدَ وَالسُّرُجَ» رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

قوله: «ولِابْنِ جريرٍ بسَنَدِه عن سفيانَ عن منصورٍ عن مجاهدٍ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ قال: كان يَلُتُّ لهمُ السَّوِيقَ فمات، فعَكَفُوا على قَبْرِه....».

(اللَّاتّ): على قراءة التشديد؛ لأن اللات فيها قراءتان: التخفيفُ؛ وهي القراءة السَّبْعية، والتشديدُ؛ وهي قراءةُ ابنِ عباس ومجاهدٍ وغيرِهما، واللَّاتّ أُخِذت من اللَّتِّ، ولذلك فسره بـ(يلُتُّ)، واللت هو الخَلْط، يَخلِط السويقَ بالسَّمْن، فيقدمه لمن يأتي إليه، فيقال: إنه يَسمَن إذا أكل منه، ففُتِنوا به واعتقدوا أنه رجلٌ صالح، فلما مات دفنوه تحت صخرة، ونقشوا عليها، وصاروا يطوفون حولَها تعظيمًا لها، وهي مِن أكبرِ المعبودات في الجاهلية؛ كانت في الطائف، ثم قال: (وَكَذا قال أبو الجوزاءِ عنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: «كان يلُتُّ السويقَ للحاجِّ»).

قوله: «وعنِ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما قال: «لعَن رسولُ الله ﷺ زائراتِ القبور والمتَّخِذين عليها المساجِدَ والسُّرُجَ». اللَّعْنُ: هو الطردُ عن مظانِّ الرحمة، والبعدُ

....

عنها، ومَن لَعَنه الله فهو الملعونُ، ومَن لعنه الرسولُ ﷺ فهو مُستحِقٌّ لذلك، والنساءُ لا يجوزُ لهن زيارةُ القبور، وزائراتُ القبور ملعوناتٌ، وسواءٌ كانت قبورًا جمعًا أو قبرًا واحدًا لا فرقَ بينها، وقَرَن مع ذلك المتخذين عليها المساجدَ والسُّرُج جمع سراج؛ لأن السراج يدُلُّ على تعظيمها؛ لأنها تنوِّرُه، وكذلك لأنها تكونُ محلًّا للصلاة كما سبق.

❁ ❁ ❁

بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]

قوله: «بابُ ما جاء في حمايةِ المصطفى ﷺ جنابَ التوحيد ... »، هذا من إبلاغِه ﷺ، ونُصْحِه لأمته، وقيامِه لأمرِ الله على الوجهِ الأكمَلِ، وحمايةُ الشيء: صيانتُه أن يدخُلَ فيه شيءٌ يُخالِطُه مِن غيرِ جنسِه، والمصطفى ﷺ هو الذي اختاره اللهُ وفضَّله على غيره من الخلق، وهو نبينا ﷺ، واللهُ يَصطفي من الملائكة ومن البشرِ ما يشاءُ تعالى وتقدس، وجنابُ الشيء: هو جانبُه؛ لأن الأمورَ تدخُلُ من الجانب، أما الذي هو الوسطُ أو القلبُ فهذا مَصُونٌ وواضح، وقولُه: «وسَدِّه كُلَّ طريق يُوصِلُ إلى الشرك» يعني الأمورَ التي قد تكونُ مباحة لكنَّه نهى عنها خوفًا من أن يَدخُلَ الشيطانُ منها؛ نصحًا لأمته، وصيانةً للتوحيد أن يَتطرَّق إليه شيءٌ من غيره، ولقد قام الرسولُ ﷺ بالنصح الكامل، ثم استدل المؤلفُ على هذا المعنى بقول الله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿رَسُولٌ﴾ هنا نكرة للتعظيم؛ يعنى أنه رسولٌ له قدر عظيم، قام بالأمر الذي أمر الله به، فيجبُ أن تعرفوا حقَّه وقدرَه، ولكنه رسولٌ وعبدٌ، ليس له من العبادة شيءٌ ولا الملك شيء، ولا التدبير والتصرف، وإنما هو يبلغُ عن ربه ﷻ، ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ يعني

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، ......

تعرفونه؛ تعرفون مولِدَه ونشأتَه، وهو أيضًا يتكلمُ بلغتكم، فهذا مِن أكبَرِ المِنَنِ من الله؛ فلا تحتاجون إلى تعلُّم لغته حتى تعرفوا ماذا يقول، و﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ أي من جنسكم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ يَعِزُّ عليه ويَعظُمُ الشيءُ الذي يُعنِتُكم ويُكلِّفكم، وهذا لا بد أن يقوم بالنصح، ويحمي التوحيدَ أن يَدخُل فيه شيءٌ ينقصه أو يَذهَب بكماله، ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ فهو برأفته ورحمته لا بد أن ينهاهم عما يضُرُّهم، ويبينَ لهم الشيءَ الذي يقرِّبُهم إلى الله، وقد قام ﷺ بذلك، ﴿فَإِن تَوَلَّوْا﴾: فإن قمتَ أيها الرسول بهذه الأمور، ثم لم تُجْدِ ولم تنفع ولم يتبعوك، ﴿فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾.

قوله: «**عَنْ أبي هريرةَ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: لا تجعَلوا بُيُوتَكم قُبُورًا...**» يعني لا تجعلوها مُعطَّلة من العبادة كالقبور، وليس المعنى أنهم يُدفَنون في بيوتهم، هذا لا يتطرَّق إلى أذهانهم، فلا أحدَ يجعلُ بيتَه مقبرةً، ولكن المعنى أنها لا تكونُ كالقبور، وهذا يدل على أنه متقرِّرٌ عندهم أن القبورَ ليست محلًّا للعبادة أصلًا، فيعني بـ(لا تجعلوا بيوتكم قبورًا) يعني: صلُّوا في بيوتكم، واقرؤوا

وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي، عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ، تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

وَعَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ ﷺ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ، وَقَالَ أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ ....

القرآن، واذكروا الله فيها، واعبدوه فيها؛ كصلاة التطوع، ثم قال: «**ولا تَجْعَلوا قَبْري عِيدًا**» العيد: اسمٌ لما يعودُ ويتكرَّر؛ سواءٌ كان بعَوْد الزمن أو الفعل، فهو يقول: لا تتردَّدوا على قبري لأجل الصلاة أو السلام، ولكن صلُّوا عليَّ أينما كنتم؛ «**فإنَّ صَلاتَكم تَبْلُغُني**»، إذًا الذي يصلي على الرسول -سواءٌ كان بمسجد الرسول ﷺ أو في مكان بعيد- كلُّهم سواءٌ تَصِلُ إليه صلاتُهم، ولهذا قال: «**فإن صلاتكم تبلغني حيثُ كُنتُم**»، فهذا يدل على حماية المصطفى ﷺ التوحيدَ، بل هو واقع في ذلك، ويدل على أنه لا يَلزَمُ أن نذهبَ للقبر للسلام عليه، ويدل على منع التردد عليه ولا يجوز ذلك، فقال: «**لا تجعلوا قبري عيدًا**».

قوله: «**عن عليِّ بْنِ الحُسَيْنِ**» هو زَيْنُ العابدين مِنْ أفضل أهل البيت، «**أنه رأى رجلًا يَجيءُ إلى فُرْجةٍ كانت عند قبرِ النبيِّ ﷺ**»، كان في بيت فاطمة، فدعاه وقال له: ما الذي يدعوك لذلك؟ قال: أتيتُ أسلِّم على رسول الله ﷺ، فيدعو، فنهاه، وقال: «**ألا أُحَدِّثُكُم حديثًا سمعتُه من أبي**» أبوه: الحسين بن علي «**عن**

قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لَيَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنْتُمْ» رَوَاهُ فِي «الْمُخْتَارَةِ».

جَدِّي» يعني: عليَّ بنَ أبي طالب، «عن رسول الله ﷺ» والرسولُ جَدُّه.

قال: «لا تَتَّخِذوا قبري عِيدًا، ولا بُيُوتَكم قُبورًا، وصَلُّوا عليَّ؛ فإنَّ تَسْلِيمَكم يَبْلُغني أينَ كُنتُم»، ومثل هذا جاء عنِ ابنِ عمِّه الحسنِ بن الحسن أنه رأى رجلًا يتردَّد، وكان يتعشَّى في بيت فاطمة، فدعاه: هلُمَّ إلى العشاء، قال: لا أريده، فقال: ما لي أراكَ تأتي إلى القبر؟ قال: أسلِّم عليهم، فقال: لا تفعل، فذكر له مثلَ هذا الحديث، وقال: «ما أنتم ومَن بالأندلس إلا سواءً؛ سَلِّموا عليه أينما كنتم».

وهذا يدل على أن قَصْدَه التسليمَ غيرُ مشروع، ولذلك لم يفعل أحدٌ من الصحابة ﷺ ذلك، إلا عبدَ الله بن عمر ﷺ كان يفعلُ ذلك عند السفر فقط، أو إذا جاء من السفر؛ يأتي إلى القبر ويقول: السلامُ عليك يا رسول الله، ثم يقول: السلامُ عليك يا أبا بكر، ثم يقول: والسلامُ عليك يا أبتِ، يقول ابنُه سالم: لم أرَ أحدًا من الصحابة يفعل ذلك؛ لأن الصحابة فهِموا مرادَ النبي ﷺ وامتثلوا لذلك.

❁❁❁

بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ

وقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١]

قوله: «بابُ ما جاءَ أنَّ بعضَ هذه الأمةِ يعبدُ الأوثانَ»، سبق أن الأوثان: ما عُبِدت على غير صورة، والصنم: ما عُبِد على شكل إنسانٍ أو حيوان، فالمؤلف أراد أن يرُدَّ على المنافحين عن الشرك والداعين إليه؛ لأنهم يقولون: إنه جاء في الحديث عن الرسول ﷺ: «إنَّ الشيطانَ أيِسَ أن يُعبَد في جزيزة العرب»، فلا يقعُ فيها شركٌ، فأراد أن يبينَ أن هذا الحديثَ إذا ثبت فمعناه أن الشيطانَ أيِس أن تعودَ الجزيرةُ إلى ما كانت عليه في الجاهلية سابقًا قبل بعثِ الرسول ﷺ، أما كونُه يقعُ فيها الشركُ ويقع مِن بعضهم الخروجُ عن الدين الإسلامي واتباعُ الكافرين؛ فهذا تواترت فيه الأحاديثُ؛ ففي الصحيح أن الرسول ﷺ قال: «لا تقومُ الساعةُ حتى تَضطرِبَ أَلَيَاتُ نساءِ دَوْسٍ على ذي الخَلَصة»، وذو الخلصة: صنمٌ كان في الجاهلية لدَوْس، ووقع كما أخبر رسولُ الله ﷺ، وكذلك ما ذكر في الآيات؛ فقد ذكر بعضها؛ قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴾، الآية معناها: أن بعضَ أهل الكتاب من اليهود يؤمنون بِالْجِبْتِ، والْجِبْتُ: السحرُ أو الشيطان؛ يتابعونه ويطيعونه، وكذلك يفضلون دينَ الكافرين على دين

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠]

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾[الكهف: ٢١]

المسلمين، والطاغوتُ: كلُّ ما صَدَّ عن دين الله؛ سواءٌ كان ذاتًا تُشاهَد أو معنًى يُقصَد ويُعبَد؛ من رئاسة أو نحو ذلك، والرسول ﷺ بيَّن لنا أن هذه الأمة تَتبَعُ مَن قبلَها مِنَ اليهود والنصارى، وهؤلاء يهود؛ فإذًا لا بد أن يقع ما أخبر به الرسولُ ﷺ أنه سيوجد في هذه الأمة مَن يؤمن بالجبت والطاغوت، ومن يفضِّل دين الكافرين على دين المسلمين، والذي ينظر في الواقع يجد ذلك ظاهرًا في أوقات متعددة، وكذلك الآية التي بعدها؛ قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠] نزلت في اليهود؛ لأنهم يقولون: ما رأينا أهلَ دين شرًّا منكم؛ يقصدون المسلمين، فأنزل الله هذه الآية؛ يعني: أكثر شرًّا مما ظننتموه بنا مَن كان يؤمن بالجبت والطاغوت ومَن مُسخ منهم القردة والخنازير وهم اليهود، وعلى هذا لا بد أن يقع في هذه الأمة من عبادة الطواغيت، ويقع فيها ما يوجب الخسفَ والمسخَ قردةً وخنازير، كما مُسخ جماعةٌ من اليهود كذلك، وقد صح عن النبي ﷺ كما في صحيح البخاري وغيره، وكذلك قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾فهؤلاء في أهل الكتاب، والذين

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ اَلْقُذَّةِ بِالْقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ قَالُوا يَا رَسُولَ الله! اَلْيَهُودُ وَالنَّصَارَى ؟ قَالَ: « فَمَنْ ؟ » أَخْرِجَاهُ.

غلبوا على أمرهم هم الذين بأمرهم السلطةُ، وليس هذا من الأمر المحمود، بل هذا من الأمر المذموم؛ لأن اتخاذَ المساجد على القبور مِن وسائل الشرك، ويؤولُ إلى عبادة غير الله، ثم رَوَى الحديثَ الذي يبيِّنُ مقصودَ هذه الآياتِ؛ حديثَ أبي سعيد ﷺ أن رسولَ الله ﷺ قال: «**لتتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كان قَبْلَكم حَذْوَ القُذَّة بالقذة**» القذة: هي ريشةُ السهم الذي كان سلاحًا في الماضي، ويكون بدلَها الآن الرصاصةُ التي تُوضعُ في البندقية، كل واحدة مثلُ الثانية لا تختلفُ عنها، ومثل ذلك ما جاء في رواية: «حَذْوَ النَّعْل بالنعل»، كل واحدة تساوي الثانيةَ؛ يعني: سوف تُساوُونَهم وتفعلون أفعالَهم، وهذا ظاهرٌ حتى قال: «**حتَّى لو دَخَلوا جُحْرَ ضَبٍّ لدخلتموه**»، هذا من عجيبِ تمثيلِ الرسولِ ﷺ؛ لأن الضبَّ ليس موجودًا في الحجاز، وليس في ديارِ قومه؛ لأنه جُلِب له ضَبٌّ مشويٌّ، فامتنع أن يأكُلَه، فقيل: أحرامٌ هو؟ قال: لا، ولكنه ليس في أرض قومي، فأجِدُني أعافُه، وأُكِل على مائدته، وإنما خَصَّ جحرَ الضب لأنه يختلفُ عن الجحور الأخرى؛ إذا حَفَر الضبُّ فإنه يحفِرُ حفرةً متلويةً متجهًا إلى تحتُ؛ حتى يعسُرَ الدخولُ إليه، وهذا الذي أعطاه اللهُ حمايةً له، فلهذا قال: «حتى لو دخلوا جحرَ ضب» أي الجحرَ الصعبَ الذي يعسُر الدخولُ عليه لو قُدِّر أن يدخلوا هذا لدخلتموه، وقد جاء في

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللهَ زَوَى لِيَ ٱلْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ ٱلْكَنْزَيْنِ ٱلْأَحْمَرَ، وَالْأَبْيَضَ، ....

رواية: حتى لو أنَّ أحدَهم كان يأتي أمَّه لكان في هذه الأمة مَن يصنعُ ذلك، وهذه مبالغةٌ في اتباع اليهود والنصارى، ولما قيل: فمَنْ تَقصِدُ؟ اليهود والنصارى؟ قال: فمَنْ؟! أي: هم المقصودون لا غيرُهم، فهذا دليلٌ على أنَّ الأمورَ التي وقعت منهم -مِن عبادة غيرِ الله، والإيمانِ بالطاغوتِ، وتفضيلِ دين الكافرين، وكونِهم مثلًا استوْجَبُوا المسخَ والخسفَ والرجمَ- أنها ستقعُ في هذه الأمة.

ثم ذَكَر حديثَ ثوبانَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «**إنَّ الله زَوَى لي الأرضَ، فرأيتُ مشارِقَها ومغارِبَها** ... » هذه مِن آيات الله، وقدرةُ الله لا يَحُولُ دُونَها شيءٌ، وزَيُّها له: جَمْعُها له، جمع الأرض له فرأى مشارقها ومغاربها، وأخبر أن مُلكَ أمته سيبلغُ المشارقَ والمغاربَ، ولم يذكر جنوبًا وشمالًا، وإنما ذهب شرقًا وغربًا كما أخبر، وهذا مِن دلائل نبوته، ومن آيات الله.

وقال: «**وأُعطِيتُ الكنزَينِ الأحمَرَ والأبيضَ**» الأحمر: هو الذي يَغلِبُ عليه الذهبُ، والأبيض: الذي يغلب عليه الفضةُ، وهذا عبارةٌ عن كنز كسرى وقيصر؛ أي الفرس والروم، قد أُعطِيَتْها هذه الأمةُ وأُنفِقت في سبيل الله، كما وقع في زمن الخلفاء الراشدين ﷺ؛ فإنهم قَضوا على هاتين الدولتين، وهذا هو السبب في كونِ

وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ بِعَامَّةٍ وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اِجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا، حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا ».

الرافضةِ صاروا أعداءً للإسلام والمسلمين؛ لأنهم كانوا يحتقرون العربَ قبل مجيءِ الرسول أشدَّ الاحتقار، ويرون أنها أمةٌ لا قيمةَ لها، قبائلُ متناحرةٌ مختلفة سُلِبوا مُلكَهم على أيديهم؛ فأبغضوهم أشدَّ البغض، فعادَوْهم أشدَّ المعاداة، وعادَوُا الدينَ الذي جاءوا به.

قوله: «وإني سألتُ ربِّي لأمَّتي أنْ لا يُهلِكَها بسَنَةٍ عامَّةٍ» السَّنَةُ هي: الجَدْب، أي التي تَقضي على ما في أيديهم مِن زروع ومواشٍ، فأعطاه اللهُ أن لا يسلطَ عليهم سنةً تُهلِكُهم تَعُمُّهم.

قوله: «وأنْ لا يُسَلِّطَ عليهم عدوًّا مِن سِوى أنفُسِهم»؛ مِنَ اليهودِ أو النصارى أو الروسِ وغيرهم من الكفار.

قوله: «فيَستبيحَ بَيْضَتَهم»، أي: معظمَ ما في أيديهم من البلاد والأموال، فأعطاه اللهُ ذلك، وسأله أن لا يجعلَ بأسَهم بينهم فمَنَعه ذلك، فأعطاه اثنتين ومنعه الثالثةَ، غيرَ أن الثانيةَ مشروطةٌ بشرط؛ قال: أعطيتُك ألا أسلطَ عليهم

وَرَوَاهُ الْبَرْقَانِيُّ فِي «صَحِيحِهِ»، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَئِمَّةَ الْمُضِلِّينَ، وَإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ، لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ، ....

عدوًّا مِن سواهم فيستبيحَ بَيضتَهم، حتى يكونَ بعضُهم يَسْبِي بعضًا وبعضُهم يقتلُ بعضًا، فإذا وُجِد هذا سلَّط عليهم عدوًّا مِن سوى أنفُسِهم فأخَذَ أموالَهم وما بأيديهم وقتَلَهم، كما وقع في الأندلس؛ لَمَّا صار بعضُهم يقاتل بعضًا سُلِبوا أموالَهم وبلادَهم، وذَهَبت بلادُهم للكافرين إلى اليوم، وهي جنةُ الأرض التي صار المسلمون فيها بعدُ يبكون عليها، وهذا بأفعالهم، وهذا أمرٌ تكرَّر وجرَّبه المسلمون وعرَفوه.

ثم قال: «رواه البَرْقاني» يعني روى هذا الحديث، «وزاد (وإنَّما أخافُ على أمتي الأئمةَ المُضِلِّين... » الأئمة المضلون: هم العلماء والأمراء الذين يَتبَعُهم الناسُ، فإذا ضلُّوا ضلَّتِ الأمةُ تبعًا لهم، «وإذا وقَع عليهِمُ السيفُ لم يُرْفَعْ إلى يومِ القيامةِ»، والسيفُ قد وقَع بقتلِ الخليفةِ عثمانَ؛ لَمَّا قُتِل وقع السيفُ، وسيستمر إلى يوم القيامة كما أخبر الرسولُ ﷺ، وهذا مِنَ الآيات، ثم قال: «ولا تقومُ الساعةُ حتى يَلحَقَ حَيٌّ مِن أمتي بالمشركين»، يعني أنهم يُفضِّلون دينَ المشركين ويكونون معهم، «وحتى تَعبُد فِئامٌ من أمتي الأوثانَ»، والفئامُ: الجماعاتُ.

وَإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ، ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي، وَلَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الْحَقِّ مَنْصُورَةٌ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى».

«**وإنه سيكونُ في أمتي كذَّابون ثلاثون**» يعني: سيكونُ في هذه الأمة ثلاثون رجلًا كلٌّ منهم يَدَّعي النبوةَ، وهذا يُقصَد به الذين يكونُ لهم قوةٌ ولهم أتباعٌ، وإلا فالمدَّعون مجردَ دعوى كثيرون جدًّا، وآخِرُ هؤلاء الدجَّالُ.

قوله: «**كلُّهم يزعمُ أنه نبيٌّ، وأنا خاتَمُ النبيِّين**»، يعني أن النبيين خُتِموا به، ولا يُعترَض على هذا بأن عيسى سينزلُ؛ لأن عيسى ينزلُ يحكمُ بشريعةِ محمدٍ ﷺ ولهذا قال: «**لا نبيَّ بعدي**»، أي لا نبيَّ يأتي بدعوةٍ أو بكتابٍ أو غيرِه، «**ولا تَزالُ طائفةٌ من أمتي على الحقِّ منصورةً**»، هذه بشارةٌ أن الحقَّ لا يزولُ بالكلية، بل لا بد أن يَبقى مَن يُبيِّنه ويدعو إليه، ولا يضرُّه مخالِفُه؛ لا مَن كان على دينه ولا غيرُه، لهذا قال: «**لا يَضُرُّهم مَن خَذَلهم ولا مَن خالَفَهم حتى يأتيَ أمرُ الله تبارك وتعالى**» فالخاذلُ: الذي يكونُ على الدين، والذي يخالفُ: الذي يكون على خلافه.

❋❋❋

بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ

وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]

قال المؤلف يرحمه الله: «بابُ ما جاءَ في السِّحْر»، لَمَّا كان السحرُ منافيًا للتوحيد بأكثرِ أنواعه، ناسَبَ أن يذكُرَه في كتاب التوحيد؛ لأن التوحيدَ هو حقُّ الله على العباد، ومِن تمامه ذِكرُ مكملاتِه ومنقصاته ومنافياته؛ لأن المفروضَ أن يكون توحيدُ العبد كاملًا حتى لا يتطرَّق إليه العذابُ؛ لأنَّ مَن لم يكن توحيدُه كاملًا يُعذَّب؛ إما في الدنيا أو الآخرة، وأمَّا مَن يكون توحيدُه صافيًا كاملًا مِنَ الذين يَدخُلون الجنة بلا حساب، فهذا يَحتاجُ إلى جُهدٍ وعملٍ، وكتابُ الله جل وعلا وسنةُ رسوله ﷺ واضحانِ في هذا.

والسحرُ في اللغة: هو ما خَفِيَ ولطُف سَبَبُه، والسحر في الشرع: عزائمُ وعُقَدٌ وأمورٌ يأتي بها الساحرُ مع صِلَته بالشياطين، فيجتمعُ شياطينُ بني آدمَ مع النفوس الخبيثة، فينعقدُ ما أرادوه بإذن الله الكوني القدري، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾، يعني أن أهل الكتاب علِموا أن الذي اشترى السحر لا خلاقَ له في الآخرة، والذي لا خلاقَ له في الآخرة يكونُ في النار، وهذا يدلُّ على كُفر الساحرِ.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[النساء: ٥١]

قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾، وهذا أيضًا في صفة أهل الكتاب؛ كما سبق ذكرُه أنها نَزَلت في بعض أهل الكتاب، ذهَب كعبُ بنُ الأشرف وحُيَيُّ بنُ أخطبَ إلى مكةَ يحرِّضون على قتال رسول الله ﷺ، فقال لهما أهلُ مكةَ: أنتم أهل الكتاب وأهلُ العلم، فأخبِرونا عنَّا وعن محمد، فقالوا: ما أنتم وما محمد؟ قالوا: نحن نَنحَر الكَوْماءَ، ونسقي اللبنَ على الماء، ونفُكُّ العُناةَ، ونصِلُ الأرحامَ، ونسقي الحجيجَ، ودينُنا القديمُ ودينُ محمد الحديثُ، قالوا: بل أنتم خيرٌ منه وأهدى سبيلا، فأنزل اللهُ تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾[النساء: ٥١] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَلْعَنِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ نَصِيرًا ﴿٥٢﴾﴾[النساء: ٥٢].

فهذا يدُلُّ على أنَّ مَن يوافقُ الكفارَ -ولو بالظاهر في القول- فهو منهم، فكيف الذي يقعُ منه الشركُ؟! فهذا أعظمُ، فالذي يقع منه الشركُ لا عُذرَ له؛ لا جهلًا ولا بغيره؛ لأن توحيدَ الله تضافرت عليه الأدلةُ الكونية والحسيةُ والنفسيةُ وغيرها، فلا عذرَ لأحد في مخالفتها، فمَن خالَفَ في ذلك فهو غيرُ معذور، ولهذا أخبر الرسولُ ﷺ أن مَن مات قبلَ البعثة في النار؛ ففي صحيح مسلم: «أن رجلًا سأل الرسولَ ﷺ فقال: أين أبي؟ فقال: أبوك في النار، فتغيَّر وجهُه، فولَّى مُدبِرًا، ثم دعاه فقال: تعالَ؛ إنَّ أبي وأباك في النار، اذهب فأيَّ قبرِ مشركٍ مررتَ به فقل

قَالَ عُمَرُ: «اَلْجِبْتُ اَلسِّحْرُ، وَالطَّاغُوتُ اَلشَّيْطَانُ»

وَقَالَ جَابِرٌ: «اَلطَّوَاغِيتُ كُهَّانٌ، كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمْ اَلشَّيْطَانُ، فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ».

له: إني رسولُ رسولِ الله، أبشِرْ بالنار، فكان الرجلُ يبكي نفسَه ويقول: كُلِّفتُ شَطَطًا»، فلا عذر في الجهل؛ لأن الإنسان عنده عقلٌ، فكلُّ ما يراه دليلٌ على وجوب عبادة الله، فكيف بعاقل يذهبُ يدعو مقبورًا؟ هذا إهدارٌ للعقل والفطرةِ والأدلةِ، ولهذا لا عذر له.

ثم ذَكَر قولَ عمرَ، وهو شرحٌ لِمَا في الآية، قال عُمَرُ: «**الجِبْتُ: السحر، والطاغوتُ: الشيطانُ**»، هذا فَرْدٌ من معانيه، الطاغوتُ كما يقول الأزهري في تهذيب اللغة: اسمٌ لكل ما عُبِد من دون الله، أو صَدَّ عن دين الله، وكذلك قال الإمامُ مالكٌ: كل ما عُبد من دون الله، وبعضُ الناس استدرك على هذا وقال: ينبغي أن يقول: ما عُبِد من دون الله وهو راضٍ؛ لأنه عُبِد رُسُلٌ وملائكةٌ وغيرُه، ومعلومٌ أن هذا القيدَ لا حاجةَ له؛ لأنه لا يُمكِنُ أن يَرضَى إنسانٌ موحِّدٌ لله -جل وعلا- أن يُعبَد من دون الله.

قوله: (**وقال جابرٌ: الطواغيتُ كُهَّانٌ كان يَنزِلُ عليهمُ الشيطانُ، في كُلِّ حَيٍّ واحدٌ**)، يعني أن الكهان من الشياطين؛ لأنهم يحكمون بالغيب وبما تقولُه الشياطينُ لهم؛ ولهذا فإنَّ الذي يحكمُ بغير الوحي الذي أنزله اللهُ على رسوله ﷺ

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اِجْتَنِبُوا اَلسَّبْعَ اَلْمُوبِقَاتِ، قَالُوا يَا رَسُولَ اللهِ! وَمَا هُنَّ؟ قَالَ اَلشِّرْكُ بِاللهِ، ....

يكونُ مِنَ الطواغيت، والطاغوتُ: مأخوذٌ من الطُّغْيان، وهو كما يقولُ ابنُ القيم: «كلُّ ما تجاوزَ العبدُ به حدَّه؛ مِن معبودٍ أو مَتْبُوعٍ أو مُطاعٍ؛ فهو طاغوتٌ»، فذكَر ثلاثةَ أمور: إما أن يُعبَد، وإما أن يُطاعَ بجَهْل بدون دليل، وإما أن يُتَّبع على غير دليل وعلى غير هُدًى؛ فهذه طواغيتُ العالم ملأتِ الأرضَ.

ثم قال: «عن أبي هريرةَ ﷺ أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: **اجتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقاتِ...**» (السبع): المتقرِّرُ عند النحويين إذا جاءت (ال) ودخلت على الاسم أنها تقتضي التعريفَ، فهذا معناه أنها معروفةٌ عند الصحابة، ثم وجهُ تخصيصِ الموبِقِ بسبعٍ مناسبةُ شيءٍ لذلك المقامِ الذي قاله الرسولُ ﷺ، ولهذا جاء أن الموبقَ أكثرُ من سبع، وهذه الكبائر التي قال الله -جل وعلا- فيها: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ ...﴾ [النساء:٣١]، أما الكبائرُ فلا بد من التوبة منها، ثم بيَّنها الرسولُ ﷺ لَمَّا سألوه: ما هُنَّ؟ قال: (**الشرك بالله**) جل وعلا، والشركُ أنواعُه كثيرةٌ، ولكن من المعلوم أن فيه ما هو مُخرِجٌ من الإسلام وجاعلُ الإنسانِ مِن حَطَبِ جهنمَ؛ وهو أن يَصرِف نوعًا من أنواع العبادة لمخلوق، ولو كان نوعًا واحدًا؛ كالذبح لغير الله أو الدعاءِ أو النذر وما أشبه ذلك؛ إذا جَعَل شيئًا منها لمخلوقٍ فقد وقَع في الشرك الأكبر، النوعُ الثاني: الشركُ الأصغر؛ وهذا

والسحر، وَقَتْلُ اَلنَّفْسِ اَلَّتِي حَرَّمَ الله إِلَّا بِالْحَقِّ.........

لا يُخرج من الإسلام، ولكن كثيرٌ من العلماء يقول: إنه غيرُ مغفورٍ لصاحبه، فلا بد أن يُعذَّب إذا مات عليه من غير توبة؛ لقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الله لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ...﴾ [النساء:٤٨] فـ(أَنْ) مصدرية من أدوات العموم، فشمِلَتِ الأصغرَ والأكبرَ؛ ولهذا جاء في أحاديثَ كثيرةٍ أن الذي لا يُعذَّب هو الذي لا يشرك بالله شيئًا، و(شيئًا) نكرةٌ يدخلُ فيها الصغيرُ والكبيرُ والخفيُّ والجليُّ؛ فالشركُ الأصغرُ تعريفُه ليس منضبطًا لكثرة أنواعه؛ لأنه يقعُ في النيَّاتِ والكلامِ والمقاصدِ والأفعالِ وغيرِ ذلك، ولهذا عدَل كثيرٌ من العلماء عن تعريفه بالحدِّ إلى تعريفه بالأمثلة؛ فقالوا: مثلُ الحَلِف بغير الله، ومثل: يسيرِ الرياء، وقولِ الرجل: لو كان كذا لكان كذا، وما أشبهَ ذلك، فهو كثيرٌ، فهو بحرٌ لا ساحل له، فيجبُ على العبد أن يحذَرَ هذا الأمر ويخافَ أن يقعَ في الشرك.

ثم قال: «والسِّحْرُ» فالسحر قُرِنَ بالشرك؛ لأنه لا يَنفَكُّ عن الشرك؛ لأنه إما أن يخضعَ الساحرُ لشيطانٍ ويعبدَه، أو يقدمَ له شيئًا مما يكونُ تقرُّبًا له، أو يأمرَه أن يفعلَ مكفِّرًا؛ مثلًا أن يدوسَ المصحفَ بقَدَمه وما شابَهَ ذلك، فالشيطانُ لا يُعطي الساحرَ إلا إذا كَفر، وقد يأمرُه بذبحِ شيءٍ؛ ديكٍ أو دجاجةٍ أو شاةٍ وغيرِه.

ثم قال: «وقَتْلُ النفسِ التي حرَّم اللهُ إلا بالحقِّ» التي حرمها الله: قتلُ المسلم؛ ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ

وَأَكْلُ اَلرِّبَا، وَأَكْلُ مَالِ اَلْيَتِيمِ، وَالتَّوَلِّي يَوْمَ اَلزَّحْفِ، وَقَذْفُ اَلْمُحْصَنَاتِ اَلْغَافِلَاتِ اَلْمُؤْمِنَاتِ».

لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣] لهذا جاء عنِ ابنِ عباسٍ أن الذي يَقتُل مؤمنًا متعمِّدًا لا توبةَ له، وابنُ القيم يقول: التحقيقُ أن القاتل يتعلقُ به حقوقٌ ثلاثة: حقُّ الولي؛ وهذا يسقطُ إما بالقَوَد أو أداءِ الدية، وحقٌّ لله، ويَبقى حقُّ المقتول؛ وقد ثَبَت أنه يأتي يومَ القيامة يَحمِلُ رأسَه متعلقًا بقاتله ويقول: يا ربِّ سَلْ هذا فيم قتلني؟ فيقول له الله: تَعِسَ، وللترمذي في السنن: «يقولُ الرسولُ ﷺ: كُلُّ ذنبٍ عسى اللهُ أن يعفوَ عنه، إلا الرجلَ يموتُ مشركًا أو يقتلُ نفسًا بغير حق»، فالقتل ليس سهلًا، بل أمرُه عظيم، كما قال عبدُ الله بنُ عمر رضي الله عنهما لَمَّا شاهَدَ الكعبةَ قال: «اللهُ أكبرُ! ما أعظَمَك وأعظَمَ حُرْمتَك، إلا أن المؤمنَ أعظمُ حرمةً منك»، وفي الحديث: «لو اجتمَع أهلُ السماوات والأرض على قتلِ مسلم بلا حقٍّ لكَبَّهم اللهُ في النار»، أما قولُه: «إلا بالحقِّ» فيعني أنه قد يجب عليه القتلُ؛ إما محصن زنى، أو ارتدَّ عن دينه، أو قتل مسلمًا؛ فهؤلاء يقتلون بحق.

ثم قال: «وأَكْلُ الرِّبَا» عبر بالأكل والمقصود جميع التعامل به، فالربا: أُخِذ من الزيادة؛ أن يأخذَ شيئًا ويضاعفَ الزيادة عليه، أو يوضع عليه شيء، والربا نوعان:

١- ربا الفَضْل. ٢- ربا النَّسِيئة.

وَعَنْ جُنْدَبٍ مَرْفُوعًا: «حَدُّ اَلسَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ» رَوَاهُ الترمذي وَقَالَ «اَلصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ».

وكلاهما من أعظم المحرمات، والآن كثُر الربا وصُوَرُه في البنوك وغيرها، وجاء في الحديث: «في آخر الزمان يفشو الربا؛ فمَن لم يأكلْه أصابه مِن غُبارِه»، ثم قال: «**وأَكْلُ مالِ اليَتِيمِ**» وعبر بالأكل لأن الغالب أن الأموال تُتخذ للأكل، وهو أهم شيء، وإلا فلو أخذه وأحرقه لكان مُستحِقًا للعذاب، «**والتَّوَلِّي يَوْمَ الزَّحْفِ**» يعني إذا التقى المسلمون مع الكفار، فالذي يُولِّيهم دُبُرَه مُتَوَعَّدٌ بجهنمَ، ثم «**وَقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ**» القذف: معناه أن يَرمِيَها بالزنا، وقوله «**محصنات**»: يعني أَحصَنَّ فروجَهن عن الخَنَا، «**الغافلات**» يعني غافلات عن الشيء؛ لأنه الغالب أن تكون بهذه الصفة.

ثم ذكر عن جُندَبٍ ﷺ مرفوعًا: «**حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بالسَّيْفِ**». وفي رواية: «ضَرْبُهُ بالسيف»، (**رواه الترمذي، وقال: «الصحيح أنه موقوف»**)، وقد فعل ذلك جندبٌ ﷺ؛ فقد كان عند الوليد ساحرٌ يَلعَبُ عند الناس ويَضحَكون منه عنده، وهو يَسحَرُهم بأعينه، وعنده بقرةٌ يَدخُل مِن فمِها ويَخرُج مِن دُبُرها، ويَدخُل من دُبُرها ويخرج من فمها، وجاء جندب وهو كذلك، ولَمَّا جاء من الغد جاء مشتملًا على السيف، وكان يلعبُ لعبتَه، فاعترضه بالسيف وقال: أَحْيِ نفسَك إن كنتَ صادقًا، وقد جاء في «الترمذي» قـولُ الرسول ﷺ: «جُندَبٌ، وما

وَفِي «صَحِيحِ اَلْبُخَارِيِّ» عَنْ بَجَالَةَ بْنِ عَبَدَةَ قَالَ «كَتَبَ عُمَرُ بْنُ اَلْخَطَّابِ ﷺ أَنَّ اُقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وَسَاحِرَةٍ» قَالَ فَقَتَلْنَا ثَلَاثَ سَوَاحِرَ».

وَصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ ﵂ «أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا فَقُتِلَتْ" وَكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدَبٍ.

قَالَ أَحْمَدُ عَنْ ثَلَاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ اَلنَّبِيِّ ﷺ.

جُندَبٌ؛ يَضرِب ضربةً فيُبعَثُ أمة وحدَه» يعني أنه هو الذي أنكر المنكر وحده.

قال: «وفي صحيحِ البخاريِّ عن بَجَالةَ بنْ عَبَدَةَ قال: كتَب عمرُ بنُ الخطاب ﷺ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ ساحِرٍ وساحرةٍ... »، ثم يقول: «وصَحَّ عن حَفْصةَ ﵂: أنها أَمَرت بقتلِ جاريةٍ لها سَحَرتها؛ فقُتِلت»، دَبَّرت جاريةً، فاستبْطَأَتِ الجاريةُ موتَها، والتدبيرُ معناه: عتقُها بعد موتها، فاستبطأت موتَها، فسَحَرتها تريدُها أن تموت، فأمرت بها فَقُتلت.

قوله: « قال أحمدُ: صَحَّ عن ثلاثةٍ مِن أصحابِ النبيِّ ﷺ...»، يعني عن جُندَبٍ، وعن حفصةَ، وعن عُمَرَ، وكذلك عن غيرهم.

❋❋❋

بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ

قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ، عَنْ حَيَّانَ بْنِ الْعَلَاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بْنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ : أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعِيَافَةَ وَالطَّرْقَ وَالطِّيَرَةَ مِنَ الْجِبْتِ».

قوله: «**بابُ بيانِ شيءٍ مِن أنواعِ السِّحْرِ**» هذا البابُ فيه إلحاقُ بعضِ الأشياء بالسحر؛ لأن لها تأثيرًا كتأثير السحر؛ فقال: (بيان) أي لبعضٍ من أنواع السحر؛ لأن السحر ليس فقط الذي يُعمل ويُتعلم، بل قد يُلحَق به بعضُ الأشياء.

قوله: «**قال أحمدُ**» أي: في «مسنده»: «**حدَّثَنا محمدُ بنُ جعفرٍ، حدثنا عوفٌ، عَنْ حيانَ بنِ العلاءِ، حدثنا قَطَنُ بنُ قبيصةَ، عن أبيه، أنه سمِع رسولَ الله ﷺ قال: إنَّ العِيافةَ، والطَّرْقَ، والطِّيَرَةَ؛ مِنَ الجِبْتِ**»، ثم ذكَر تفسيرَ عَوْفٍ الأعرابيِّ فقال: «**العِيافةُ: زَجْرُ الطيرِ**»، معناه: إثارتُه حتى يُسمَع صوتُه أو يُرَى طيرانُه فيُتفاءَل أو يُتشاءَم، يُتطيَّر، فكانوا مثلًا يتشاءمون من الغراب مِنِ اسمه؛ لأن الغراب من اسمه الغُرْبة، فإذا خرج أحدُهم يريد السفرَ أو حاجةً، فإذا طار في وجهه غرابٌ رجَع، وقال: هذا يدلُّ على أني لن أرجعَ لأهلي! وهذه كلُّها شركٌ؛ لأنه ليس عندها شيءٌ ولا تَعلَمُ عن الغيب شيئًا ولا تؤثِّر شيئًا، إنما هي أمورٌ يَقذِفُها الشيطانُ في قلب الإنسان، فإذا اعتقدها عُوقِب عقوبةً عاجلةً فحصَل له ما كان يتوقعُه، فالمقصودُ أن المتصرِّفَ في الكون كله الطيورِ والرياحِ وغيرِها هو ربُّ

قَالَ عَوْفٌ: الْعِيَافَةُ زَجْرُ الطَّيْرِ، وَالطَّرْقُ الخُطُّ يُخَطُّ بِالْأَرْضِ، وَالْجِبْتُ قَالَ الْحَسَنُ رَنَّةُ الشَّيْطَانِ إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

وَلِأَبِي دَاوُدَ وَالنَّسَائِيِّ، وَابْنِ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ» لَهُمُ الْمُسْنَدُ مِنْهُ.

وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ ﷺ؛ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ : «مَنِ اِقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ؛ فَقَدِ اِقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

العالمين جل وعلا، أما هذه المخلوقاتُ فلا تصرُّفَ لها بشيءٍ؛ لا في سعادةٍ ولا شقاءٍ ولا خيرٍ ولا شرٍّ، والواجبُ أن الإنسان يعتمد على ربه جل وعلا.

قوله: «**والطَّرْق**» يقول: الخَطُّ، وهكذا بعضُ العرَّافين يخطُّون خطوطًا بالأرض يستدلُّون بها على المَغِيب، والطِّيَرَةُ: التشاؤمُ بالطيور، والعِيافةُ: مثل الطرق؛ وهو ما يُسَمُّونه بقراءة الكَفِّ، أو فنجان البن، وما أشبهه ذلك من الأمور الحديثة التي يَصنَعُها أشباهُ الكُهَّان، يتعاطَوْنها إما ليستَولُوا على أموال الناس الجَهَلة، أو أنهم يظهرون أنفُسَهم أنهم يَعرِفون شيئًا مما هو من المغيب، وكل هذا من أمور الشرك؛ لأنه دعوى لِمَا هو من خصائصِ الله ﷻ وهو علم الغيب، والغيب لا يعلمه إلا الله ﷻ، فهذا يكونُ منافيًا للتوحيد.

وقوله: «**وعَنِ ابنِ عباسٍ ﷺ قال: قال رسولُ الله ﷺ: مَنِ اقتبسَ شُعْبةً مِنَ النجومِ فقدِ اقتبسَ شُعبةً مِنَ السِّحْرِ زادَ ما زادَ**»، يعني أن بعضَ الناس يستدل بالنجوم على الأمور المستقبَلة؛ من هبوبِ الرياحِ والأمطارِ والطوفانِ وانتصارِ

وَلِلنَّسَائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَة: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا، فَقَدْ سَحَرَ، وَمَنْ سَحَرَ؛ فَقَدْ أَشْرَكَ، ....

الدُّولِ أو هزيمتِها أو موتِ بعضِ الناس، وما زال كثيرٌ من الناس على ذلك، فهذا من السحر، والنجومُ ذكَر العلماءُ -كما سيأتي- في باب التنجيم أن النظرَ فيها ينقسِمُ إلى ثلاثة أقسام: اثنان منها كفرٌ، وواحدٌ لا بأس به؛ وهو الاستدلالُ بها على قدرة الله وتغيُّر الوقت والجِهات والمَسِير، كما أخبر الله أنها زينةٌ للسماء وعلاماتٌ يُهتدى بها ورُجومٌ للشياطين، فلا يجوز أن يَتأوَّلَ الإنسانُ غيرَ هذا، فقولُ ابنِ عباس: «مَنِ اقتبس شعبةً مِنَ النجوم فقدِ اقتبسَ شعبةً مِنَ السحرِ» يعني من علم الغيب، كأنْ يستدلَّ بها أن فلانًا وُلِد بهذا النَّجْم، وأنه يكون له كذا وكذا، وما أشبهَ ذلك، وقوله: «زاد ما زاد» يعني كلما زاد في هذا فقد زاد شرُّه وسحرُه.

وقوله: «**ولِلنَّسائيِّ مِن حديثِ أبي هريرةَ ﷺ: مَنْ عَقَدَ عُقْدةً، ثم نَفَثَ فيها فقد سَحَرَ، ومَنْ سَحَرَ فقد أشرَكَ، ومَن تعلَّق شيئًا وُكِلَ إليه**»، لَمَّا كان من شأن النفَّاثاتِ في العُقَد الساحراتِ أنهنَّ يأخُذْن الحِبالَ ويعقِدْنها، ثم ينفُثْن فيها ليحصل وينعقدَ ما أرَدْنَه هن ومن يقلدهن، ولو لم يكن يعرف السحرَ يكون له هذا الحكمُ؛ لهذا قال: «مَن عقَد عُقدةً، ثم نفَث فيها فقد سَحَر» يعني تشبَّه بالسَّحَرة، ومَن سحَر فقد أشرك، والسحر إذا مات عليه فهو في جهنم.

وَمَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا، وُكِلَ إِلَيْهِ».

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ: «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا الْعَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، الْقَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ إِنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا».

وقوله: «**وَمَن تعلَّق شيئًا وُكِل إليه**» الغالب أن كلمة (تعلق) يقصد بها فعل القلوب: تعلَّق بكاهن، أو نجمٍ، أو طير، أوبغير ذلك؛ يَكِلُه الله إليه، ومن وُكِل إلى مخلوق فإنه ضائعٌ وهالك، والله يتخلى منه، وهذا فيه وعيدٌ شديد.

قال: «**وعنِ ابنِ مسعودٍ أن رسولَ الله ﷺ قال: ألا هَلْ أُنبِّئُكُمْ ما العَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، القالةُ بَيْنَ النَّاسِ**» العَضْهُ: النميمة فهي شبيهه بالسحر؛ لأنها تفرِّقُ بين الأحبة، وتغيِّرُ محبةَ الإنسان إلى بُغْض، وتُوجِد العداواتِ، كما أن السحر يفرقُ بين المرء وزَوْجِه، فالنميمةُ كذلك لها حكمُه، وجاء في الحديث: «لا يدخل الجنةَ قتَّات» والقتات: هو النمّام.

قوله: «**ولهما عَنِ ابنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: إنَّ مِنَ البيانِ لسِحْرًا**»، هذا الحديثُ تنازعَ فيه أهلُ الأدب وأهلُ العلم من المحدِّثين؛ فأهلُ الأدب أخذوه على أنه من باب المَدْحِ والثَّناء، والمحدِّثون أخذوه على أنه من باب الذمِّ، والمؤلفُ تبع المحدِّثين وهذا هو الصحيحُ؛ لأن البيان قد يكونُ في بيان الباطلِ وتزيينه ودَحْض الحق فيكونُ من السحر. وقد جاء أن سببَ هذا القول أن

....

رجلين مِن أهل المشرق جاءا إلى رسول الله ﷺ فخَطَبا، ثم إن أحدَهما قال: إني كذا وكذا وهذا يَعرِفني، فتكلَّم كلامًا يدل على القَدْح فيه فغضب، فقال: والله إنه يعلمُ مني أكثرَ من ذلك، فقال قولًا أعظم مِنَ الأول، ثم قال: والله ما كذبتُ في الأولى ولقد صدقتُ في الثانية؛ فإنه قد كان كذا وكذا، فقال الرسولُ: إنَّ من البيان لسِحْرًا، قد يُغطي على الحق، والإنسانُ قد يكونُ عنده من البيان وهو صاحبُ باطلٍ فيَغلِبُ مَن لم يكن عنده بيانٌ، وقد وصَف الله المنافقين بالبيان والبلاغةِ في الفصاحة، وهذا مذمومٌ شرعًا، فقال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ﴾ [المنافقون: ٤].



بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي «صَحِيحِهِ» عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا، فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ، فَصَدَّقَهُ لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « مَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ » رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

قوله: «بابُ ما جاءَ في الكُهَّانِ» يعني مِنَ الوعيد، وأنَّ الكاهنَ لا يكونُ إلا خارجًا من دين الله جل وعلا.

قوله: «رَوَى مُسْلِمٌ في صَحيحِه، عن بعضِ أزواجِ النبيِّ ﷺ عن النبيِّ ﷺ قالَ: مَن أَتَى عَرَّافًا فسَأَله عنْ شيءٍ فصَدَّقه بما يقولُ لم تُقبَلْ له صلاةٌ أربعين يومًا»، عدمُ القَبولِ: قد يُطلَق على عدمِ اعتبارِ العمل وإن كان لم يُؤمَرْ بالإعادة، ويُطلَق على أنه لم يأتِ به على الوجه الشرعيِّ، وهذا يَشمَلُ هذا وهذا.

(مَن أتى عرَّافًا)، العرَّافُ -كما ذُكر- يَدخُل فيه الكاهنُ، والرَّمَّالُ الذي يخُطُّ بالرمل، والحاصب الذي يرمي بالخَرَز وغيرها ممَّن يدَّعون علمَ المستقبل.

قوله: «وعن أبي هريرةَ ﷺ مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» والكفرُ هنا يجبُ أن يكونَ على ظاهره، ولا يجوزُ أن نتأوَّلَه فنَخرُجَ عن قول الرسول ﷺ، والكفرُ: هو جحودُ ما جاء به الرسولُ ﷺ أو تَرْكُه، والحديثُ الذي ذَكَره عن أبي هريرة ﷺ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ

وَلِلْأَرْبَعَةِ وَالْحَاكِمِ -وَقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا» -: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَنْ أَتَى عَرَّافًا، أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ».

وَلِأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا.

بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» جاء في روايةٍ زيادةٌ لم يَذكُرْها المؤلفُ؛ وهي: «أَوْ أَتَى امرأةً في دُبُرها فقد كَفَر بما أُنزِل على محمد ﷺ»، وقد جاء أيضًا في هذا المعنى أحاديثُ كثيرةٌ عنِ النبيِّ ﷺ، والوعيدُ على ذلك بسببِ أن الفاعلَ لهذا قد خَرَج عن الفِطْرة، وعن ما جاء به الرسولُ ﷺ.

قوله: «وَلِأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا»، وهذا الموقوفُ له حكمُ المرفوع، قال: «وعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ مَرْفُوعًا: لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ...» هذا مِنَ الأمور التي أقلُّ ما تدُلُّ عليه أنها كبيرةٌ؛ إذا قيل: «ليس منا» يعني ليس من المسلمين، وإلا فظاهرُه يدل على الخروج من الدين، «تَطَيَّر»: يعني كما سبق عمِل بما يُشاهِدُه من الطيور أو تأثَّر بأصواتها وما شابَهَ ذلك، «أو تُطُير له»: يعني أَمَر مَن يَتطيَّرُ له، «أو تَكهَّن أو تُكُهن له»: وكلمة (تكهَّن) تدل على أنه داخلٌ في الحكم وإن كان لا يُحسِنُ الكَهانةَ؛ لأن الكُهَّانَ أناسٌ يَنزِل عليهم الشيطانُ يُخبِرُهم بما يختطفه من الملائكة الذين يتحدَّثون في السحاب، فيَزيدُ على ذلك مائةَ كذبةً، فيصدقُه الناس، وكذلك قال: «أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ».

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَينٍ مَرْفُوعًا: « لَيْسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطُيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكُهِّنَ لَهُ، أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا، فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ » رَوَاهُ الْبَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ.

وَرَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الْأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، دُونَ قَوْلِهِ: « وَمَنْ أَتَى» إِلَى آخِرِهِ.

قَالَ الْبَغَوِيُّ: «الْعَرَّافُ الَّذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الْأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يُسْتَدَلُّ بِهَا عَلَى الْمَسْرُوقِ وَمَكَانِ الضَّالَّةِ وَنَحْوِ ذَلِكَ».

وَقِيلَ هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ الْمُغَيَّبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ.

وَقِيلَ الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

قوله: «وَمَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»: والذي أُنزل عليه هو الشرعُ الذي جاء به، وكذلك حديثُ ابن عباس مثلُه. ثم ذكر تعريفَ البغويِّ؛ قال: «العرَّاف: الذي يدَّعي معرفةَ الأمور بمقدِّمات» يستدلُّ بهذه المقدمات؛ يجعلُها كالدليل له كمَنْ يسمعُ كلامًا أو ينظرُ في وجهِ أحدٍ وما شابهه، أو يَخُطُّ في رمل، أو ينظر في فنجان وغيره؛ كلُّ هذا يدخُلُ في هذا.

قال: «وقِيلَ: هُوَ الْكَاهِنُ، وَالْكَاهِنُ: هُوَ الَّذِي يُخْبِرُ عَنِ المَغِيبَاتِ فِي الْمُسْتَقْبَلِ. وقِيلَ: الَّذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ»، أي عمَّا في النفس قبل أن يُخبِر به.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ابْنُ تَيْمِيَّةَ الْعَرَّافُ اسْمٌ لِلْكَاهِنِ، وَالْمُنَجِّمِ وَالرَّمَّالِ، وَنَحْوِهِمْ، مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الْأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ : وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ) وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ «مَا أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ».

ثم ذكَر قولَ ابنِ عبَّاسٍ فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ أَبَا جَادٍ وَيَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ: «مَا أُرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ»؛ (أبا جاد): يعني الحروفَ، والنظرُ في الحروف نوعان:

١- نظرٌ يَستدِلُّون به على المغيبات؛ وهذا الذي قصَده ابنُ عباس.

٢- ونظرٌ للتهجِّي أو حسابِ الجُمَّل كما هو معروف؛ وهذا لا بأسَ به.

وكذلك النظرُ في النجوم إذا كان المقصودُ بها الاستدلالَ على الحوادث التي تأتي؛ هذا لا خَلاقَ له.

❊❊❊

بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِرٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنْ النُّشْرَةِ؟ فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وَأَبُو دَاوُدَ.

وَقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا؟ فَقَالَ: «ابْنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ».

وَفِي «الْبُخَارِيِّ» عَنْ قَتَادَةَ قُلْتُ لِابْنِ الْمُسَيِّبِ رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ لَا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الْإِصْلَاحَ، فَأَمَّا مَا يَنْفَعُ، فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ.

قَولُ ابنِ القيِّم فيه شرحٌ للباب، فالنشرة: من نَشَرَهُ يَنْشُرُهُ: إذا قرأ عليه أو عالجه فبرئ، فالنشرة: حَلُّ السحرِ عن المسحورِ، والرسولُ ﷺ (**سُئِل عن النشرة**)، فـ(ال) هنا يدل على أنها معلومة عندهم؛ أي (النشرة) المعهودة التي هي سِحرٌ، فقال: (**هي من عمل الشيطان**)، يعني مثلَ السحر، وكما يقولُ الحسنُ: لا يَحُلُّ السحرَ إلا ساحرٌ، فيَتقرَّبُ الساحرُ والمسحورُ إلى الشيطان ليُبطِلَ عملَه لأجلِ ما تقرَّبوا إليه، فعلى هذا يكونُ حلُّ السحر بالسحر يكونُ سحرًا مثلَه، ولا يجوزُ، فهو محرمٌ.

أما حديثُ ابن المسيَّب الذي ذكره في «البخاري»: «**عن قتادةَ: قلتُ لابن المسيَّب: رجلٌ به طِبٌّ**» أي رجل به سِحْر «**أَوْ يُؤَخَّذُ عَنِ امْرَأَتِهِ ...** » يعني يُمنَع، لا يستطيعُ أن يَقرَبَها، وهذا يَعمَلُه بعضُ السحرة، «**أَيُحَلُّ عنه أو يُنَشَّرُ؟ قال: لا**

وَرُوِيَ عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ لَا يَحِلُّ السِّحَرَ إِلَّا سَاحِرٌ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ النُّشْرَةُ حَلُّ السِّحَرِ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ أَحَدُهُمَا حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وَهُوَ الَّذِي مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ، وَعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الْحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ وَالْمُنْتَشَرُ إِلَى الشَّيْطَانِ، بِمَا يُحِبُّ، فَيُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ الْمَسْحُورِ، وَالثَّانِي النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ وَالتَّعَوُّذَاتِ وَالْأَدْوِيَةِ وَالدَّعَوَاتِ الْمُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ.

بأسَ به، إنَّما يُريدون به الإصلاحَ، فأمَّا ما يَنفَعُ، فلَمْ يُنْهَ عَنْهُ» ظاهرُ هذا أنه يُجيزُ حَلَّ السحر بالسحر، والواجبُ أن يُحمَل على المَحمِلِ الحسن، لا يجوزُ أن نظُنَّ بابن المسيبِ أنه يجيزُ عملَ السحر، فيُحمَلُ على ما ذكره ابنُ القيم، وهو الحَلُّ بالأدوية والعِلاجاتِ المباحةِ والتعوُّذات والقراءةِ، والسحرُ يُحَلُّ بالتعوُّذات بالله وقراءةِ الآيات التي في السحر، فيَبطُلُ عملُ الساحر بإذن الله، إذا كان وافَقَ محَلًّا مُؤَهَّلًا لذلك، يعني القارئَ والمقروءَ عليه، ثم قولُ ابنِ القيم: **«النُّشْرةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنِ المَسْحُورِ»** يعني أن هذه هي النشرة في اللغة والشرع، ثم قال: **«وهي نوعان»**: أحدهما: **«حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِه»** وهو الذي يكونُ بتقرُّبِ الساحر والمسحور لشيطانٍ فيُبطِلُ الشيطانُ عملَه؛ لأجلِ ما تقرَّبوا به إليه، وقد يذبحون ذبيحةً أو يقدِّمون شيئًا للأمر الذي يأتون إليه، وهذا ما زال الناسُ فيه، ولا سِيَّما عوام الناس الذين لا يعرفون الحكمَ أن هذا كفرٌ بالله، وهو مِن أخطرِ الأشياء وأعظمِها؛ لأنه منافٍ للتوحيد، ومَن فعَله ومات على ذلك فعلى خطر أن يكونَ في

....

جهنمَ إن لم يَتُب، فالواجبُ أن يتوبَ الإنسانُ مِن هذه الأشياء ويتَّجِهَ لله، ويعلمَ أن الله هو الذي بيده أزِمَّةُ الأمور، وأنه هو الذي يشفي ويعافي، ويمنعُ الإنسانَ أن تَتسلطَ عليه الشياطينُ والسحرةُ، ولا بد أن يكون عنده تعوُّذات، وعنده تحرُّزات من هؤلاء بذكر الله جل وعلا، أما إذا أَهمَل نفسَه فلا يذكُرُ اسمَ الله لا في بيتٍ ولا عند منامٍ ولا غيرِ ذلك؛ فإن الشياطينَ والسحرةَ قد تتسلَّط عليه، والشياطينُ لا يستطيعون مَن يتحرَّزُ بالأدعية والأذكار؛ لأنهم يفِرُّون مِن ذكر الله ولا يَقرَبونه، ولهذا تجدُ مثلًا البيوتَ التي تألَفُها الشياطينُ -كالتي فيها الأغاني والصورُ- تجد فيها مِنَ البلاءِ الكثيرَ، كمثل ما يقعُ مِنَ الأمراض وكآبةِ النفوس وغيرِه مما هو منتشرٌ بالناس، فسببُه أعمالُهم، بخلاف البيوت التي فيها ذكرُ الله وتلاوةُ القرآن؛ فإن الشيطان يفِرُّ منها كما جاء في «الصحيح»: «فإنَّ الشيطانَ يفِرُّ من البيت الذي تُقرأ فيه سورةُ البقرة»، وهو يفر كذلك من الأذان؛ لأنه يألَفُ الغِناءَ، فالغناءُ هو قرآنُه، وكذلك الصورُ.

❋❋❋

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ

....

(التطيُّر): فعلُ المُتَطَيِّر، والطِّيَرَة أُخِذ اسمُها من الفعل الذي يفعلُه الناسُ، وهو: أنهم يَتشاءَمون بالطيور، ويتفاءلون بها، ونحوِها من الحيوانات، مثلِ: الثعلب والأرنب، وقد يكونُ ذلك في الإنسان.

ومعنى التطير: أن يُتوقَّع الشيءُ الذي يكون في المستقبل، ويُستدَلَّ عليه إما بنَعِيب الطير، أو بطيرانه، أو باعتراضِ حيوانٍ له، فإذا كان ثعلبًا تَفاءَلَ؛ لأنهم يرون أن الثعلب مكارٌ متحيل، وإذا كان أرنبًا تشاءموا؛ لأنها كلٌّ يَطمَع بها، ولا تُدافِعُ عن نفسها، وكل هذا مِنَ الشرك بالله جل وعلا، وهو شركٌ في الربوبية، والشركُ في الربوبية أعظمُ من الشرك في العبادة؛ لأن الله -جل وعلا- هو المدبِّر لكل شيء، وهو المتصرِّف في كل شيء، ولا أحدَ مِنَ الخلق عنده شيءٌ من علم الغيب، فالغيبُ له جل وعلا.

والمستقبل الذي يستقبلُه العبدُ لا يعلمه العبدُ، وقد كُتِب في الأزل، وليس مع الله مدبِّر في ذلك ولا متصرِّف، فاعتقادُ أن الطيور أو نحوَها تدلُّ على شيء في المستقبل، هو قَدْحٌ في العقيدة، وسخافةٌ في العقل؛ لأن الطيورَ مخلوقةٌ مسخرةٌ مدبَّرة، ليس عندها شيءٌ، وكذلك غيرُها من الحيوانات.

وَقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣١] .

وَقَوْلِهِ: ﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾[يس: ١٩] .

والله -جل وعلا- ذكر التطيرَ مِن فعل الكافرين، كما أشار إلى ذلك المؤلفُ رحمه الله، في قوله جل وعلا: ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣١]، والآية في قوم فرعون: ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ ﴾، فموسى عليه السلام رسولٌ كريم، جاء بالخير من عند الله، والدعوةِ إلى توحيده وعبادته، فتطيُّرهم به لا معنى له، بل هو باطلٌ، وهو من فعل الكافرين، وليس من فعل المؤمنين.

﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾: أي إنه شيءٌ مكتوب، قد جَرَى به القلمُ في الأزل، وهو لا يُصيبُهم إلا من جَرَّاءِ ذنوبهم ومخالفاتِهم، فهو من عند الله جزاءً على أعمالهم، والله عز وجل يجازيهم بما يستحقون؛ ولهذا جاء في الآية الأخرى ﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾أي: إن الرسلَ لما جاؤوا أهلَ القرية قالوا: تطيَّرنا بكم، قالوا: طائرُكم معكم، أي: بسببِكم، فأنتم السببُ فيما يُصيبُكم مِن عقاب؛ لأن ذلك يكونُ بذنوبكم، فهو جزاءٌ من الله، والآيةُ مثلُ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا عَدْوَى، وَلَا طِيَرَةَ، وَلَا هَامَةَ، وَلَا صَفَرَ» أَخْرَجَاهُ. زَادَ مُسْلِمٌ: «وَلَا نَوْءَ وَلَا غُولَ».

الآيات الأولى، لا تُخالِفُها.

قال: (عَنْ أبي هريرةَ ﷺ، أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «لا عَدْوَى، ولَا طِيَرَةَ، ولَا هَامَةَ، ولَا صَفَرَ» أخرجاه. زاد مُسْلِمٌ: «ولَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ»).

قوله: (لا عَدْوَى..): يحتملُ أن يكونَ نهيًا، ويحتملُ أن يكونَ نفيًا، وفرقٌ بين النهي والنفي، فإذا كان نفيًا فمعنى ذلك أن هذا لا وجودَ له، فهو باطلٌ، ولكنْ إذا كان النفيُ يُشكِلُ عليه أن الواقعَ يوضِّحُ أن مخالطةَ ومقاربةَ المريضِ للصحيح في بعض الأمراض قد تكونُ سببًا لمرض الصحيح، وهذا يُسمَّى عَدْوَى، وهذا أمرٌ معلوم بالطب الآن، والرسولُ ﷺ لا يُمكِنُ أن يخبرَ بخلافِ الواقع؛ لأنَّ خبرَه بالوحي من عند الله جل وعلا، فإذا كان كذلك وجَب أن يكونَ المنفيُّ لِمَا تعتقدُه الجاهليةُ؛ من أنَّ المرض يتعدَّى بطبعه وقوته، لا بإرادة الله جل وعلا، وكونِه جعَل ذلك سببًا، فيكونُ النفيُ لهذا، فيكونُ صحيحًا، أما إذا كان نهيًا فالأمرُ واضحٌ؛ فإنه يَنهى المريضَ أن يخالطَ الصحيحَ (لا عدوى) أي: لا تُعْدِه، ويدُلُّ على هذا قولُه ﷺ في الحديث الآخَرِ (لا يُورِدُ مُمْرِضٌ على مُصِحٍّ)، أي صاحبُ الإبل المريضةِ بالجَرَب مثلًا، لا يجوزُ له أن يُورِدَها على الإبل الصحيحة؛ لئلَّا تُعدِيَها فتمرَضَ، وفي تمامه يقول: (وفِرَّ مِنَ المجذومِ فِرارَك مِنَ الأسدِ).

وَلَهُمَا عَنْ أَنَسٍ، قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ ....

وقوله: (ولا طِيَرَةَ ولا هامةَ ولا صَفَرَ) كيف يكونُ هذا نهيًا؟ وإنما المتوجِّهُ أن يكون نَفَى وجودَ هذه الأشياء المعتقَدة؟ فيكون القولُ الأولُ هو الصحيحَ؛ أنه نفيُ ما كانت تعتقدُه الجاهليةُ من أنَّ المرضَ يُعدِي بقوته وطَبْعه، لا بتدبيرِ الله وكونِه يكون سببًا؛ ولهذا قال: (ولا طيرة) الطيرةُ: لا حقيقةَ لها، ولا وجودَ لها، فهي شيءٌ يتخيلُه المُتطيِّر، ولكن قد يُعاقبُه الله جل وعلا، ويصيبُه ما كان يتوقع؛ عقابًا من الله جل وعلا، وإلا فالطيورُ وغيرُها ليس عندها نفعٌ ولا دفعٌ ولا ضرٌّ، الأمرُ كلُّه بيد الله.

(ولا هامةَ): اختلف شُرَّاحُ الحديث في هذه الكلمة، ما المقصودُ بها ؟ فكثيرٌ منهم يقولُ: الهامةُ المقصودُ بها الطائرُ المعروف، الذي يكونُ في الليل، يُسمَّى (البومةَ) وكانت العربُ تتشاءمُ بها أشدَّ التشاؤم؛ لأنه يألفُ الخرابَ، فإذا وقعت على بيت أحدِهم قالوا: نَعَتْ لي نفسي، أو ولدي، أو قريبًا لي، فيموتُ، فيتشاءمون بها لهذا، فأَخبَرَ الرسولُ ﷺ أن هذا لا حقيقةَ له، وأنه شيءٌ في أوهامهم فقط، يُلقيه الشيطانُ ويخوِّفُهم، وقد يُصابون بذلك من جَرَّاءِ اعتقادهم؛ عقابًا من الله لهم.

القولُ الثاني: أنَّ المقصودَ بالهامة طائرٌ يطير يخرجُ من هامةِ المقتول، أو عظامِه، يكونُ طيرًا، إذا لم يُؤخَذ له بالثأر، فيصيحُ على قبره؛ يقول: اسقوني اسقونِي، حتى يُؤخَذ له بالثأر، ويُقتَلَ القاتل، فتَسكُت، وزعموا أنها تبقى ثمانية

....

أيام ثم تذهبُ، كل هذا خرافةٌ لا حقيقة لها، فإذا كان هذا هو المقصود فمعنى ذلك نفيُ هذا، وكذا الأولُ: المقصودُ نفيه، وإن قُصِد المعنيانِ معا فكلاهما باطلٌ، ويدخلان في النفي.

(ولا صَفَرَ): اختُلف فيه أيضًا على قولين:

القول الأول: ما قاله أبو عبيدٍ في (غريب الحديث): أن (الصفر) دابَّة تكونُ في البطن أَعدَى مِنَ الجَرَب، يعتقدون عَدْواها.

القول الثاني: أن المقصود به شَهْرُ صفر، وهذا أيضًا على قولين:

القول الأول: أن المقصودَ به النَّسِيءُ الذي كانتِ الجاهليةُ تفعلُه، فكانوا يؤخِّرون المحرمَ إلى صفر، ويحرِّمونه، ويستحِلُّون القتالَ في المحرم، بسبب أن ثلاثةَ أشهُر من الأشهر المحرمة متواليةٌ، فيطولُ عليهم الوقتُ، فتحيَّلوا لذلك كما أَخبرَ اللهُ جل وعلا ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، فلا يكونُ من هذا الباب، وإنما هو من بابِ فعلِ المشركين المخالِفِ لسنة الله جل وعلا، ولحُكمِه.

القول الثاني: التشاؤم بهذا الشهر، وأن العربَ كانت تتشاءمُ به، قال ابنُ رَجَبٍ: هو الأشبَهُ والأقربُ، فنفى الرسولُ ﷺ ذلك، كما أن بعضَ الناس يتشاءمُ مِن بعضِ الأيام، أو بعضِ الليالي، أو بعض الشهور، كتشاؤمِهم في شوالٍ مـثلا،

وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ» قَالُوا: وَمَا الْفَأْلُ؟ قَالَ «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

فلا يتزوَّجون فيه؛ لأن الزواج لا يتِمُّ، فهذا باطلٌ، وصفر كذلك، كانوا لا يسافرون فيه، ولا ينقلون فيه أحمالَهم، بحجةِ أنه شهرٌ مشؤومٌ.

(ولا غُولَ): الغُول مِنَ الغِيلانِ، والغيلانُ: يزعمون أنها شياطينُ تُضِلهم في الصحراء، تظهرُ لهم وتتلوَّن بألوانٍ مختلفة، ومن هنا سَمَّوها غولا، من التغيُّل، وهو التلوُّن والاختلاف، فالنبيُّ ﷺ يقولُ: إنها لا تستطيعُ أن تُضِلَّ أحدًا كما يزعمُ هؤلاء؛ ولهذا جاء في الحديث (**إذا تغيَّلتِ الغِيلانُ فبادِرُوا بالأذان**)، وفي الحديث الآخر (**ولا غُولَ، ولكنْ سَعالي الجِنِّ**) أي سحرة الجن، فالجن مثل الإنس، فيهم شياطينُ، وفيهم سحرة، وفيهم فَسَقة، كما قال الله -جل وعلا- عنهم: ﴿**كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا**﴾؛ أي مختلفين في القُبْح والحُسْن وغيرِ ذلك، فالذي يعتقدُ أنها تستطيعُ أن تُضِلَّ أحدًا أو تقتلَه، أو غيرَ ذلك، فهذا باطلٌ، لا تستطيعُ أن تصنعَ شيئًا؛ وذكرُ الله يَصُدُّها، ومن ذلك حديثُ أبي أيوبَ: "كان عندي طعامٌ في سَهْوة، فكانتِ الغُولُ تأتي وتأخذُ منه" أي سعالي الجن، هذا شيءٌ معروف، ولكن عقيدة الكافرين والمخرِّفين الذين يتبعونهم باطلةٌ، فمن توكَّل على الله وذكَره لم تضُرَّه، ولا تستطيعُ أن تُضِلَّه، ولا أن تتعرضَ له في الصحراء.

(**ويُعجبُني الفَأْلُ**) المقصود به إخراجُ الفأل من الطيرة، والفألُ يكونُ فيما يسُرُّ غالبًا، والطيرةُ فيما يضُرُّ، وقد يُستعمل الفألُ فيما هو سيئ، ولكن الرسول

وَلِأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ قَالَ: ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ، وَلَا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ

ﷺ فسَّر الفألَ بأنه الكلمةُ الطيبة يَسمَعُها الإنسان، مثلَ: أن يكونَ الإنسانُ مريضًا، فيسمعَ قائلا يقولُ: يا سالمُ، فيتفاءلُ بأنه يَسلَم، فهذا رجاءٌ، وإن كان ضعيفًا، ليس سببًا، ولكن رجاء الخير خيرٌ، وإن كان سببُه ضعيفًا، فإذا رجا الإنسانُ خيرًا صار في نفسه قوةٌ لمدافعة الأذى، وعلى كل حال: فإذا رجا الإنسانُ خيرًا من الله، فهو على خير، وإن لم يكن هناك سببٌ قائم لهذا الرجاء، وكذا لو أن إنسانًا أضلَّ شيئًا، فسمِع أحدًا يقول: يا راشِدُ، أو: يا واجِدُ، فيتفاءلُ أنه يجدُ، فلا بأس بهذا، فالفألُ ليس من الطيرة؛ لأنه في الشيء الذي يسُرُّ ويُرجَى من الله جل وعلا، وليس معنى ذلك أنه يعتقد أن هذا سببٌ في وجود المقصود له، وإنما يكونُ راحةً للنفس، وقوةً فيها لمدافعة الأذى، هذا شيءٌ محسوسٌ، يجدُه الإنسانُ في نفسه.

(عن عقبة بن عامر): الصحيح أنه عُروة بن عامر.

قوله: **(ذُكِرَتِ الطِّيَرَةُ عِندَ رَسولِ الله ﷺ، فقال: أَحْسَنُها الفَأْلُ، ولا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فإذا رَأَى أحدُكم ما يَكرَهُ فلْيَقُلْ: اللهُمَّ لا يأتِي بالحسناتِ إلا أنت، ولا يدفعُ السيئاتِ إلا أنت، ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك)**.

هذا فيه أن الرسولَ ﷺ أخرجَ الفألَ من الطيرةِ المذمومة **(أحسنُها الفألُ)**

فَلْيَقُلْ: اللهمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ............

أي إن الفألَ حسَنٌ، غيرَ أنه لا يُعتقَد أنَّ له تأثيرًا في المستقبل، وإنما هو رجاءُ خير، وانفعالُ النفس لذلك، واستقبالُها لطلب ما يَسُرُّ.

(ولا تَرُدُّ مسلما): أي إن الطيرة لا ترد مسلمًا عن مقصودِه ومُرادِه، بخلاف الكافرِ أو المشركِ؛ فإنها تَرُدُّه، فمعنى ذلك أن المسلم لا ينظرُ إليها ولا يتأثرُ بها، وإن عَرَض له شيءٌ توكَّل على الله، وأعرَضَ عن ذلك ومضَى في طريقه وعملِه الذي يريدُ، هذا هو المقصودُ؛ ولهذا أرشد الرسولُ ﷺ إلى ما يَدفَعُ ما يقعُ في النفس، فقال: **(إذا رأى أحدُكم ما يَكرَه، فليقُلْ: اللهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت)**.

(الحسنات): كل ما يسُرُّ؛ من الصحة، والنُّصْرة، والرزق، والعافية، وغيرِ ذلك، فهذا لا يأتي به إلا اللهُ.

(السيئات): ضد الحسنات، ولا يدفعُها إلا اللهُ، أما الطيورُ، والحيواناتُ، والمخلوقاتُ؛ فلا تَصَرُّفَ لها في ذلك، لا في جَلْبِ حسنةٍ، ولا في دفعِ سيئة، وإنما يُلْجَأُ إلى الله تعالى، وهذا هو التوحيد: أنه يَتعلقُ بربه، ويتوكلُ عليه، ويَطلُب منه ما ينفعُه، ويطلبُ منه أن يدفعَ عنه ما يضُرُّه، ولا بد من عقيدةِ ذلك، أما مجردُ الادعاءِ، والفعلُ يكون خلافَ ذلك، فهذا لا يجوزُ.

وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ».

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، وَمَا مِنَّا إلا

(ولا حولَ ولا قوةَ إلا بك): أي لا تحوُّل من حال إلى أخرى إلا بالله، فالتصرُّف كله مُقدَّر من الله، ولا يقعُ إلا بإرادته ومشيئته، وإن كان العبدُ له تصرُّفٌ وله قدرةٌ وإرادةٌ، ولكنها بعد إرادة الله ومشيئته.

(الطيرة شرك): هذا تصريحٌ واضح بأن الطيرة من الشرك، ولهذا السبب ذكَرَها المؤلفُ في كتاب التوحيد؛ لأن المؤلفَ رحمه الله يذكُر في كتاب التوحيد ما يُنمِّيه ويَزيدُه ويُكَمِّلُه، ويذكرُ ما ينقصه ويذهبُ بكماله، أو يذهبُ به جملةً، فجَمَع بين هذه الأمور؛ لأن الإنسان إذا لم يَعرِفِ الشرَّ، لم يعرفِ الخيرَ، لا بد أن تعرفَ التوحيدَ وضِدَّه، حتى تَسلَم من الوقوع فيما يخالفُ أمرَ الله، وما جاء به الرسولُ ﷺ.

وعنِ ابنِ مسعودٍ رضي الله عنه مرفوعًا: (الطيرةُ شركٌ، الطيرةُ شركٌ)، وما مِنَّا إلَّا، ولكنَّ اللهَ يُذهِبُه بالتوكُّلِ.

(وما مِنَّا إلَّا): هنا حَذَف الخبرَ اعتمادًا على فهمِ السامع، السامعُ يعرفُ أنه يَقصِدُ: وما منا إلا ويقعُ في نفسه شيءٌ من الطيرة، ولكن الله يُذهِبُه بالتوكل، وهذا لا يجوزُ أن يكونَ مِن كلامِ رسول الله ﷺ؛ لأنه لا يقعُ في نفسه شيءٌ من ذلك، وإنما هذا مِن قولِ ابن مسعودٍ، فهو موقوفٌ عليه، وليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ.

إِلَّا. وَلَكِنَّ اللهَ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ، وَالتِّرْمِذِيُّ وَصَحَّحَهُ وَجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابْنِ مَسْعُودٍ.

وَلِأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ»

والتوكلُ: اعتمادُ القلب على الله -جل وعلا- في حصولِ المقصودِ بعد فِعْلِ السبب؛ لأن الإنسانَ لا يجوزُ أن يكون عاجزًا كَسْلانَ، فالعاجزُ الكسلانُ لا خير فيه، وإنما يجبُ أن يفعلَ السببَ الشرعيَّ المأمورَ به، ثم يعتمدَ على ربِّه -جل وعلا- في حصول المُرَتَّبِ على السبب المطلوبِ، فهذا شأنُ المؤمنِ، وهذا معنى قوله: (ولكنَّ اللهَ يُذهِبُه بالتوكُّل) أي بكونه لا يلتفتُ إلى المخلوقات، ولا ينظرُ إليها، بل يعتمدُ على ربه جل وعلا؛ لأنه هو المتصرِّفُ في كل شيء، وهو الذي يجلبُ الخيرَ لعباده ويدفعُ عنهم الضرَّ.

(رواه أبو داودَ والترمذيُّ وصحَّحه): أي الترمذي، **(وجَعَل آخرَه مِن قولِ ابنِ مسعودٍ)**: أي الترمذيُّ، الترمذيُّ قال: إن قوله: "وما منا إلا" مِن قولِ ابن مسعودٍ، وهذا هو الصوابُ.

قوله: **(ولأحْمَدَ مِن حديثِ ابنِ عَمْرٍو: مَنْ رَدَّتْه الطِّيَرَةُ عَنْ حاجَتِه فَقَدْ أَشْرَكَ)**.

أي: مَن فعلَ الطيرةَ فقد وقَع في الشرك؛ لأن الطيرةَ من الشرك في الربوبية، نسألُ الله العافيةَ، والشركُ في الربوبية أعظمُ من الشركِ في العبادة كما سبق؛ لأن

قَالُوا فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ يَقُولَ اللهمَّ لَا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، وَلَا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ».

وَلَهُ مِنْ حَدِيثِ الْفَضْلِ بْنِ عَبَّاسٍ ....

العبادةَ تتعلَّق بالإنسان، وكونُه انحرفَ وجعَل مِنَ العبادةِ شيئًا لغير الله، هذا شركٌ أكبرُ، ولكنَّ كونَه جعَل مُتصرِّفًا في الكونِ مع الله، هذا أكبرُ منه وأعظمُ، وهذا الذي يكونُ مِنَ المتطيِّر.

(قالوا: فما كَفَّارةُ ذلك؟): أي إذا عرَض للإنسان شيءٌ في نفسه، فما كفارتُه؟

قال: (أن تقولَ: اللهُمَّ لا خَيرَ إلا خيرُك، ولا طيرَ إلا طيرُك، ولا إلهَ غيرُك).

أي: لا أتألَّهُ ولا أعبُدُ إلا إياك، والإلهُ هو الذي يجلبُ النفعَ، ويدفعُ الضرَّ، وهو الذي يَملِكُ كلَّ شيء، أما أن تتألَّهَ لشيء لا يتصرَّفُ في الكون كله، ولا يفعلُ ما يشاءُ، فهذا ضلالٌ ظاهر، وكفرٌ بَواحٌ، ولا تكفي هذه الكفارةُ، بل لا بد أن يَعتقِدَ القلبُ ذلك، ويعتمدَ على الله جل وعلا؛ لأنه ﷻ هو المتصرفُ في كل شيء.

(وله مِن حديثِ الفَضْلِ بنِ العَبَّاسِ ﷺ): هذا مِنَ الأحاديثِ الضعيفةِ، التي لا يَنبغي أن يُعتمَد عليها، ولكنْ ذكَره المؤلفُ لأنَّ فيه الحَدَّ الذي تُعرَف به الطيرةُ، وإلا فهو حديثٌ ضعيف، وإن كان الإمامُ أحمدُ رواه، وفيه: عنِ الفضلِ بنِ عباسٍ قال: خَرَجْتُ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَوْمًا، فَبَرِحَ ظَبْيٌ، فَمَالَ فِي شِقِّهِ، فَاحْتَضَنْتُهُ،

«إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ».

فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله، تَطَيَّرْتَ؟ قَالَ: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ» لا يمكنُ أن يكونَ هذا ثابتًا عن الرسول، هذا باطلٌ، الرسولُ ﷺ لا يتطيرُ، بل يَنهى عن الطيرة، ويبينُ أنها شركٌ.

(الطيرةُ: ما أمضاك أو رَدَّك): المقصود أن ما يقعُ في النفس مِنَ الطيرة، إذا أعرَضَ عنها الإنسانُ لم تضره، وإنما الطيرةُ فيمن حقَّقها وعمِل بها يَحْدُث له في قَلْبه أو في نفسِه، فقد يقعُ في الشرك بهذا.

قوله: (التنبيهُ على قولِه تعالى ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ مع قوله: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾) المقصودُ أن الآية الأولى لا تخالفُ الثانيةَ، فهي في معناها، فالأُولى (إنما طائرهم عند الله): أي إنما جزاءُ أعمالهم من الله، والثانية (طائركم معكم): أي بسببِكم، أنتم الذين فعلتم الكفرَ، ورَدَدْتُمُ الحقَّ، فأصابكم العقابُ لذلك.

❁❁❁

بَابُ مَا جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

....

(التَّنجيم): فِعلُ المُنَجِّمين.

والتنجيم ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

١- ما كان يفعله الصابئةُ.

الصابئةُ يَروْنَ أنَّ الكواكبَ لها تَصرُّف، ولها تدبيرٌ، وفيها نفع وضَرٌّ، وكانوا يعبدونها، ويَبْنون لها الهياكلَ، ويُناجونها، ويَدْعونها دعاءً لا يجوز أن يكون إلا لرب العالمين، وهذا كفرٌ بالإجماع، وهذا موجود في كتب الصابئةِ، الذين هم بَقيَّةُ قومِ إبراهيمَ الذين بُعِثَ فيهم، كما ذَكَر الله جل وعلا ذلك عنهم في سورة الأنعام، هذا النوعُ لا خلاف في كفر فاعله، وأنه خارج من دين الإسلام.

٢- زَعْمُ المُنَجِّمين الذين يَنظُرون في النجوم، أن اجتماعها، أو افتراقَها، أو طلوعَها، أو أُفُولَها، يدلُّ على ما يحدث في الأرض؛ من هُبوبِ رياحٍ، أو أمطارٍ، أو حروبٍ، أو غلاءِ أسعارٍ، أو وباءٍ، أو غير ذلك.

وهذا اختُلِف في فاعله، هل يكون كافرًا؟ الصحيح أنه كافرٌ، خارجٌ من دين الإسلام.

٣- ما ذكره المؤلف في تعلُّم منازلِ القمر، وسيأتي إن شاء الله.

قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ الله هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا، ....

قال (قَالَ الْبُخَارِيُّ فِي «صَحِيحِهِ» قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ الله هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ زِينَةً لِلسَّمَاءِ، وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا).

وهذه الثلاثُ قد ذكرها الله جل وعلا، في كتابه في آياتٍ متعددة.

(زِينَةً لِلسَّمَاءِ): أي في النَّظر، وإلا فالنجوم ليست داخلَ السماء، بل هي في أفلاكٍ، جعلها الله جل وعلا في نظر النَّاظر إلى السماء كالقَناديلِ المُعلَّقة في السماء، فهي زينةٌ لها.

(وَرُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ): الشياطين يَركب بعضُهم بعضًا ليَسْتَرِقوا السمعَ الذي يكون بين الملائكة، كما وَصَف الرسول ﷺ، فيُرْمَوْنَ، وتُحرَس السماءُ؛ ولهذا لَّما بعث الله نبيَّه، اشتدَّ الرَّمي بالنجوم، فأصبحت الشياطين لا تستطيع أن تَسْتَرِق شيئًا، حتى لا تَسْتَرِق شيئًا من القرآن، فيكون ذلك فتنةً لمن يسمعه، فحُرِسَت السماء أشدَّ الحراسة، فلم يستطيعوا أن يصنعوا شيئًا، كما قالوا فيما ذكره الله عنهم: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ أي مُرصَدًا له، يمنعه من الاسْتِراق.

(وَعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا): هذا أمر معلوم، يهتدِي السَّائر في البر، في ظُلمة الليل بالنَّجم، إلى الطريق أو البلد الذي يقصِدُه، ويُهتدَى بها أيضًا إلى القِبلة، وهي

فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ؛ أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ» انْتَهَى.

وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ، وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا.

معروفة، يَرصُدُها الإنسان، يكون مثلًا في الكعبة ينظر إلى الكوكب الذي حِيالَه، ثم إذا كان في الجهة الأخرى عَرَف الاتجاهَ، ويُهتدَى بها أيضا في البحر؛ لأن البحر يكون ظُلْمةً في الليل، ولجُةً، ليس به أيُّ علاماتٍ، فمن رحمة الله جل وعلا أن جعل فيها هذه الأمورَ الثلاثة.

(فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ): طَلب أمرًا آخرَ من العلوم التي يَزعُمُها المنجِّمون.

(فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ؛ أَخْطَأَ وَأَضَاعَ نَصِيبَهُ): أي أضاع حياته، فإنه لم يُخلَق لهذا، وإنما خُلِق لعبادة الله جل وعلا.

(وَتَكَلَّفَ مَا لَا عِلْمَ لَهُ بِهِ): أي إن النجوم ليس عندها علمُ ذلك، أمَّا استدلالهم بـ (وبالنَّجم هم يهتدون)، فهذا تحريف لكلام الله جل وعلا، ولهم شُبَهٌ مذكورة في هذا الشأن، ولكن كلُّها شُبَهٌ باطلة.

(وَكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ الْقَمَرِ): القمر له ثِنْتانِ وعشرون منزلة؛ كل ليلة ينزل في واحدة، وهذه المنازل كواكبُ معروفة، منها أربعةَ عَشَرَ تدور على القُطْب الجنوبي، وأربعة عشر تدور على القُطْب الشمالي، ودائما فوق سطح الأرض منها

....

أربعة عشر، لا تَغيب أبدًا، إذا غاب واحد خَرج مُقابلُه، هكذا دائمًا، فإذا كان الشهر ثلاثين يومًا بات القمرُ ليلتين ليس له منزِلة؛ ولهذا يقطع هاتين المَنزِلتين في ليلة واحدة أحيانًا، ليس له فيها منزلة، ويُعتَمد على الحساب في ذلك؛ لأن هذه تختلف جدًّا، وأهل الحساب ينظرون إلى اجتماع الشمس مع القمر، فيَحسُبون على هذا، وهذا أيضا غيرُ منضبط. المقصود أن منازل القمر التي يَنزلها عَرَفها العرب، وكانوا يَعتنون بها كثيرًا، ويُضيفون إليها نزولَ المطر؛ ولهذا يُسمون بعضَها نُحُوسًا، وبعضَها سُعُودًا، ويقولون: «هذا النَّوْءُ محمودٌ، وهذا نَوْءُ نَحْسٍ»، وكل هذا كذبٌ على الواقع، وافتراءٌ على الله جل وعلا، فهي ليس عندها شيءٌ من ذلك، وإذا أُضيف إليها نُزولُ المطر كان هذا كفرًا بالله جل وعلا؛ كقولهم: «مُطِرنا بِنَوْءِ كذا»، هذا كما أخبر الرسول ﷺ، كفر لنعمة الله جل وعلا التي يُرسلها ويتفضَّل بها على خَلقه.

المؤلف يقول: إن قتادةَ ومن معه من العلماء أباحوا أن يتعلم الإنسان منازلَ القمر، والصحيحُ أنه لا بأس بها؛ لأن بها تُعرَف فصول السنة؛ الربيع، والصيف، والقَيْظُ، والشتاء، وهي معروفةٌ، كل فصل له منازلَ معيَّنة، هذه لا تخفَى إلا على من أعرضَ عنها كلِّيا، وهي معروفة بأعيانها، فالصحيح أنه لا بأس بِكَون الإنسان يعرف منازل القمر، وقد عُرف أن له ثلاثَ منازل، إذا نزلها في ليلة الرابعَ

وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ.

وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: «قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ ....

عشر، أو الثامنَ عشر يحصُل الكسوف، بإذن الله جل وعلا، هذا عُرف بالنظر؛ لأن الكسوفَ له سببٌ معروف، ومع ذلك هو تخويفٌ من الله جل وعلا، يخوِّف به عبادَه ليَرجِعوا إلى الله جل وعلا؛ لأن هذه آيات جعلها الله تعالى دليلًا على وجوب عبادته.

قال: (وَلَمْ يُرَخِّصِ ابْنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا. وَرَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ الْمَنَازِلِ أَحْمَدُ وَإِسْحَاقُ)، وهو إسحاقُ بن رَاهَوَيْهِ، والصحيح أنه لا بأس به.

قال: (وَعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ).

(ثَلَاثَةٌ): نكرة ابتُدِئَ بها؛ لأنها وُصِفَت بقوله: (لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ)، هذا وصف لها.

(لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ): هذا من نصوص الوعيد، التي يجب أن نُمِرَّها ولا نُؤَوِّلَها؛ لأن مراد الرسول ﷺ بها الزَّجرُ والمنعُ من اقْتِرافها، أما أن يكون هذا كافرًا، فهذا قول الخوارج، ولهذا الصحيحُ أنه يُمَر كما جاء، نقول كما قال الرسول: (لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ).

مُدْمِنُ الخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ وَابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

(مُدْمِنُ الخَمْرِ): المدمن هو الذي يُقيم على الشيء لا يفارقه، مأخوذ من المنزل الذي يُنزل فيه، وتُدمَن فيه الإبل والغنم، وتَبقَى فيه، فهو مقيم على شرب الخمر كثيرًا.

(وقاطِعُ الرَّحِمِ): الرحم المقصود بها صِلةُ القرابة، سواء كانت بسبب النَّسْل أو بسبب المُصاهرة، فهي رحم، سواء كان من الوارثين أو من غير الوارثين، وصِلتُها واجبة، لا يجوز أن تُقطَع، وتختلف الصلة باختلاف الناس والأحوال، والعُرف الذي يَتعارف عليه الناسُ، فمن قطعها فهو مُتوعَّد بأنه لا يدخل الجنة.

(ومُصَدِّقٌ بالسِّحْرِ): هذا هو الشاهدُ من الباب؛ لأن النظرَ في النجوم نوعٌ من السحر، فمن صدَّق به فهو داخلٌ في هذا الوعيد، فيكون ممن لا يدخل الجنة، وهذا مقصودُ المؤلف رحمه الله، وقد كثُر النظر فيه الآن، يقولون: طالِعُ فلانٍ كذا، وسوف يكون له كذا وكذا، وقد يُكتَب ذلك في الصحف، وقد يُذكَر في إذاعة، وفي كُتب وغير ذلك، وللناس في بعض ذلك اعتناءٌ، ولهم مَيلٌ إليه كثيرٌ، وكل هذا باطلٌ، وفاعله مُتوعَّد بأنه لا يدخل الجنة، وليس عند النجوم شيء من هذا، فما من نجم يَطلُع إلا ويولد معه آلافُ الناس، أو أكثر من الآلاف، وليس لهم شأنٌ

....

في كون النجم طَلَع أو أفَلَ، أو كان مُقارِنًا للنجم الفلاني، أو أنه في المنزلة الفلانية، كل هذا حَدْسٌ وكذبٌ، ورجمٌ بالغيب، وقولٌ على الله بلا علم، فصاحبه مُتوعَّد بأنه لا يدخل الجنة، نسأل الله أن يَقِيَنا أسبابَ الشر، وأن يرزقنا حُسن الاتباع.

❁❁❁

بابُ ما جاء في الاستِسقَاءِ بالأنْوَاءِ

وَقَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾[الواقعة: ٨٢] .

(الأَنْوَاءُ): جمع نَوْءٍ، وسُمِّي نوءًا لأنه إذا غاب ناءَ مقابلُه من جهة الشرق، وهي منازلُ القمر التي ينزِلُها في كل ليلة، ولكل واحد منها ثلاثةَ عَشَر يومًا، إذا انتهت طلَع مقابلُه من جهة الشرق، فتنتهي بدورة في السماء كلِّها.

والعربُ كانوا يَعتَنون بها؛ لأن معيشتَهم تتوقف على ما يُنزِله الله جل وعلا من المطر، ويَنظرون إذا نزل المطر إلى الأنواء، فيقولون: «إنَّا مُطِرنا بنَوْءِ كذا وكذا»، ولهذا صارت هذه الإضافةُ كفرًا بالله جل وعلا، إضافةُ هذه النعمة إلى النجم، والمنجِّم إذا كان يعتقِد أن النجوم لها تأثيرٌ في الحوادث، وأنها تؤثِّر فيما يحدث في الأرض، هذا كفر بالإجماع؛ لأن هذا شِرْك برب العالمين، وجَعْلُ مُدبِّر معه يتصرف فيما يحدث، أما مجرد الإضافة للإيضاح فقط؛ كأن يضيفوا نزول المطر للنَّوْءِ، فقد سمَّاه الرسول -ﷺ- كفرًا.

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾: تجعلون نصيبكم من فضل الله ورحمته وما أنزل عليكم التكذيبَ، ومن كان هذا نصيبه فهو خاسرٌ وضالٌ، وسواء قيل: إن المقصود بهذا المطر، أو المقصود به كتاب الله، الذي أنزله ليكون رحمةً للعالمين، وهدايةً لمن يشاء الله.

وَعَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْعَرِيِّ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ الْفَخْرُ بِالْأَحْسَابِ........................

(أربعٌ في أمتي): المقصود الأمة المُستَجيبة للنبي ﷺ، وهو ذَمٌّ لمن يفعل ذلك، حيث أضاف هذا إلى أمر الجاهلية، والجاهليةُ مذمومةٌ، فيكون هذا على سبيل الذَّم، وهذا يدُلُّنا على أن المسلم قد يكون عنده شيء من أمور الجاهلية، أو من أمور اليهودية أو النصرانية، وأنه لا يَخرج بذلك عن كونه مسلمًا، ولكنه نقصٌ فيه، وقد يكون سببًا لعذاب يسير؛ ولهذا جعل تَعْيير الإنسان بأمِّه من أمور الجاهلية، كما ثبت أن أبا ذرٍّ ﷺ، قال لغلامه: «يا ابنَ السوداء»، فرُفِع ذلك إلى نبي الله ﷺ، فقال: (أعَيَّرتَه بأمِّه؟ إنك امرُؤٌ فيك جاهلية، قلت: على ساعتي هذه من كِبَرِ السن؟ قال: نعم)، فهذا يدل على أن الإنسان قد يكون صالحًا، وليًّا من أولياء الله، ومع ذلك يكون فيه نقص، وفيه شيء من الجاهلية أو اليهودية أو غيرها، وقد يُعذَّب بسبب ذلك وقد لا يعذب.

(لا يَتْرُكونَهُنَّ): هذه الأربع موجودة في هذه الأمُّة، وهذا من دلائلِ النبوَّة، فلا يزال ذلك موجودًا، كما أخبر ﷺ.

(الفخرُ بالأحسابِ): الأحسابُ ما يكون للإنسان من الكرم، والشجاعة، والجُود، وما أشبه ذلك، فيَفتخِر بها على غيره، هذا من أمر الجاهلية، إذا افتَخر بها، وتشرَّف، وتكرَّم بها ابنه أو قريبه، فهو من أهل الجاهلية، فقد وَقع في أمر من أمور

وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ وَالنِّيَاحَةُ».

الجاهلية؛ لأن الإنسان ليس له إلا سعيَه وعمله، وكونه يفتخر بعمل غيره، هذا يدل على الجهل، والجهل ضلال.

(الطعنُ في الأنسابِ): كأن يقول: فلانٌ ليس لفلانٍ، أو: ليس من القبيلة الفلانية، أو: وَضيعُ النَّسب، وما أشبه ذلك؛ لأن بني آدم أبناءُ رجل واحد، وآدمُ خُلِق من تراب، فلا فخرَ لأحد على أحد إلا بتقوَى الله، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ﴾، وجاء في سنن أبي داودَ وعند الإمام أحمدَ، أن النبي ﷺ قال: (لَيَدَعَنَّ رجالٌ فَخْرَهُم بأقوامٍ إنَّما هم فَحْمٌ من فَحْمِ جَهَنَّم، أو لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ على الله مِنَ الجِعْلانِ التي تَدفَعُ بأنفِها النَّتْنَ)، فهو من القُبح بهذه المنزلة؛ كونُه يفتخر بآبائه، أو بأقربائه؛ فهذا جهلٌ مَحض، وهو خلاف ما جاء به الإسلامُ من أن الإنسان لا يجوز أن يَترفَّع على غيره، وإن كان تقيًّا فيجب أن يتواضع، يجب أن يكون أمام الناس نظيرَهم أو أدنى منهم؛ لأنهم أبناء جنسه، وليس له عليهم فضل، إلا إذا كان له عمل صالح، وهذا بينه وبين الله.

(الاسْتِسْقاء): طلبُ السُّقيا، وإنزالِ المطر، وليس المقصود أنهم يقولون: إن النجوم تُنزِل المطر، وإنما يُضيفون نزول المطر إلى طلوعها أو أُفُولها، فيقولون: «سُقِينا بِنَوْءِ كذا»، فهذا كفر للنعمة، وليس الكفر المُخرِج من الإسلام، إلا إذا كان يَعتَقد أن النجم يؤثِّر في ذلك ويُنزِّل المطر بنفسه، فهذا كفر بالاتفاق، وهذا لا

وَقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

يقوله أحد من المشركين، لأن الله تعالى يقول عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾.

(والنِّياحةُ): هي رفعُ الصوت، وتَعْدَاد محاسنِ الميت، وغالبًا ما تكون النائحة امرأة؛ لأنهُنَّ أكثرُ جَزَعًا، وأضعفُ عُقولًا من الرجال، وقد تكون النائحة مُستأجَرة، تُؤَجِّر دَمعتها وصوتَها لغيرها، فيكون الأمرُ أقبحَ، والإثمُ أكبرَ.

(وعليها سِربالٌ من قَطِرَان): أي تُكسَى القطران، حتى يكون التهابُ النار واشتعالها أشدَّ، ونَتَنُها أقبح، وألُمها أعظم.

(ودِرعٌ من جَرَبٍ): يكون جلدها كأنه درع من جرب، ليكون أشدَّ ألمًا، وهذا وعيد شديد، ثم إن هذا يدل على أن التائب كمن لا ذنب له، لأنه قال: (إذا لم تَتُب قبل موتِها)، فإذا حصلت التوبة قبل الموت، فالذنب يكون مغفورًا، ولا يجوز أن يضاف إلى صاحب الذنب. والتوبةُ هي الرجوعُ والإقلاعُ عما هو فيه، والنَّدمُ على ما وقع، والعَزْمُ الأكيد على أنه لا يُعاوِد على الذنب، ثم يموت على ذلك، فهذه توبةٌ نَصوحٌ، يقبلُها الله ﷻ، وهذا يدلُّنا على أن المذنب لا يجوز أن يُحكَم عليه بمُقتضَى ذنبه؛ لأنه قد يكون تائبًا، وقد يكون له حسنات تكفِّر سيئاته، فالحسنات قد تأتي منه وقد تأتي من غيره، كدعوة المسلمين الذين يُصلون عليه،

وَلَهُمَا عَنْ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ ﷺ قَالَ : «صَلَّى لَنَا رَسُولُ الله ﷺ صَلَاةَ الصُّبْحِ بِالْحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ، فَقَالَ: هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟..............................

والآلام التي تُصيبه، قد تكون مُكفِّرة، ومغفرةُ الله من وراء ذلك ورحمتُه، وقد يدخل في شفاعة الشافعين بأمر الله جل وعلا.

(صلَّى لنا): أي صلَّى بنا، يجوز إطلاق هذا مع أن الصلاة لله جل وعلا.

(الحُدَيْبِيَة): بتخفيف الياء وتشديدها موضع معروف، وهي معروفة الآن بالشميسي، وليست من الحرم.

(على إِثْرِ سماء): على إِثْرِ مطر نزل من السماء، فأَطلَق على المطر السماء؛ لأنه نزل من السماء.

(فلمَّا انصرف): من صلاته.

(أقْبَلَ على الناس بوجْهِه): هذه سنَّته ﷺ، التي ينبغي لإمام الناس أن يفعلها، ولا يجوز أن يَستَدبِرهم، ويبقَى مستقبلًا للقبلة، عليه أن ينصرف، ذلك أن الإنسان إذا سُئِل عن الشيء وهو لا يعرفه، تَطَلَّعت نفسه وتَشَوَّقت إلى الجواب، فيكون مستعدًا، فإذا جاء الجواب قيل له: وثَّقت، فلذلك كان يفعله ﷺ كثيرًا.

(ماذا قال ربكم): فيه أن الله تعالى يقول، ويتكلم إذا شاء جل وعلا، هذه

قَالُوا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمَ قَالَ: قَالَ أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ..........

من صفاته الثابتة، التي يجب أن نؤمن بها، ومنكرها مُنكِرٌ للحق، وضال.

(**الله ورسوله أعلم**): يجب على الذي لا يَعلم أن يُرجِع العلمَ إلى عالِمِه، ولكن في ذلك الوقت لَمَّا كان النبيُّ ﷺ موجودًا، بين أصحابه، كانوا يقولون هذه العبارة، وأما بعد أن تُوُفِّي فيقال: الله أعلم؛ لأنه ليس بإمكان الرسول ﷺ، أن يُجيب، أو أن يُسأل.

(**أصبحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ**): الكلام المضاف إلى الله يُسمَّى «الحديث القُدسيَّ»، والقُدسيُّ: المقدَّس الطاهر؛ لأنه قول الله، وكل ما يقولُه الرسول ﷺ، فهو وَحْيٌ، ولكنَّ بعضَه يُعبِّر عنه بكلامه، وبعضه يُضيفه إلى الله قولًا له، وهو كلام الله لفظًا ومعنى، والفرق بينه وبين القرآن أن القرآن تُعُبِّد بتلاوته، وتُحُدِّي بأقصرِ سورة منه، وله أحكام أخرى معروفة، وهذا لم يُتَعبَّدْ بتلاوته، ولم يُتَحَدَّ به، ولم يكن مُعجِزًا.

(**مؤمنٌ بي**): قَصد به ما فسَّره بمن قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته، وهذا قول لا بد أن يَصدُر عن اعتقاد، فيكون إيمانًا، وهذا دليل على أن القول، والفعل، والعلم، كلَّها إيمان؛ ولهذا عَرَّف أهل السنة الإيمان بأنه: «عقيدةٌ، وقولٌ، وعملٌ»، فمجموع هذه الثلاثة هو الإيمان، وإذا تخلَّف واحد منه فُقِد الإيمان.

والمقصود بالحديث: إضافةُ النِّعمة إلى الله، ثم شكرُه عليها، واستعمالها في

فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ الله وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي كَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ».

وَلَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ مَعْنَاهُ، وَفِيهِ: «قَالَ بَعْضُهُمْ لَقَدْ صَدَقَ نَوْءَ كَذَا وَكَذَا فَأَنْزَلَ الله هَذِهِ الْآيَاتِ:..

طاعته؛ هذا الواجب على كل أحد، قد أنعم الله عليه نعمة، يجب أن يُضيفها إلى الله، وأن يشكره عليها، وأن يستعملها في طاعة الله جل وعلا، وإلا أخذ نصيبًا من الكفر إن لم يفعل ذلك.

(**كافرٌ بالكَوْكَبِ**): يَدُلُّنا على أن الإيمان والكفر ضِدَّان، إذا وُجِد أحدهما انتفَى الآخر، وأن الكفر يُطلق على العمل، والإيمانُ كذلك يُطلق على العمل، وأن من الكفر ما لا يُخرج من الدين؛ لأن هذا كفر النِّعمة، وهذا كثير في الناس، كل أمر يضاف إلى سببه يكون كفرًا، كقول القائل: لولا الله وفلان لكان كذا، لولا أنه حصَل كذا لكان كذا، وهذا كثيرًا ما يقع، فهو كفر خفِيٌّ، لأن الكفرَ في هذه الأمة والشركَ خفِيٌّ.

(**وأمَّا من قال مُطِرنا بِنَوْءِ كذا وكذا فذلك كافرٌ بي مُؤمنٌ بالكَوْكَبِ**): أي إنه كَفر بنعمة الله جل وعلا، وأضاف النِّعمة إلى مخلوق لا تدبيرَ له ولا تَصرُّف، وهو مُسَخَّر بأمر الله جل وعلا، ليس عنده ضَرٌّ ولا نفع، ولا تقديم ولا تأخير، ولكنَّ الجهل سبب هذا.

﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾[الواقعة: ٧٥] إلى قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ ٨٢﴾ [الواقعة: ٨٢]

(فلا أُقسِم...): «لا» هذه صلة، التقدير: ليس الأمر كما زعمتم، أُقسِم بمواقع النجوم؛ ومواقعها إمَّا أنَّها كما جاء عن ابن عباس: «أنها نجوم القرآن»؛ لأنَّه نزل إلى بيت العِزَّة في السماء الدنيا جملةً واحدة، في ليلة القدر، كما قال جل وعلا: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾، ثم نزل في ثلاثٍ وعشرين سنةً مُنَجَّمًا، فهذه مواقعه، أو يكون المقصود بمواقع النجوم: مَساقِطُها، التي هي الكواكب؛ ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ﴾، فدل على أن مواقعها عظيمة، والمُقسَمُ عليه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾.

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾: مَصون من التبديل والتغيير والزيادة والنقص، فإن الله تولَّى صيانتَه وحفظه.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾: أي إنَّه يجب أن يكون الذي يمسُّه متطهِّرًا من الجَنابة ومن الحَدَث، هذا على القول الصحيح، أما القول الأخير فإن معنى ﴿كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾: في الصُّحُف التي في أيدي الملائكة، (لا يَمَسُّه إلا المُطَهَّرون): الملائكة، ومنهم من قال: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾؛ أي لا يفهمه وينتفع به إلا من طَهُر قلبه.

....

﴿ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: فدل على أن المقصودَ القرآنُ، وليس الذي بأيدي الملائكة، والتنزيلُ يدل على عُلُوِّ الله، وأنه فوق خَلقه؛ لأن التنزيل والنزول يكون من الأعلَى إلى الأسفل.

﴿مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: الرب هو المالك المتصرِّف، والعالمون: كل المخلوقات، أنواعٌ كثيرة لا يخرج منها نَوع، فهو ربُّهم الذي يُرَبِّيهم ويُنعِم عليهم، ويقوم على مصالحهم، ويجب أن يعبدوه، ومَرجِعُهم إليه.

﴿ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾: القرآن.

﴿أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴾: الإِدْهانُ لا يجوز، والإِدهان هو مُداراة العدو بترك بعض الواجب، وارتكاب ما لا يجوز.

﴿ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴾: تقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فهذا الشاهد من الآيات، أن هذا كذبٌ، وهذا الكذب سمَّاه الله جل وعلا كفرًا، فهو كذبٌ مُشتمِل على الكفر.

❁ ❁ ❁

بَابُ

قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]

المقصودُ بهذا الباب تِبيانُ وجوب محبة الله، ومحبةِ من يحبه الله جل وعلا، مثل الرسل، والملائكة، والمؤمنين، ويجب أن يفعل ضد ذلك، وهو: بُغْضُ من يُبْغِضُهُ الله، والكفرِ.

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا ﴾: النِّدُّ هو المِثْلُ ولو في صفة من الصفات؛ ولهذا قال الرجل للنبي ﷺ: ما شاء الله وشِئتَ، قال: «أَجَعَلْتَني لله نِدًّا» أي في المشيئة.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾: يُحبون أندادهم كمحبتهم لله، عندهم محبة لله ولكن هذه المحبة مشترَكة مع محبة الأنداد.

والأندادُ كثيرة، قد تكون حجارةً، وقد تَكون أشجارًا، وقد تكون أمواتًا وأصحابَ قبورٍ، وقد تكون جِنًّا، وقد تكون ملائكةً وأنبياءَ، ولا فرق بينها، كلها يجب ألا يكونَ لها شيءٌ من الحب الذي يكون لله، بل الحب الذي يجب أن يكون لله؛ يجب أن يكون خالصًا لله وحده، ليس منه شيء لغيره، وإلا وقع الإنسان في الشرك، فعلى هذا يجب أن نُبيِّن الحبَ الذي يجب أن يكون لله، والحب الذي يجب

....

أن يكون لعباده المؤمنين، الرسول ومن تبعه.

أقسامُ المحبة:

القسم الأول: محبة مُشترَكة.

وهي ثلاثة أقسام:

أ- محبة الحُنُوِّ والشفقة، كمحبة الوالد لولده الصغير.

ب- محبة الطَّبع، كمحبة الجائعِ للأكل، والظمآنِ للماء.

ج- محبة الاشتراك والمُؤانَسة والأُلفَة، كمحبة الصاحب لصاحبه، الذي يشاركه في عمل ما، إمَّا في النسب أو في الصَّنعة، أو في السفر، أو في المؤانسة... الخ.

فهذه الأقسام الثلاثة لا لَوْمَ على الفاعل فيها.

القسم الثاني: المحبة الخاصة التي يجب أن يُخصَّ بها اللهُ جل وعلا.

وهذه المحبة هي التي تتضمن الذُّلَّ والخوفَ والتعظيمَ، فيجب أن يكون هذا لله وحده، يحبه مع الخوف من عقابه وتعظيمه، ولا يجوز أن يكون من هذه المحبة شيء للمخلوق، فإن جعل منها شيئًا للمخلوق، فهو الذي يكون وقع في هذا الأمر، أن جَعل لله نِدًّا يحبه كحب الله، وإن كان هذا الحب أقل من حبه لله،

....

وحبُّ الذُّلّ والخوف والتعظيم حبُّ شركٍ، ويكون صاحبه مشركًا الشركَ الأكبر، الذي عقابُ صاحبه كما في آخر الآيات ﴿وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾، وكما قال في الآية الأخرى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١١٦)﴾[النساء: ١١٦] .

وكما ذكر حالَ الذين في جهنم، يلومون أنفسهم، ويخاطِبون من جعلوا لهم نصيبًا من هذه المحبة: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)﴾ [الشعراء: ٩٧ – ٩٨] ، هل سَوَّوْهُم في الخلق والإيجاد والتدبير؟ لا، ولكنهم سووهم في الحب فقط، فصاروا في جهنم من أجل ذلك، وأقرُّوا على أنفسهم أنهم كانوا في ضلال مبين، ولكنَّهم لا يعقلون في ذلك الوقت، وإنما عَقِلوا وشَعُروا في جهنم، حين فات الأوانُ.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]: الذين آمنوا جَمعوا حبهم لله وحده، ولم يتفرَّق، ولم يجعلوا نصيبًا للمخلوقات، فكانوا أشدَّ حبًّا لله جل وعلا من هؤلاء لله، هذا هو الصحيح، القول الثاني: أنهم أشدُّ حبًّا لله من هؤلاء لأندادهم.

وَقَوْلِهِ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: ٢٤]

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ....﴾. هذه ثمانيةُ أشياءَ، وهي عبارة عن الدنيا كلها، الآباء والأبناء، والإخوان، والزوجات، والعشيرة، والأموال المُقْتَرَفة، والتجارة التي يُخشَى كَسادُها، والمساكن المَرضِيَّة، هذه الدنيا كلها، إذا كانت عند الإنسان أحب إليه من الله ورسوله، ومن الجهاد في سبيله، فهو فاسق، فلينتظِر ما يَحِلُّ به من عذاب الله جل وعلا، وعلى هذا فالحب الذي لله تعالى يجب أن يكون خالصًا، ثم إن هذا يَدُلُّنا على أن الله جل وعلا يجب أن يُحب محبة العبادة؛ وهذا هو معنى التَّألُّه، معنى قولك: لا إله إلا الله، فالمألوه هو المحبوب، حبَّ الذُّل والخوف والرجاء والإنابة، وبعض الناس يُنكِر هذا، يقول: المحبة تكون للمُجانَسة، ولا مجانسة بين الخالق والمخلوق، وهذا إنكار لأصل الإسلام، أمَّا كون الله يُحِب فهذا أكبر، وإنكاره عندهم أظهرُ، وقد ذكر الله جل وعلا أنه يحب عباده المؤمنين ويحب المتقين، ويحب المتطهرين، ويحب التوابين، ويحب المحسنين، ويحب الذين يقاتلون في سبيله صفًّا كأنهم بنيان مرصوص، وغير ذلك، وإنكارُ ذلك إنكارٌ لما ثبتَ بالوحي، واتفقتْ عليه الرسلُ، وأجمع عليه

....

المسلمون الذين لم تنحرف فِطَرُهم وعقائدهم عن الحق.

والمقصود بإيراد المؤلف هذه الآيات أن يُبيِّن أن حب الله يجب أن يكون خالصًا، ليس لأحد منه شيء، ويجب أن يُميَّز حبُّ الله من حب عباده، مثل حب الرسول ﷺ، يميز بين هذا وهذا، فحب الله جل وعلا حب ذُلٍّ وخوف ورجاء وعبادة، أما محبة الرسول ﷺ، ومحبة المؤمنين، فهي تَبَعٌ لمحبة الله، تُكمِّلُها، وهي محبة لله وفي الله، تحبه؛ لأن الله أمرك بحبه، ولكنه ليس حب عبادة، وإنما حبٌّ لله، تحبه لأجل أنه يحب الله ويطيع الله، ولأجل أن الله أمرك بذلك، ثم نقول: إنه لا يُحَب شيء لذاته من الخلق أصلًا، إلا الله وحده، هو الذي يحب لذاته، أما المخلوقات فتُحَب لصفاتها التي تكون بها، فتُحِب الرسول لأنه رسول، لأن الله أرسله إليك وأنقذك بسببه، ولأن الله يحبه، وهكذا محبة المؤمن، هذا خلاف المحبة التي ذكرنا أنها أقسامٌ ثلاثةٌ.

والأبناء، والآباء، والإخوان، والزوجات، والعشيرة، والأموال، والتجارات، والمساكن، هذه معروفة ظاهرة جدًّا، وهي الدنيا كلها، إذا كانت هذه عند الإنسان مقدَّمة على محبة الله، ومحبة دينه، والجهاد في سبيله، فهو ليس من المؤمنين المتَّقين، الذين يَسْلَمون من عذاب الله، بل هو فاسق، خارج عن طاعة الله جل وعلا، وهل يلزم أن يكون كافرًا؟ قد يكون كافرًا وقد لا يكون كافرًا، ولكنه

عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ : «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أَخْرَجَاهُ.

من أهل العذاب، الذين يَتعرَّضون لعذاب الله جل وعلا، وقد يكون في هذا صعوبة على كثير من الناس؛ لأن كثيرًا من الناس إذا أُمِر بالجهاد لا يجاهِد، خوفًا من الموت، أو مفارقةِ الدنيا، فحب الجهاد أكثرَ من الدنيا لا يحصُل لكل أحد، والذي يحب الدنيا أكثر من الجهاد يَنتظِر ما يحِل به ﴿إِنَّ اللهَ لا يهدِي القومَ الفاسِقين﴾ فهو فاسق من أصحاب الوعيد، ولا يلزَم أن يكون كافرًا، وإذا ستر الله عليه ومَنَّ عليه قد ينجو، أما مثل هذا إذا كان بهذه الصفة، فإنه إذا امتُحِن وابتُلِيَ بمن يُلقِي عليه الشُّبَهَ والشكوكَ، فإنه ربَّما يخرج من الدين؛ لأن الدين لم يَثبُت في قلبه الثباتَ المطلوب؛ لأن ثباته أن يكون الله جل وعلا مقدَّمًا على كل شيء، ومحبته محبة دينه، ثم رسوله ﷺ، يُحِبه لله جل وعلا وفي الله، والمحبة التي تكون للمخلوق محبة لله وفيه، وليس محبة معه، فالمحبة التي تكون مع محبة الله تكون محبة شركية.

قوله: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ ......).

(لا يُؤمِنُ): لا نافية بالاتفاق، أي: لا يَحصُل الإيمانُ الواجب وليس المستحب؛ لأنه لم يُعهَد في شرع الله أن يُنفَى الواجبُ بنفِي مستحب، هذا لا يوجد، فلا بد أن يكون المنفِيُّ هو شيئًا واجبًا، إذا تركته تكون مستحِقًّا لعذاب

وَلَهُمَا عَنْهُ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ ....

الله، إن لم يغفرْ الله جل وعلا لك، أما الذي يقول: إن المنفِي هو المستحب، فهذا يكون مخطئًا في هذا خطأً ظاهرًا، لا يؤمن أحدكم الإيمانَ الواجب عليه، الذي يمنعه من عذاب الله، حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده ونفسه أيضًا، كما في حديث عمر، والناس أجمعين، الدنيا كلها، لا بد أن تُقدَّم محبتُه على محبة كل شيء، فلينظر الإنسان هل هو هكذا؟ أم أن محبة ولده مُقدَّمةٌ على محبة الرسول ﷺ؟ فضلًا عن نفسه، قال عمر ﷺ: يا رسول الله، والله لَأَنْتَ أَحَبُّ إليَّ من كل شيءٍ إلا من نفسي، قال: «لا حتى أكونَ أحبَّ إليك من نفسك»، قال: والله لَأَنْتَ الآن أحبُّ إلي حتى من نفسي، قال: «الآن يا عمر» أي: الآن فعلتَ الواجبَ، الآن وصلتَ إلى الواجب.

وإذا كانت محبة الرسول ﷺ يجب أن تكون مقدَّمةً على هذه الأمور كلها، فمحبة الله أولَى، فهي محبة عبادة، أما هذه فهي مُكمِّلةٌ لمحبة الله، فمحبة الله لها مُكمِّلات، ولها دوافعُ، وموانعُ، ومحبة الله محبة ذُل وتعظيم وعبادة، أما محبة الرسول، فهي محبة في الله ولله، مكملة لمحبة الله.

قوله: (**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ، وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ** ...). هذه الثلاثُ إذا وُجدَت في الإنسان، وَجَد بهنَّ حلاوةَ الإيمان، فدَلَّ على أن الإيمان له حلاوةٌ، وأن

مِمَّا سِوَاهُمَا ....

الإنسان قد يجد هذه الحلاوةَ وقد لا يجدها، كثير من الناس لا يجد الحلاوة، والحلاوة في الواقع حلاوة حقيقية، وهي حلاوةُ طاعةِ الله جل وعلا، واللُّجوءِ إليه، والاسْتِغْنَاءِ به عن كل شيء، فتكون ثمرتها أنه يحب ما يحب الله، ويكره ما يَكرَهه الله، والله جل وعلا يحب رسولَه، ويحب عباده الصالحين، ويجب على العبد أن يحب الرسول أكثرَ من محبته لنفسه؛ لأن الله يحبه أكثر من ذلك.

(مما سِوَاهُما): الضمير يعود إلى الله، وإلى الرسول، وقد جاء في صحيح مسلم، أن رجلًا خَطَبَ عند النبي ﷺ، قال: مَنْ يُطِعِ الله ورسولَه فقد رَشَدَ، ومن يَعْصِهِمَا فقد غَوَى، فقال: «بِئْسَ الخطيبُ أنت، قل: ومَنْ يَعْصِ اللهَ ورسولَه»، هنا جَمَعَ بين الضميرين؛ فأنكر الجمع بينهما، والجمع بين هذا الحديث والحديث الذي فيه الإنكار أن في هذا قال: «أحبَّ إليه مما سِواهما» إذا أحب الله فإنَّه يلزَم أن يكون مُحِبًّا لما يحبه الله، بخلاف المعصية، فإن معصية الله ومعصية الرسول، كل واحدة منهما تستقِل بالهلاك؛ ولهذا أنكر الرسول ﷺ على من جمع بينهما، فيكون هذا جوابًا، وجوابٌ آخر أن يقال: إن الأصل هو ما ذُكر في صحيح مسلم، وهذا خارج عن الأصل، فيكون في هذا الجواز، ولكن هذا يحتاج إلى معرفة التأْريخ، أو يكون ذاك من باب الأدب، وهذا من باب الجواز، وهذا جواب ثالث، فعلى هذا تكون الأجوبة ثلاثة.

وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لله ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ الله مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ».

وَفِي رِوَايَةٍ : «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى» إِلَى آخِرِهِ.

(وأنْ يُحِبَّ المَرءَ لا يُحبُّه إلا لله): أي لا يحبه لأجل منافعِ الدنيا، ولا من أجل أن له صلة به، وإنَّما يحبه لأنه يُطيع الله، وعلامة ذلك أن هذا الحب لا يَتغير بالجفاء، ولا بالقُرب، ولا ببَذْل معروف ولا قَطْعِه، يبقى كما هو؛ لأنه لله، بخلاف ما إذا كان الحب لمصالحَ، فإنه يَتغير.

(وأنْ يَكْرَهَ أنَ يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ إذْ أَنْقَذَهُ اللهُ منه، كَما يَكْرَهُ أنْ يُقذَفَ في النَّارِ): المؤمن يُقدِّم قَذْفَه في النار على عَوْدِهِ إلى الكفر؛ لأن الحياة هذه لا بد أن تَنقَضِي وتَنتهي، أما حياة الآخرة إذا اشترَى الكفر فإنه يَبقَى مُعذَّبًا دائمًا وأبدًا، هذا شيءٌ، الشيءُ الآخر: أنه يَختار ما اختاره الله على مَكارِه النفوس، ويُقدِم على ما فيه أشد الألم، مُؤثِرًا طاعةَ الله في ذلك.

(وفي رواية: لا يَجِدُ أحدٌ حَلاوة الإيمانِ حتَى يَكونَ...): هذا فيه نفي الوجود حتى يتحلَّى بهذه الثلاثة، فدلَّ على أن هذه الحلاوة قد يجدُها الإنسان وقد لا يجدها، وكثير من الناس لا يجدها، وهي حلاوة حقيقية، وليست حلاوة عقلية كما يقوله المُؤَوِّلون.

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «مَنْ أَحَبَّ فِي الله، وَأَبْغَضَ فِي الله، وَوَالَى فِي الله، وَعَادَى فِي الله، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ الله بِذَلِكَ، وَلَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الْإِيمَانِ - وَإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وَصَوْمُهُ - حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ، وَقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وَذَلِكَ لَا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا». رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾[البقرة: ١٦٦] قَالَ (الْمَوَدَّةُ).

(مَنْ أَحَبَّ في الله وأَبْغَضَ في الله، ووالَى في الله، ....): أي يُحِب لله، ويُبغِض لله، ويوالِي في الله، ويعادِي في الله.

(وقد صارتْ عامةُ مُؤَاخَاةِ الناسِ على أمرِ الدُّنيا): وذلك لا يُجدِي لأهله شيئًا ولا يَنفع، بل يَقطع ويَنتهِي، ويعود بالمَضَرَّة، ويُصبح بعضُهم لبعض عدوًّا، كما قال الله تعالى: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ الذين يتحابون في الله، كما جاء في حديث السَّبعة: ومنهم «رجلان تحابَّا في الله، اجتمعا عليه وافترَقا عليه»، فإنَّ الله تعالى يُظِلُّهم في عرشه يوم لا ظِلَّ إلا ظِلُّه.

وحلاوة الإيمان لا يجدُها إلا المؤمن المخلص، وقد لا يجدها الإنسان ومع ذلك يكون مؤمنًا، لأن المؤمنين طبقاتٌ.

(﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾، قال ابن عباس: المَوَدَّةُ): المودةُ التي كانت

....

بينهم في الدنيا، انقطعت وانتهت، بل عادت عداوةً، وكل مودة في المعصية وفي غير طاعة الله، سوف تكون عداوة، وستكون مَضَرَّةً على صاحبها فيما بعد، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

بَابُ

قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٧٥] .

مقصود المؤلف في هذا الباب أن يُبيِّن أن الخوفَ من الله فريضةٌ، يجب أن يكون خالصًا لله جل وعلا، وألَّا يكون لمخلوق منه شيء، فمَنْ خالف في ذلك، فقد وقَعَ في الشرك.

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾: إشارة إلى ما جاء في سبب نزول الآية، فإن الأحزاب لَمَّا انصرفوا من وَقْعَةِ أحدٍ، وصاروا في أثناء الطريق، تَلاوَموا، وقالوا: كَسَرْنا شَوْكَةَ القوم ولم نَقْضِ عليهم، لو رجعنا وأجْهَزنا عليهم!، فمرَّ عليهم رَكْبٌ، فقال لهم أبو سفيانَ -وهو أمير القوم-: هل أنتم مُبَلِّغون محمدًا عني رسالةً؟ أنَّنا أجْمَعْنا الكَرَّةَ عليهم لِنَسْتَأصِلَهم؟ فلمَّا جاء الخبرُ قال رسولُ الله ﷺ: «قولوا: حسبُنا الله ونعم الوكيل»، فقالوها، ثم أَمَرَ ﷺ، أن يَخْرُجوا بأَثَرِهم، ولا يَخرُج إلا مَن حَضَرَ الوَقْعَةَ، فخرج سبعون رجلًا بآثارهم، حتى بلَغوا حَمْرَاءَ الأَسَدِ، وألقَوُا الخوفَ في قلوب المشركين، وأسرعوا قاصِدينَ مكةَ، فأنزل الله جل وعلا ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ ، فدلَّ على أنه يجب أن يكون الخوف لله خالصًا، وألا يكون لمخلوق، والخوفُ ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

....

١- خوف غَيبي.

أن يخاف الإنسان مِن غائب، مثل المقبور في قبره، أو البعيد، أو الجِنِّيِّ، أو الذي ليس حاضرًا عنده، كما ذكر الله ذلك عن المشركين الذين قالوا لهودٍ ﷺ: ﴿إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ﴾؛ أي أصابك بالخَبَل والجنون، فقال: ﴿إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴿٥٥﴾﴾ [هود: ٥٤ - ٥٥]، وقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: ٣٦]؛ من مَعبوداتهم، وهكذا عُبَّادُ القبورِ، يخافون منها، ويُخَوِّفون بها، إذا نهى الإنسان عن عبادتهم، قالوا: أنت لا تخاف الأولياءَ؟ فهذا الخوف شرك بالله جل وعلا، شرك أكبر، يخرِج الإنسانَ من دين الإسلام، هذا قسم، وهو المقصود في هذه الآية.

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾: أي يُخَوِّفُكم بأوليائه، يقول: إنَّهم أصحاب القوة، وعندهم استعدادٌ وعُدَّة، وإنهم سوف يفعلون ويفعلون، والواجب ألا يَخافَ، إذا كان الإنسان لا يَخافُ إلا ربَّه فلنْ يَضُرُّوه؛ لأنه جل وعلا يَحمِي عبدَه الخائفَ منه.

﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾: اجعلوا الخوفَ لي وحدي، ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: هذا شرطُ وجودِ الإيمانِ؛ أن يكون الخوف لله جل وعلا وحده.

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ١٨] .

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[العنكبوت: ١٠] .

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾: الكفار يقولون: إنَّهم هم الذين عَمَروا الكعبةَ، وعَمَروا البيتَ الحرامَ، وعَمِلُوا وعَمِلُوا، فأخبر -جل وعلا- أن الذي يَعمُر المساجدَ هو المؤمنُ؛ لأن عِمارة المساجد بطاعة الله تعالى، وليس ببنائها فقط، فالبناء قد يَحصُل من المؤمن ومن غيره، ولكن العِمارة الحقيقة تكون بطاعة الله جل وعلا، وتسبيحه، وتكبيره وتهليله، والإخلاصِ له في العبادة، في مساجده التي أَمَرَ أن تُرفَع ويُذكَر فيها اسمه.

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: هذا هو الشاهد من الآية، والخَشْيَةُ هي الخوفُ، أي صارت خشيته لله وحده، فدل على أن هذه فريضةٌ، يجب أن تكون خالصةً لله، ومن جعل منها شيئًا لغيره، فقد وقع في الشرك.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾: هذا لا يَخْلو منه أحدٌ، فإن الأذى والعذاب في هذه الدنيا مُلازِم للإنسان، ولا يمكن أن يَسْلَمَ منه أحدٌ، ولكن قد يَخِفُّ، وقد يَعظُمُ، وسنة الله ﷻ أنه إذا أرسل

....

الرسولَ انقسم الناسُ إلى قسمين: قسم يَكفُر بالله وبرسله، ولا يتابعهم، هذا لا كلامَ فيه، والقسم الثاني يقولون: آمنَّا، فهؤلاء لا بد أن يُبتَلَوا ويُختَبَروا، حتى يَتبيَّن من يَثبُت على الإيمان ويَصدُق في قوله، ومَن يَترك الإيمانَ وينحرف عنه، ويكون خوفه من الناس أشدَّ من خوفه من الله، فيَعتَاضُ بنار جهنمَ من أذَى الناس، فيكون مثل الذي فرَّ من حَرِّ الرَّمضَاءِ إلى حَرِّ النَّار، ولا بد.

﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾: المؤمن لا بد أن يَنالَه من الكافر الأذَى أو العذاب، لا بد؛ لأن الله جل وعلا أخبرنا أنه لَمَّا خَلَق آدمَ، وأنزله إلى الأرض، جعل ذريته بعضَهم لبعض عدوًّا ﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾، فالكافر عدوُّ المؤمن، ولا بد أن يظهر هذا، فإذا صالحه المؤمنُ وداراه وداهَنَهُ، فمعنى ذلك أن إيمانه إمَّا ذاهبٌ، أو أنه ضعيف لا يقوَى على دفع العذاب.

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾: أي إنه يَترك إيمانه، ويوافق المخالفَ، حتى يَسْلَم من أذيَّته أو من عذابه، ثم بعد ذلك سوف يُسَلط الله عليه من تَرَكَ أمرَ الله من أجله، سنةُ الله، هذا كله في القسم الأول، الذي يجب أن يكون خالصًا لله جل وعلا، وهو الخوف الذي يكون في أمور، إمَّا ظاهرةٍ بأن يَعتَاض بمُداراة الناس ومداهنتِم عذابَ الله وخوفَه، هذا قد يكون كفرًا، وقد يكون معصيةً، أو يكون الخوفَ الغَيبِي الذي سبق ذكره، وهذا لا يكون إلا من المشرك، فإذا وقع فيه

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ ﷺ مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، ....

الإنسان فهو مشرك بالله جل وعلا، أما الثاني: الذي هو تركُ أمر الله أو ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفًا من الناس، فهذا أيضا يكون معصيةً، قد يكون شركًا أصغرَ، لا يُخرِج الإنسانَ من الإسلام، وهذا جاء فيه الحديثُ: «إن اللهَ يسألُ العبدَ يومَ القيامةِ، رأيتَ كذا وكذا، ولم تأمرْ بالمعروفِ، ولم تَنْهَ عن المنكرِ، فيقولُ: خِفتُ الناسَ، فيقول اللهُ جل وعلا: أنا أحقُّ أن تخافَنِي»، فهذا نقصٌ في التوحيد، وقد يكون في ذلك ذَهابٌ لكمال التوحيد، وقد يَتمادَى ويَذهب بالتوحيد كله.

القسم الثالث: الخوف الطَّبيعي، الذي يكون لأسبابٍ ظاهرة، كمن يخاف من سَبُعٍ، أو حائط يسقط عليه، أو ما أشبه ذلك، فهذا لا ضَيْرَ على الإنسان فيه.

قال الله جل وعلا: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾، أي يخاف تنفيذَ الكافرين ما يستطيعون تنفيذَه، فالخوف من الأسباب الظاهرة، يكون من هذا القَبيل.

عن أبي سعيد ﷺ مرفوعًا: «**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ، وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ**»: هذا الحديث ضعيفٌ، ولكنَّ معناه صحيح.

(**إِنَّ مِنْ ضَعْفِ الْيَقِينِ**): أي من ضعف الإيمان.

(**أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ**): أن تترك أمرَ الله لأجل الناس، أو ترتكب مُحَرَّمًا حتى توافق مرادَ الناس؛ لأن الإنسان في هذه المجتمعاتِ لا بد أن يكون مع

وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ الله، وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ الله.....................

من له تصوُّرات وله مراد، فإذا خالفتْ تصوُّراتِ الناس ومُرادَهم آذَوْكَ، وذَموكَ، فإذا كانت هذه التصورات من مَساخِط الله ومعاصيه، ووافقهم الإنسانُ، فهذا دليل على ضعف إيمانه، ورضا الناس غايةٌ لا تُدرك، لا يمكن للإنسان أن يأتِيَ برضا الناس كلهم، هذا مستحيلٌ، فالحَزْم أن يُسخِط الناس برضا الله، ولا يُبالِي بِهِم، ويَصبِرَ على أذاهم، فإن العاقبة للمتقين، كما أخبر الله تعالى، في الدنيا وفي الآخرة، والعاقبة للتقوى.

(**وَأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ الله**): مَنْ كان سببًا تَحمَدُه على ذلك، الرزقُ من الله، واللهُ الذي سبَّب الأسبابَ، وهذا لا يُنافي كونَك تشكر له، وتقوم بالواجب نحوه؛ لأنه مَن لم يَشكُرِ الناسَ لا يشكر الله، و«إذا أحسنَ إليكم أحدٌ فكافِئوه، فإن لم تجدوا ما تكافِئونَه فادعوا له حتى تَروا أنَّكم قد كافأْتُموه»، ولكنَّ كونَه يحمدُهم، ويرى أن هذا جاء منهم، فهذا لا يجوز؛ لأن الأمر كله من الله، وإنَّما هم سببٌ أو جزءٌ من سبب، فتشكرُ الله تعالى وتحمده على الرزق، وتُعطِي الناسَ حقَّهم.

(**وَأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ الله**): قد يكون إنسانٌ سببًا لمنعِك من شيء من المنافعِ، هذا لو قدَّره الله لك لأتى، ولكن الله ما قدَّره، فيجب أن تؤمن بالله جل وعلا، وتشكرَه على ذلك، ولا تذمَّ الناس، غيرَ أنه لا يجوز أن يترُكَ الإنسان حقوقَه لأجل فلان أو فلان، أو يترك الحقَ اتِّكالًا على أنه لن يَضيع، عليك أن

إِنَّ رِزْقَ الله لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».

وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ النَّاسِ؛ ﵁ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخَطِ الله سَخِطَ الله عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ» رَوَاهُ ابْنُ حِبَّانَ فِي «صَحِيحِهِ».

تبحث عن حقك، طالِبْ به، لكن بالطرق الشرعية، وإذا لم يَتَحصَّل لك فلا تذمَّ الناسَ، وإنَّما تعودُ إلى ربك جل وعلا، وتشكره على توفيقه وتدبيره، فهو الذي قدَّر الأمور، ولا يقع إلا ما يريدُه الله جل وعلا.

(**إِنَّ رِزْقَ الله لَا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ، وَلَا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ**): فرزقك مكتوبٌ، وأنت في بطن أمك، لن يَزيد ولن يَنقُص، كما ثبت ذلك في الصحيحين، يقول ﷺ: «يُجمَع خَلقُ أحدِكم في بطن أمِّه أربعينَ يومًا نطفةً، وأربعينَ يومًا علقةً، ثم أربعينَ يومًا مُضغةً، ثم يُرسَل إليه المَلَكُ، فيَنفُخ فيه الرُّوحَ، ويَكتُب رزقَه، وأجلَه، وعملَه، وشقِيٌّ أو سعيدٌ»، فلن يزيد على هذا شيئًا، لا الأجلُ، ولا العمل، ولا الرزق، لن يُغيِّر المكتوبَ.

(**وَعَنْ عَائِشَةَ ﵂ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: (مَنِ الْتَمَسَ رِضَا الله بِسَخَطِ النَّاسِ؛ ﵁ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضا النَّاسِ بِسَخَطِ الله سَخِطَ الله عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ**): هذه سُنَّة الله جل وعلا، وجزاؤه، فالذي يكون رضا الله هو مقصودُه، وهو الذي يسعى له، فإنه وإن حَصَل لـه ما حَصَل من الكـلام

....

عند الناس والأذَى، فهذا شيء لا بد منه، ولكن في العاقبة سوف يَرضَى اللهُ عنه، ويُرضِي عنه الناسَ، في عاقبة الأمر؛ لأن العاقبة للتقوى، ولا يَلزم أن يكون من أول وَهْلَة، وبالعكس، من أرضَى الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس، فصاروا أعداءَه، قد يكون في مبدأ الأمر، وقد يكون في نهايته، أما في النهاية فلا بد منه، فالحَزْمُ وقوة الإيمان أن يكون مَقصِدُ الإنسان رضا رب العالمين، سَخِطَ الناس أو رَضُوا، فكل ما فوق الترابِ ترابٌ، فإذا رضي الله جل وعلا عنك، سخَّر لك ما في السماوات وما في الأرض.



بَابٌ

قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]

وَقَوْلِهِ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] الْآيَةَ.

مقصود المؤلف رحمه الله، أن يُبين أن التوكل يجب أن يكون لله خالصًا، ولا يكون لأحد منه شيءٌ مهما كان؛ لأن التوكل عبادة كالصلاة، الصلاةُ لا تُصلَى لله ولفلان، وإلا كان الإنسان مُشركًا الشركَ الأكبر، فكذلك التوكل؛ ولهذا قدَّم ما حقُّه التأخير، ليَدُل على الحَصر، أن التوكل يجب أن يكون محصورًا لله وحده، فلا يكون لأحد منه شيءٌ، قال ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، مثلما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ أي: لا نعبد إلا إيَّاكَ، ولا نستعين إلا بك، فكذلك التوكلُ، لا نتوكل إلا عليك، فدل على وجوب كون التوكل كله لله خالصًا.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: دلَّ على أن التوكل فريضة، يجب أن تكون خالصةً لله جل وعلا، ولا يكون لأحد منها شيء، والتوكلُ هو فعلُ السبب، واعتمادُ القلب على الله في حصول المُراد، أن تفعل الأسبابَ الشرعية التي أُمِرتَ بها، وتَعتمِد على ربك جل وعلا، في أنه يُيَسِّر لك ويُهَيِّئُ ما سَعَيتَ إليه، تفعل الأسباب وتعتمد على الله في حصول المُسبَّبات، هذه حقيقة التوكل، أما أن يَترك السببَ ويَتوكلَ على الله، فهذا عجزٌ، ولا يجوز للمؤمن أن يكون توكله عجزًا، بل يجب أن يكون قويًّا، كما جاء في الحديث الذي

....

رواه مسلم: «المؤمنُ القويُ خيرٌ وأحبُّ إلى الله من المؤمنِ الضَّعيفِ»؛ والقويُّ هو قوي الإيمان، وليس قويَّ البدن.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾: حَصْرٌ للمؤمنين في المذكوراتِ بعدُ.

﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾: وهذا الإيمان الحقيقي، الذي يَمنع حصولَ العذاب لمن اتَّصف به، وإلا كان المؤمن أقلَّ من ذلك، قد يكون يذكر اللهَ ولا يَجِلُ قلبُه، ولكن المؤمن الحقيقي إذا ذُكِر اللهُ وَجِلَ قلبُه، ومعنى وَجِلَ: خاف، أي خافت قلوبهم.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ ، الآيات القرآنية، إذا سمِعوها عَمِلوا بها، فزادوا إيمانًا، عَمِلوا بما عَلِموا، فهم يَعلمون أولًا ثم يَعملون.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾: يَعتمدون على ربِّهم في حُصول إيمانهم، وحصول مقصودِهم، وحصول كل مرادٍ لهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، المعنى اللهُ كافيك، وكافي أتباعِك المؤمنين، لا يجوز أن يكون المعنى حَسْبُك الله والمؤمنون، فإن هذا شركٌ؛ لأن الحَسْبَ هو الكِفاية، ولا يكون إلا من الله جل وعلا، لا يكون من الخَلق، فالله هو حَسْبُ عبدِه؛ ولهذا يقال ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ فالحسبُ

وَقَوْلِهِ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] قَالَهَا إِبْرَاهِيمُ عليه السلام حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَقَالَهَا مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ الْآيَةَ، رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ.

هو الكافي.

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾: جعل التوكلَ جزاءَه؛ أن الله يَكفي المتوكلَ بنفسه، ما ذَكَرَ أنه يكون له ثواب كذا وكذا، بل ذَكَر أنه هو كافيه، ومن كان الله حسبه أفلَحَ وأنجَحَ وسَعِد.

قال: عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾، قالها إبراهيمُ ﷺ حين أَلقِيَ في النّار، وذلك في قول الله تعالى: ﴿قُلْنَا يَـٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَـٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَـٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [الأنبياء: ٦٩ - ٧٠] فجعل النارَ العظيمةَ رَوْضَةً يُصلِّي فيها، هذا من آيات الله الظاهرة، ومع ذلك لم يؤمن الكافرون، تمادَوْا بكفرهم، وقد حصل في بعض هذه الأمَّة مثلما حصل لإبراهيمَ، حصل لمسلم مع الأسودِ العَنْسِي، لما ألقاه في النار صارت عليه سلامًا.

قال: وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

....

فأثنى عليهم لأنهم اكتفَوْا بربهم جل وعلا الذي هو حَسيبُهم؛ لأن إيمانهم كامل، فدعاهم إلى هذا وحملهم عليه، فأثنى الله عليهم، وجعل جزاءَهم أنه هو الذي يَتولَى كفايتَهم، ويحميهم، ومن سلك هذا الطريقَ فإنه يكون قد سار خلفَ رسول الله ﷺ، وخلف إبراهيم، اللذين يجب أن نَقتدي بهما، قال جل وعلا: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ}، والذين معه هم الرسل وأتباعهم، فيجب على المؤمن أن يكون كذلك، يتوكل على الله ويعتمد عليه، أمَّا الذي يجوز من ذلك، فهو التوكيل، فلا يجوز أن تقول: وكَّلتك على كذا واعتمدتُ عليك، لأنه يجب أن يكون الاعتماد على الله، والتوكيل هو تفويضٌ لأمر من الأمور إليه، وهو يستطيع أن يفعله، قد يكون قائمًا به وقد لا يكون، فلا يجوز أن تقول: توكلت على الله ثم عليك، لأن التوكل يجب أن يكون لله كله، مثلما أنه لا يجوز لك أن تقول: صَلَّيت لله ولك.

❋❋❋

بابُ: قولِ الله تعالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف: ٩٨].

....

لما ذكر اللهُ -جل وعلا- إرسالَ الرسل في سورة الأعراف، أولهم نوحٌ، وختمهم بشعيبٍ، وموسى بعده، أخبر أنه إذا لم يستجيبوا فإنَّ الله يَبتَليهِم بالرَّخاء، فإذا اطْمَأَنُّوا وأَمِنوا جاءَهم العذابُ بَغتةً، فأخبر جل وعلا أنهم يَأمَنون مكرَ الله عند الرَّخاء والنِّعم، ولا يَرون أن هذا مكر من الله جل وعلا؛ ولهذا جاء عن السلف، كالحسن وغيره: «إذا رأيتَ الرجلَ مُقِيمًا على المعصية، ونِعَمُ الله تَزدادُ عليه، وهو لا يرَى أنه يُمكَرُ به فلا رَأي له»، فالمكر هو أن يأتيه العذابُ من حيث لا يستعد له، ولا يرجع عما هو فيه، وقد قال الله في أصحاب القُرَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾؛ أي أنهم أمِنوه ولم يَرْعَوُوا ويَرجعوا عن غَيِّهم وباطلهم، هذا هو معنى أَمْنِهم من مكر الله، فيأتيهم العذاب بَغتةً كما في الآية.

والمقصود بالباب وجوبُ الخوف من الله تعالى، وأن الإنسان يراقب نفسَه، ولا يأنَس بما يفعله ويستمر عليه من المخالفات، فإن فعل ذلك واستمر؛ فهو يُمكَر به وهو لا يدري، فالواجب أن الإنسان يكون مُراقِبًا لربه، خائفًا من ذنوبه، فيَرجِع عما فعل، ويقابِل هذا: القُنوطُ من رحمة الله.

وقولُه: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر: ٥٦].

قال: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾.

لما جاءت الملائكةُ إلى إبراهيمَ، بصفة ضيوف، فبشَّروه بإسحقَ، فقال: ﴿أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰٓ أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾، العادةُ أن الإنسان إذا هَرِمَ وكَبِرَتْ سِنُّه لا يأتيه ولد، ﴿ قَالُوا۟ بَشَّرْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾، والقنوطُ هو شدَّةُ اليأس، وهذا من الكبائر التي تَذهب بكمال التوحيد الواجب، كما أن الأمن من مكر الله من الكبائر، التي تُنقِص توحيد الإنسان، وتجعله مُعرَّضًا لعذاب الله، فيجب على العبد أن يكون دائمًا خائفًا راجيًا، كما ذكر الله جل وعلا ذلك عن عباده، فيكون بين الخوف والرجاء، بعضُ العلماء استَحبَّ تقديمَ الخوف في حال الصحة، وتقديم الرجاء في حال المرض وقُربِ الموت؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «لا يَموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِن الظَنَّ بربه»، والله تعالى يقول: «أنَا عند ظَنِّ عبدي بي»، فيحسن الظنَّ بأن الله يعفو عنه، أمَّا كون الإنسان يفعل المعاصي ويترك الطاعات، ويقول: رحمةُ الله واسعةٌ، فهذا غُرورٌ من الشيطان، الشيطان يُزيِّن ذلك، فالعبد يجب أن يسعَى ويعمل جُهدَه وطاقته، ولا يُفرِّط في عمره، ثم يخاف من ذنوبه، ويرجو رحمةَ الله جل وعلا، ويعلم أن الله غفور رحيم، وأن رحمته وسِعت كل شيء، وأنه يحب التوابين جل وعلا، وأنه يَجزِي بالحسنة عَشْرَ أمثالها إلى سَبعِمائة

وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ اَلْكَبَائِرِ؟ ....

ضعف، إلى أضعافٍ كثيرة، أما السيئةُ فجزاؤها سيئةٌ مثلها فقط، والله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ الله لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، المعنى أن العبد إذا فَضَل له من حسناته ما يزيد على سيئاته مثقالَ ذرة، ضاعَفَ اللهُ تعالى هذا المثقال وأدخله به الجنة، هذا فضل الله.

قال: (وَعَنِ اِبْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ سُئِلَ عَنِ اَلْكَبَائِرِ؟ فَقَالَ: «اَلشِّرْكُ بِالله، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله»):

اللهُ جل وعلا أخبر أن الذنوب كبائرُ وصغائرُ، قال: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾، والفصل بين الكبائر والصغائر: أن يُتوعَّد على الذنب بالنار، أو بالعذاب المهين أو الأليم، أو يُرتِّب عليه حدًّا في الدنيا، أو يقال في فاعل الذنب: ليس منَّا، أو يُلعَن، مثل: شاربِ الخمر، والسارق... الخ، فهذا حدُّ الكبائر، فعدُّها هنا بالثلاث أو الأربع أو الخمس أو السبع ليس المرادُ به الحصرَ، وإنما المراد أن هذه المذكوراتِ من الكبائر.

ولهذا قيل لابن عباس: الكبائر سبع؟ قال:«هن إلى السبعين أقربُ»، وفي رواية: «إلى السَّبعمائة أقرب»، وقد عدَّها بعضُ العلماء وأوصلها إلى سَبْعِمائة، وقد تكون أكثر؛ لأن الكبائر تكون بفعل الجوارح، وتكون بفعل القلوب، مثل الكِبْرِ، والتَّرَفُّعِ عن الناس، وما أشبه.

فَقَالَ: «اَلشِّرْكُ بِالله، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله».

وَعَنِ اِبْنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «أَكْبَرُ اَلْكَبَائِرِ اَلْإِشْرَاكُ بِالله وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ الله، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ الله، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ الله» رَوَاهُ عَبْدُ اَلرَّزَّاقِ.

(قال الشِّركُ بالله)؛ لأن الشرك بالله هو أكبر الكبائر، والشرك هو أن يجعل شيئًا من العبادة لغير الله.

(واليأسُ من رَوْحِ الله): أن يَيأَسَ الإنسان ويُبْلِسَ من رحمة الله.

(والأمنُ من مَكْرِ الله): يقابل اليأس، وهذا يدل على وجوب أن يكون العبد خائفًا راجيًا دائمًا.

قال: وعن ابن مسعودٍ ﷺ قال: «أكبرُ الكبائر: الإشراكُ بالله، والأمنُ من مَكْرِ الله، والقُنوطُ من رحمة الله، واليأسُ من رَوْحِ الله»، رواه عبد الرزاق.

الشركُ هو أكبر الكبائر، والقول على الله بلا علم أكبرُ من الشرك، كما دل عليه قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُواْ بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُواْ عَلَى اللهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾، فبدأ بالأخفِّ، ثم خَتَم بما هو أعظم.

(والأمنُ من مَكْرِ الله، والقُنوطُ من رحمةِ الله، واليأسُ من رَوْحِ الله): جعلها كلها من أكبر الكبائر؛ لأنه عَطَفَها بالواو، فالعطْف يدل على المُساواة.

بَابٌ مِنَ الْإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ

....

من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله، الصبرُ نِصف الإيمان كما قال عليٌّ ﷺ وغيرُه، ولا إيمانَ لمن لا صبرَ له.

والصبرُ: الحبس، حبس النفس عن التَّسَخُّطِ، وحبس الجوارح أن تتعدَّى أمرَ الله، وحبس اللسان أن يتكلم فيما لا يجوز.

والصبر يكون على الطاعة، ويكون على الأقدار والمصائبِ، ويكون صبرًا عن المعاصِي، فهو ثلاثة أقسام:

١- صبرٌ على طاعة الله.

٢- صبرٌ على أقدار الله.

٣- صبرٌ عن المعاصي.

ولا بد من الصبر، ومن لم يصبر جرت عليه الأقدارُ وهو كارهٌ، وفَقَدَ الأجرَ والإيمانَ، والصبر هو مَلجَأُ المؤمنين؛ ولهذا قَرَنَ الله الصبرَ بالصلاة ﴿وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾، فيُستَعان به على هذه الدنيا، ولا بد للعبد في هذه الدنيا من المصائب، ولا بد له من المُؤلِمات، فالطريق أن يصبر.

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ الله، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ».

وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ».

قال: (وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾).

قَالَ عَلْقَمَةُ: «هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ، فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ الله، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ».

هذا دليل على أن عمل القلب إيمان، وعمل الجوارح كذلك؛ لأن الرضا عمل القلب، والتسليمَ عمل الجوارح، فإذا أُصيب عَلِمَ أنه مُقدَّرٌ من الله، فرَضِيَ، وسلَّم لذلك، ولم يعتَرِض، فكان هذا زيادة في إيمانه، وجزاؤه أن الله يهدِي قلبه، أي يزيده هدَى، كما هو مذهب أهل السنة، أن الهدى يزيد بالطاعة، ويَنقص بالمعصية، فهذا منه.

قال: (وَفِي «صَحِيحِ مُسْلِمٍ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «اِثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ»).

تقدَّم أن هذا من أمور الجاهلية.

وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ

(هما بهم كفرٌ): يدل على أن الإنسان يَقومُ به كفرٌ ويَقومُ به إيمانٌ، وهو لِمَا غَلَبَ عليه، وإنه وإن قام به شيءٌ من الكفر، لا يكون كافرًا خارجًا من الدين، وفرقٌ بين الكفر المُنكَّر، والكفر المُعَرَّف، إذا جاء الكفر مُعرَّفًا يكون المقصود به الكفر الأكبر، وإذا كان مُنكَّرًا، فهو الكفر الأصغر، الذي هو كفر دون كفر، هذا في الغالب، ولا يلزم أن يكون مُطَّرِدًا.

(والطَّعنُ في النَّسَبِ): تَقَدَّم، يقال: نَسَبُ فلانٍ وَضيعٌ، أو إنه ليس نسبه إلى القبيلة الفلانية، أو الرجل الفلاني.

(النِّياحةُ على المَيِّت): تقدَّم أنها البكاء ورفع الصوتِ، وتَعدَاد المحاسنِ، وأن النائحة إذا ماتت ولم تتب، جُعِل لها سِربَالٌ من قَطِرَان، ودِرْعٌ من جَرَبٍ.

قال: (وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وَشَقَّ الجُيُوبَ وَدَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ).

(ليس منَّا): هذا دليل على أن الذنب من الكبائر، هذا أقل ما يقال فيه، أنه كبيرة، إذ لو أخذنا بظاهره؛ لكان ليس من المسلمين، أمَّا أن يقال: ليس من فعلنا، فهذا لا يجوز؛ لأن هذا تأويل باطل.

(من ضرب الخدود): أي عند المصيبة، كعادة الجاهليين.

(وشقَّ الجيوب): جَيْبُ الثَّوب: الذي يَدخُل منه الرأس، عادتهم أنهم

وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ».

وَعَنْ أَنسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ».

يشقُّونه، فهذا خلاف الصبر، وهو من الجَزَع والتَسَخُّط على القَدَر، وهو كبيرة من كبائر الذنوب.

(**ودعا بدعوَى الجاهلية**): كأن يقول: يا وَيْلَاهُ، أو يا مُصِيبَتاهُ، فهذه دعوى الجاهلية، فمن دعا بدعوى الجاهلية فهو جاهل، وقد ارتكب جريمةً، يَستحِق عليها عقابَ الله إن لم يعفُ عنه.

قال: (**وَعَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «إِذَا أَرَادَ الله بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ، عَجَّلَ لَهُ بِالْعُقُوبَةِ فِي الدُّنْيَا .....**):

هذا دليل على أن في المصائب خيرًا؛ إذ إنَّ فيها تكفيرًا، فإذا أراد بعبده الخيرَ أصاب منه، حتى يُخفِّف من ذنوبه، فتكون المصيبة تكفيرًا للذنوب، أما إذا أَمسك عنه، فلم يُصِبْ منه، وعوفِيَ حتى يموت، فإنه يأتي بذنوبه كاملةً، فيكون أشدَّ لعذابه، وهذا علامةُ كون الله لم يُرِدْ بالعبد خيرًا، فإذا كان الإنسان مريضًا مثلًا، أو فقيرًا، أو مصابًا بالمصائب، فلا يقال: هذا مسكينٌ، فيه وفيه، لا، هذا دليل على أن الله -جل وعلا- أراد به الخيرَ.

وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا اِبْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

ولهذا جاء في حديث الآخر: (**إن عِظَمَ الجزاءِ مع عِظَمِ البلاءِ، وإن الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم، فمن رَضِيَ فله الرِّضا**)،أي من رضي بقدر الله، وسلَّم لربه، وشكره على ذلك، فإن الله تعالى يَرضَى عنه، (**ومن سَخِطَ فله السُّخْطُ**) من الله جل وعلا، وهو كارهٌ، فالعبد يجب أن يكون عبدًا لله، والعبد يَمْتَثِلُ أمرَ سيِّده، ولا يعتَرض على سيده بشيءٍ، بل يرضَى بأمره ويَنقاد له، ويُسَلِّم له، فالتسليم معناه عدم الاعتراض، والرضا فوق هذا، أن يرضَى بذلك، ويقتضِي أن يكون العمل على طاعة الله تعالى، مثل الشكر، يشكرُه، ويحمَدُه، حتى تتضاعف حسناتُه وجزاؤه، والله جل وعلا حكيم عليم، يَبتَلِي العبادَ على قدر إيمانهم، فإذا كان إيمان الإنسان قويًا، كان بلاؤه أعظم، وإن كان ضعيفًا، فإن الله رحيم، إذا أراد بعبده الخير يمنع عنه البلاءَ، حتى لا يخرج من دينه، فالناس يختلفون في هذا، فيجب على العبد أن يفعل ما فيه رضا الله، سواء الأوامرَ، أو المقاديرَ التي تقع، أو المَناهِي، حتى يَسلَم من عذاب الله، وعذاب الله قد يكون في الدنيا وقد يكون في الآخرة، نسأل الله جل وعلا أن يُسَلِّمَنا من عذابه، وأن يرزقنا الصبرَ واليقينَ، والله أعلم.

❊❊❊

بابُ ما جاءَ في الرِّياءِ

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

(بابُ ما جاء في الرِّياءِ): من الوعيد، وأن فاعله خاسرٌ في الدنيا والآخرة.

والرياء: مأخوذٌ من الرُّؤْيَة، وهو مُراءاة الإنسان بعمله، كأَنَّه يريد اللهَ والدارَ الآخرة، وهو يريد وجوهَ الناس والثَّناءَ عليه والمدحَ، فهو خاسر لا يَحصُل على شيء؛ لأنه لا يَحصُل له إلا ما قدَّره الله جل وعلا، ولو كان أخلص عمله لله، لكان خيرًا له في الدنيا وفي الآخرة.

فالرياء: إظهارُ أن العمل لله، وهو لغيره، أو أنه يُضيف إلى العمل تَطويلًا، وتَزيينًا، وتَحسينًا، من أجل نظر الناس إليه، حتى يَحظَى بمدحهم وثنائهم، أو مدحه في المجالس ونحوها، فهو يريد بذلك وجوهَ الناسِ، هذا يكون في العمل الذي يُعمَل بالجوارح، وإن كان بالقول فهو سُمْعَة، كالذي يقرأ القرآن، ويدعو، ولكن مُراده أن يُثنَى عليه، ويقال: هو عالم، أو هو خطيب، وما أشبه ذلك، فليس له من أمره إلا ما قاله الناسُ، وفي كِلَا الأمرين هو خاسر.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾: أي إنه خُلق من ذكر وأنثى، فهو ليس مَلَكًا، وليس نورًا كما يقوله من يقوله، وليس هو خارجًا عن طبيعة الناس وبَشَرِيَّتهم، وإنما فَضَلَهم بأنه يُوحَى إليه، والذي يُوحَى إليه ﴿أَنَّما إلهكم إلهٌ واحدٌ﴾ فاعبدوه،

....

لا تألَهوا غيره.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِۦ﴾: أي يخافُ مُلاقاةَ الله، ويؤمن بها.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾: يكون على وَفْقِ السُّنة، ووَفْقِ أمر الله جل وعلا.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾: «أحدًا» نَكِرَةٌ جاءت في سِياق النَّهْي، فيعُمُّ كل شريك، من مَلَكٍ أو نبي أو ولي، أو جني، أو شجرة، وغيرِ ذلك، وهذا قصَدَ به الشركَ الأكبر والشركَ الأصغر، الذي قد يكون الرياء منه.

والرياء قد يكون أكبر وقد يكون أصغر، فإذا كان الباعث على العمل من أصله هو الرياء، فهذا شرك أكبر، وهذا لا يَصْدُر من مؤمن، وإنما يصدر من المنافقين، في الأعمال التي لا تكون ظاهرةً، أما الأعمال الظاهرةُ، مثل الزكاةِ، والصدقةِ، والحجِّ، وما أشبه ذلك فقد يفعله، وكذلك بناء المساجد، من أصل عمله يريد الثناءَ، فهذا لا شك في حبوط عمله، وأنه مَمْقوت عند الله وعند عباده، أما إذا كان العمل، الباعثُ عليه الخوفُ من الله، ورجاءُ فضله وإحسانه، ثم طَرَأَ عليه الرياءُ، في أثناء العمل، فإن دَفَعَه وأعرَضَ عنه لم يَضرَّه، وإن اسْتَرْسَل معه، واسْتَدْعاه، واسْتَصْحَبه، فإن عمله حابط، بدليل الأحاديث والآيات التي في هذا الباب وهي كثيرة.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: «قَالَ تَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِي فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قال: (**وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: قَالَ تَعَالَى أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ....**).

هذا من الأحاديث القدسية، التي تُضاف إلى الله قولًا، أي إنه قول الله، بحروفه ومعانيه، وليس المعنى دون الحروف، اللَّفظُ تعبيرُ الرسول والمعنى هو كلامُ الله، لأن هذا يطلق على أحاديث الرسول كلها، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾، ولكنَّ لفظَه ومعناه كلاهما قول الله تعالى؛ ولهذا احتجنا إلى الفرق بينه وبين القرآن كما سبق.

(**أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ**): أي إن غناه يمنعُه أن يَقبَل الشرك في عمل من الأعمال، فهو الغَنِي، فلا يقبل من العمل إلا ما كان خالصًا له، والشركاءُ جمعٌ دَخَل فيه كلُّ شريك، سواء كان من الذين يؤمنون بالله، ويتقربون إليه، أو غيرهم.

قوله (**عَنِ الشِّرْكِ**): أي عن العمل الذي صار فيه إشراكٌ بين الله وبين الرسول. (**مَنْ عَمِلَ عَمَلاً**): العمل مطلق، أيُّ عملٍ، فدخل فيه عمل القلوب، وعمل الجوارح، وعمل اللسان قولُه وذكرُه، وقراءتُه، وما أشبه ذلك.

(**تركْتُهُ**): الضمير يعود على العمل أو على صاحب العمل؟ الظاهر أن المقصود هنا العمل، تركته: أي تَرَكْتُ العمل. (**وشِرْكَهُ**): أي الشريك الذي

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ مَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟ قَالُوا بَلَى قَالَ الشِّرْكُ الْخَفِيُّ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ.

أشرك معي فيه غيري، فأنا منه بريء، ومعنى ذلك أنه لا يُقبَلُ، وإنما يقال له يوم القيامة: اذهب إلى من أشْرَكتَ في هذا العمل، واطلب جزاءَك منه، فهل يجد شيئًا؟ كلا، فهذا فيه الإطلاق، أن كل عمل فيه إشراك يتركُهُ، ولا فرق بين كَوْنِه كبيرًا أو صغيرًا، وإذا كان من الشرك الأصغر، فهو داخل في الحديث، ولكنَّ الفرق بينه وبين الشرك الأكبر أن الشرك الأكبر صرفُ العبادة لغير الله، أيَّ عبادة، سواء كانت صلاةً، أو زكاةً، أو صومًا، أو حجًّا، أو دعاءً، أو ذبحًا، أو نذرًا، أي نوع من أنواع العبادة، والعبادة هي: «كلُّ ما أمر اللهُ به، أو أمر به رسولُه، وتركُ ما نَهى عنه، أو نَهى عنه رسولُه، فدخلت الأوامرُ والتروكُ في العبادة».

قال: (الشِّرْكُ الْخَفِيُّ يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ ....).

هذا تفسيرٌ للرياء، وأنه من الخفي؛ لأن هذا في النية والمَقْصِد، أما الظاهر فكأنَّه عملٌ لله، يقال: هذا يصلي، وهو يُزَيِّنُها ويُحَسِّنُها، إمَّا بأن يُطيل قيامَها وركوعَها وسجودَها، أو بأن تكون هَيْئتُهُ حسنةً وهو ساكنٌ، لا يتحرك، ولا يَعْبَث، ولا يَلتَفِت، لأجل نظر الناس، فهذا جعل الناسَ أكبرَ من الله، نعوذ بالله

....

من ذلك، فالإيمان عنده ضَحْلٌ ضعيفٌ، وخوفُ الله جل وعلا كذلك، فلهذا صار حظُّ نفسه مقدمًا على ربِّه.

وسبب الحديث: أن الصحابة كانوا يتباحثون عن الدجال، وخوفِهم منه، لِمَا ذكرَه الرسولُ ﷺ، وخرج عليهم وهم كذلك، فقال هذا القول: «ألا أخبركم بما هو أَخْوَفُ عليكم عندي من المسيح الدجال؟» معلوم أن الخِطَابَ هنا للصحابة، والصحابة هم سادةُ الأولياء، وهم خير الناس بعد الرسل، كما قال الله جل وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾، وقال ﷺ: «خيرُ الناسِ الذين بُعِثْتُ فيهم»، وفي الحديث الآخر: «خيرُ القرونِ قَرْني ثم الذين يَلُونَهم ثم الذين يَلُونَهم»، و«ثم» تدل على الترتيب مع التراخي، فإذا كان هذا مَخُوفًا على الصحابة، فكيف بمَنْ هو دونهم بمئات الدرجات؟ سيكون الخوفُ عليه أشدَّ، لوجود الدوافع، وضعف الإيمان، أما الصحابة فإن إيمانَهم قوي، ورغبتَهم في الآخرة أعظم، ومراقبتَهم لله جل وعلا أكبر وأشدُّ.

(المسيح الدجال): المسيح سُمي مَسيحًا لأنه مَمْسوحُ العين اليُمنَى، كما جاء في الحديث الصحيح، والدجال فَعَّالٌ من الدَّجَلِ، وهو الكذب، فهو أكبر كاذب، حيث قال للناس: أنا ربكم، ومع ذلك يُصَدَّق ويُتبَع؛ لأن معه فِتَنًا وأمورًا عظيمة، الصحابة حريصون على الهدى، وعلى العلم، طلبوا أن يُبيِّن لهم الرسولُ

....

ﷺ هذا المخوفَ، خوفُ الرياء عنده أكبر من الخوف من الدجال.

(الشرك الخفي): هذا يدُلُّنا على أن الشرك يكون جَلِيًّا، ويكون خَفِيًّا، وسُمِّيَ خَفِيًّا؛ لأنه في النِّية والمَقْصِد والإرادة، وهذا يَطَّلِع عليه رب العالمين، والرياء يظهر للناس، ويقولون: هذا مُراءٍ، فإن الله يُظهِره، فيكون مَفضوحًا في الدنيا قبل الآخرة، وهذا يدُلنا على تقسيم الشرك، فالشرك ثلاثة أقسام:

القسم الأول: شرك أكبر.

وهو: صَرْفُ شَيءٍ من العِبادَةِ التي تَكونُ للهِ لغيرِهِ.

القسم الثاني: الشرك الأصغر.

وضَبْطُهُ صعبٌ، قالوا: هو كلُّ وسيلةٍ تكون مُقَدِّمةً للشركِ الأكبرِ، أو مُوقِعَةً فيه، هذا لا يَنضبِط، ليس ضابطًا في الواقع؛ لأن هناك أعمالًا تكون وسائل للشرك الأكبر وليست من الشرك الأصغر.

مثال: إنسان يصلِّي في المقبرة لله جل وعلا، مخلصًا له، فهذا العمل وسيلة إلى الشرك الأكبر، وليس هو من الشرك الأصغر، بل هو بدعةٌ وضلالةٌ، الصلاةُ عند القبر، والدعاءُ عند القبر، يدعو لله خالصًا، فهذا من وسائل الشرك الأكبر، وليس من الشرك الأصغر؛ ولهذا عَدَلَ بعض العلماء عن التعريف بالحَدِّ، إلى التعريف بالأمثلة، فقالوا: الشرك الأصغر كَيَسيرِ الرياء، وكالحَلِفِ بغير الله، وكقول

....

الرجل: لولا الله وأنت، أو لولا كذا لكان كذا، وما أشبه ذلك من الألفاظ الشركية، وهذا قد يكون أكبر، حسب ما يقوم في قلبُ الإنسان.

القسم الثالث: الشركُ الخفي.

هذا يجوز أن نقول هو قسم ثالث، ويجوز أن نُقَسِّمَ الشرك إلى قسمين فقط؛ لأن الخفي لا يخلو إما أن يكون كبيرًا أو يكون صغيرًا، فصارت القِسْمَة ثُنائيَّة وليست ثُلاثيَّة.

حكم الشرك الأصغر:

معلومٌ أنه لا يساوي الشركَ الاكبر، ولكن هل يكون مثلَ الكبائر؟ داخلًا في مشيئة الله جل وعلا، إن شاء عَفا وإن شاء آخَذَ؟ أو لا بد لصاحبه من المُؤاخذة والعقاب؟ هو وإن كان لا يُخَلَّد في النار، لا بد من عقاب؛ لقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ الله لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾، فقوله: (أن يُشرَكَ به) «أنْ» مَصْدَريَّة، فأنْ ومَا دَخلتْ عليه مصدرٌ يُفيد العمومَ، فيكون الشركُ الأصغر داخلًا في هذا الحكم، وهذا هو الأقرب والله أعلم، ولكن يُفارِق الأكبر بأنه لا يَخْرُجُ به من دين الإسلام، يكون مُسلمًا، ولكنه سيُعاقب، إن لم يعاقب في الدنيا عُوقب في القبر، وإن لم يَكْفِ هذا عوقب في الموقف، وإن لم يكف هذا عوقب في النار، حتى يأخذ جزاءَه، ثم يكون مآله إلى الجنة، ومعلوم أن العقاب في النار أمر

....

شديد، نسأل الله السلامةَ. وذكر الرياء في الصلاة إنَّما هو مثال، وإلا فإنه يَدخُل في الأعمال كلها ليس في الصلاة فقط، فقد يدخل في الصدقات، والجهاد، والحج.

❁❁❁

بَابٌ مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾[هود: ١٥] الْآيَةِ.

قال: (من الشِّرْكِ إرادَةُ الإنسانِ بعملِهِ الدُّنيا): قد يقال: ما الفرق بين هذا الباب والذي قبله؟ قد يجتمعان في المادة ويفترقان من وجوهٍ؛ لأن الدنيا أعم من المُراءاة، فهذا الباب أعمُّ، والخوف منه أكثر، فإذا أراد الإنسان بالعمل الذي هو من أعمال الآخرة، ومن العبادات، ولكن ما أراد ثوابَ الله، ولا القربَ منه، وإنما أراد الدنيا، فهذا يكون حابطًا لعملِه، ويكون داخلًا في الشرك.

(إرادة الإنسان بعمله): أي عمل العبادة، وليس الأعمال الأخرى التي من أعمال الدنيا، هذه لا شأنَ لها هنا، وإنَّما المقصود العبادة، فيَدخُل في هذا الصلاةُ، والصدقةُ، والجهادُ، وطلبُ العلم، وغيرُ ذلك من الأعمال الكثيرة، التي يعملها الإنسان، يَتَقَرَّب بها إلى الله جل وعلا، وكالأذان والإقامة، وغيرِ ذلك، فهذا الباب عام، والخوف منه أكثر.

قال: (وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا ﴾الْآيَةِ).

أي: من كان يعمل لأجل الدنيا ومتاعها وما فيها، فإنه يُعطَى جزاءَ عمله في الدنيا، ويوفَّاه، وهذا ليس على إطلاقه؛ ولهذا جاء عن ابن عباس: أن هذه نُسِخَتْ

وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: تَعِسَ ....

بالآية التي في سورة الإسراء ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾[الإسراء: ١٨]، فقُيِّدَت هذه الآية، لمن يشاء اللهُ ويريدُ، فقد لا يُعَجَّلُ له.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: عملَهم، بل يُجْزَوْنَه تامًّا، ولكنه في الدنيا، فيوافون الآخرةَ ليس معهم نصيبٌ، وليس معهم شيءٌ، وما أعظمَ خَسارتَهم.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾: لأنهم وُفُّوا عملَهم في الدنيا، فأصبحوا في الآخرة ليس لهم عملٌ يُجْزَوْنَ به.

﴿وَحَبِطَ﴾: أي لا جزاءَ له ولا ثوابَ، هذا الحُبوط، ليس لهم جزاءٌ فيها.

﴿وَبَـٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾: أي أن عملهم من أصله باطلٌ، فالفرق بين الحُبوط والبُطلان، أن الحُبوط هو ذَهابُ الجَزاءِ، وعدمُ الفائدة منه، وأما البُطلان فهو باطلٌ من أصله، غيرُ مُعْتَبَرٍ.

قال: في الصحيح عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِسَ عبدُ الدِّينار، تَعِسَ عبدُ الدِّرهم، تَعِسَ عبدُ الخَميصَةِ».

(في الصحيح): أي في صحيح البخاري.

(تَعِسَ): إمَّا أن يكون خبرًا، وإمَّا أن يكون دعاءً، فإن كان خبرًا فهو خبر

«تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الْخَمِيلَةِ» .

بمعنى الدعاء، ويكون أبلغ من الدعاء؛ لأن أخبار الرسول ﷺ، صدق وحق، لا تختلف، والتَّعاسَةُ هي الخَسارَةُ والانْتِكاسُ، وعدمُ النجاح.

(**عبد الدِّينار**): سَمَّاه عبدًا للدينار، والدينار قطعةُ ذهبٍ، كيف يكون العاقل عبدًا لقطعةِ ذهبٍ؟! لأنه يعمل من أجله، فمن عمِل من أجل شيء فهو عابدُ ذلك الشيءَ، فإلهُه هو ما استولَى على قلبه.

(**تَعِسَ عبدُ الدِّرهم**): هذا أخْسَرُ من الأول، وأكثر تعاسة؛ لأن الدرهم أقل قيمةً من الدينار، وكلاهما خُسرانٌ، فالدرهم قطعةُ فِضة، هذا لما كان الناس يتعاملون بالنقود التي لها قيمة.

أما الآن فأصبحت المعاملات في أوراق، حتى يَستولِي أُولو الأمر على الناس، ويتحكمون فيهم، فلا يستطيعون أن يتصرفوا بها إلا بإذنهم، فإذا شاؤوا أن يُبْطِلوا هذه الأموالَ، أصبحت لا قيمةَ لها، وإن شاؤوا أبْقَوْها، وأول من صَنَعَهَا اليهود.

(**تَعِسَ عبدُ الخَميصَةِ**): الخميصةُ كِساءٌ يُلبَسُ، كيف يكون الإنسان عبدًا لما يَلبَسه على ظهره؟! هذا أقرب قيمة له.

(**تَعِسَ عبد الخَميلَة**): والخميلةُ ثوبٌ له خَمْل، أي أهْدابٌ، زينة، وكلاهما تعيس وخاسر.

إِنْ أُعْطِيَ رَضِي، وَإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وَانْتَكَسَ، وَإِذَا شِيكَ فَلَا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعِنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ الله، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، ....

(إن أُعطِيَ رَضِيَ وإنْ لمْ يُعْطَ سَخِطَ): كما قال الله جل وعلا عن المنافقين: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨]، فَرِضاهم وسُخطُهم ليس لله، بل للدنيا ولأنفسهم.

(تَعِسَ وانْتَكَسَ): أي سَقط على رأسه ثم انقَلَب، مبالغةٌ في كونه خاسرًا، وغيرَ ناجحٍ في عمله.

(وإذا شِيكَ فلا انتَقَشَ): أي إذا دخلت في رجله شَوكَةٌ، ما وجد من يُخرجُها، والمعنى: أنه إذا وقع في أمر سيئ لا يَخرُج منه؛ لأن عمله لغير الله، فهو عاثِرٌ وهالكٌ في أي وادٍ كان.

(طوبَى لعبدٍ) طوبَى كلمة مدح وثناء، أو هي الجنة، أو شجرة في الجنة، كما جاء في حديث.

(آخذٍ) صفة لعبدٍ.

(أشْعثَ رأسُهُ مُغْبَرَّةٍ قدَماه): أي إنه مشغول بالجهاد، ما عنده وقت يُسَرِّح رأسه ويَغسِله، بل رأسه أشعث، وقدماه مغبرة، ما يغسلُها، فهو يَنتَهِزُ الفرصة، ويَغتنم الوقت، لا يترك منه لحظة تَمضي، يجاهد في سبيل الله.

إِنْ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ كَانَ فِي الْحِرَاسَةِ، وَإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنْ اِسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وَإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ »

(إن كان في الحِراسَةِ كان في الحِراسَةِ)، قد يقول قائل: ما الفائدة من التَّكرار؟ أي إنَّه يكون فيها ثابتًا، قائمًا بكل ما يستطيع، والحراسة من أشد ما يكون من أمور الجهاد.

(وإن كان في السَّاقَةِ كان في السَّاقَةِ): أي كان قائمًا في الساقة أتم القيام، والساقة أيضا من الأمور المَخُوفة؛ لأن العدو يتعقَّبُ المسلمين في أَثَرِهم، فيحميهم السائق، فهذان المقامان من أشد المقامات في الجهاد، فإذا قام فيهما، أتمَّ القيامَ.

(إن استَأْذَنَ لم يُؤذَنْ له): أي إن استأذن على الأمراء والكبراء وغيرهم لا يُؤبَهُ به، لأنه لا يعمل لأجل نظر الناس، عمله لله، فهو لا يخاف منه ولا يُرجَى، فلا يُؤذَنُ له، ولا يُنظَرُ له، ولا يؤبه به.

(وإن شَفَعَ لم يُشَفَّعْ): إذا شفع عند الكبراء والأمراء لم يُشَفِّعُوه؛ لأنه لا قيمة له عندهم، فعمله لله جل وعلا، هذا عكس الأول تمامًا، وهذا من عباد الله الخُلَّص، الذين أَخْلَصوا أعمالَهم لله جل وعلا، وصارت الدنيا لا تساوي عندهم شيئًا، فأعرضوا عنها.

❋❋❋

بابُ من أطاعَ العلماءَ والأمراءَ في تحريمِ ما أحلَّ اللهُ أو تحليلِ ما حرَّمه فقد اتخذهم أربابًا من دون الله

وَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ اَلسَّمَاءِ.............

(بابُ من أطاعَ العُلماءَ والأُمراءَ): خَصَّ العلماءَ والأمراءَ؛ لأنهم هم الأغلب، وإلا فالأمر عامٌّ، من أطاع مخلوقًا في هذا الأمر فقط اتَّخَذهُ ربًا دون الله، ولو كان والده أو والدته، فلا يجوز أن يُطاع مخلوقٌ في معصية الله، مهما كانت، فالطاعة يجب أن تكون بالمعروف، كما قال الرسول ﷺ: «إنَّما الطاعةُ في المعروفِ»، والعلماءُ والأمراءُ هم الذين يُدَبِّرون الأمور، وهم أهل الحَلِّ والعَقْدِ، فهم الذين يُطاعون غالبًا، فبيَّن أن طاعتهم في التحليل والتحريم عبادةٌ لهم، لهذا قال: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾.

ومعنى هذا أن كل من أطاع مخلوقًا في معصية الله، أو في طاعة الله، أنَّه اتَّخَذه ربًا له، لماذا قال: ﴿أَرْبَابًا﴾ ولم يقل (آلهةً معبودة)؟ لأن الأمر والحُكمَ والتشريع من خصائصِ الله، من خصائص الربِّ، فلا يجوز أن يكون لمخلوق.

قال: (وَقَالَ اِبْنُ عَبَّاسٍ يُوشِكُ): (يُوشِكُ): يَقرُبُ.

(أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ اَلسَّمَاءِ): لأنكم قدَّمتُم قولَ مخلوقٍ على قول الله، وقول رسول الله ﷺ.

أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟!».

وَقَالَ ٱلْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: «عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا ٱلْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ......................................

(أَقُولُ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ): هذا في التَّمَتُّع بالحج، كان ابن عباس يأمر بالتمتع، يقول: «من طاف بالبيت وبين الصفا والمروة فقد حَلَّ شاء أو أبى» لأن الرسول أمر بهذا، فقالوا: أبو بكر وعمر يأمران بإفراد الحج؛ لئلا يَخْلُوَ البيتُ من زائرٍ، ويَكثُرَ الزُّوَارُ للحج، يأتون مرة للحج مُفرَدًا، ثم يَلزَمُهم أن يأتوا إلى العمرة مرةً أخرى، فيكون أكثر زوارا للبيت، هذا مقصِد أبي بكر وعمر، والرسول ﷺ، أمر الصحابة لما طافوا بالبيت، وبين الصفا والمروة، أمرهم أن يَحِلُّوا، وقال: كل من ليس معه هدي فإنه يَحِلُّ الحلَّ كله، والقول الذي ذهب إليه ابن عباس ذهب إليه كثير من العلماء.

قال: (وَقَالَ ٱلْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ: عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا ٱلْإِسْنَادَ وَصِحَّتَهُ).

إذا صَحَّ الإسناد فالحديث صحيح.

(وَيَذْهَبُونَ إِلَى رَأْيِ سُفْيَانَ): سفيانُ الثَّورِيُّ، من كبار الأئمة، ﷺ، وكان له أتباع وله مذهب، ولكن مذهبه ذهب؛ لأنه لم يكن له أصحاب يُدَوِّنونَ كما كان للأئمة الأربعة، وإلا فهو نَظيرُهُم.

، وَاللهِ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣] أَتَدْرِي مَا اَلْفِتْنَةُ؟ اَلْفِتْنَةُ اَلشِّرْكُ لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ اَلزَّيْغِ فَيَهْلَكَ.

وَعَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ: أَنَّهُ سَمِعَ اَلنَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ اَلْآيَةَ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١]فَقُلْتُ لَهُ إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَالَ أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ فَقُلْتُ بَلَى، قَالَ فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم) رَوَاهُ أَحْمَدُ وَاَلتِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ.

قال: (والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣] أَتَدْرِي مَا اَلْفِتْنَةُ؟ اَلْفِتْنَةُ اَلشِّرْكُ).

الفتنة شرك لأنه إذا قُدِّمَ قولُ أحد على قول الرسول، فإنه جعل ذلك الأحدَ الذي قدَّمه ربًا له، فربما زاغ قلبُه ووقع في الشرك.

قال: (قَالَ أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتُحِلُّونَهُ؟ فَقُلْتُ بَلَى، قَالَ فَتِلْكَ عِبَادَتُهُم) :.

هذا واضح جَلِيٌّ في تفسير الآية، أن طاعة المخلوق في تحليل المُحَرَّمِ، وتحريم الحلال عبادة؛ ولهذا لا يجوز أن يُطاع مخلوق في معصية الله. كان رسول الله ﷺ، يحث على طاعة الأمراء، ويقول: «من أطاع أميرَهُ فقد أطاعَنِي»)، وفي «صحيح

....

مسلم» أنه أرسل سَرِيَّةً، أَمَّرَ عليها رجلًا من الأنصار، فغضِب عليهم في أثناء الطريق، فقال لهم: ألم يقُلْ رسول الله ﷺ: «من أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصاه فقد عصاني»؟ فقالوا: بلى، قال: فاجمعوا لي حطبًا، فلما جمعوه قال: أجِّجُوا فيه النار، فأَجَّجُوها، ثم قال: فادخلوا فيها، قالوا: أما هذه فلا، من النار فَرَرْنا، فبقوا كذلك حتى انْطَفَأَتْ النار وذَهَبَ الغضب، فلما رَجَعوا إلى الرسول ﷺ، أخبروه، قال: «لو دَخَلْتُموها ما خَرَجْتُم منها، إنَّما الطاعة في المعروف، لا طاعةَ لمخلوقٍ في معصيةِ الله»، أي إنَّ طاعة العلماء والأمراء يَجِبُ أن تكون تَبَعًا لطاعة الله، فإذا أَمَروا بطاعة الله أُطِيعوا واتُّبِعوا، أما إذا أَمَروا بمعصية الله فلا طاعةَ لهم.

ومَقْصِدُ المؤلف أن كثيرًا من الناس يَتبنَّى قول فلان وفلان، وإذا جاءته الأدلةُ من الكتاب والسنة أعْرَضَ عنها، وقال: فلان أعلم مني، وأعرض عن الأدلة، فهذا كان موجودًا، ولا يزال موجودًا عند بعض الناس، الذين يُقلِّدون الأئمة، فإنهم لا يَنظُرون إلى الأدلة، بل يَنظُرون إلى أقوال الأئمة، والأئمة في وقتهم ما كان أحد منهم يَقْصِد مخالفة الدليل، بل يتطلَّبون الدليل، ولكن قد يَخفَى، قد لا يَبلُغُه، وقد يكون في الدليل ضعفٌ، أو له مُعارضٌ، وغيرُ ذلك، فلهم أعذار كثيرة، أما أتْباعُهم فلا عذر لهم، فيَقصِد بالرُّهبان -ومِثلُهم الفقهاء- الذين يزعمون أنهم فقهاء، وأنهم يأخذون بأقوال الأئمة، ويتركون الأدلة، ويقولون: ما يقول بالدليل إلا المجتهد، والاجتهاد قد انقطع من زمان، هكذا يقولون، أما

....

الرهبان فهم العباد، كانوا يُسَمونَهم أولياءَ ويعبدونهم من دون الله، ثم تطورت الأمور فصار بعض من يدَّعِي العلم وليس عالمًا يُتَّبَع، وبعض من يدَّعِي الوَلاية وليس من الأولياء، بل هو شَقِيٌّ طَريد، أخو الشياطين، لا يَتَعَبَّد لله بالعبادات، ولا يَتقرَّب بالعبادة، ولا يَتورَّع عن فعل الفواحش، ومع ذلك يُعبَد، ويقال: إنه وَلِيٌّ من الأولياء.

❁❁❁

باب قول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٦٠] الآيات.

....

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ : ألم تعلم وتنظر؟. ﴿إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ : كلمة (يَزْعُمُ) غالبًا تُطلَق على الكذب. ﴿أَنَّهُمْ آمَنُوا﴾ : زَعَموا أنهم مؤمنين كذبًا.

﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ : إرادة التَّحاكم إلى الطاغوت هي التي نَفَتْ عنهم الإيمان، فصاروا من عُبَّاد الطاغوت، التحاكم يجب أن يكون إلى ما أنزل الله، إلى قول الله وقول رسوله، وإلا فيكون الإنسان قد تحاكم إلى الطاغوت، والطاغوت يجب أن يُكفر به، الكفر به ركنُ الإيمانِ، من لم يَكفُر بالطاغوت فليس بمؤمن، كما قال الله جل وعلا: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾، فقدَّم الكفر بالطاغوت على الإيمان؛ لأنه كما يقال: التَّخْلِيَةُ قبل التَّحْلِيَةِ، لا بد أن يَخْلُوَ المكان أولًا، أمَّا إذا كان في القلب حُكْم الطاغوت والتحاكم إليه، فهو غيرُ قابل للحق.

والطاغوت: كل ما تَجاوَزَ به العبدُ حَدَّهُ؛ من مَتْبوعٍ أو مَعْبودٍ أو مُطاعٍ، كما قال ابن القيِّم.

وَقَوْلُهُ: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١].

والعبد حَدُّهُ أن يكون عبدًا لله، أما إذا نَصَّب نفسه ليكون حاكمًا بين الناس برأيه، أو بوضْعِه الذي يضعه، فهو طاغوت، يدعو إلى أن يكون شريكًا لرب العالمين في الحكم، وهكذا الحكامُ الذين يحكمون بغير ما أنزل الله، هم طواغيت، فكل ما صَدَّ عن حكم الله أو عبادته، فهو طاغوت؛ ولهذا يقول الإمام مالك: «الطاغوت كل ما عُبِدَ من دون الله».

﴿ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِۦ ﴾: الأمر في هذا واضح، أمروا بالكفر بالطاغوت، ولكنهم آمنوا به، وأرادوا التحاكم إليه، ومن أراد التحاكم إليه فقد ترك حكم الله وراء ظهره.

وأخبر جل وعلا بأن الشيطان يريد أن يضلهم ضلالًا بعيدًا، بعيدًا عن مصلحتهم، وعن هداهم؛ لأنه يأمرهم بالتحاكم إلى الطاغوت، وهذا الضلال بعينه.

(﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾): هذا من صفات المنافقين، والإفساد في الأرض بالمعصية، سواءٌ كان في الحكم أو في أي معصية، وإصلاح الأرض بالطاعة، فالأرض تصلح بإرسال الرسل، وطاعة الله جل وعلا، وتَفْسُد بالمعاصي، فكل معصية فساد؛ ولهذا في قصة يوسفَ عليه السلام مع

وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف: ٥٦].

وَقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠].

إخوته: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾﴾ .. ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾[يوسف: ٧٠- ٧٣]، أي إن السرقة إفساد في الأرض، هذا شيء متَّفق عليه، فالإصلاح هو بإرسال الرسل، وإنزال الكتب من الله جل وعلا.

وكذلك قوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ ، أي بعدما أصلحها الله جل وعلا بإرسال الرسل، لا تُخالِفوهم وتَعْصوهُم، فتكونوا مفسدينَ في الأرض، ولكن المنافقين على خلاف ذلك، المنافقون هم الذين يَدْعون إلى التحاكم إلى الطواغيت، ولا يَقبَلون حكم الله، بل يَكرَهونه أشدَّ الكراهية، ويُبغِضونه ويَسْعون للقضاء عليه، وإيجاد أحكام الطاغوت التي يُلزِمون بها الناس.

(﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾): كل ما خالف الحق فهو جاهلية، والحق لا يكون إلا في جانب الرسل، الذين يَنزل عليهم الوحيُ من الله جل وعلا، ومن خالفهم فهو في جاهلية، وهؤلاء يَبْغون حكم الجاهلية، التي هي أحكام الطواغيت.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ» قَالَ النَّوَوِيُّ: «حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ «الْحُجَّة» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ».

وَقَالَ الشَّعْبِيُّ كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ خُصُومَةٌ، فَقَالَ

قال: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ):

أي: لا يَحْصُل للإنسان الإيمان الكامل، الذي يمنعه من العذاب، حتى يكون حبه ومرادُه هو ما أمر الله جل وعلا به، وما شرعه، ولا يكون مُبْغِضًا لشيء من ذلك، وكارهًا له.

(لا يؤمن): لا يحصل له الإيمان المُنْجِي من عذاب الله.

(تَبَعًا لما جِئْتُ به): لشرع الله جل وعلا.

(قال النَّوويُّ: حديث صحيح): الحديث صححه النووي وغيره، واعترَضَ عليه ابنُ رجبٍ رحمه الله، قال: تصحيحه بعيدٌ، ولكن معناه صحيح، لأن آيات القرآن التي تدل على هذا كثيرة.

قال: (وقال الشَّعبي: كان بين رجل من المنافقين..)الخ.

أي إن المنافق شأنه أنه يطلب التحاكم إلى الطواغيت، وإلى من يأخذون الرِّشا، هذا من شأن المنافقين، وكذلك فاقِدو الإيمان، أما المؤمن فإيمانه يُلزِمه أن

فَقَالَ الْيَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ عَرِفَ أَنَّهُ لا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ، وَقَالَ المُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى الْيَهُودِ؛ لَعَلِمَهُ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ، فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيَا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾.

وَقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اِخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَقَالَ الْآخَرُ إِلَى كَعْبِ بْنِ الْأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا الْقِصَّةَ فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ الله ﷺ أَكَذَلِكَ؟ قَالَ نَعَمْ فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ.

يكون الحكم بحكم الله وحكم رسوله، ﷺ، ولا يَتعدَّاه.

(**فنزلت الآية**): أي إن ما قال الشَّعبي هو سبب نزول الآية.

(**وقيل إنها نزلت في رجلين.. الخ**): أسباب النزول قد تتعدَّد أسبابه، ولا عِبرَة بسبب النزول، وإنما العِبرَةُ بعموم اللفظ، واللفظ عام، أن الحكم يجب أن يكون لله جل وعلا، وأن من تحاكم لغيره فقدْ فَقَدَ الإيمانَ الذي يَنجو به.

وفي هذا أن الإنسان إذا أظهر النِّفاقَ جازَ قتلُه، فعمرُ ﷺ قَتَلَ هذا، قد يقال: كيف قَتَلَ عمر هذا؟ القصة هذه ضعيفة لا تثبت، والله أعلم.

❊ ❊ ❊

بَابُ مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

....

قوله:(جَحَدَ): الجحود يكون بعد العلم والبيان؛ لأن الله جل وعلا بيَّن ذلك في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ بيانًا واضحًا؛ ولهذا تجد أسماء الله وصفاته في القرآن أكثر من ذكر الحلال والحرام وغيره، قَلَّ أن تجد آية إلا وفيها شيء من ذلك.

قوله: (شَيْئًا): يدخل فيه أي شيء ثبت في الكتاب أو السنة من أسماء الله وصفاته.

قوله: (الأَسْماء): هي التي تدل على المسمى، أي على ذات الشيء، و(الصِّفات): المعاني التي تقوم بالمسمى.

المؤلف قال: (مَنْ جَحَدَ) ولم يذكر الحكم، وحكمه أنه يكون كافرًا، كما تدل عليه الآيات، وأحاديث رسول الله ﷺ، والتوحيد ينقسم إلى أقسام:

١- توحيد بأفعال العباد التي أُمِروا بها وكُلِّفوا بها، أن تكون لله وحده، خالصةً، مثل: الدعاء والصلاة والصوم، والركوع والسجود، والخوف والنذر وغير ذلك، مما جاء الأمر به، والتوحيد فيها أن تكون لله وحده.

٢- توحيد الربوبية، وهو الأصل؛ لأن توحيد الربوبية هو الذي يدل على وجوب توحيد العبادة، وتوحيد الأسماء والصفات.

٣- توحيد الأسماء والصفات، أن تكون لله تعالى الأسماء التي سمى بها

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾[الرعد: ٣٠] الْآيَةَ.

نفسه، والصفات التي وصف بها نفسه، وحده، لا يشاركه فيها غيره.

أراد -رحمه الله- أن يُبيِّن أن هذا لا بد منه، وأن الإنسان لا ينجو بقسم أو قسمين من التوحيد، لا بد أن تجتمع عنده الأقسام الثلاثةُ كلُّها، حتى يكون مُوحِّدًا، ويكون مسلمًا، ويكون ناجيًا من عذاب الله، وإلا فيكون العذابُ ملازمًا له في الدنيا والآخرة؛ لأن الكتابَ كلَّه -إلا ما قل- في توحيد العبادة وتوحيد الربوبية كما سبق.

قوله: (﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾): سبب نزول الآية -كما ثبت في الصحيح-، أن الرسول ﷺ لما أراد أن يكتب الصلح بينه وبين كفار قريش، وكان الذي ينوب عن الكافرين سهيل بن عمرو، وكان كافرًا في ذلك الوقت، قال النبي ﷺ لكاتبه -علي بن أبي طالب ﷺ-: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، فاعترض سهيل، وقال: لا، لا تكتب الرحمن، ما نعرف الرحمن، ولكن اكتب كما كنا نكتب: «باسمك اللهم»، فقال ﷺ: «اكتب كما يقول»، ثم قال: «هذا ما صالح عليه محمد رسول الله قريشًا»، فاعترض، قال: لا، لا تكتب رسول الله، لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك، وهم يعلمون حقيقة، ولكن كل هذا عناد، ويعلمون أن الله هو الرحمن، وأنه ذو الرحمة؛ ولهذا يوجد ذكر اسم الرحمن في أشعارهم، فدل على أن ذلك جحود؛ لأن الجحود يكون بعد العلم كما سبق، وهذه الآية تدل على أن الذي يجحد

وَفِي «صَحِيحِ الْبُخَارِيِّ» قَالَ عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ وَرَسُولُهُ؟!».

اسمًا من أسماء الله، أو صفة من صفاته؛ يكون كافرًا.

(﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾): أي هو الذي خلقكم، وهو الذي وهبكم العقول والفكر، ورزقكم مما ينزله لكم من السماء، فينبت لكم به النبات الذي تأكلون منه، وهذا أمر تعرفونه، وتتيقنونه؛ ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾[الزخرف: ٨٧] ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾؛ [العنكبوت: ٦١] فدل على أنهم معاندون.

قوله: (﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾): أي هو المألوه الذي يجب أن يُؤْلَه، فقدم ذكر الرب؛ لأن الرب هو المالك المتصرف، الذي يتصرف بالشيء ويملكه، ثم ذكر أنه هو الإله، الذي لا إله إلا هو، وذكر أن له الأسماء الحسنى.

قوله: (قَالَ عَلِيٌّ: حَدِّثُوا النَّاسَ...): يظهر أن هذا القول سببه كثرة القُصَّاص، الذين يذكرون أخبارًا تكون غريبة، ويكون فيها مخالفة لما يعهده الناس، فنهاهم عن تحديث الناس بالشيء الذي فيه غرابة ونكارة، وأمر لا تحتمله عقولهم، وليس ذلك من صفات الله، فصفات الله ليست غريبة، ولا تستنكرها العقول؛ لأن الله جل وعلا قد أكثر من ذكرها في كتابه، ورسوله ﷺ كذلك، يُحدث بها في المجامع كلها، ولا يُخص بها قومًا دون آخرين، كما زعمه بعض الضالين فيها، ولا يجوز أن نحمل هذا على أسماء الله وصفاته، إنما أراد المؤلف رحمه الله أن الإنسان عند عوام الناس، ينبغي أن يجاريهم

وَرَوَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنِ ابْنِ طَاوُسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﷺ: «أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انْتَفَضَ لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ .....

في العلم، ويذكر لهم الشيء الذي يعرفونه، والذي يستنكرونه يداريهم فيه، يذكر لهم شيئًا بعد شيء حتى يُوطِّئ لذلك، يَعرف كيف يُدخل الإيمان في قلوبهم؛ لأنه إذا جاءهم بشيء بغتة، وهم لم يكونوا عالمين به؛ ربما ردوه، وإن كان من أسماء الله وصفاته ﷻ، فيهلكون في ذلك، أما صفات الله وأسماؤه، فهي معروفة ومعلومة، وليست من الأمور الخفية التي يُدارَى الناس فيها، ولذا لم يكن رسول الله ﷺ، يخفي شيئًا منها على الناس، حتى إنه يومًا يحدث الناس ويقول: «إِنَّ اللهَ لَيَضْحَكُ مِنْكُمْ أَزِلِينَ بقُرْبِ الْغَيْثِ مِنْكُمْ»، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ بَاهِلَةَ: يَا رَسُولَ الله، أَوَ إِنَّ رَبَّنَا لَيَضْحَكُ؟ قَالَ: «نَعَمْ»، قَالَ: فَوَالله، لَا عَدِمْنَا الْخَيْرَ مِنْ رَبٍّ يَضْحَكُ».

هذا كله يدل على أن الأخبار التي يذكرها الرسول ﷺ، يعتقدها السامعون على ظاهرها، وأن الرسول ﷺ، يُقرهم على ذلك الفهم، خلاف ما تقوله المبتدعة، الذين ينفون صفات الله ﷻ ولا يثبتونها له، إلا ما ترتضيه عقولهم، وعقولهم لا ترتضي إلا شيئًا على خلاف ما لله جل وعلا؛ لأنهم لا يحيطون به علمًا، وعقولهم محدودة.

قوله:(عن ابن عباس أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً انْتَفَضَ...): جاء في غير «مصنف عبدالرزاق»، عن طاوس عن ابن عباس ﷺ: «أنه ذكر أن الله جل وعلا

فِي الصِّفَاتِ اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ، فَقَالَ: مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ؟!» انْتَهَى.

يجلس على كرسيه للقضاء بين عباده، فانتفض ذلك الرجل، فيكون هذا هو المقصود والله أعلم.

قوله: (مَا فَرَقُ هَؤُلَاءِ؟): أي ما خَوْفُهم، خافوا من الحق، فهلكوا لما أنكروه، ويجوز أن يكون مشدد الراء: (ما فرَّق هؤلاء) أي ما فرقوا بين الحق والباطل، حيث وقعوا فيه والتبس الأمر عليهم، والمشهور الأول.

قوله: (هَؤُلَاءِ): هذا الرجل وأشباهه ونظرائه.

قوله: (يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ): أي عند الأمر الظاهر الجلي.

قوله: (مُتَشَابِهِهِ): أي الشيء الذي خفي عليهم، وإلا فليست أسماء الله وصفاته متشابهة، كما يزعمه المبتدعة، فهي من المُحكم الجلي الواضح؛ لأن المتشابه معناه: الذي يشتبه على بعض الناس، أو يشتبه في معانيه، يحتمل أمرين فأكثر، وصفات الله جل وعلا ليست من هذا النوع، فهي مُحكمة واضحة ظاهرة، لا تحتمل إلا معنى واحدًا، ليس كما يقول منكروها، وصارت سنتَهم أن زعموا أنهم إذا أثبتوها على ظاهرها اقتضى ذلك التشبيه، تعالى الله وتقدس عن ظنونهم الكاذبة، فهم ظنوا بالله ظن السوء؛ فَأَرْدَاهُم ذلك الظن، وهذا دليل على أن الصحابة ﷺ، يرون أن الصفات مما يجب الإيمان به، وأنها تُذكر للمؤمنين، والمؤمن لا يُؤمن حتى يعلم بقلبه ويعمل

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ الله ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾.

بجوارحه أن الله موصوف بصفات الكمال، فله كل صفة كمال، تعالى وتقدس، ومعلوم أن توحيد الإنسان لا يتم حتى يعرف ربه جل وعلا بأسمائه وصفاته، ولا يكون مُوحِّدًا حقًّا إلا بذلك؛ ولهذا السبب ذكر المؤلف هذا الباب، ليُبيِّن أن هذا من واجبات الإيمان، ولا بد منه، وحديث ابن عباس يدل على هذا؛ ولذا قال: (وَيَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِهِ) أي الشيء الذي يشتبه عليهم، وهلاكهم: أن ينكروه كما أنكر هذا الرجل، فهذا دليل على أن من أنكر شيئًا من صفات الله أو من الأمور الواضحة في الكتاب والسنة يهلك بذلك.

قوله: (وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ الله ﷺ...): سبق الكلام عنه، ولكن جاء في التفسير، كما روى ابنُ جرير وغيره: «صَلَّى رَسُولُ الله ﷺ بِمَكَّةَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَدَعَا الله، فَقَالَ فِي دُعَائِهِ: «يَا الله، يَا رَحْمَنُ»، فَقَالَ الْمُشْرِكُونَ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الصَّابِئِ، يَنْهَانَا أَنْ نَدْعُوَ إِلَهَيْنِ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَهَيْنِ، فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾»، [الإسراء: ١١٠] فأسماؤه كلها حسنى، وصفاته كلها عليا، فيكون هذا الإنكار كفرًا، وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠] نظير الآية المتقدمة.

....

قوله: (الثَّالِثَةُ: تَرْكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لَا يَفْهَمُ السَّامِعُ): أي يجب أن يفهَّم أولًا ثم يُحدث، يقول: إن الله قال كذا، والرسول قال كذا، خوفًا عليه، وهذا ليس لازمًا؛ لأن الإنسان عنده سمع، وعنده بصر، وعنده تفكير، هذا الذي كُلف به، وكتاب الله واضح؛ ولهذا مَن بَلغه القرآن قامت عليه الحجة، ولا يلزم في قيام الحجة الفهم، الفهم ليس شرطًا، وإنما الشرط: بلوغ الدعوة فقط، كما قال الله جل وعلا: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾[الأنعام: ١٩] من بلغه القرآن فهو مُنذَر.

قوله: (الرَّابِعَةُ: ذِكْرُ الْعِلَّةِ؛ أَنَّهُ يُفْضِي إِلَى تَكْذِيبِ الله وَرَسُولِهِ، وَلَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ الْمُنْكِرُ): أي وإن لم يتعمد الجحود والكفر، وإنما إذا رَد شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله، وقع في ذلك.



بَابُ

قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ الآيَةَ.

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي».

قول: (﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾): المفرد إذا أضيف صار عامًا (﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾)، فنعمة الله تعم كل ما أنعم الله جل وعلا به، وإن كان التفسير جاء مختلفًا عند كثير من الناس؛ لأن المفسرين يذكرون على حسب ما يحتاجه السامع مما دلت عليه الآية، ولا يعممون إلا عندما يقتضي الأمر.

قوله: (قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: «هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي»). المال هو رزق الله، وإن كان الله ﷻ قد ربط الأمور بالأسباب، حتى يُعلم أن الله جل وعلا قدر الأشياء بأسبابها، ولكن هو المتصرف في كل شيء، جل وعلا، فإذا قال الرجل: هذا مالي، ورثته عن آبائي، كان علامةً أنه أضاف النعمة إلى نفسه، فيكون ذلك كفرًا وجحودًا للنعمة، وهذا كفر دون الكفر الأكبر، الذي يُخرج من دين الإسلام، ولكنه يجر إليه، وإذا تراكم على الإنسان يوشك أن يكون كافرًا الكفرَ الأكبر.

قوله: (وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي): هذا يكون أبلغ في الإنعام؛ لأن الله أنعم به على آبائك، ثم أنعم به عليك، فيجب أن تشكر الله على ذلك، وليس لآبائك فيه قوة ولا حول، وإنما هو رزق الله الذي يسره لهم وسهل طرقه، وأوصله إليك، فالمقصود هنا: أن إنكار النعمة: أن يضيفها إما إلى نفسه أو إلى كسبه،

وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا».

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: يَقُولُونَ: «هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا».

أو إلى علمه بوجوه المكاسب، أو صنعته، وغير ذلك.

قوله: (وَقَالَ عَوْنُ بْنُ عَبْدِ اللهِ: «يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلَانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا»): هذا أمر عام، وكثير من الناس يقول: لولا أني فعلت كذا لصار كذا، لولا أني عملت كذا لوقعت في كذا، وهذا لا يجوز؛ لأن هذا من كفر النعمة، لأن الأمور كلَّها مقدرة، صغيرَها وكبيرَها، دقيقَها وجليلَها، ولا يحدث أي حدث وإن قل، إلا وقد كُتب وفُرغ منه، وأراده الله جل وعلا، والشيء الذي لم يقع لم يُرده الله، ولن يقع، وإن كانت الأسباب قد تكون قريبة من ذلك، ولكن الشيء الذي لم يكتبه الله لا يقع، فالإضافة أو جعل السبب هو المانع من الوقوع، أو هو الذي أوقع، هذا نوع من الشرك الذي يُنافي كمال التوحيد الواجب على الإنسان، فإضافة النعمة إلى غير مُسديها ومُوليها، ربِّ العالمين، يكون كفرًا، وإن كان كفرًا أصغر فإنه يكون قادحًا في التوحيد، فلا يكون توحيد الإنسان كاملا مع ذلك.

قوله: (وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: يَقُولُونَ: «هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا»): أي أن نزول المطر وحصول الرزق وما أشبه ذلك بشفاعة آلهتهم (أصنامهم)، فهم سموها آلهة كذبًا، وإلا فليست بآلهة؛ لأنها ضعيفة لا تملك شيئًا ولا تتصرف ولا تشفع، ولا يشفع عند الله أحد إلا بعد أمره له بالشفاعة، فهذا يكون من الشرك، كما أن الأول من شرك الألفاظ: «لولا فلان لكان كذا»، والإنسان يجب أن يطهر ألفاظه كما يطهر أعماله من الشرك.

وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ -بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بْنِ خَالِدٍ الَّذِي فِيهِ أَنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ» الْحَدِيثَ، وَقَدْ تَقَدَّمَ-: «وَهَذَا كَثِيرٌ فِي الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، يَذُمُّ سُبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ وَيُشْرِكُ بِهِ. قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ: «كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا». وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ.

قوله: (وَقَالَ أَبُو الْعَبَّاسِ ...): أبو العباس هو: ابن تيمية، رحمه الله.

قوله: (قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ: «كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً...») أي إنها مستدبرة للسفينة، فسارت بها سيرًا حسنًا (وَالْمَلَّاحُ حَاذِقًا): والملاح هو قائد السفينة، أي إنه صرف السفينة تصريفًا حسنًا، إذا وصل إلى الميناء، ومثل ذلك أن يقول: السيارة جديدة، والسائق ماهر، وما أشبه ذلك، فيضيف النعمة التي حصلت له إلى السبب، فهذا من الشرك اللفظي، أما إذا اعتقد ذلك حقيقة فيكون شركا فعليا.

قوله: (وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ): كقول الناس: لولا الحارس لأُخذ المال، وما أشبه ذلك، فكل إضافة تضاف لمخلوق في أمر محمود، أو دفع شيء مكروه، تكون من هذا الباب، أما النعمة فيجب أن يُحمد الله عليها ويُشكر، وتُذكر، أي يتحدث بها، شكرًا لله، وإظهارًا لها، ويجب أن يستعان بها على عبادة الله، وإلا لم يكن الإنسان شاكرًا، لا بد أن تجتمع الأمور الثلاثة:

١- يحمد الله عليها ويُثني عليه. ٢- يظهرها.

....

٣- يستعين بها على طاعة الله جل وعلا وعبادته.

بهذا يكون مُوحِّدًا، وإلا يكون قد كفر نعمة الله، وقد قيل: إن النعمة هنا: الرسول، ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ﴾: أي رسوله، يعرفون صدقه وأمانته ونسبه، ثم ينكرون أن يكون رسولًا، والصحيح أن الآية عامة لكل نعمة أنعمها الله جل وعلا.

قوله: (**الْأُولَى: تَفْسِيرُ مَعْرِفَةِ النِّعْمَةِ وَإِنْكَارِهَا**): تفسيرها ظاهر، إذا سئلوا: من الذي رزقهم؟، قالوا: الله، من الذي أنزل المطر؟ قالوا: الله، إذا سئلوا: من خلقكم؟ قالوا: الله، وإذا سئلوا: من الذي أوجد لكم السمع والبصر والأيدي والأرجل؟ قالوا: الله، فهم يعرفون نعمة الله تمامًا، ولكن ينكرونها بألسنتهم، يقولون: بسبب فلان أو شيء، ولولا كذا لصار كذا، وما أشبه ذلك، هذا هو الإنكار.

قوله: (**الثَّانِيَةُ: مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ**): ما يزال كثير من الناس على هذا، فيجب أن يتنبه الإنسان لهذا الأمر.

قوله: (**الرَّابِعَةُ: اجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ فِي الْقَلْبِ**): المقصود بالضدين: المعرفة والإنكار، فالمعرفة ضد الإنكار والعكس، فيجتمع عند الإنسان كفر وإيمان، ومعرفة وجهل، وهو لما غلب عليه.

❋❋❋

بَاب: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الْآيَةِ: «الْأَنْدَادُ هُوَ: الشِّرْكُ،.....................

قوله: (باب ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾)، الفرق بين هذا الباب والذي قبله: أن الأول فيه اعتقاد القلب، فيجتمع عقيدة القلب وقول اللسان، أما هذا فالأصل في ذلك: الألفاظ التي يتلفظ بها الإنسان، ولو لم يعتقد معناها، فإنها تكون من الشرك الأصغر، وقد تكون من الأكبر، حسب عقيدة الإنسان وما ينطوي عليه قلبه.

قوله: (﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾): الآية واضحة في أن المقصود بها الشرك الأكبر؛ لأن قبل هذه الآية قوله جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، أي يعلمون أن الله هو الذي خلق السماء والأرض، وهو الذي خلقهم وخلق مَن قبلهم، وهو الذي أنزل من السماء الماء، وأنبت به النبات الذي يأكلون منه وتأكل منه أنعامهم، فإذا كانوا يعرفون أن هذا كله بخلق الله جل وعلا وتصرفه وإيجاده نعمة منه وفضل، فكيف يجعلون أصنامًا يدعونها، ويزعمون أنها تشفع لهم، ويجعلونها وساطة بينهم وبين الله؟ فهذا يدل على أن المقصود بهذا الشرك الأكبر، فلهذا ذكر قول ابن عباس؛ لأن قول ابن عباس كله في الشرك الأكبر.

قوله: (قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: الْأَنْدَادُ هُوَ: الشِّرْكُ...): يدل على أن من

أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ، وَحَيَاتِي ....

الشرك ما هو خفي، فلهذا قُسم الشرك إلى ثلاثة أقسام:

١- شرك جلي ظاهر كبير. ٢- شرك صغير.

٣- شرك خفي.

والواقع أن الشرك الخفي لا يخرج عن القسمين، إما أن يكون أكبر أو أصغر، ولكن لا بأس في جعله قسمًا ثالثًا؛ لكونه خفيًا، ووصفه بأخفى شيء، أخفى من دبيب النمل على الصفاة، أي الصخرة الملساء، في ظلمة الليل، من يُحس بهذا؟ هذا أخفى شيء، ثم وصف الصفاة بأنها سوداء، فيكون الليل أسود، والصفاة سوداء، والنملة صغيرة، ودبيبها لا يحس به، فهذا أبلغ وصف في الخفاء؛ لأن الشرك يقع في الأقوال والأفعال والنيات، ويكون حسب ما يقوم في قلب الإنسان، فالله يحاسبه على ذلك؛ ولهذا صار الإخلاص عزيزًا.

قوله: (**قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: الْأَنْدَادُ هُوَ: الشِّرْكُ...**): والشرك يدخل فيه: الشرك الأكبر والأصغر والخفي، ولكن هنا ذكر خفاءه، فدل على أن الشرك قد يكون في النية، وقد يكون في أقوال لا يشعر بها الإنسان، وقد يكون في فعل يخفى عليه، وهذا كثير جدًا، في القول والفعل والإرادة، وكثير من الناس لا يتنبه لهذا.

قوله: (**وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: وَاللهِ، وَحَيَاتِكَ يَا فُلَانُ...**): أي أن تحلف بغير

وَتَقُولَ: لَـوْلَا كُلَيْبَـةُ هَـذَا؛ لَأَتَانَـا اللُّصُـوصُ، وَلَـوْلَا الْـبَطُّ فِي الـدَّارِ؛ لَأَتَـى اللُّصُوصُ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ» رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

الله جل وعلا، فيكون هذا من التنديد بحياته أو بحياة غيره من المخلوقات، أو بذات المخلوق.

قوله: (**لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا؛ لَأَتَانَا اللُّصُوصُ...**): هذا من نسبة الأمر إلى غير الله، والمعنى أن الكلبة تنبَح، وتُنبه أهل البيت، فيتنبهون، فيطردوا اللصوص، فذكر بعض السبب، وأضافه إليه، فكان هذا من الشرك؛ لأن التصرف كله لله، فهو المالك لكل شيء، وهو الذي يتصرف بكل شيء جل وعلا.

قوله: (**وَلَوْلَا الْبَطُّ فِي الدَّارِ؛ لَأَتَى اللُّصُوصُ...**): البط الطائر الذي إذا استغرب أحدًا صوَّت، فيكون مثل الكلب الذي ينبح إذا رأى الغريب، فهو ينبه أهل البيت. قوله: (**وَقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ**): أي أن يجمع بين ما هو لله وما هو للمخلوق بالواو، سواء كانت مشيئة أو فعلًا أو قولًا أو غير ذلك.

قوله: (**وَقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ، لَا تَجْعَلْ فِيهَا فُلَانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ**) أي شرك بالله جل وعلا، يُعاقَب عليه، فالواجب أن تضاف الأمور إلى الله جل وعلا وحده، وإذا ذكر شيء لله فلا يجوز أن يعطف عليه بالواو؛ لأن الواو -كما سيأتي- تدل على مطلق الجمع والتشريك، فيقال: (ثم)، فيجوز

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَحَسَّنَهُ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ.

وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا».

أن تقول: «لولا الله ثم فلان»، أو: «ثم كذا وكذا»؛ لأنها تدل على التراخي والترتيب.

قوله: (فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ»):

(أو) هذه يجوز أن تكون شكًّا من الراوي، أنه قال: «كفر»، أو «أشرك»، ويجوز أن يكون المقصود بها: كفر وأشرك؛ لأن «أو» تأتي بمعنى الواو، وهذا أقرب، والكفر يدخل فيه الشرك؛ لأن الكفر أعم من الشرك، فقد يوجد الكفر بلا شرك، كالذي يشهد أن لا إله إلا الله، ولكن لا يشهد أن محمدًا رسول الله، فيكون كافرًا، وإن لم يكن مشركًا؛ لأن الشرك أن يعبد مع الله غيره، أو يجعل لله شريكًا في أمر من الأمور، وإن دق، كما في هذه الأقوال في معنى الآية.

قوله: (وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: «لَأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا»): الحلف بالله كاذبًا يسمى: «يمينًا غموسًا»، واليمين الغموس من الكبائر، فهذا يدل على أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر؛ لأن الحلف بالله كاذبًا، هو الذي يغمس صاحبه في العذاب أو في الإثم، ولكن إذا حلف بغير الله وقع في الشرك، وإن كان هذا من الشرك الأصغر، إلا أنه أكبر من الكبائر.

وَعَنْ حُذَيْفَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: «أَنَّهُ يُكْرَهُ: أَعُوذُ بِالله وَبكَ، وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِالله ثُمَّ بِكَ»، قَالَ: «وَيَقُولُ: لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ، وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ».

قوله: (وَجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخَعِيِّ: «أَنَّهُ يُكْرَهُ أَعُوذُ بِالله وَبِكَ...»).

النخعي من أصحاب ابن مسعود ﷺ، والكراهة في لسان السلف يُقصد بها التحريم؛ لأن كراهة التنزيه أمر مصطلح عليه متأخر، المتأخرون هم الذين قسموا الكراهة إلى قسمين: كراهة التحريم، وكراهة التنزيه، حتى يميزوا بين الأمور كلها، ويكون ذلك من دقائق العلم.

قوله: (وَيَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِالله ثُمَّ بِكَ): السبب أن «ثم» تدل على التراخي والترتيب، أي تراخي الفعل عن الآخر وتقديمه عليه، بخلاف «الواو»، فإنها تدل على مطلق الجمع، فلا يجوز أن تُقال فيما لله وما للمخلوق.

قوله: (وَيَقُولُ: لَوْلَا اللهُ ثُمَّ فُلَانٌ): إذا كان فلانًا سببًا.

قوله: (وَلَا تَقُولُوا: لَوْلَا اللهُ وَفُلَانٌ): فإن هذا يكون شركًا، وكل هذه من شرك الألفاظ، التي كثر وجودها في ألسنة الناس، وهم لا يتنبهون لكثير منها.

قوله: (الثَّالِثَةُ: أَنَّ الحَلِفَ بِغَيْرِ الله شِرْكٌ): سواء كان الحلف بالكعبة، أو بالنبي، أو بالملائكة، لا يجوز الحلفَ إلا أن يكون بالله، أو بصفة من

....

صفاته، أما الحلف بمخلوق فهو شرك، وأما الله ﷻ فيقسم بمخلوقات كثيرة، كما قال: ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ١﴾ [الشمس: ١] ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [الليل: ١] فالله ﷻ له أن يُقسم بما يشاء، وإقساماته جل وعلا تدل على عظمته وعلى آياته، أما نحن فنحن مقيدون، نحن عبيد لله، فيجب ألا نقسم إلا بالله، أو بصفة من صفاته، وإذا أقسم الإنسان بالله أو صفة من صفاته وجب عليه أن يفي بقسمه، فإن لم يفِ فإنه مخالف ووقع في الإثم.

❊❊❊

بَاب مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحَلِفِ بِاللهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، وَمَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ...................

المسلم يجب أن يكون الله عنده عظيمًا، وله قدر كبير في قلبه، فإذا ذُكر فليوجل قلبه، وإذا أُكد الخبر باسمه فليصدق ولَيرْضَ، فإن لم يفعل ذلك دل على أن إيمانه ضعيف أو لا وجود له، ولهذا السبب أدخل هذا الباب في كتاب التوحيد، وإن كان الظاهر أن المقصود به الحلف في الخصومات؛ لأن الإنسان إذا تقدم بدعوى يجب أن يكون عنده بينة، فإذا لم يكن له بينة، فخصمه يحلف له، فإذا حلف الخصم، وكان الخصم معروفًا بالصدق والاستقامة، وليس عنده من الكذب والفجور والخروج عن الطاعة ما هو معروف؛ فإنه يجب عليه أن يصدق، أما إذا كان معروفًا بأنه يكذب، وأنه غير مستقيم، فلا يلزمه أن يصدقه في حلفه، هذا هو المقصود من كلام المؤلف، والله أعلم.

وقوله: (باب مَا جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالْحُلِفِ بِالله): أي ما جاء من الوعيد؛ أنه متوعد بأنه ليس من الله في شيء، ومن لم يكنَ من الله في شيء فهو خاسر في آخرته وهالك.

قوله: (لَا تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ)؛ لأن الحلف بغير الله شرك.

قوله: (مَنْ حَلَفَ بِالله فَلْيَصْدُقْ)؛ لأن الكذب في الحلف يكون من الكبائر؛ ولذا سمي يمينًا غموسًا؛ لأنه يغمس صاحبه في الإثم أو في النار.

قوله: (ومن حُلِف له بالله فليرض): أي إذا توجهت الحكومة عليه، ولم

وَمَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ الله» رَوَاهُ ابْنُ مَاجَهْ بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

يبق له إلا حلف الخصم، فيجب عليه إذا حلف -وهو مرضي الدِّين- أن يرضى؛ لأن الأصل في المسلم أنه يُعظم الله، وأن الدنيا لا تكون عوضًا عنده لأنْ يحلف من أجلها وهو كاذب، أما إذا تبين أن الرجل بخلاف ذلك فلا يلزمه الرضا، والله أعلم.



بَاب قَوْلُ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ

عَنْ قُتَيْلَةَ: «أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ؛ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: وَرَبِّ الْكَعْبَةِ، وَأَنْ يَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتَ» رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وَصَحَّحَهُ.

وَلَهُ أَيْضًا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﭭ: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

هذا الباب داخل في باب (﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾)، وإنما خصه لأن الأدلة التي جاءت فيه خاصة.

قوله:(عَنْ قُتَيْلَةَ...) إلخ : هذا يدل على أن الشرك معروف عند اليهود، وأنهم يُعيبونه، ولكن المؤلف يقول: فيه دليل على فهم الإنسان إذا كان له هوى، فاليهود يريدون أن يعيبوا على المسلمين، فذكر هذا الشيء الذي يكون دقيقًا، لا يفهمه كثير من الناس، من باب العيب عليهم؛ لأنه شرك، لذا قال (إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ)، وفيه أن الحق يجب أن يُقبل ممن قاله، وإن كان عدوًّا للسامع، يجب أن ينقاد له ويُقبل؛ ولذا قبله الرسول ﷺ، ونهاهم أن يشركوا بالله جل وعلا في الحَلِف، وهذا من شرك الألفاظ، التي يجب أن يُنزه المُوحِّد ألفاظه منها، حتى لا يكون في عمله شرك، وإن كان من الشرك الأصغر، وسبق أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر.

قوله: («أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟! بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»): في هذا وجوب

وَلِابْنِ مَاجَهْ عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا، قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ...

إرجاع الأمر إلى الله جل وعلا فيما هو أمر واحد، فلا يشارك الله في أمر واحد بينه وبين المخلوق، مثل: المشيئة، أو القدرة، وغيرها مما هو لله، فيجب أن يُخلص لله وحده، وإذا أريد أن يُعطف على الأمر الذي لله، يجب أن يكون العطف بـ «ثم» التي تكون للتراخي والترتيب، وهذا لا محذور فيه، بخلاف «الواو». والند: هو المثل والنظير، وهذا يدل على أن الند يكون ولو بصفة؛ لأن الرجل أشرك في المشيئة «مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ، فَقَالَ: أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟»، أي ندًّا في مشيئته، فالند يكون في المشيئة، ويكون في الفعل، ويكون في المحبة وفي العبادة وفي التأله، وغير ذلك.

قوله: (وَلِابْنِ مَاجَهْ عَنِ الطُّفَيْلِ): الطفيل هو: الطفيل بن الحارث بن سخبرة، يقولون: إن الحارث حالف قريشا في الجاهلية، ثم مات، فعقبه أبو بكر على زوجته أم رومان، وقد كانت ولدت لعبد الله الطفيل وغيره، ثم ولدت لأبي بكر عائشة وعبدالرحمن، وقال بعضهم غير هذا، والله أعلم، لكن هذا وجه قوله: (أَخِي عَائِشَةَ لِأُمِّهَا).

قوله: (قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ): النفر هم الجماعة دون العشرة، ولا مفرد له من لفظه، كالرهط.

قوله: (قُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ): أي القوم الكاملون، لولا أنكم تنددون وتشركون، وتسبون الله، وتجعلون له

قَالُوا: وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ، قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ،

ولدًا، يقولون: عزير بن الله، تعالى الله عن قولهم، وهذا من أكبر العيوب، ولا يلزم أن اليهود كلهم يقولون هذا، يكفي أن يقوله بعضهم، فيضاف إليهم؛ لأن الذين لا يقولون هذا لم ينكروه، فعمهم الله كلهم، ومثل ذلك يقال في النصارى.

قوله: (قَالُوا: وَأَنْتُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ): فردوا عليه بشيء من الشرك، وإن كان هذا من الشرك الأصغر، والأول أكبر، ولكن الشرك كله ممقوت، وكله يجب أن يحارب، وأن يبتعد العبد عنه، وهو عيب فيمن وقع فيه.

قوله: (ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ ...): وهذا أيضا تنقص لله ومسبة، تعالى الله وتقدس أن يكون له ولد أو والد ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ [الإخلاص: ١ – ٤] ، فهم بهذه المقالة قالوا منكرًا وزورًا وفجورًا، وشركًا عظيمًا، ولهذا استحقوا بذلك الخلود في جهنم، كما قال المسيح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ ، هذا قاله بعد مقالة الذين قالوا: إن المسيح ابن الله.

قوله: (قَالُوا: وَإِنَّكُمْ لَأَنْتُمُ الْقَوْمُ لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ...): قالوا الأمر

فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟»، قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وَإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا...

نفسه الذي قاله اليهود، وهذا يدل على أن المسلمين وقعوا في هذا الشرك اللفظي فقط.

قوله: (فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ...): مقصود النبي ﷺ -والله أعلم- من قوله: (هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟)، أنه إذا ذكرها للناس فإن الخبر يكون معروفا عندهم، فيبني على ذلك الحكم الذي ذكره، وإن كان يبني على الحكم ولو لم يخبر به، ولكن الرؤيا إذا أُخبر بها وفُسرت فإنها تقع.

قوله: (قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ): حمد الله: قال: الحمد لله رب العالمين، وذكر له محامد، وأثنى: أي كرر الحمد، هذا هو الثناء، والرسول ﷺ، كثيرا ما يُثني بحمد الله.

قوله: (ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ: ...): هذا فيه دليل على مشروعية قول هذه الكلمة عند الخطاب «أما بعد» فقد جاء فيها الحديث.

قوله: (فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ...): هذا دليل على أن الرؤيا تكون سببًا لتشريع حكم من الأحكام، وهذا معروف، كما ثبت في قصة الأذان، والذكر بعد الصلاة، وغير ذلك.

قوله: (يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا): جاء في رواية: «كَانَ يَمْنَعُنِي الْحَيَاءُ أن أقول ذلك» وإذا كان كذلك فمعناه أن الحياء من الله يمنعه؛ لأنه لم

فَلَا تَقُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ مُحَمَّدٌ، وَلَكِنْ قُولُوا: مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ».

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ.

الثَّانِيَةُ: فَهْمُ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوًى.

الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟!» فَكَيْفَ بِمَنْ قَالَ:

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ .... سِوَاكَ

وَالْبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ؟

يوحِ إليه، هو كان يكرهه، ولكن ما جاءه أمر بالنهي عنه، حتى جاءت هذه الرؤيا فصارت سببًا للنهي، والله ﷻ يكمل الدين شيئًا فشيئًا حتى يكتمل في النهاية، وإن كان قبل ذلك مكتملًا بالنسبة لمن امتثل، فمن مات قبل تكميله مات على الإيمان الكامل؛ لأنه لو جاءه شيء غير ذلك لقبله وقام به، فالاستعداد موجود، إذن فالحياء المذكور هو من الله وليس من الناس؛ لأنه صلوات الله وسلامه عليه، لا يمنعه أن يأمر بالأمر الذي يأمر الله به مانع، ولو قام الناس كلهم في وجهه كما هو معلوم.

قوله: (**الْأُولَى: مَعْرِفَةُ الْيَهُودِ بِالشِّرْكِ الْأَصْغَرِ**)؛ لقولهم: «**إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ**».

قوله: (**الثَّانِيَةُ: فَهْمُ الْإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوًى**): أي إن النصارى هواهم عيب المسلمين؛ لأنهم أعداهم، ففهموا هذا الشيء الدقيق.

قوله: (**الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي لله نِدًّا؟!» فَكَيْفَ بِمَنْ قَالَ:...**):

الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ؛ لِقَوْلِهِ: «يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا».

يقصد الأبيات:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ بـه سواك عند حدوث الحادث الأمم

إن لم تكن في معادي آخذا بيدي فـضلا وإلا فـقل: يـا زلة القـدم

فإن من جودك الدنيـا وضرتهـا ومن عـلومك علم اللوح والقلم

ولن يضيق رسولَ الله جاهُك بي إذا الكريـم تحـلى بـاسم منتـقم

هذا من الشرك الصريح الواضح، دعاء رسول الله ﷺ، وإن كان كثير من الناس يعتذر عنه، ويقول: هذا من باب الشفاعة، كيف يكون شفاعة الدعاء والنداء والاستعاذة واللجوء ؟. ويقول في همزيته، لما شكا إلى الرسول فقره وفاقته ومرضه، قال:

هـذه عـلتي وأنـت طبيبي ليس يخفى عليك في القلب داءُ

أي إن الرسول يعلم ما في القلوب، ويقول عن نفسه: إنه أنشد هذه الهمزية أمام القبر، وهو مكشوف الرأس، لماذا مكشوف الرأس؟ لأن كشف الرأس عبادة لله، ولذا المحرم يكشف رأسه عبادة، وهو كشف رأسه عبادة للرسول، نسأل الله العفو، وغيره مثله كثير.

قوله: (**الرَّابِعَةُ: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الْأَكْبَرِ...**): وحتى إن كان من الشرك الأصغر، ينهى عنه، ولكن الصحيح أنه لم يوح إليه في ذلك، وكان الحلف بالآباء في أول الأمر جائزا، هذا هو الصحيح، ثم حرم؛ لذا ثبت في «صحيح مسلم»، في قصة الأعرابي، من حديث طلحة بن عبيد الله قال:

الْخَامِسَةُ: أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الْوَحْيِ.

السَّادِسَةُ: أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِشَرْعِ بَعْضِ الْأَحْكَامِ.

«جاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ مِنْ أَهْلِ نَجْدٍ ثَائِرُ الرَّأْسِ، نَسْمَعُ دَوِيَّ صَوْتِهِ، وَلَا نَفْقَهُ مَا يَقُولُ حَتَّى دَنَا مِنْ رَسُولِ الله ﷺ، فَإِذَا هُوَ يَسْأَلُ عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ، وَاللَّيْلَةِ**» فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُنَّ؟ قَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَوَّعَ، وَصِيَامُ شَهْرِ رَمَضَانَ**»، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ؟ فَقَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**»، وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ الزَّكَاةَ، فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا؟ قَالَ: «**لَا، إِلَّا أَنْ تَطَّوَّعَ**»، قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ، وَهُوَ يَقُولُ: وَالله، لَا أَزِيدُ عَلَى هَذَا، وَلَا أَنْقُصُ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَفْلَحَ، وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ، أَوْ دَخَلَ الْجَنَّةَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ**» ، فقوله: «وأبيه» حلف، وكان الصحابة ﷺ يحلفون بآبائهم، حتى نسخ بعدُ، أما قول النووي -رحمه الله-، وغيره من العلماء: «إن هذا جرى على ألسنتهم بدون قصد»، فهذا غير صحيح، يجري على ألسنتهم الشرك بدون قصد؟ بل هذا كان جائزًا ثم نُسخ، فهذا مثله، وليس الحديث واحدًا، لو كان واحدًا لأمكن أن يقال مثلما قال القاضي عياض: إن الراوي أخطأ، أصله «أفلح والله فقال: أفلح وأبيه»، قد يقال: إن الراوي أخطأ، هذا لو كان حديثًا واحدًا، أما إذا كانت أحاديث متعددة فلا يقال بهذا.

❁ ❁ ❁

بَاب مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ

....

قوله: (بَاب مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى الله): ابن آدم يؤذي ربه، ولكنه لا يضره، والفرق بين الأذى والضر أن الأذى من الأمور الخفيفة، التي تكون بالكلام أو بالسب، إلخ، أما الضر فلا ينال الله جل شأنه، لا يضره شيء تعالى وتقدس.

والفرق بين الأذى والضُّر في لغة العرب؛ ما جاء عن الأصمعي قال: «كنت في البادية، فقلت لامرأة من البادية: ألا يضركم البرد والحر ؟ فقالت: لا، سواء، قلت: كيف؟ قالت: البرد ضُر، والحر أذى»، أي إن الحر يؤذي فقط، أما البرد فهو يقتل، يضر، فالأذى للأمر الخفيف، أما الضر فلا أحد يضر الله جل وعلا، ولكنهم يؤذونه بالمسبة.

والدهر هو الليل والنهار، والله هو الذي خلق الليل والنهار، وإذا سب إنسان مخلوقًا فإن السب يعود إلى الخالق، كما أن الإنسان إذا سب صَنعة، فإن السب يعود إلى الصانع، فلو سب إنسان هذا العمود مثلًا، العمود ليس له شأن ولا تدبير، ولكن المسبة لمن صنعه، لما غفا عبد العزيز الكناني، من كثرة الضرب، وما يناله من زبانية السلطة، أُدخل على المأمون في حالة يكاد يُغمى عليه، وكان عند المأمون أخوه المعتصم، ورأى وجه عبد العزيز، فقال: يا أمير المؤمنين يكفيك من هذا قُبح وجهه، فلما أفاق عبدالعزيز وذهب الرعب عنه، ورجع إليه عقله، وإلى ما عنده من العلم، وبدأت المناظرة في مسألة خلق

....

القرآن، قال للمأموم: قبل أن ندخل في المناظرة، أسألك بالله، من أحسن الناس وجها؟ فقال: اللهم يوسف، وما المقصود بهذا ؟ قال: وماذا جر عليه حسن وجهه، قال: لبث في السجن سبع سنين، قال: وهل الإنسان هو الذي صنع وجهه، هل يوسف هو الذي صنع وجهه بحسنه وجماله ؟ قال: بل الله، وما تريد من هذا ؟ قال: سمعت رجلا ممن عندك ههنا، يقول: يكفيك من هذا قبح وجهه، وأنا لا صنع لي في وجهي، إنما قبح فعل الله، فهذا فعل الله، ولا أبالي إذا أعطاني الله أدبًا وعلمًا وإيمانًا، فقال: لقد أساء»، المقصود أن سب المخلوق يعود إلى الخالق، وسب الصنعة يعود إلى الصانع.

والسب كثير جدًّا من السفهاء والحمقى، ومن لا خَلاق لهم من الشعراء قديمًا وحديثًا، ومن الأدباء الذين يسبون الدهر كثيرًا، ومسبتهم تعود إلى الله، وهم بهذه المسبة قد يخرجون من الدِّين نهائيًا، ولا يكون عندهم إيمان ولا توحيد، ولهذا فمن سب الدهر آذى الله، فهم يقولون: «الدهر أخنى علينا»، «الدهر ظلمنا»، «الدهر أكلنا»، «الدهر عاد إلى الجهلاء بالحسن والمال والحظ، وعاد علينا بخلاف ذلك»، هذا كله كذب على الله جل وعلا.

والمقصود أن الدهر من فعل الله جل وعلا، ومن سب الفعل عاد السب إلى الفاعل؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾[الجاثية: ٢٤] أي مرور الليالي والأيام وطول العمر، ثم يموتون، وليس بعد ذلك شيء، لا بعث ولا جزاء ولا جنة ولا نار، فهم ينكرون المعاد، كما يقوله بعض الملاحدة اليوم، يقولون: الحياة مادة، وإذا مات الإنسان صار ترابا في الأرض، وانتهى، وهذا من الكفر.

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ [الجاثية: ٢٤] الْآيَةَ.

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ، وَأَنَا الدَّهْرُ؛ أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»، وَفِي رِوَايَةٍ: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

قوله: (وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ ...) : هذا في «الصحيحين».

قوله: (قَالَ اللهُ تَعَالَى): هذا حديث قدسي، والحديث القدسي هو الذي يضاف إلى الله لفظًا ومعنى، يرويه الرسول ﷺ، لكنه ليس كالقرآن؛ لأن القرآن متعبد بتلاوته، معجز بألفاظه ومعانيه، ولا يثبت إلا بالتواتر، بخلاف الأحاديث.

قوله: (وَأَنَا الدَّهْرُ): فسرها بقوله: (أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ)، أي هذا فعلي، ومن سب الفعل عاد السب إلى الفاعل.

قوله: (وَفِي رِوَايَةٍ: لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ): هذه رواية فيها أن الرسول ينهى، وهذا النهي للتحريم، ومن فعل ذلك يوشك أن يكون خارجًا من الدين الإسلامي، بل يدل على أنه ليس عنده من الدِّين ما يمنعه من الدخول في الكفر؛ ولذا قال: (فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ).

ولا يجوز أن نقول: إن الدهر اسم من أسماء الله، كما زعم أبو محمد ابن حزم -رحمه الله-، فإن هذا خطأ، المقصود بالدهر أنه مقلب ليله ونهاره، وأنه الذي يتصرف به، فالليل والنهار لا خيار له، وليسا أوجدا نفسيهما، ولا أوجدهما مخلوق، وإنما هما من أمر الله جل وعلا، يصرفهما كيف يشاء، فمن

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ.

الثَّانِيَةُ: تَسْمِيَتُهُ آذَى اللهَ.

الثَّالِثَةُ: التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًّا، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ.

سب المأمور وقع السب على الآمر، كما أنه إذا سب المفعول وقع السب على الفاعل.

قوله: (**الثَّالِثَةُ: التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»**): أي إن هذا ليس من أسماء الله، وإنما تفسيره أنه هو الذي خلق الليل والنهار، وهو الذي أمر به، وهو يأتمر بأمر الله.

قوله: (**الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًّا، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ**): أي وإن كان بلفظه فقط.

❁ ❁ ❁

بَاب التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ وَنَحْوِهِ

فِي «الصَّحِيح» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهَ».

قَالَ سُفْيَانُ: «مِثْلُ: شَاهَانْ شَاهْ».

قوله: (باب التَّسَمِّي بِقَاضِي الْقُضَاةِ): هذا أخذًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ لأن قاضي القضاة بالمعنى لا يطلق إلا على الله عز وجل، قوله: (وَنَحْوِهِ) مثل: «ملك الملوك»، وما أشبه ذلك من الألقاب التي يتلقب بها أو قد يتسمى بها بعض الناس، ونحو: «سيد الناس»، أو «سيد الكل»، أو «سيد الوجود»، وما أشبه ذلك، فإن هذا كله كذب؛ لأنه لا يجوز أن يطلق إلا على الله جل وعلا، فمن فعل ذلك فقد وقع في أمر عظيم، وهو دليل على أن التوحيد عنده إما ناقص، أو معدوم، والأصل في هذا تعظيم الله ومعرفة حقه، ومعرفة معاني أسمائه وصفاته.

قوله: (إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ): فسر أخنع بأنه أوضع وأحقر اسم، والمقصود المسمى الذي سمي بهذا الاسم، رجل تسمى «ملك الملوك»، لا مالك إلا الله، هو ملك يوم الدين، ملك الناس، فالذي يملك الملوك هو الله تعالى، لا يجوز إطلاقه إلا على الله، أما إذا أطلق على المخلوق فإنه يكون حقيرا، وضيعا عند الله جل وعلا، ولا بد أن تظهر عليه الحقارة والضعة التي يلزمه الله عز وجل إياها.

قوله: (قَالَ سُفْيَانُ: «مِثْلُ: شَاهَانْ شَاهْ»): أي لا فرق أن يكون هذا

وَفِي رِوَايَةٍ : «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ».

قَوْلُهُ: «أَخْنَعُ» يَعْنِي: أَوْضَعَ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنِ التَّسَمِّي بِمَلِكِ الْأَمْلَاكِ.

الثَّانِيَةُ: أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ كَمَا قَالَ سُفْيَانُ.

الثَّالِثَةُ: التَّفَطُّنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا وَنَحْوِهِ مَعَ الْقَطْعِ بِأَنَّ الْقَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الرَّابِعَةُ: التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لِأَجْلِ الله سُبْحَانَهُ.

باللغة العربية أو الأعجمية، «شَاهَانْ شَاهْ» معناها: ملك الملوك باللغة الفارسية.

قوله: (وَفِي رِوَايَةٍ : «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى الله يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَخْبَثُهُ»): هذا يدل على عظم هذا الفعل، وكل هذا حماية لحق الله جل وعلا، واجب على العباد أن يعرفوا حق الله، ويمتثلوه، ويجتنبوا أن يقعوا في سوء الأدب مع ربهم جل وعلا، ولا يكون موحدا من أساء الأدب مع ربه ﷻ، ونازعه في شيء من حقوقه وخصائصه، تعالى وتقدس.

❁ ❁ ❁

بَاب
احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللهِ تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيْح ﷺ أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الْحَكَم، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ»، فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ

قوله: (بَاب احْتِرَامُ أَسْمَاءِ الله تَعَالَى وَتَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ): أي من عدم احترامها التكني بشيء منها، كما في هذا الحديث؛ لأن «الحكم» من أسماء الله، فلا يجوز أن يُكنى الإنسان بشيء من أسماء الله، فإن فيه امتهانًا لها، وإساءةَ أدب مع الله تعالى، فيجب أن يُغير إذا كان بهذا المعنى، وكذلك التسمي بما يكون من خصائص الله، مثل: النسبة لله، كالرحمن، أو العزيز، أو ما أشبه ذلك، فإن العجم قد يطلقون هذا في بعض الأسماء؛ لأنهم لا يعرفون معاني اللغة العربية، وقد يكون يعرف ذلك ثم يتسمى بهذا، فهذا لا يجوز؛ لأن فيه إساءة أدب مع الله، وامتهانًا لأسماء الله جل وعلا.

وقد كان المشركون يسمون أصنامهم بأسماء يأخذونها من أسماء الله، كما سموا الأصنام آلهة، هذا كذب وزور؛ لأن الآلهة ما يؤله ويعبد، وكل مألوه معبود، فالمعبود هو الله وحده، وكذلك سموا بعضها العزى، أخذا من اسمه العزيز، ومناة، أخذًا من اسمه المنان، واللات، أخذا من «الله»، تعالى الله وتقدس.

وهكذا بعض الناس يتكنى، فقدم أبو شريح مع الوفد الذين جاؤوا يخبرون الرسول ﷺ، بإسلام قبيلتهم، فسمع أصحابَه يدعونه «أبا الحكم»، فدعاه الرسول ﷺ، وقال له: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ وَإِلَيْهِ الحُكْمُ»، فقال أبو

بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ الله، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

الحكم: (إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِي كِلَا الْفَرِيقَيْنِ، فَقَالَ ﷺ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا» أي الصلح، وليس الحكم؛ لأن أحكام الجاهلية لا يجوز أن تقر أو تُصوب، وإنما هو صلح؛ لأن الصلح بين الطرفين المتنازعين جائز في أي وقت، وعند أي قوم، وإذا أصلح إنسان -وإن كان غير عالم؛ أصلح- بين ناس فرضوا في أمر لا يخالف أمر الله، ولا يحل محرمًا، ولا يحرم حلالا، ولا يتضمن ظلمًا؛ فإنه جائز مطلقًا، وهذا الذي قال له الرسول: «مَا أَحْسَنَ هَذَا»، وليس حكم الجاهلية.

قوله: (فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ وَمُسْلِمٌ وَعَبْدُ الله، قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»): هذا يدل علَى أن «الواو» لا تدل على الترتيب، وإنما تدل على مطلق الجمع؛ إذ لو كانت تدل على الترتيب، لاكتفى بقوله: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ»، ولم يقل: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟»، ودليل على أن الكبير له حق أنه يُقدم على الصغير، والكنية من الأمور التي تدل على المدح، بخلاف اللقب، فاللقب يدل على الذم، ولهذا يقول الشاعر:

أَكْنيه حين أناديهِ لأُكرمَهُ ... ولا أُلقِّبه فالسوءة اللقبُ

فاللقب يسوء؛ ولذا نهانا ربنا جل وعلا عن التنابز بالألقاب، وهو من الأمور الكبيرة، ولكن الكنية لا يجوز أن تكون باسم من أسماء الله جل وعلا.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: احْتِرَامُ أَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

الثَّانِيَةُ: تَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ.

الثَّالِثَةُ: اخْتِيَارُ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ.

قوله: (الْأُولَى: احْتِرَامُ أَسْمَاءِ الله وَصِفَاتِهِ، وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ): لا فرق بين الأسماء والصفات، كلاهما ثابت لله جل وعلا، ويجب أن تحترم.

قوله: (الثَّانِيَةُ: تَغْيِيرُ الِاسْمِ لِأَجْلِ ذَلِكَ): أي وجوب تغيير الاسم من أجل ذلك.

قوله: (الثَّالِثَةُ: اخْتِيَارُ أَكْبَرِ الْأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ): أي إن الكنية للإكرام، فيكون الأكبر هو الأولى.

❁❁❁

بَاب
مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ الْقُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥] الْآيَةَ.

قوله: (باب مَنْ هَزَلَ بِشَيْءٍ فِيهِ ذِكْرُ الله أَوِ الْقُرْآنِ أَوِ الرَّسُولِ): أي فقد كفر، وخرج من دين الإسلام.

والهزل: المزح، أن يمزح، ولا يقصد بذلك الجد، الهزل ضد الجد، فالجد أن يكون أصله كافرا معاديا، وأما هؤلاء فقد ذكر الله أنهم كانوا مؤمنين قبل هذه المقالة، وأخبر أنهم خرجوا من الإيمان بهذه المقالة.

قوله: (وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ ﴾ أي هؤلاء الذين خاضوا في هذه المقالة، إذا سألتهم فسيقولون معتذرين: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ﴾، أي لا نقصده، والخوض في الشيء قد يكون غير مقصود، ﴿وَنَلْعَبُ ﴾: أي نمزح، ولا نقصد الجد، وإنما نذكر الأمور التي تُضحك، حتى يحصل النشاط؛ لأن السفر يكون فيه ضجر وتعب، وإذا مزح الإنسان وضحك حصل له شيء من النشاط، هذا مرادهم.

ولكن هذا ليس هو موضع اللعب، وليس هذا هو موضع المزح، آيات الله، أو رسول الله، أو أحكامه، أو الله جل وعلا وأسماؤه؛ ليست محلا لذلك، من وقع في ذلك فإنه يكون كافرا، خارجا من دين الإسلام.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ، دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ: «أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ؛ أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ -يَعْنِي رَسُولَ الله ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ- فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ؛........

قوله: (وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ وَمُحَمَّدِ بْنِ كَعْبٍ وَزَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ وَقَتَادَةَ، دَخَلَ حَدِيثُ بَعْضِهِمْ فِي بَعْضٍ): هكذا كلام ابن إسحاق.

قوله: (مَا رَأَيْنَا مِثْلَ قُرَّائِنَا هَؤُلَاءِ) : القراء: العلماء بلسان الصحابة ولسان التابعين، إذا قيل: القارئ، فإنهم يقصدون العالم.

قوله: (أَرْغَبَ بُطُونًا، وَلَا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، وَلَا أَجْبَنَ عِنْدَ اللِّقَاءِ): أي إن بطونهم كبيرة، وهذا كله كذب، والمزح في الغالب يكون كذبًا حتى يضحك الناس، أما إذا كان في الواقع فلا يضر، وكل هذا كذب، فهم أشجع الناس، وأزهد الناس في الدنيا، وليست بطونهم كبيرة كما زعم هذا القائل، وهم أصدق الناس، ولا عُرف عنهم الكذب.

قوله: (يَعْنِي رَسُولَ الله ﷺ وَأَصْحَابَهُ الْقُرَّاءَ-): رسول الله وأصحابه، وفي رواية أنهم قالوا: «يزعم هذا - يقصدون الرسول - أنه يقاتل بني الأصفر، كأننا بهم مقرنين في الحبال غدا»، أي إن الروم يقرنونهم بالحبال، وهذه قضية أخرى، وهذا لا يكون إلا من المنافقين، بخلاف المقالة هذه، فقد تصدر من غير المنافق، ممن هو جاهل، وهذا هو الظاهر من هذه القصة.

قوله: (فَقَالَ لَهُ عَوْفُ بْنُ مَالِكٍ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ): كأن القائل رجل واحد، واتهمه بالنفاق؛ لأن هذا قول المنافقين، ففيه وجوب إنكار

لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ، فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ، فَجَاءَ ذَلِكَ الرَّجُلُ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله، إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ نَقْطَعُ بِهِ عَنَاءَ الطَّرِيقِ».

قَالَ ابْنُ عُمَرَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ وَإِنَّ الْحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ، وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ، فَيَقُولُ لَهُ رَسُولُ الله ﷺ : ....

المنكر، إذا سمع هذا المنكر ينكره، وإلا كان مشاركًا فيه، وقوله: (وَلَكِنَّكَ مُنَافِقٌ): فيه أن الإنسان إذا أظهر شيئا من صفات النفاق يجوز أن يُرمى بالنفاق، فيقال: أنت منافق.

قوله: (لَأُخْبِرَنَّ رَسُولَ الله ﷺ): في هذا أنه يجب أن يخبر رسول الله؛ لأنه هو ولي الأمر، يخبر بالشيء الذي فيه ضرر وفيه خروج عن أحكام الله جل وعلا، ولا يكون هذا من النميمة، بل من الواجب.

قوله: (فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلَى رَسُولِ الله ﷺ لِيُخْبِرَهُ، فَوَجَدَ الْقُرْآنَ قَدْ سَبَقَهُ): أي قد نزل الأمر من السماء قبل أن يأتي عوف بن مالك، مع أن المسافة قريبة جدًّا، وكانت عادة الرسول ﷺ، أنه إذا حدث شيء في الجيش، من خلاف أو شجار أو مخالفة أو مخاصمة، فإنه يأمر بالرحيل، حتى يشتغل الناس بالمسير، ويتركوا هذا الأمر، فأمر بأن ترحل راحلته فركب.

قوله: (مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقَةِ رَسُولِ الله ﷺ...): النِّسعة: الحبل الذي يُحزم به الرحل، والحبال التي يحزم بها الرحل ثلاثة:

﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥ – ٦٦]، مَا يَلْتَفِتُ إِلَيْهِ، وَمَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ».

الأول: مع بطن الناقة، مع وسط البطن، يسمى البِطان.

الثاني: تحت الرقبة، مع اللبة، يسمى: اللَّبَب.

الثالث: النسعة، إما في رسغ الناقة، والرسغ يكون من تحت الفخذ، أو يكون في ذنَب الناقة، فيأتي من قفاها ويتعلق بها؛ لأن الرسول ﷺ، كان يسوق ناقته بسرعة، فتعلق بها ليستطيع أن يوصل الكلام إلى الرسول ﷺ، والرسول ﷺ، لا يقبل منه، ولا يرد عليه، هذا فيه دليل على أن الأمور التي يعتذر منها، ليس كلها تقبل، منها ما يقبل ومنها ما لا يقبل، مثل هذا لا يقبل الاعتذار منه؛ ولهذا ما كان يزيده على قوله: ﴿تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، والله جل وعلا يقول: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: ٦٦] بهذه المقالة، هذا إجرام يخرجهم عن الدِّين؛ فلذا لم يقبل الرسول الاعتذار.

قد يقول قائل: لماذا لم يقتلهم ؟ الجواب: لأنه مرتد، الله أخبر أن له إيمانًا قبل هذا، ولكنه خرج منه، فجاء أن السبب في هذا ما قاله ﷺ: «لَا يَتَحَدَّثُ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ»، فيكون هذا مانعًا من دخول الناس في الإسلام.

الرجل الذي لا يدري عن الحقيقة، يقول: أخشى أن أدخل في الإسلام ثم أقتل، فلن أدخل فيه إذن، فهذا هو السر، وقد زال ذلك بوفاة رسول الله ﷺ، وثبوت دين الإسلام، ولكن قد يحصل هذا للجهلة، الذين لا يعرفون

....

حقيقة الإسلام، وهذا لا يمنع من إقامة الحدود في هذا الوقت، والله أعلم.



باب

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾

قَالَ مُجَاهِدٌ: «هَذَا بِعَمَلِي، وَأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ».

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: «يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي».

المقصود بهذه الضمائر جنس الإنسان بهذه الصفة، والرحمة من الله جل وعلا بلا استحقاق، أناله الله ﷻ من غير كد ولا عمل، وإنما هو فضل من الله جل وعلا، ولذا قال ﴿مِّنَّا﴾، أي ليس له فيها دخل.

قوله: (﴿مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ﴾): الضراء إما أن تكون بالمرض، أو بالفقر، أو بإدالة العدو، وما أشبه ذلك من الأمور التي لا بد منها، الإنسان لا بد أن يمسه الضر في هذه الحياة، ولا يمكن أن يسلم أبدا.

قوله: (﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِي﴾): أي إنه ينسى الأمر الذي وقع فيه، ويضيف النعم لنفسه، إما أن يكون معنى قوله ﴿لِي﴾: أي عملته بكدي وبكسبي، وبذكائي، وبكوني أَعرف وجوه المكاسب، علمت ذلك فصار لي، وإما أن يكون معناها: لي، أنا محقوق بهذا، والله يعلم أني أهل لهذا، فأعطاني إياه، وكلا الأمرين شر.

فقوله: «هذا بعملي»، يظن أنه هو الذي عمل ذلك واكتسبه، بصنعه أو بمعرفته، وقوله: أنا محقوق بذلك، أي أن الله يعلم أني أهل لهذا، وهذا كفر للنعم، ومن كفر بنعم الله، فقد كفر بالله جل وعلا، فيكون خاليا من التوحيد.

وَقَوْلُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ [القصص: ٧٨].

قَالَ قَتَادَةُ: «عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المَكَاسِبِ».

وَقَالَ آخَرُونَ: «عَلَى عِلْمٍ مِنَ الله أَنِّي لَهُ أَهْلٌ»، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِ مُجَاهِدٍ: «أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ».

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ الله ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، ....

قوله: (﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِيٓ﴾) : هذا قول قارون، لما خرج على قومه في زينته، فأضاف الأمر إلى نفسه، ﴿عِلْمٍ عِندِيٓ﴾ يحتمل أن يكون: علم عندي بوجوه المكاسب، أو أن الله يعلم أني أهل لهذا فأعطاني ذلك، فهو يضيف الأمر إلى نفسه في كلا الوجهين.

ثم ذكر قصة هؤلاء الثلاثة، الذين أصيبوا بالمرض الذي لا علاج له، الأبرص والأقرع والأعمى، أتاهم الملك، وخَيَّرهم، كل واحد اختار شيئًا، ولكن ثبت في «صحيح البخاري» في رواية، أنه قال: «أَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ »، وفي رواية: «بَدَا لله ﷻ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ »، وقد أنكر هذه الرواية بعض الناس، ولا نكارة فيها؛ لأن «بَدا» بمعنى «أراد»، كما هو معلوم، وليس هذا من البُدُو، الذي هو الظهور بعد الخفاء، هذا لا يجوز أن يكون لله جل وعلا، اليهود يقولون: يبدو لله، وكذلك الرافضة، ولكن الأحاديث تأتي كثير منها أو أكثرها بالمعنى، يرويها الراوي بالمعنى؛ ولهذا يأتي الحديث الواحد بألفاظ مختلفة، كحديث معاذ ﷺ، الذي في «الصحيحين»، لما أرسله الرسول ﷺ إلى اليمن، فيه رواية: «إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ

فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ، قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ، فَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا، وَجِلْدًا حَسَنًا، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ أَوْ الْبَقَرُ -شَكَّ إِسْحَاقُ- فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، وَقَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا.

إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ» هذه رواية، وفي أخرى: «فإذا وحدوا الله»، وفي ثالثة: «شَهدوا أن لا إله إلا الله»، وفي رابعة: «فإذا عبدوا الله»، وكلها بمعنى واحد، فلا يمكن أن يكون الرسول ﷺ، قال هذه الأربعة الألفاظ، وكل هذه الألفاظ في «الصحيحين»، وكذلك حديث عمران بن حصين ﷺ، الذي في «صحيح البخاري»، جاء بأربعة ألفاظ، هذا كثير جدًّا، حتى قيل لشعبة: «أكل ما ترويه لنا بلفظ الرسول؟ قال: لا، ما أروي لكم باللفظ إلا ثلاثة أحاديث أو أربعة أحاديث، الباقي كله بالمعنى»، وهذا معروف أنه جائز، إذا كان الراوي يعرف المعنى، فعبر بلفظ مرادف للآخر فلا بأس به.

قوله: (فَأَرَادَ اللهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ): الابتلاء هو الاختبار، أي يختبرهم، والله علام الغيوب، ولكن من رحمته أنه لا يأخذ إلا بالعمل الظاهر، وإلا فإنه يعلم حال هؤلاء، ولكنه لا يأخذ بعلمه جل وعلا؛ إقامة للحجة.

وصرح أن هؤلاء من بني إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق، وهم فيهم عجائب؛ ولذا عقد البخاري كتابًا في صحيحه «أخبار بني إسرائيل».

قوله: (فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ، وَجِلْدٌ حَسَنٌ...)؛ لأن جلده متغير بسبب المرض، وهكذا

قَالَ: فَأَتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ، وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا، فَقَالَ: أَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ أَوْ الإِبِلُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، قَالَ: بَارَكَ اللهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَأُبْصِرُ بِهِ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ اللهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ، قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأُنْتِجَ هَذَانِ، وَوَلَّدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ.

الآخران، وبعدما تمولوا الأموال، وصار كل واحد له واد من المال، البقر أو الغنم أو الإبل، أتى إليهم في صورهم التي كانوا عليها، أتى إلى الأبرص في صورة رجل أبرص فقير ليذكره، فقال: أسألك بالله الذي أعطاك هذا المال، بعيرا أتبلغ به في سفري، أنا منقطع في السفر، فقال له: الحقوق كثيرة، فإذا أعطيت كل واحد حقه فبالإمكان أن ينفذ مالي، فقال: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقْذرك الناس، وكنت فقيرا ليس في يديك شيء، فأعطاك الله هذا المال؟ قال: هذا مالي، ورثته عن آبائي كابرًا عن كابر، قال: إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت إليه.

ثم ذهب إلى الأقرع، جاء إليه بصورته؛ تذكيرا له، وهذا من أبلغ ما يكون، ولكنه أبى أن يعطي شيئا، وخاف الفقر، وجحد وكذب، أما الأعمى فجاءه بصورة أعمى أيضا، وسأله شاة، فقال: قد كنت أعمى فقيرًا، فوهبني الله جل وعلا مالا، خذ ما شئت، والله لا أجهدك في شيء تأخذه اليوم لله، أي لو أخذت المال كله ما كان ذلك مكروها لدي، فقال: أمسك عليك

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، وَابْنُ سَبِيلٍ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ، بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ بِهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ، فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ! أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ، فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ ﷻ الْمَالَ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَيْهِ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنْتَ.

قَالَ: وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ، وَابْنُ سَبِيلٍ، قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِالله ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ؛ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي، فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَالله لَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَخَذْتَهُ لله، فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ، فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» أَخْرَجَاهُ.

مالك، إنما ابتليتم، فرضي الله عنك، وسخط على صاحبيك.

وهذا شأن الإنسان، أكثر الناس كافر بنعم الله منكر لها، فمن كفر بنعمة الله وأنكرها، فإنه يكون خاليا من توحيد الله جل وعلا، ويجب على الإنسان أن يضيف النعمة إلى ربه، ويشكره عليها، ويستعين بها على عبادته، وإن لم يكن كذلك فإنه مأزور غير مأجور، وقد يكون العقاب عاجلًا، مثلما حصل لهؤلاء.

باب قَوْلُ الله تَعَالَى

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الآية.

قوله: (بَاب قَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾): يظهر أن المؤلف ﷺ يقصد بذلك آدم وحواء، وقد صرح بذلك فيما رواه ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وهذا القول موقوف، ليس مرفوعًا إلى النبي ﷺ، والصحيح -والله أعلم-: أن هذا في جنس الزوج والزوجة من بني آدم، وليس آدم وحواء؛ وهذا ما تدل عليه الضمائر ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، ما قال: «يشركان»، جاء السياق بذكر الجمع، وإنما ثنى لأجل أن هذا بين الزوج والزوجة، والزوج جنس عام شامل لبني آدم، ويدل على هذا ما ذكره ابن عباس ﷺ، أن إبليس جاء وصرح لآدم، وقال: «أنا صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة لتطيعاني أو لأجعلن له قرن أيِّل»، والأيل هو الظبي الذي تكون قرونه طويلة، هل الشيطان يستطيع أن يخلق قرن أيل؟ هذا لو قيل لآحاد الناس لقال: كذبت، أنت لا تخلق شيئًا، فكيف ينسب إلى آدم، الذي هو أكمل من بنيه عقلًا وفكرًا، وأتم منهم علمًا بالله وخوفًا منه، هذا بعيدٌ كل البعد أن يكون لآدم، وإنما المقصود به جنس الزوج والزوجة كما قلنا، وهذا الغالب في بني آدم.

والمقصود أيضا: أن هبة الله جل وعلا للولد سليمًا سوي الأعضاء نعمة يجب أن يُشكر عليها، فإذا كان صحيح الديانة والعقيدة كان أعظم نعمة وأتمها، يجب أن يُثنى عليه جل وعلا لذلك، وهو تعالى المتصرف بالخلق، فإذا

قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ، كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ».

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄ قَالَ: «لَـمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجَكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ، لَتُطِيعَانِنِي أَوْ لَأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكَ، فَيَشُقُّهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ -يُخَوِّفُهُمَا- سَمِّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا أيضًا، فقالَ مثلَ قولِهِ، فَأَبيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا، ثُمَّ حَمَلتْ، فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا، فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الْوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الْحَارِثِ؛ فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ.

شاء أن يجعله سليمًا سويًّا وقع، وهذا كثير، بل غالب ما يكون في الناس أن المولود يخرج مولودًا سويًّا كامل الأعضاء، وأكثر الناس لا يشكر الله على ذلك، فيكون ذلك من كفر النعمة، فيجب على الإنسان أن يشكر نعمة الله على ما وهبه من الحواس ومن العقل ومن سلامة الجسم.

قوله: (قَالَ ابْنُ حَزْمٍ: «اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ...»): هذا يقوله في كتابه «مراتب الإجماع» فيقصد بذلك أنَّ العلماء أجمعوا على ذلك، ومثَّل لذلك بقوله: (كَعَبْدِ عَمْرٍو وَعَبْدِ الْكَعْبَةِ، وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ)، فهذا محرم، وإذا وقع ذلك وجب أن يُغير، ثم قال: (حَاشَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ)، هذا استثناءٌ. يقولون: لأن عبد المطلب من العبودية التي هي عبودية الرِّق، وليس من العبودية التي هي عبودية التأله، وذكروا سببًا: أن عبد المطلب تزوج في بني النجار، ولما أوشكت امرأته أن تلد، ذهبت إلى أهلها، فولدت، فتركه عند أخواله، ثم ذهب وأتى به، فلما جاء به، وقد أصابته الشمس فتغير لونه

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ».

وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] قَالَ: «أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا»، وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَحْرِيمُ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ.

الثَّانِيَةُ: تَفْسِيرُ الْآيَةِ.

من الشمس والريح، فقال الناس: هذا عَبدُ عَبد المطلبِ، أي أنه اشتراه أو استوهبه، وهذا الاستثناء غير صحيح، لا يجوز أن يُعبّد، لا عبد المطلب ولا غيره، التعبيد محرمٌ مطلقًا، لا يجور أن يكون التعبيد إلا لله؛ لأن العبد من العبودية.

قوله: (وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: «شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، وَلَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ»): سبق أن طاعة العلماء والأمراء شرك بالله جل وعلا، إن كانت في تحليل الحرام وتحريم الحلال، فالطاعة في معصية الله من الشرك .

قوله: (وَلَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ، فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] قَالَ: «أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا»، وَذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الْحَسَنِ وَسَعِيدٍ وَغَيْرِهِمَا): الحسن أنكر هذا الذي أضيف إلى ابن عباس رضي الله عنه، وقال: إنه من بني آدم، وكذلك غيره من العلماء، أنكروا أن يكون هذا من آدم، وهو في الواقع بعيد جدًّا، كما سبق.

الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُها.

الرَّابِعَةُ: أَنَّ هِبَةَ الله لِلرَّجُلِ الْبِنْتَ السَّوِيَّةَ مِنْ النِّعَمِ.

الْخَامِسَةُ: ذَكَرَ السَّلَفُ الْفَرْقَ بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الطَّاعَةِ وَالشِّرْكِ فِي الْعِبَادَةِ.

قوله: (**الثَّالِثَةُ: أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُها**): يظهر أن هذا القول إن صح عن ابن عباس رضي الله عنه فهو مأخوذ عن علماء أهل الكتاب، أو ربما زنادقتهم .

قوله: (**الرَّابِعَةُ: أَنَّ هِبَةَ الله لِلرَّجُلِ الْبِنْتَ السَّوِيَّةَ مِنْ النِّعَمِ**): لماذا قال البنت؟ لأن كثيرًا من الناس يكره أن تولد له بنت، وكان هذا في الجاهلية معروفا، كانوا يكرهون ذلك أشد الكراهة، فيقولون: البنت عرضة لأن يأخذها الأعداء، أو يُفجر بها، وتكون عارا على أبيها، ولهذا كانوا يدفنونها حية، قال جل وعلا: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾[التكوير: ٨]، وبعض الناس إلى الآن يكره أن تولد له بنت، هذا من الحماقة، بل من الجهل الفظيع، فإذا وهب الله جل وعلا للإنسان مولودًا، سواء أكان بنتًا أم ولدًا، يجب أن يشكر ربه جل وعلا على ذلك، وكانت عائشة -رضي الله عنها-، إذا قيل لها: ولد لفلان، سألت: لعله سوي؟ ولا تسأل عنه، هل هو ذكر أو أنثى؟ فإذا أُخبرت بأنه سوي، قالت: الحمد لله.

❁❁❁

باب قول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ الآية

قوله: (﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾): هذا يدلنا على أن ما يذكره المتكلمون؛ أن الاسم هو المسمى أو غير المسمى، كلام لا قيمة له، وأن الاسم للمسمى، كما قال ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ﴾ ، والأسماء تدل على الذات المسماة، والصفات هي المعاني التي تقوم بالموصوف، من الرحمة والعزة والقوة وغير ذلك.

قوله: ﴿ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، أي أن أسماء الله جل وعلا حسنى، والحسنى هي التي بلغت الغاية في الحسن، فإذا احتمل الاسم أن يكون حسنًا أو لا، لا يدخل في أسماء الله، فأسماء الله كلها حسنى، أي لا نقص فيها ولا عيب، فهي كاملة؛ لأنه جل وعلا له الكمال المطلق، في ذاته وفي أسمائه وفي أفعاله وفيما يستحقه.

قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ﴾: أي اعبدوه بها، فالإنسان يتعبد ربه بأسمائه حسب أغراضه ومطالبه، فإذا أراد أن يسأله الرزق قال: «يا رزاق ارزقني»، وإذا سأله المغفرة قال: «يا غفور اغفر لي»، وهكذا، وهذا من عبادة الله جل وعلا، فيجب أن يكون الإنسان متحليا بمعرفة معاني الأسماء.

قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ﴾: هذا تهديد ووعيد، ذروهم، فأمرهم إلى الله، سوف يحاكمهم على ذلك، والإلحاد هو الميل والعدول عن مراد المتكلم، فإذا عدل عنه بأي نوع من الأنواع كان مُلحدًا.

ذَكَرَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄: ﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ «يُشْرِكُونَ».

وَعَنْهُ: «سَمَّوُا اللَّاتَ مِنَ الْإِلَهِ، وَالْعُزَّى مِنَ الْعَزِيزِ».

وَعَنِ الْأَعْمَشِ: «يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا».

ولكن المؤلف ذكر ثلاثة أنواع من الإلحاد:

النوع الأول: الشرك؛ الشرك إلحاد؛ لأن المشرك عبد من لا يستحق العبادة، فألحد، أي عدل بالعبادة إلى غير محلها، ومستحقها، وهذا أكبر الإلحاد.

النوع الثاني: أن يُشتق من أسماء الله اسم للمعبودات أو للمخلوقات، وكونه للمعبودات أعظم.

وهذا مثل اشتقاقهم «اللات» من «الله»، تعالى وتقدس، و«العزى» من «العزيز»، والعجيب أنهم يؤنثون آلهتهم، مع أنهم يعرفون أن التأنيث يدل على الضعف، آلهتهم أكثرها مؤنثة مثل: العزى، واللات، ومناة.

النوع الثالث: أن يدخلوا فيها ما ليس منها.

وهذا مثل ما يقوله اليهود: إن الله تعب، وإن الله فقير، تعالى وتقدس، هذا إلحاد في أسمائه جل وعلا، ومقصود المؤلف أنه يجب على المُوحِّد أن يعرف أسماء الله ويعبده بها، ولا يحرفها كما يحرف المحرفون، الذين يقولون: رحمة الله نعمته، ويد الله قدرته، هذا من أعظم التحريف.

وهكذا التأويلات التي يؤولون بها أسماء الله جل وعلا وصفاته، فإن لم

....

يؤمن الإنسان بأسماء الله على ما جاءت به اللغة، وبينها الرسول ﷺ، وقبلها السلف، بدون تردد، فإنه لا يكون توحيده تاما ولا مستقيما، بل يكون مدخولا وفيه شك، وربما يكون خاليا من التوحيد.

❋ ❋ ❋

بَاب لَا يُقَالُ: السَّلَامُ عَلَى اللهِ

فِي «الصَّحِيح» عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ﷺ قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلَاةِ، قُلْنَا: السَّلَامُ عَلَى الله مِنْ عِبَادِهِ، السَّلَام عَلَى فُلَانٍ وَفُلَانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا تَقُولُوا: السَّلَام عَلَى الله؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلَامُ».

هذا من الألفاظ التي يجب على المسلم أن يتجنبها، فيكون مُوحِّدا في قلبه وفي عمله وفي قوله، ولا يدخل في شيء يخالف ذلك؛ لأن هذا من سوء الأدب، فأنت إذا قلت: السلام على فلان، معنى ذلك أنك تطلب له السلامة، وتخبره بأنك سِلْم له، وهذا لا يصح أن يوجه إلى رب العالمين؛ لأنه هو السلام، ومنه السلام، وبه السلام، تعالى وتقدس؛ فلهذا أرشدهم الرسول ﷺ، إلى ما يقولون عندما يوجهون إلى الله جل وعلا الأمر الذي يستحقه، فقال: (**قُولُوا: التَّحِيَّاتُ لله وَالصَّلَوَاتُ الطَّيِّبَاتُ**)، لكنه اختصر.

ففي الحديث أنه لا يجوز أن يوجه إلى الله شيء يطلب فيه السلام أو نحوه؛ لأنه جل وعلا له الكمال المطلق، ولا يحصل خير إلا منه، والشر ليس إليه، تعالى وتقدس، والخير كله بيديه، فيجب أن يتأدب الإنسان في مخاطبته لربه جل وعلا.

ولما كانت التحيات التي يفعلها العرب في الجاهلية ما تصلح لله جل وعلا كلها، جاء الرسول ﷺ، بشيء عام، قال: (**قُولُوا: التَّحِيَّاتُ**)، أي التعظيمات، من الحمد والثناء وما يستحقه ربنا، فـ(ال) للعموم، فالتحيات لله استحقاقًا ووجوبًا.

بَاب قَوْلُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ: أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ، اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ، لِيَعْزِمِ الْمَسْأَلَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ».

الإنسان فقير، لا ينفك عن الفقر بوجه من الوجوه، وهو إلى الرحمة والمغفرة والخير من الله دائمًا فقيرٌ محتاج، والاستثناء قد يدل على خلاف ذلك فنهي عنه؛ لأن الاستثناء يحتمل الأمرين:

فإذا قال الإنسان: «اللهم ارحمني إن شئت»، يحتمل أنه يدل على أن الإنسان مستغن عن هذا، إن حصل ذلك وإلا فليس بضرورة.

والأمر الثاني: أنه يوحي بأن الله جل وعلا قد يكره الشيء الذي يعطيه، وكلا الأمرين لا يجوز أن يكون؛ ولذا قال رسول الله ﷺ (فَإِنَّ اللهَ لَا مُكْرِهَ لَهُ)، أي لا أحد يكره الله على شيء، فهو يفعل ما يريد وما يشاء، تعالى وتقدس، فإن شاء أجاب، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ ٱلسَّاعَةُ أَغَيْرَ ٱللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٠ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَآءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ۝٤١﴾ [الأنعام: ٤٠ - ٤١] فالأشياء كلها متعلقة بمشيئته؛ لذا لا يجوز أن يدعو الإنسان بالدعاء الذي يعرف نتيجته ويعلمها، ثم يعلق ذلك بالمشيئة، بخلاف الشيء غير المعروف، كما جاء في الحديث: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مَا كَانَتِ الْحَيَاةُ خَيْرًا لِي، وَتَوَفَّنِي إِذَا كَانَتِ الْوَفَاةُ خَيْرًا لِي»، هذا لا بأس به؛ لأن هذا لا يعرف، أما إذا كان معلوما كسؤال الرزق والمغفرة

وَلِمُسْلِمٍ: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ؛ فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

والجنة، فإنه لا يجوز أن يعلق المسألة، لهذين الأمرين:

١ - أنه قد يفهم من كلام السائل أنه قد يكون مستغنيا عما دعا به.

٢ - أنه قد يعتقد أن الله ربما يعطي الشيء وهو له كاره، والله لا مكره له.

فيجب أن يسأل بالجزم والرغبة والإلحاح، والله جل وعلا عند ظن عبده به، ويحب الملحين في الدعاء، ولهذا قال تعالى: ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾[النساء: ٣٢]، ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠]، فهذا من كرم الله جل وعلا، والدعاء عبادة، سواء أكان دعاء مسألة أم دعاء عبادة، فيجب على السائل أن يكون في مسألته مُلِحًّا غير متردد.

❊❊❊

بَاب لَا يَقُولُ: عَبْدِي وَأَمَتِي

فِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وَضِّئْ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ، وَلَا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي وَأَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي».

هذا الباب عن الألفاظ التي يجب أن تُجتنب تأدبًا مع الله جل وعلا، لوجود الاشتراك في اللفظ؛ لأن العبودية يجب أن تكون لله تعالى، فهو رب الخلق كلهم، وهم عبيده؛ ولذا جاء في رواية أخرى للحديث: (**لَا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ عَبْدِي وَأَمَتِي كلكُمْ عباد الله وَكُلُّ نِسَائِكُمْ إِمَاءُ الله...**)، والمحذور في هذا من وجهين:

الوجه الأول: الاشتراك اللفظي بين المخلوق والخالق، ويجب على العبد أن يتأدب مع ربه ويتجنب ذلك، حتى وإن كان الاشتراك غير مقصود، بل هو مجرد لفظ.

الوجه الثاني: الاستطالة من المالك على المملوك، وهذا لا يجوز.

وكلا الأمرين ملاحظ في هذا، ولا يتم توحيد العبد إلا أن يعرف ما لله وما للإنسان، فيجتنب الأمور التي فيها اشتراك أو إيهام بأن المخلوق له شيء مما هو لله جل وعلا، ولا يُعترض على هذا بما جاء في «الصحيح» من قول رسول الله ﷺ: «أَنْ تَلِدَ الْأَمَةُ رَبَّتَهَا»، وفي كتاب الله في قصة يوسف ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقوله: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣].

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ: عَبْدِي وَأَمَتِي.

الثَّانِيَةُ: لَا يَقُولُ الْعَبْدُ: رَبِّي، وَلَا يُقَالُ لَهُ: أَطْعِمْ رَبَّكَ.

الثَّالِثَةُ: تَعْلِيمُ الْأَوَّلِ قَوْلَ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي.

الرَّابِعَةُ: تَعْلِيمُ الثَّانِي قَوْلَ: سَيِّدِي وَمَوْلَايَ.

والجواب: أما الحديث فهو مؤنث (رَبَّتَهَا)، وهذا لا اشتراك فيه.

وأما الآية فجوابها من وجهين:

أ- أن هذا في شرع من قبلنا، وأما شرعنا فهو الحنيفية الشديدة في التوحيد، أما في الأحكام وغيرها فسمحة سهلة.

ب- أنه قد يقال: إن الآية تدل على الجواز، والحديث يدل على الكمال والأدب.

قوله: (الْأُولَى: النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ: عَبْدِي وَأَمَتِي): وهل هو نهي تحريم أو نهي كراهة ؟ أكثر العلماء على أنه للكراهة؛ للآية.

قوله: (الثَّالِثَةُ: تَعْلِيمُ الْأَوَّلِ قَوْلَ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلَامِي): أي: أن الرسول ﷺ، لما نهى عن لفظٍ أرشد إلى ما هو نظيره في المعنى مع مراعاة الأدب والتخاطب، وليس فيه محذور، وهذه عادته ﷺ، إذا نهى عن شيء دل على ما هو أفضل منه ويسع الناس، وقد يزيد عما سأل عنه السائل، فقد سئل عن الوضوء بماء البحر، قال: «هُوَ الطَّهُورُ مَاؤُهُ، الْحِلُّ مَيْتَتُهُ»، والذي يدخل البحر مسافرًا قد يحتاج إلى الميتة، فميتته حلال.

الْخَامِسَةُ: التَّنْبِيهُ لِلْمُرَادِ، وَهُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ حَتَّى فِي الْأَلْفَاظِ.

وهذا بالنسبة للمملوك مع المالك، أما إذا كانوا كلهم أحرارا، فالكراهية أعظم، فيكره قول: مولاي، بعض الناس يقول: فلان مولاي، هذا مولاي، هذا كراهيته أعظم.



بَاب لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ

عَنِ ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِالله فَأَعْطُوهُ، وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِالله فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ.........................

قوله: (لَا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِالله): تعظيما لله جل وعلا، وإكبارًا وإعظامًا له، يسألُ إنسانٌ بالله ثم يرد، هذا عند أهل المعرفة بالله جل وعلا والخوف منه لا يرد؛ ولذا نهى الرسول ﷺ، أن يرد، ولكن بشرط ألا يسأل باطلا، ولا يسأل محرمًا، ولا يسأل ما يضر بالمسؤول، فإن سأل ذلك لم يلزم إعطاؤه، ولا يجوز أن يكون هذا مبتذلا عند الناس، كلٌّ يسأل بالله جل وعلا، فإن هذا يدل على الاستخفاف بعظمة الله جل وعلا، ويدل على أنه لم يقدر الله حق تقديره.

قوله: (وَمَنِ اسْتَعَاذَ بِالله فَأَعِيذُوهُ): كأن يقول: «أعوذ بالله من شرك، أو من شر فلان»، فيجب أن يمنع عنه الشر هذا، فإذا استعاذ بالله فقد استعاذ بمعاذ، ولهذا ورد في حديث عَائِشَةَ، -رَضِيَ الله عَنْهَا-: أَنَّ ابْنَةَ الجَوْنِ، لَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَدَنَا مِنْهَا، قَالَتْ: أَعُوذُ بالله مِنْكَ، فَقَالَ لَهَا: «**لَقَدْ عُذْتِ بِمُعَاذٍ، الحَقِي بِأَهْلِكِ**» فأعاذها، مع أنها جاهلة، فإذا استعاذ الإنسان بالله تعالى يجب أن يعاذ، وإن لم يُعذه الموجه إليه الخطاب فإنه قمِن أن يعاجله الله بالعذاب.

قوله: (وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ): هذا عام، إجابة دعوة المسلم للمسلم، ولكن لا بد من التفصيل في هذا، فإن كان الذي يدعو يريد الإكرام فقط، كأن يقول: تفضل، تغد معنا،، الخ، فهذا لا يلزم أن يجاب، أما إذا كان يريد بذلك التأكيدَ، وأنه له حق في هذا، فيجب أن يجاب؛ لأن حق المسلم على

وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَـهُ حَتَّـى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وَالنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

المسلم أن يجيب دعوته، إلا أن يتبين له أنه مجاملة، فهذا لا يجوز أن يجيبه؛ لأن العادة عند كثير من الناس العرض، ولا يود أنه يجيبه، ولكن قد يستحيي فيعرض، فإذا تبين أن هذا حاله فالمستحب أنه لا يجيب؛ لأنه كاذب في ذلك، الذي له الحق هو الذي يفرح بالإجابة، فيكون ذلك من حقه، واللفظ عام، دخل فيه كل داع، حتى وإن كان على غير دينك، فإن الرسول ﷺ، أجاب اليهودي لما دعاه.

قوله: (وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ): المعروف هو الذي فيه نفع وإحسان، كل من نفعك بشيء ينبغي لك أن تكافئه، والمكافأة يسن أن تكون أحسن من النفع المقدَّم، فإن لم يجد ما يكافئه من المال، يلجأ إلى الدعاء، فيدعو له؛ ولذا قال: (فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ)، أي من المال الذي يقدم لكم، فالطريق هو الدعاء له (فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا)، (تَروا وتُروا) بفتح التاء وضمها، والمعنى يختلف، فالفتح معناه: تعلمون، والضم معناه: تظنون أنكم كافأتموه، فمن صنع لك معروفًا فقلت: جزاك الله خيرًا، فقد بالغت في المكافأة، كما جاء في الحديث، هذا من الحقوق اللازمة، وهي من الأدب والإحسان، ومما يثبت الأخوة والتآصر، والتآلف والتحاب، وهو امتثال لأمر الله جل وعلا، وفيه زيادة الإيمان، ومن خالف ذلك نقص إيمانه وتوحيده.

الْأُولَى: إِعَاذَةُ مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ.
الثَّانِيَةُ: إِعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ.
الثَّالِثَةُ: إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ.
الرَّابِعَةُ: الْمُكَافَأَةُ عَلَى الصَّنِيعَةِ.
الْخَامِسَةُ: أَنَّ الدُّعَاءَ مُكَافَأَةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ إِلَّا عَلَيْهِ.
السَّادِسَةُ: قَوْلُهُ: «حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ».

قوله: (الْأُولَى: إِعَاذَةُ مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ): الاستعاذة اللجوء والاحتماء بالشيء المادي، كما يقال: استعاذ بمعاذ، والمعاذ هو ما لا يستطيع أن يصل إليه المتعوذ منه، العياذ في الأمور المحذورة، واللياذ في الأمور المحبوبة، كما جاء في قول الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله ومن أعوذ به مما أحاذره

والمعاذ هو الملجأ، ومن احتمى بالله فقد احتمى بعظيم لا أعظم منه.

قوله: (مُكَافَأَةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ إِلَّا عَلَيْهِ): بهذا الشرط، الدعاء لمن لم يقدر على المكافأة بالنظير أو بالأحسن، وإذا اجتمع الأمران فهو أطيب وأحسن.

قوله: (قَوْلُهُ: «حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ») : وقد جاء في السؤال بالله أحاديث تخيف الإنسان، وعيد لمن سئل بالله ثم لم يعط، أنه ملعون، وكذلك في الباب التالي، الذي يسأل بوجه الله غير الجنة ملعون، فوجه الله عظيم، والأول موجه للمسؤول، والباب التالي للسائل، الذي يسأل.

باب
لَا يُسأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّةُ

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّةُ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

لا يجوز أن يسأل بوجه الله إلا ما هو من أعظم المطالب، وهي الجنة، التي فيها النعيم الأبدي، وفيها النظر إلى وجه الله جل وعلا، والتمتع بجواره تعالى وتقدس، أما الدنيا فهي كلها لا تساوي شيئًا، لا يجوز أن تسأل الدنيا بوجه الله جل وعلا، ومن سأل بوجه الله غير الجنة، فإنه لم يقدر الله حق قدره، ولم يعظمه حق عظمته، وذلك أن الجنة عظيمة، فيها الخلود الأبدي، والنعيم الذي لا ينقطع، ولا يفنى، ولا يُعلم قدره، ولا يعلمه إلا الله ربُّ العالمين الذي خلقه، فتقول: «أسألك بوجهك الكريم الجنة»، وإذا قلت: «أسألك النظر إلى وجهك الكريم»، فهو مثل الجنة، بل هو أعلى من نعيم الجنة؛ ولهذا جاء في الحديث: «وَأَسْأَلُكَ لَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ»، أما سؤال أمور الدنيا بوجه الله فلا يجوز، وقد وُجد قوم تكون لفظة «وجه الله» عندهم مستعملة كثيرًا مثل قوم أحدهم: «بوجه الله اعمل كذا»، «بوجه الله اصنع كذا»، هذا منكر، يجب أن ينكر، ويعلم الجاهل بهذا، حتى يكون على بصيرة ولا يقع في الإثم؛ لأنه وإن كان جاهلا فهو يأثم، لأن عنده عقلا، وإمكانية التعلم، وتعلم الأمور الواجبة عليه، واجتناب الأمور المحرمة إذا لم يفعل ذلك أثم.

قوله: (لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّةُ): هذا العموم يدل على التأكيد، أنه لا

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنْ أَنْ يُسْأَلَ بِوَجْهِ الله إِلَّا غَايَةُ الْمَطَالِبِ.

الثَّانِيَةُ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْوَجْهِ.

يسأل بوجه الله إلا الجنة وما كان موصلا إليها، وقد جاء في «الصحيح»، عن جابر ﷺ؛ قال: «لَمَّا نَزَلَتْ: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَعُوذُ بِوَجْهِكَ»، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَاتَانِ أَهْوَنُ، أَوْ هَاتَانِ أَيْسَرُ»، فهذه استعاذة برب العالمين من عذابه الذي يوصل إلى النار، فيكون مثل السؤال بالجنة، فالمقصود وجوب تعظيم الله، وتعظيم صفاته التي لا يشاركه فيها أحد؛ لأن له الأسماء الحسنى والصفات العلا، وينبغي أن يكون الله مهيبا عند عبده معظما، ومن فعل غير ذلك دل على أن توحيده إما معدوم أو ناقص.

قوله: (الثَّانِيَةُ: إِثْبَاتُ صِفَةِ الْوَجْهِ): صفة الوجه لله تعالى ثابتة، كثير من المتكلمين ينكرون أن يكون لله وجه، ومنهم الأشاعرة، ويجعلون الوجه بمعنى الذات، وجهه أي ذاته، ولا يثبتون لله وجها، وقد تكاثرت النصوص في إثبات هذه الصفة، ولا يوجد لفظة واحدة، لا في كتاب الله ولا في سنة رسوله، ﷺ، تؤيد من أنكر ذلك، كلها على خلاف ما يقولون، وكذلك ما عليه السلف من الصحابة ومن تبعهم، فإنكار هذه الصفة منكر.

باب
مَا جَاءَ فِي «اللَّوِّ»

وَقَوْلُ الله تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا ....﴾ [آل عمران: ١٥٤] الْآيَةَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] الْآيَةَ.

قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي «اللو»): «لو» حرف، وإدخال «أل» على الحروف لا يجوز في لغة العرب؛ لأن «أل» للتعريف، والحرف لا يتعرف، وليس هو من الأسماء؛ ولذا جعلوا من علامات الأسماء دخول «أل» عليها، ولكن مثل هذا يأتي كأنه علم، فتدخل عليه أل.

والنهي عن «لو» جاء في كتاب الله تعالى، إذا كانت تدل على التأسف والاعتراض؛ كقول الله جل وعلا: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

المؤلف رحمه الله لم يذكر الحكم، وإنما أطلق؛ لأن هذا فيه تفصيل، فقول: «لو» اعترضًا على أمر من أمور الله ممنوع، وأما إن كان المقصود إبانة الحكم، أو تمني الخير، فإنه لا بأس، كما جاء في حديث أَبِي كَبْشَةَ الْأَنْمَارِيِّ ﷺ، أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «**أُمَّتِي أَرْبَعَةٌ: رَجُلٌ أُعْطِي مَالًا فَأَنْفَقَهُ فِي طَاعَةِ الله، فَرَآهُ رَجُلٌ، فَقَالَ: لَوْ كَانَ لِي مِثْلُ فُلَانٍ صَنَعْتُ فِيهِ مِثْلَ مَا صَنَعَ...**» الحديث، وكذلك قول الرسول ﷺ: «**لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ لَمْ أَسُقْ**

وَفِي «الصَّحِيحِ» عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله ....

الْهَدْيَ وَلَجَعَلْتُهَا عُمْرَةً»، ففيه بيان للحكم.

أما قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ففيه اعتراض على حكم الله وأمره وتقديره، ويزعمون أنه يمكن أن يتغير، وفيه التأسف على ما وقع، والتحسر، وعدم الرضا، فإذا كان الإنسان بهذه الصفة فقد وقع في الإثم، ويتضح أنه غير مسلِّم لأمر الله، وأنه لم يؤمن بأقدار الله جل وعلا، وكل هذا من الكفر بالله تعالى، فيتفطن الإنسان لذلك.

وكذلك الآية الأخرى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾، أي لو أطاعونا بعدم الخروج لم يقتلوا، وهذا لا يمكن؛ لأنه أمر مقدر مكتوب، ولذا قال الله جل وعلا: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾؛ لأنه أمر مقدر قبل خلق السماوات والأرض، ولا يمكن أن يتغير، فكل ما يقع قد كتبه الله جل وعلا، ولا يمكن أن يختلف، وفي هذا وجوب الإيمان به، الذي هو الإيمان بالقدر، وهو أحد أركان الإيمان.

قوله: (احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِالله وَلَا تَعْجِزَنْ): هذه نون التوكيد الخفيفة، أمر من الرسول ﷺ، وإرشاد إلى الحرص على النافع، والحرص: القيام بكل ما يستطيع من العمل، والحرص يجب أن يكون على ما ينفع، وليس على ما يضر، إذا كان كذلك فهو ضياع للوقت والعمر والعمل.

قوله: (وَاسْتَعِنْ بِالله): لا يكفي حرصك وقدرتك، لا بد أن تستعين بالله، إن لم تستعن بالله فلن تعان، ولا يحصل لك مرادك، تمام العمل والعبادة

وَلَا تَعْجِزَنْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ، فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ «لَوْ» تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

أن يأتي بها حريصا مقبلا جادا، مستعينا بربه جل وعلا.

قوله: (**وَلَا تَعْجِزَنْ**): العجز ضد الحرص.

ومع الحرص والاستعانة بالله جل وعلا قد يتخلف المطلوب، قد يوجد وقد لا يوجد، إن كان الله قد قدره وكتبه فلا بد من وجوده، وإن كان جل وعلا لم يقدره فلن يوجد، فإذا وُجد الحرص والاستعانة وعُدم العجز، ثم لم يحصل المراد، يجب عليه أن يقول: هذا قدر الله، وما شاء فعل، ويرضى.

قوله: (**فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَذَا، لَكَانَ كَذَا وَكَذَا**): لأن هذه الصيغة تدل على التحسر والتأسف، وتفتح لك عمل الشيطان، والشيطان يحبها، فيدخل عليك الندم، ويجرك هذا إلى الاعتراض على قدر الله، والتسخط عليه، فتقع في الإثم العظيم، هذا عمل الشيطان.

قوله: (**وَلَكِنْ قُلْ: قَدَرُ الله وَمَا شَاءَ فَعَلَ**): «قَدَرُ الله» بالتخفيف، أي هذا قدر الله، ولا أحد يرده، ويجوز أن تقول «قَدَّرَ اللهُ» أي هذا قدره الله، ويعني هذا أنك ترضى وتسلم، ولا تعترض وتتسخط، فإن الساخط يكون له السخط من الله جل وعلا.

قوله: (**فَإِنَّ «لَوْ» تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ**): وعمل الشيطان كثير وخطير، فإذا قال «لو» انفتح له عمل الشيطان، من التأسف والاعتراض، وربما يصل به إلى الكفر، الذي هو إنكار قدر الله جل وعلا.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ.

الثَّانِيَةُ: النَّهْيُ الصَّرِيحِ عَنْ قَوْلٍ «لَوْ» إِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ.

الثَّالِثَةُ: تَعْلِيلُ الْمَسْأَلَةِ بِأَنَّ ذَلِكَ يُفْتَحُ عَمَلُ الشَّيْطَانِ.

الرَّابِعَةُ: الْإِرْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ الْحَسَنُ.

الْخَامِسَةُ: الْأَمْرُ بِالْحِرْصِ عَلَى مَا يَنْفَعُ مَعَ الِاسْتِعَانَةِ بِاللهِ.

السَّادِسَةُ: النَّهْيُ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ وَهُوَ الْعَجْزُ.

وهذا الحديث كل إنسان مضطر إلى العمل به، وإذا وفق العبد إلى الاهتداء به كان ذلك عنوان السعادة في الدنيا والآخرة، ففيه من الحكمة والعلم ما إذا تأمله الإنسان عرف نصح الرسول ﷺ، الذي هو أرحم الخلق بالخلق، وعرف أن فيه حكمًا وأمورًا لا يدركها كل أحد، فهو من جوامع الكلم التي أوتيها رسول الله ﷺ، ففي هذا الحديث نفع الدنيا والآخرة، إذا عمل به الإنسان استقامت حاله في الدنيا والآخرة، نسأل الله أن يوفقنا والمسلمين لخير الدنيا والآخرة.

قوله: (الْأُولَى: تَفْسِيرُ الْآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ): وليس المقصود بالتفسير تحليل الألفاظ، وذكر المعاني التي في هاتين الآيتين بالتفصيل، فالكلام عنهما يحتاج إلى محاضرات، ولكن المقصود أن هذا المعنى الذي ذكر هو من تفسير الآية، ومعنى ذلك أن الآية دلت عليه.

بَاب النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ

عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ ﷺ أَنَّ رَسُولَ الله ﷺ قَالَ: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ........

قوله: (**بَابُ النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ**): وتسمى الريحَ والرَّوحَ والرياحَ.

والريح مدبرة مسخرة، وهذا كما سبق في سب الدهر، إلا أن هذا أخص، فهي داخلة في سب الدهر، وبعض بني آدم يُشبه الحيوانات، بل الحيوانات خير منه، كلما حصل له شيء مما لا يرضاه، ذهب يسب ويشتم ويلعن، وإن كان الذي وجه إليه ذلك طائعا ممتثلا لأمر الله، ولكنه لا يعرف، وقد يعقل فيكون كفره أعظم، نسأل الله العافية.

والريح قد تكون رحمة، وقد تكون عذابًا، ففي حديث عَائِشَة - رضي الله عنها- قالت: كان النَّبي ﷺ إِذَا رَأَى غَيْمًا أَوْ رِيحًا عُرِفَ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ الله! أَرَى النَّاسَ إِذَا رَأَوا الغَيْمَ فَرِحُوا؛ رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ فِيهِ المَطَرُ، وَأَرَاكَ إِذَا رَأَيْتَهُ عَرَفْتُ فِي وَجْهِكَ الكَرَاهِيَةَ؟! قَالَتْ: فَقَالَ: «**يَا عَائِشَةُ! مَا يُؤَمِّنُنِي أَنْ يَكُونَ فِيهِ عَذَابٌ، قَدْ عُذِّبَ قَوْمٌ بالرِّيحِ، وَقَدْ رَأَى قَوْمٌ العَذَابَ؛ فَقَالُوا: هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا**»؛ لأن الناس مظنة العذاب، فهم لا يقومون بأمر الله جل وعلا كما ينبغي، والمعاصي عندهم كثيرة، فقد يأتيهم العذاب ويعاجلهم، ولكن الله حليم كريم، فالمقصود أن الريح مخلوق لله جل وعلا، ممتثل لأمره مطيع، فلا يجوز أن تسب، فإن وقع السب عليها عاد السب إلى الخالق المدبر المصرف، وقد يكون فيها برد وسموم وحر وإعصار، وهدم للمنازل، أو قلع للأشجار، وغير ذلك، وقد تكون خيرا؛ لأنها تلقح

فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وَخَيْرِ مَا فِيهَا، وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الْأُولَى: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ.

الثَّانِيَةُ: الْإِرْشَادُ إِلَى الْكَلَامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَى الْإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.

الثَّالِثَةُ: الْإِرْشَادُ إِلَى أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

الرَّابِعَةُ: أَنَّهَا قَدْ تُؤْمَرُ بِخَيْرٍ، وَقَدْ تُؤْمَرُ بِشَرٍّ.

السحاب، كما أخبر ربنا ﷻ بذلك.

قوله: (فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ): منها؛ إما شدة برد، أو شدة هبوب، أو حرًّا، وما أشبه ذلك، فليجأ العبد إلى ربه، وليقل: «اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به».

فإذا لجأ العبد إلى ربه جل وعلا بسؤاله، والاستعاذة به من شر المخلوق؛ فإن الله جل وعلا يعينه، ويكون بذلك سلك الطريق السوي الذي أرشد إليه الرسول ﷺ.

بخلاف العكس، فإنه إذا عكس ذلك، فإنه إما أن يكون جاهلا بالله تعالى، غير قائم بحقه، أو يكون هذا المعنى ناقصا عنده، فيكون معذبا على ذلك، نسأل الله العافية، بخلاف الذي يستسلم لربه جل وعلا، وينقاد لأمره

....

ويلجأ إليه عند المخوفات، وإذا جاء ما يكره فإنه يعلم أن هذا بذنبه، وما أصيب إلا بذنب، وأنه هو السبب في ذلك، وفي هذا يكمن توحيد العبد.



بَابُ قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦].

(كتاب التوحيد) لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، من أهم ما ينبغي أن يُعتنى به؛ لأن موضوعه موضوع مهم جدًّا، ولا ينجو الإنسان من عذاب الله في الدنيا والآخرة إلا إذا حقَّق موضوعَه.

ويريد بهذا الباب (﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾) أن الإنسان لا يسلم من عذاب الله، ولا يسلم من موجبات غضبه إلا إذا كان قلبُه سليما لله جل وعلا، وظن به مقتضى أسمائه وصفاته وأخباره التي يخبر بها، تعالى وتقدس، فيظن به جل وعلا الظنَّ اللائقَ به، كما قال ﷺ: «**لا يموتَنَّ أحدُكم إلا وهو يُحسِنُ الظنَّ بربه**»، معنى ذلك أنه إذا مات وهو يسيء الظن، فهو ليس على الطريقة السوية، ولا يسلم من عذاب الله جل وعلا.

ثم ذكر الله جل وعلا عن الظن السَّوء، والسُّوء أيضًا؛ فهما قراءتان، أنه يصدر من المشركين، ومن المنافقين، معنى ذلك أن المؤمن يجب أن يكون سالما من ذلك، وهذا سِرُّ ذكر هذا الباب؛ أن المسلم يجب أن يكون قلبه سليما، وأن يظن بالله مقتضى حكمته وأسمائه وصفاته، ومقتضى أحكامه التي يحكم بها، قدرا وشرعا، لا بد من هذا، وإلا فلن يكون توحيدُه صافيًا خالصًا.

....

وقال جل وعلا في سياق غزوة أحد التي ابتُلي بها المسلمون ومُحِّصوا، وقد وعدهم الله ﷻ النصرَ، بشرط الصبر، واتباع الحق، ولكن هذا لم يتحقق، لكونهم عَصَوا، فأُصيبوا تأديبا لهم؛ وقُتل منهم سبعون، وجُرح وجه رسول الله ﷺ، وكُسرت رَباعِيَتُه، وكُسرت البَيْضة على رأسه، صلوات الله وسلامه عليه، وقُتل عمُّه، وقد أثر ذلك فيه كثيرا، وذلك بسبب معصيةٍ وقعت من بعضهم، وهم الرُّماةُ الذين عيَّنهم ﷺ، وقال: «**الزَموا هذا المكان، ولا تَبْرَحوه حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا تخطفنا الطيرُ**»، أكد عليهم، ومع ذلك خالفوا هذا الأمر، لَمَّا انهزم المشركون، قالوا: لماذا نجلس ههنا، نذهب نقتل ونسبي ونغنم، فذكَّرهم أميرُهم: اذكروا كلام رسول الله ﷺ، فقد أمركم ألا تبرحوا حتى يرسل إليكم، فعَصَوا، فحصل ما حصل بهذه المعصية، قال تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥] ﴿أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾: لماذا أصبنا بهذا؟ ﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾: بسبب معصيتكم، فالمعصية تؤثر في من لم يَعمَلْها، والمعصية إذا جاء عقابها عمَّ، أما عقابها في الآخرة فلا يتعدى صاحبَها، وفي هذه الآية ذكر أنه يمحص ما في القلوب، ويبتلي ما في الصدور، حتى يظهر ويتبين، وفي هذا من المصالح أنه يتبين للمسلمين أعداؤهم الذين معهم؛ لأن المنافق عدو دخيل، داخل مع المسلمين، يصلي معهم ويجاهد معهم، ولكنها إذا جاءت

....

الكوارثُ والأمور الكبيرة، برز نفاقُه، وتمحص وظهر، وهذا من مصلحة المسلمين، أن يعرفوا ويتبينوا أعداءهم الذين بينهم.

وهذا شيء من الحكمة، وإلا ففي الآيات ذكر ثلاث حكم ظاهرة:

١ - أن كل ما يقع فهو بقَدَرٍ من الله تعالى، قدره وعلمه قبل وجود الكون كله، الكون المشاهَد، وهذا شيء يجب أن يؤمَن به.

٢- أنه جل وعلا ينصر الحق، ولكنه قد يَبتلي أهلَ الحق ليمحصهم، ويتخذ منهم شهداء، وهذا من الأمور التي يحبُّها الله جل وعلا.

٣- أنه جل وعلا لا يعمل شيئا إلا بحكمة، حكمة قد تظهر لبعض الناس وقد لا تظهر، وهذه كلها يجب أن تُعتقد تماما، ولا يخالف فيها إنسان، فمن ظن أنه يقع شيء في الكون بلا علم الله وتدبيره، فقد ظن الظن السيئ، ومن ظن أن الله جل وعلا لا ينصر الحق، وأنه يُدِيلُ عليه الباطل إدالةً مستقرة، حتى يذهب الحق ويزول، فقد ظن بالله على خلاف حكمته، وخلاف مقتضى أسمائه وصفاته ووعده، ومن ظن أنه جل وعلا يَقَعُ شيءٌ على خلاف مقتضى أسمائه وصفاته، وهو العليم الحكيم الخبير، فقد ظن به الظن السيئ.

وقد يتبع ذلك ظنون كثيرة، تتعلق بالإنسان نفسه، وتتعلق بغيره،

....

فيجب أن يكون الإنسان عابدا لربه جل وعلا في قلبه وظنونه وإراداته، وما يخطر له في أفعاله الظاهرة؛ يكون عبدا لله مستجيبا، ولا ينجو من عذاب الله إلا مَن أتى الله بقلب سليم؛ سالمٍ من الظنون ومن الشرك والنفاق والشكوك.

﴿نُعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾: لا كلهم، يغشى أهلَ الإيمان والصدق واليقين، والنعاسُ في وقت القتال علامةُ النصر، وعلامة الإيمان والطمأنينة، أما أهل النفاق فلا يَتطرق إليهم نعاسٌ؛ لأنه قد أهمَّتهم أنفسُهم، يخافون القتل، ومرادهم الحياة، إذا ماتوا انتهت حياتهم في أعينهم، فلا يرجون شيئا بعد ذلك.

(﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾): غير مقتضى أسمائه وصفاته وشرعه ودينه، يظنون أنه لا ينصر رسوله، يظنون أن هذه الواقعة التي وقعت هي النهاية لأمر الرسول ﷺ، وأنه سوف يضمحل، ويكون الظاهر المنتصر هو الشرك والمشركون.

(﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾): هذا استفهامٌ تَلَهُّفِيٌّ، يتأسفون على ذلك، ومعلوم أن الرسول ﷺ، لما جاءته قوافلُ الشرك وجنودُه، استشار أصحابه كعادته، وكان رأيُه ﷺ، ألا يخرج إليهم؛ أن يجلس في المدينة، إذا أتوا لن يدخلوا المدينة، وسوف يقاتلهم من الأسواق، والنساء من السطوح، فلن يصلوا إلى شيء، وكان هذا الرأيُ هو رأيَ رئيس المنافقين عبد الله بن أبي

....

سلول، ولكن بعض الصحابة، ولا سيما شبابهم الذين لم يحضروا وقعةَ بدر، ألحُّوا على النبي ﷺ، وقالوا: اخرج بنا إلى عدونا، فلما ألحوا عليه، وهو هين رحيم، صلوات الله عليه، ينزل عند طلبات المسلمين، وإن كانت خلافَ رأيه، إلا أن يأتيه وحيٌ من الله، لما ألحوا دخل المنزل، فلبس سلاحَه، فتلاوموا فيما بينهم، قالوا: أكرهنا رسولَ الله ﷺ على شيء لا يريده، فلما خرج قالوا: يا رسول الله، إن شئت أن نبقى بَقِينا في المدينة، قال: «**لا ينبغي لنبي لبِس لَأْمَتَه -أي درعه- أن يرجع حتى يحكم الله بينه وبين عدوه**»، فخرج بألف، ومعه المنافقون، وفي أثناء الطريق انخزل ثلاثمائة من المنافقين، برئاسة ابن أبي سلول، ثلث الجيش، فحصل ما حصل، فأنزل الله جل وعلا هذه الآيات ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ﴾ إلى قوله: ﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ ﴾، هؤلاء المنافقون ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾: أي لو كان لنا الأمر ما خرجنا، هذا مقصودهم، ويقولون: يمكن أن يتغير هذا الأمر الذي وقع، ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ﴾ ﴿مَّا قُتِلْنَا﴾: ما قُتِل إخوانُنا، ولكن إخوانهم في النسب، لا في الدين، فهذا يعني أنهم يظنون أن الواقع يمكن أن يتغير، وهذا الظن السيئ، فكل ما وقع من الأمور

....

دقَّت أو جلَّت، لا يمكن أن يتغير، والله قدَّر الأمورَ وأسبابَها، وهذا يقع فيه كثير من الناس، يقول: لولا أني فعلت كذا وكذا لوقع كذا وكذا، هذا كذب على القدر، وعلى الواقع، لا يمكن أن يتغير الواقع، هذا هو الذي قدره الله جل وعلا، ولكن الله جعل أسبابا لكل حادث، وهو قدر السبب والمسبب، فيجب أن يعلم أن الشيء الذي يقع لا يمكن أن يتغير، أو يكون على خلاف ذلك، والمصائب التي تصيب الناس، يجب أن يعلموا أنها كهذه الحادثة، وهذا يسمى ظن الجاهلية.

والجاهلية: من الجهل، والجهل الحقيقي هو الجهل بالله، وبدينه، وبأسمائه وصفاته، هذا هو الجهل المُرْدي، الذي يُردي أصحابَه، ويهلكهم، أما الأمور الأخرى من أمور الدنيا فأمرها سهل.

وقولهم: ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ﴾ أي إن التقدير السابق والأمور التي تقع كلها بأمر الله وتقديره ومشيئته وإرادته، لا أحد يملك شيئا من ذلك، ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ رد الله عليهم ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾، لا بد أن يخرجوا إلى الأماكن التي قتلوا فيها، لو كنتم في بيوتكم، لقيَّض ما يُخرجكم إلى هذا الذي كُتب عليكم، ولا بد، لا يمكن أن يتغير الأجلُ.

....

والمقصود بهذا أن العبد المسلم يكون ظنه بالله ظنا حسنا، وهو الظن الذي يتفق مع أسمائه وصفاته، ومع شرعه وخبره الذي يخبر به، وقد أخبر أنه سيَنصُر دينَه، وأن كلمته هي العليا، وكلمة الكفر هي السفلى، وهذا يستمر إلى قيام الساعة، ولكن الله جل وعلا يبتلي المؤمن؛ لأمرين:

الأمر الأول: التمحيص، وهو تكفير الذنوب.

الأمر الثاني: يتخذ من المؤمنين شهداء، والشهادة أعلى ما يمكن أن يطلبه الإنسان بهذا الدين.

وقد جاء أن النبي ﷺ، سمع رجلا يقول: اللهم إني أسألُك خيرَ ما أعطيتَ عبدا من عبادك الصالحين، فقال له: «**إذن يُعقَر جوادُك، ويُهرَق دمُك في سبيل الله تعالى**»؛ أي إن هذا خيرُ ما يعطي اللهُ مَن اختاره مِن عباده، أن يُقتل في سبيل الله، ويذهب ماله في سبيل الله، وقد قال الله تعالى في سورة الفتح: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، فهذه ظنون المشركين، المشركون ظنوا أن الرسول ﷺ، إذا خرج فلن يعود، وأنه سوف يُقضَى عليه، فبيَّن جل وعلا أن هذا ظن سوء، وتوعدهم على ذلك.

قَالَ ابْنُ القَيِّمِ فِي الآيَةِ الأُولى: فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُوْلَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ، وَفُسِّرَ بِأَنَّ مَا أَصَابَهُ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ الله وَحِكْمَتِهِ.

ثم يتبع هذا ما ذكر عن ابن القيم، يقول: (**فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لَا يَنْصُرُ رَسُوْلَهُ، وَأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُّ**)، هكذا إذا ظن الإنسان أن دين الله الحق سوف يَقضي عليه الكفارُ، وأنه سوف يذهب، ولا يبقى منه باقية، هنا يقع في ظن السوء؛ لأن الله جل وعلا أخبر على لسان رسوله، أن هذه الأمةَ سوف يَبقى منها طائفةٌ على الحق إلى قيام الساعة، لا يضرهم مَن خذلهم، ولا مَن خالفهم، ولا مَن عاداهم.

وقد أخبرنا ربُّنا جل وعلا، أنه لما أهبط آدمَ خاطبه وزوجتَه وذريتَه الذين سيأتون فقال: ﴿ٱهۡبِطُواْ بَعۡضُكُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوّٞ﴾، هذا أمر قضاه الله جل وعلا، أن بعض بني آدم لبعض عدو، والعداوة الحقيقية هي العداوة في الدين، أما عداوات تكون بسبب الدنيا فهذه قد تزول وتنتهي، ويحدث الصلحُ بين المتعادِينَ والتصافي، أما عداوة الدين فلا يمكن؛ هي العداوة الحقيقية، فالمسلم عدو للكافر، والكافر عدو للمسلم، وهذا يجب أن يبقى دائما، ولا بد أن يبقى.

والإنسان قد يظن بربه ظن السوء؛ بأن يقول: أنا ما أخذت نصيبي ولا حظي، أنا مبخوس الحظ، لماذا فلان غني وأنا لا؟ يجب أن ترضى بما قدَّره الله لك، وأن تظن بالله الظنَّ الحسن؛ لأن هذا وضعك الذي يناسبك، والله عليم

فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ وَإِنْكَارِ القَدْرِ وَإِنْكَارٍ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ رَسُوْلِهِ ﷺ وَأَنْ يُظْهِرَهُ عَلَى الدِّيْنِ كُلِّهِ، وَهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِيْ ظَنَّهُ المُنَافِقُوْنَ وَالمُشْرِكُوْنَ فِي سُوْرَةِ الفَتْحِ.

حكيم، وقد يصاب بمصائب، فيتضجر، ويتسخط، ويقول: أنا لا أستحق، لماذا أصبت بهذه المصيبة؟ أنا أصلي، وأعمل كذا وكذا، والمعنى أنه يقول: إن الله ظلمني، ولكن ما يستطيع أن يتكلم بهذا، وإلا فهذا هو المقصود، أنا لا أستحق ما وقع علي، فهذا ظن سيئ بالله ﷻ، الإنسان ما يصاب بشيء إلا بذنبه، والإصابة خير له؛ لأنَّ فيها التمحيصَ، وفيها تكفير السيئات، فإذا أصيب العبد بمصيبة فليعلم أنها خيرٌ له، فإنها تخفيف من ذنوبه، وتمحيص، وقد يكون فيها رفعة للدرجات.

والمقصود أن الظن السيئ بالله ﷻ هو ما كان على خلاف مقتضى أسمائه وصفاته، ومن أسمائه: العليم الحكيم البصير الرحيم، الذي يضع الأمور في مواضعها، وهو لا يخفى عليه شيء، وهو العليم الذي علم كل شيء قبل وجوده وكتبه، فلا يقع شيء إلا بإرادته وكتابته السابقة، وهو حكيم يضع الأشياء في مواضعها، وكذلك في أمره ونهيه؛ لا يأمر إلا بما فيه خير، ولا ينهى إلا عما فيه شر، ومن ظن في شيء من دينه خلافَ ذلك، فقد ظن بالله ظن السوء.

تبين بهذا أن هذا عام يدخل فيه ما يقع من الحوادث، وفيما يخص

وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السُّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيْقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَمَا يَلِيْقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيْلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنَّ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وَقَدَرِهِ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُوْنَ قَدَرُهُ لِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الحَمْدَ - بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ -؛ فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِيْنَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِيْنَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّوْنَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيْمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيْمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، وَلَا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ وَمُوْجَبَ حِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ.

الإنسان نفسه، وفيما يكون في الدين الذي يتدين به، فهو عام كثير، يجب على العبد أن يعتني بهذا الأمر، حتى لا يقع في هذا المحذور الكبير، الذي من فعله فإن مأواه جهنم وبئس المصير.

قوله: (وَإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السُّوْءِ؛ لِأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيْقُ بِهِ سُبْحَانَهُ وَمَا يَلِيْقُ بِحِكْمَتِهِ وَحَمْدِهِ وَوَعْدِهِ الصَّادِقِ)، وقد وعد النصر والتأييد.

قوله: (وَأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّوْنَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيْمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ، وَفِيْمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ)، أي إنهم لا يستحقون ما يقع لهم، أو أن حظوظهم مبخوسة، لم يحصلوا على ما يستحقونه في الدنيا، أو أن غيرهم لا يستحق ما أعطي وهو

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ، وَلْيَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ.

وَلَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتُ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى القَدَرِ وَمَلَامَةً لَهُ، وَأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُوْنَ كَذَا وَكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ وَمُسْتَكْثِرٌ، وَفَتِّشْ نَفْسَكَ هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فإن تنجُ منها تنجُ من ذي عظيمةٍ وإلا فإني لا إخالُك ناجِيَا

أولى به منه، كما هو قول كثير من الناس، ولا سيما الأدباء، الذين يُسمَّون أدباء؛ لأن أكثرهم زنادقة، ولا يسلم من ذلك إلا مَن عَرَف الله بأسمائه وصفاته، وموجب حكمته، فيجب أن يكون الإنسان معتنيا بهذا الأمر، ومن وقع في ذلك فقد وقع في خلاف مقتضى التوحيد، وإذا كان وقع له شيء من ذلك فليتب منه، وليقلع عنه، وليظن بالله الظن الحسن، وكذلك غيره من الناس، وهذا أمر كثير، ثم الظن الحسن هو الذي يقول الرسول ﷺ فيه: «**لا يموتن أحدُكم إلا وهو يحسن الظن بربه**»، ليس معنى ذلك أن الإنسان يعمل المعاصي، ثم يقول: «إن الله سيرحمني؛ لأنه أرحم الراحمين»، ليس هذا هو المقصود، المقصود أنه لا يخالف شرعَ الله، ولا مقتضى أسمائه وصفاته، والله جل وعلا أخبر أنه لا يجعل المسلمين كالمجرمين، ولا يجعل الصادق كالكاذب، ولا يجعل العامل كالتارك للعمل؛ لأن هذا على خلاف مقتضى حكمته وأمره وشرعه، فالظن الحسن أن يظن بربه جل وعلا أنه إذا عمل

....

بشرعه أنه يجزيه الجزاء الأوفى ويعفو عنه، أما أن يعمل المعاصي ويقول: أظن بربي الظن الحسن، فهذا من غرور الشيطان.



بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي الْقَدَرِ

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ؛ لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ الله مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ؛ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الإِيمَانُ أَنْ تُؤْمِنَ بالله وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ.

قوله: (وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ: وَالَّذِي نَفْسُ ابْنِ عُمَرَ بِيَدِهِ؛ لَوْ كَانَ لِأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا...): الحديث طويل ذكره مسلم عن يحيى بنِ يَعمَر قال: كان أولَ مَن قال في القدر بالبصرة مَعْبَدٌ الجُهَني، فانطلقت أنا وحميدُ بنُ عبد الرحمن الحميري حاجَّين أو معتمرين، فقلنا: لو لقينا أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فسألناه عما يقول هؤلاء في القدر، فوُفق لنا عبدُ الله بن عمر بن الخطاب داخلا المسجد، فاكتنفته أنا وصاحبي أحدنا عن يمينه والآخر عن شماله، فظننت أن صاحبي سيَكِلُ الكلام إلي، فقلت: أبا عبد الرحمن إنه قد ظهر قِبَلَنا ناس يقرءون القرآن ويتقفَّرون العلم، وذكر من شأنهم، وأنهم يزعمون أنْ لا قدرَ وأن الأمر أُنُف، قال: فإذا لقيتَ أولئك فأخبرهم أني بريءٌ منهم وأنهم برآءُ مني .. الخ.

أُنُف: مستأنف، لم يكن يُعلم من قبل.

قوله: (أَنْ تُؤْمِنَ بالله): يدخل فيه الإيمان بأسمائه وصفاته، لا بد،

وَتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

والقدر من صفات الله، فلا بد من الإيمان به، والإيمان به على وَفْق ما جاء في النصوص، أن الله جل وعلا علم كل شيء قبل وجود الشيء، علمه أزلي، الله لم يكتسب علما جديدا بالمخلوقات وغيرها، علمه لا يزيد، علمه كامل، والكامل لا يزيد ولا ينقص، فهو كامل تام، علم الأشياء قبل وجودها، ثم كتبها، نَخلُص من هذا إلى أن أركان الإيمان بالقدر أربعة.

أركان الإيمان بالقدر:

١- الإيمان بعلم الله الشامل الأزلي، والأزل: القدم الذي لا مبدأ له.

٢- كتابته جل وعلا لعلمه.

٣- مشيئته التامة الشاملة الكاملة، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

٤- خلقه لكل شيء، فهو الخالق وحده، وهو الذي إذا شاء شيئا وُجد، وإذا شاء ألا يوجد لا يوجد، ولو اجتمع الخلقُ كلهم على غير ذلك لم يستطيعوا.

هذه الأمور لا بد منها؛ فمن آمن بها فقد آمن بالقدر، هذا القدر، تبين بهذا أن القدر من صفات الله جل وعلا، ولهذا جاء عن الإمام أحمد أنه قال: «القدر قدرة الله»، يقول ابن عقيل: «لقد بيَّن الإمامُ أحمد بهذا الكلام الوجيز

وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ؛ أَنَّهُ قَالَ لِابْنِهِ: يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيْمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ؛ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيْبَكَ. سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اُكْتُبْ. فَقَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اُكْتُبْ مَقَادِيْرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُوْمَ السَّاعَةُ». يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

وَفِي رِوَايَةٍ لِأَحْمَدَ: «أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى القَلَمُ؛ فَقَالَ لَهُ: اُكْتُبْ. فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».

الواضح معنى القدر؛ أنه قدرة الله جل وعلا».

قوله: (وَعَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ): عبادة رضي الله عنه قال هذا القول لابنه، وهو في مرض الموت، دخل عليه ابنُه يقول: وأنا أتخايل فيه الموت، قلت: يا أبتِ أوصني، فقال: أجلسوني، ومعلوم كيف وصية الوالد لولده؛ أنه يجتهد، والسبب في هذا أن إنكار القدر في ذلك الوقت قد ظهر، فلهذا خاف على ابنه وقال: (يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيْمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ؛ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيْبَكَ)، وهذا مثال فقط، أي إن كل ما يقع لا يمكنُ أن يكون على خلاف القدر، ولا يمكن أن يكون مع الله جل وعلا مدبِّر ولا مصرف، أما هذا الحديث، فقد روي على لفظين (إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الـقَلَمَ): (أولَ ما خلق اللهُ القلمَ)، وفي الرواية الثانية (أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللهُ

وَفِي رِوَايَةٍ لِابْنِ وَهْبٍ؛ قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ؛ أَحْرَقَهُ اللهُ بِالنَّارِ».

تَعَالَى القَلَمُ)، على الرواية الأولى تكون الجملة واحدة (أولَ ما خلق الله القلمَ قال له اكتب) هذه جملة واحدة، وهذا معناه أن المقصود أنه لما خلق القلم أمر بالكتابة مباشرة، بغير فاصل، فلا يكون فيه الإخبار بالأولية - بأولية القلم وأنه أول المخلوقات - أما على الرواية الثانية (أولُ ما خلق الله القلمُ) يكون (أول) مبتدأ، فيكون المقصود الإخبار بأولية خلق القلم، فهل يكون بين الروايتين تعارض؟ قد يبدو لبعض الناس، ولكن الواقع أنه لا تعارض، لكن نقول: إذا كانتا جملتين، فالمقصود أوليته بالنسبة لهذه المخلوقات المشاهَدة، وليست المخلوقات مطلقا؛ لأنه ثبت في «صحيح مسلم»، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الله كتب مقاديرَ الأشياء قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء**»، فقوله: «**وكان عرشه على الماء**»: هذه جملة حالية، أي: وقت الكتابة كان العرش على الماء، العرش موجود والماء موجود، فدل هذا على أن القلم ليس هو أول المخلوقات مطلقا، وإنما هو أول المخلوقات التي تشاهد، وعلى كل حال يصح هذا وهذا، وكونُها جملةً واحدة أحسنُ؛ أنه ليس المقصود الإخبار بأولية القلم، وإنما المقصود أنه أمر بالكتابة بعد خلقه مباشرة، أما كيف كتب القلم؟ فهذا بأمر الله جل وعلا،

وَفِي الْمُسْنَدِ وَالسُّنَنِ عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ؛ قَالَ: «أَتَيْتُ أُبَيَّ بْنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ الْقَدَرِ؛ فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللهَ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا؛ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ، وَتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، وَلَوْ مِتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ. قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَ اللهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَحُذَيْفَةَ بْنَ اليَمَانِ وَزَيْدَ بْنَ ثَابِتٍ؛ فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي صَحِيْحِهِ.

قال له: اكتب، فكتب، بإرادته ومشيئته وخلقه، الكاتب هو الله جل وعلا، ولكن القلم واسطة.

وقوله في الحديث الذي في السنن: (عَنِ ابْنِ الدَّيْلَمِيِّ) يدل على أن الرجوع في المشكلات والأمور التي تعرض للإنسان، يجب أن يكون إلى كتاب الله، أو سنة رسوله ﷺ، وليس إلى الآراء، آراءِ العقول؛ فإنها تضيع، بخلاف هذا؛ فإنه معصوم. الأخبار التي تأتي عن الله فيها العصمة، وفيها الشفاء، وفيها الاهتداء لمن فهمها، وهذا هو المقصود، الرجل ما زاد على أن سأل الصحابةَ، فأخبروه أن النبي ﷺ قال كذا وكذا، ومن كان خلاف ذلك كان من أهل النار، فدل على وجوب الإيمان بالقدر، وأنه لا يقع شيءٌ إلا وقد قدَّره الله، والقدر ضل فيه طوائف من الناس، والمشهور طائفتان:

- طائفة غلَت في إثباته، وقالت: إن الإنسان لا قدرة له، ولا حيلة له،

....

وإنما هو بمنزلة الآلة التي تدار، فإذا أضيف إليه شيء فهو من باب المجاز، كقولك مثلا: مات فلان، أو قولك: أمطرت السماء، أو: طلعت الشمس، هل الشمس لها اختيار؟ أو السماء لها اختيار؟ فكذلك يقولون، حتى قالوا: آمن الإنسان وكفر، هذا أمر باطل في الواقع، واحتجوا لهذا بمثل قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] نفى الرمي عن نبيه، وأثبته لنفسه.

والواقع أن هذه الحجة باطلة؛ لأن المثبَت غيرُ المنفي، فالرسول ﷺ، أمره الله جل وعلا أن يأخذ حصباء من الأرض، ويرمي بها وجوه الكافرين، فأخذُ الحصباء، وتحريكُ اليد، والرميُ بها، هذا أمر واقع من النبي ﷺ، وهو فِعلٌ، ولكن إيصال المرميِّ إلى مناخرهم وأعينهم، هذا فعلُ الله، ليس بقدرة الرسول ﷺ، وهذا هو الذي نُفي، فالمنفي غير المثبت، فلا يكون في الآية حجة.

واحتجوا بحديث الصحيحين، أن موسى عليه السلام قال: «رب أرني آدم الذي أخرَجَنا ونفسَه من الجنة، فأراه آدم، فقال: أنت آدم أبو البشر، لماذا خيَّبتنا ونفسك، أخرجتنا من الجنة؟ فقال له آدم عليه السلام: أنت موسى الذي كلَّمك الله بلا واسطة؟ كم وجدتَ مكتوبًا قبل أن أُخلق في التوراة

....

﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾ [طه: ١٢١] ؟ قال: وجدته مكتوبا قبل أن تخلق بأربعين سنة، قال: أتلومني على شيء كُتب علي قبل أن أُخلق بأربعين سنة؟ فحجَّ آدمُ موسى، فحج آدمُ موسى، قالوا: هذا دليل على أن الإنسان ليس له إرادة، وإنما يمشي بقدر، وهذا باطل، وذلك أن موسى عليه السلام، خاصم آدم في المصيبة، وليس في الذنب؛ لأن الذنب الذي تيب منه لا يجوز أن يُذكر، فضلا عن أن يحتج به، ولو كان كذلك لأَمْكَنَ آدمَ أن يقول: أنت قتلتَ نفسا، لماذا قتلت نفسا؟ ولكن آدم يعلم أنه قد تِيبَ عليه، والتائب لا ذنب عليه، فهو أراد المصيبة، المصيبة مكتوبة، وإذا وقعت لا حيلة فيها، فيجوز للإنسان أن يحتج عليها بالقدر، يقول: هذا شيء كتبه الله علي، والحمد لله، أنا مؤمن بذلك، فتعلقُهم بذلك باطل.

وطائفة تقول: الإنسان يخلق فِعلَه استقلالا، ولا شأن لله في ذلك، فهم يؤمنون بشرعه وينكرون قدره وإرادته وفعله وعمله، وأنكروا أن يكون الله جل وعلا يمُنُّ على أحد بالإيمان، أو أنه يُضل أحدا، أو يهدي أحدا.

وهذا باطل أيضا، وكلتا الطائفتين ضالة، والحق وسط بين الطائفتين، أهل السنة يرون أن الإنسان له اختيار وله قدرة، وكُلف على حسب قدرته، وتقع الأمور التي يفعلُها على حسب اختياره، له اختيارٌ خلقه الله فيه،

....

﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ ۝٩٦ ﴾ [الصافات: ٩٦] أي: خلقكم وأفعالكم، ولهذا قال: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ ﴾ [الإنسان: ٣٠] هذا هو الحق، الحق وسط بين باطلين، هذا والله أعلم.

❊❊❊

بَابُ مَا جَاءَ فِي المُصَوِّرِيْنَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: قَالَ اللهُ تَعَالَى: «وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛ ....

قوله: (بَابُ مَا جَاءَ فِي الْمُصَوِّرِيْنَ): أي من الوعيد، وذكر بعضا من الأحاديث الواردة في وعيد المصورين، والتصوير نوع من التنديد والشرك بالله جل وعلا، ولهذا أدخله المؤلفُ ﷺ في كتاب التوحيد؛ لأن الأبواب التي ذكرها بعد قوله: (باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله)، قال فيها: (كل ما يأتي هو شرح لهذه الترجمة)، فهذا مِن شرحِها؛ لأنَّ مِن شرح الشيء ذكرَ ضدِّه، كما قيل:

وبضدها تتبين الأشياء

فالتصوير تشبُّه بالله جل وعلا، والتشبه بالله جل وعلا في أي أمر من الأمور لا يجوز، فهو من أعظم المحرمات، ومن أسماء الله تعالى: المصور؛ هو الذي يصور المخلوقات كلها، ولا أحد يستطيع أن يخلق شيئا؛ ولذا جاء الأمر بالتعجيز (وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي؛....). هذا الحديث من الأحاديث القدسية، والحديث القدسي: هو ما أُضيف إلى الله قولا ومعنى، فهذا من كلام الله جل وعلا، الذي يذكره رسولُ الله ﷺ، عن ربه تعالى.

فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً». أَخْرَجَاهُ.

(وَمَنْ أَظْلَمُ): الذي يفعل هذا قد بلغ النهايةَ في الظلم، فلا أحد أظلم منه، وهذا أمر عظيم جدا.

(يَخْلُقُ كَخَلْقِي): يصور الصور التي هي من خصائص الله، الخَلْق من خصائص الله، لا أحد يستطيع أن يخلق شيئا.

(فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً): هذا أمرٌ تعجيزي، أي إنهم عاجزون عن أن يخلقوا ذرة، التي هي أصغر ذوات الروح تمشي وتحيا بها، لو اجتمع بنو آدم كلُّهم ما استطاعوا أن يخلقوها، ثم تنزَّل إلى ما هو أقلُّ منها، وقال:

(أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً): الحبة التي فيها حياة، تنبت، لن يستطيعوا أن يخلقوها.

ثم تنزَّل لأكثرَ من هذا فقال: (أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيْرَةً)؛ لأن الشعيرة أقل قيمة من الحبة، الحبة: حبة البر أو غيرها، التي تكون فيها حياة، لا يستطيعون أن يُوجدوا شيئا من ذلك، كل هذا بيان أن الذي يذهب يصور شيئا من المخلوقات فإنه أظلم الظالمين، لا أحد بلغ مثل هذا الظلم، مع أن الناس الآن تساهلوا بالتصوير تساهُلا عظيما، فتجد التصوير فاشيا عندهم، وأصبحت هذه الأجهزةُ تعين على ذلك، بغير مبالاة، تجده يصور عند أدنى شيء، ولو لم يكن له سبب، فهذا دليل على الجهل بهذا الأمر والتساهل فيه،

وَلَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ ﵂؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِيْنَ يُضَاهِئُوْنَ بِخَلْقِ اللهِ». وَلَهُمَا عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ ﵄: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ.........................

والرسول عليه الصلاة والسلام حذَّر تحذيرا عظيما، وأكثَرَ من ذكر ذلك، مع أنه لم يكن التصويرُ فاشيا في وقته، ولكن هو رسول الله، يعلمه الله جل وعلا بما سيكون، ويأمره بإنذار الناس، حتى لا يكون للإنسان حجةٌ عند الله، يقول: ما علمت؛ لأن رسول الله ﷺ إذا قال شيئا وجب على الأمة أن يعرفوه، ولا يُعذر أحد بجهالة أمر من الأمور مثلِ هذا.

قوله: (يُضَاهِئُوْنَ بِخَلْقِ اللهِ): يشبهون خلق الله، يأتون بشيء يشابهون به، وهو التصوير.

قوله: (أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ...): أطلق لفظة الناس، لم يقل: المؤمن، أو: المسلم، ويدخل في التصوير التخطيطُ باليد، ويدخل فيه التصويرُ بالآلات، الكاميرات، والجوال، وغيرها، ولكن يخرج من هذا التصوير بالفيديو، فهذه ليست صورا في الحقيقة، وإنما هي نقلٌ للواقع، نقل المخلوق الذي خلقه الله، الفيديو ليس تصويرا، إنما ينقل الشيء، كما إذا وضعت مرآة، ما عدا هذا فكلُّه تصوير، سواءٌ كان خطا باليد، أو بالأجهزة التي تمسك الشيء، ويكون أدقَّ من الخطوط باليد.

قوله: (كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ): هل هناك أصرحُ من هذا؟ (كُلُّ) من

يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

وَلَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ».

أدوات العموم التي لا يخرج عنها شيء، والمصور يشمل ما كان بيده أو بأجهزة، وهذا صريح في أن هذا من الأمور العظيمة التي يُعذب عليها الإنسان، ولا يجوز أن نفسر هذا بتفسيرات تذهب بالحكم؛ لأن الرسول ﷺ أُعطي البيان الكامل، وأُعطي الفصاحةَ والبلاغة، فلا يجوز أن يُعقب على كلامه، أو أنه يؤول تأويلا يخرجه عن مراده، فإن هذا من الأمور المحرمة، فيجب أن يكون هذا على عمومه، أما كونُه في النار، أو كونه يُجعل له بكل صورة صورةٌ لينفخ فيها الروح، فإن هذا أمره إلى الله جل وعلا، وهذا قول رسول الله ﷺ، يجب أن يعلم ويُمتثل، ولا يُنتهك، ولا يُتساهل فيه.

قوله: (**مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا؛ كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ وَلَيْسَ بِنَافِخٍ**): كلف أن يجعلها حية، كحياة الذي يخلقه الله جل وعلا، هذا من التكليف بما لا يُستطاع، وهو عذابٌ شديد، نسأل الله العافية.

حديث أبي الهياج الأسدي يدل على أن الرسول ﷺ، كان يرسل رسلا بهذين الأمرين: طمس الصور، وتسوية القبور المرتفعة بالأرض؛ لأن هذين الأمرين هما أصلُ الشرك بالله جل وعلا، وأصل المخالفة، فأولُ شرك وقع في الأرض كان بسبب الصور، ولا سيما صور المعظمين، سواء كان من العباد أو

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الْهَيَّاجِ؛ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلَا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ؟ أَلَّا تَدَعَ صُوْرَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا وَلَا قَبْرًا مُشْرِفًا؛ إِلَّا سَوَّيْتَهُ».

العلماء، أو كانوا من الرؤساء والكبراء، وكذلك القبور، تُلحق بهذا، فهي من الفتن التي افتتن بها كثير من الناس، وهذا من العجب؛ كيف أن الإنسان العاقل المفكر، يذهب إلى ميت لا يملِك شيئا، ثم يطلب منه أن يتوجه له عند الله، أو أن يقربه، أو أن يعطيه مباشرة شيئا مما يطلبه، وهو لا يستطيع أن يوجد لنفسه حسنة، أو يمحو من سيئاته سيئة واحدة؛ لأنه مرتهن بعمله، وهو غير قادر على شيء، الحي الذي يَسأل هو أقدرُ من الميت، ويستطيع أن يعمل ما لا يعمله الميت، ثم يذهب إلى الميت، لكن هذا من وسوسة الشياطين، وتزيينهم لبني آدم ما يكون سبيلا لإيقاعهم في جهنم، نسأل الله العافية.

دلت هذه النصوصُ على تحريم التصوير، وأنه من أعظم المحرمات، وعلى الوعيد الشديد للمصورين، ويضاف إلى ذلك أن هذه من علامات النبوة؛ لأن المصطفى ﷺ، أخبر بأشياء، وحذر منها كثيرا، ولم تكن موجودة في وقته، ووقعت بعد ذلك بأزمان كثيرة، وانتشرت في الناس، حتى أصبح التصويرُ الآن منتشرا جدا، في المكاتب والأسواق وغيرها، حتى الإعلانات والدعايات كلها مصحوبة بالصور، كل هذا من المحرمات العظيمة التي يجب على المسلم أن يبتعد عنها.

بابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفِ

....

الحلف هو: تأكيدُ الخَبَر بذكر المعظَّم، الذي يستطيع أن يعاقب الكاذبَ ويثيب الصادقَ، وهذا لا يكون إلا لله جل وعلا.

ولا يجوز الحلف إلا بالله، أو باسم من أسمائه، أو صفة من صفاته جل وعلا، ويكون الحلفُ بغيره من الشرك، كما جاء في الحديث «**مَن حلَف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، وقد كان الحلفُ في أول الإسلام بغير الله جائزا، ثم نُسخ؛ ولهذا جاء في «صحيح مسلم»، وفي غيره: أن الرسول ﷺ سُئل عن الشيء الذي يدخل الجنة، فذكر عبادةَ الله وإقامَ الصلاة وإيتاءَ الزكاة، فقال السائل: والله لا أزيدُ على هذا ولا أنقص منه، فقال: «**أفلح وأبيه إن صدق**»، هذا الحديث جاء له نظائر كثيرة، وهذا يكون في أول الإسلام، وبعد ذلك نُسخ، وأمر أن يكون الحلف بالله فقط، أو بصفة من صفاته، قال ﷺ: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**»، وقال: «**لا تحلفوا بآبائكم؛ فإن الله ينهاكم عن ذلك**»، في أحاديث كثيرة، كلها ناسخة لهذا، وهذا هو القول الصحيح من أقوال العلماء في هذا الحديث، أما قول البعض: إن هذا خطأ من الراوي، والأصل أنه قال: «**أفلح والله**»، كما قال ابن عبد البر وغيره، فهذا غير صحيح؛ إذ لا يقتصر الأمر على هذا الحديث، فهناك أحاديث غيره، فالصحيح أن هذا منسوخ.

وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾..

وكثرة الحلف تدل على التساهل والتهاون به، وإذا كثر لا بد أن يقع في المخالفة، فمن وقع في هذا دل على خفة دينه، وأن التوحيد عنده ليس كاملا، وهذا هو وجه إدخال هذا الباب في كتاب التوحيد.

قوله: (وَقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾): للمفسرين في هذه اللفظة قولان:

- احفظوا أيمانكم: لا تحلفوا، فإن من حلف يقع في المخالفة.

- احفظوا أيمانكم: إذا حلفتم وخالفتم، فلا تتركوها بلا كفارة، فيكون هذا حفظها.

والصحيح أن الآية شاملة للمعنيين؛ احفظوا أيمانكم ألا تخالفوا ما تقولون، فتقعوا في الحنث، ثم تقعوا في الإثم، ثم إذا وقعتم في المخالفة فكفِّروا عن أيمانكم، وقد بين الله جل وعلا كفارة اليمين؛ أنها إطعام عشرة مساكين من أوسط ما يطعم الإنسان أهله، لا من أعلاه ولا من أدناه، فإن لم يكن ذلك فالكسوة، يكسوهم الكسوة التي تصح الصلاة بها، تستر المصلي، فإن لم يستطع ذلك، ينتقل إلى الأمر الثالث؛ وهو صيام ثلاثة أيام، ولا يجوز أن يصوم وهو يستطيع أن يطعم، أو يستطيع أن يكفر، أما عتق الرقبة، فهذا قد يكون متعذرا في الوقت الحاضر، وإلا فهي كفارة أيضا، عتق رقبة، أو

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ؛ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ». أَخْرَجَاهُ.

وَعَنْ سَلْمَانَ؛ أَنَّ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يُزَكِّيْهِمْ...

إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، فمن لم يجد صام ثلاثة أيام.

قوله: (الحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ): في البيع والشراء، إذا حلف الإنسان على أنه لا يبيع هذا الشيء إلا بكذا، دل ذلك على شدة محبته للدنيا، وليس هذا من صفة المؤمن، الذي تكون رغبتُه في الآخرة أكثرَ من رغبته في الدنيا، وتعلقُه بالله أكثرَ، وكذلك إذا حلف وقال: والله لقد اشتريتُ هذا بكذا وكذا، فهذا يدل على حرصه، وشدة تمسكه، فلا يجوز أن يحلف لا على هذا ولا على هذا.

ومثل ذلك: المشتري، إذا أراد أن يشتري يقول: والله ما أشتري هذا إلا بكذا، فلا يجوز للبائع ولا للمشتري.

قوله: (مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ): إذا حلف فإنها تكون عند الناس مرغوبا فيها، لأن الحلف يرغِّب في السلعة.

قوله: (مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ): تكون بركته ممحوقة، ومَن مُحقت بركةُ ماله فلا خير فيه، هذا خبر الرسول ﷺ، وهو ذم للحلف.

قوله: (ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يُزَكِّيْهِمْ): الكلام يكون يوم القيامة، أما

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ: أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، ....

في الدنيا فالله لا يكلم أحدا، إلا من ذكرهم الله جل وعلا، مثل: آدم، فقد كلمه بلا واسطة، وكذا موسى عليه السلام، كلمه بلا واسطة، ومثله النبي ﷺ، فقد كلمه يوم عُرج به إلى السماء بلا واسطة، وأما يوم القيامة فالله يكلم عباده المؤمنين، ويحاسبهم، والكافرون لا يكلمهم ولا يزكيهم، التزكية: التنمية والبركة، ومن لم يبارك الله به وعليه، فهو ممحوق ولا خير فيه.

قوله: (وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيْمٌ): اجتمع عليهم أمورٌ ثلاثة:

١ - عدم التكليم.

٢- عدم التزكية.

٣- العذاب الأليم.

أي مؤلم شديد، ثم ذكرهم:

قوله: (أُشَيْمِطٌ زَانٍ): الأشيمط من اختلط بياضُ شعره بسواده، فإذا كانت سنُّه هكذا فقد ضعُفت شهوتُه، فإذا أقدم على الزنا دل على حبه لذلك، وأن هذا خُلُق فيه، ومن كان كذلك فهذا خليق بأن الله لا يكلمه ولا ينظر إليه، وصَغَّره لحقارته: أشيمط؛ لأنه زان، فهو محتقَر صغير عند الله جل وعلا وعند عباده، ثم إن هذا جنس، وليس رجلا واحدا، من كان بهذه الصفة.

قوله: (وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ): العائل الفقير، والفقر مظنة الانكسار، ومظنة

وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِيْنِهِ، وَلَا يَبِيْعُ إِلَّا بِيَمِيْنِهِ». رَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيْحٍ.

وَفِي الصَّحِيْحِ عَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ ﷺ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ....

الخضوع والذل، فإذا كان فقيرا متكبرا، فهذا دليل على أن هذا خُلُق فيه، فيكون ذلك داعيا لأن الله لا يكلمه ولا يزكيه، ويعذبه، والغِنَى هو الذي يدعو إلى التكبر؛ كما قال جل وعلا: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ۝٧﴾ [العلق: ٦ - ٧]، أما إذا كان فقيرا وتكبر، فهذا لأنه جُبل على هذا الشيء، وهو خلق له بلا داع وبلا سبب.

قوله: (وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ): جعل الحلف بالله بضاعته، لا يشتري ولا يبيع إلا بالحلف، فهذا ملحق بالثلاثة أيضا؛ لا يكلمه الله، ولا يزكيه، وله عذاب أليم، وبئس الجزاء، نسأل الله العافية، هؤلاء اختاروا شهواتهم وأمورَ الدنيا، فيكون قلبُه معلقا إما ببطنه، أو شهوته، فيكون عابدا لغير الله جل وعلا.

قوله: (خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي): اختُلف في القرن، والصحيح أن القرن ما اجتمع الناسُ على شيء فيه؛ إما نبي، أو شيء من أمور الدين الظاهرة، وقيل: القرن مائة سنة، ولكن هذا تقريبي، فالقرن أن يموت هذا الجيل ويخلفه

ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ - قَالَ عِمْرَانُ: فَلَا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا؟ ....

أبناؤه، فالصحابة رضوان الله عليهم هم قرن الرسول ﷺ، وهم خير الناس بعد الأنبياء، من الأولين والآخرين، ولهذا قال: (خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي)، وهذه الأمة هي أفضل الأمم، كما قال ﷺ: «**أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرُها وأفضلُها عند الله**»، فإذا كان الصحابةُ هم خيرَ هذه الأمة، فيكونون خيرَ الناس كلِّهم، ولكن يخرج من ذلك مَنِ اصطفاه الله جل وعلا برسالته، أو بنبوته، والنصوصُ في هذا كثيرة؛ في فضل الصحابة وخيريتهم، كما قال الله جل وعلا: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]؛ فأول من يدخل فيها الصحابة.

قوله: (خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي): قرن الرسول، الذين شاهدوه وقاتلوا معه أعداءه، وأنفقوا في سبيل الله أموالَهم، وبذلوا نفوسَهم في نصرة دين الله جل وعلا، وأخذوا الإيمان والعلم عن رسول الله ﷺ، هذا خص به الصحابة رضي الله عنهم.

قوله: (ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ): هم الذين تعلموا من صحابة الرسول ﷺ، وتتلمذوا عليهم، وهم التابعون.

قوله: (ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ): يلون من يلي الصحابة من التابعين، وهم

- ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ، وَيَخُوْنُوْنَ وَلَا يُؤْتَمَنُوْنَ، وَيَنْذِرُوْنَ وَلَا يُوْفُوْنَ، وَيَظْهَرُ فِيْهِمُ السِّمَنُ». وَفِيْهِ عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ ﷺ؛ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ....

أتباع التابعين، هؤلاء ثلاثة قرون، وبعد ذلك تحدث الفتن والخلافات والانتكاسات، ويحدث الشر، كما قال ﷺ هنا.

قوله: (يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ): الشهادة تكون خفيفة عندهم، وكذلك الأيمان. قد يأتي إشكال على هذا، (يَشْهَدُوْنَ وَلَا يُسْتَشْهَدُوْنَ)، جاء في الحديث «أن خير الشهداء من جاء بالشهادة قبل أن يُسأل»، وهذا يجب أن يحمل على شهادة لا يعلمها الذي يُشهد له، يأتي بها خوفًا من ذهاب حقه، هذا هو المقصود، ولا يكون معارضا للحديث الآخر.

قوله: (وَيَخُوْنُوْنَ وَلَا يُؤْتَمَنُوْنَ، وَيَنْذِرُوْنَ وَلَا يُوْفُوْنَ): والنذر نوع من الحلف.

قوله: (وَيَظْهَرُ فِيْهِمُ السِّمَنُ): لرغبتهم في الدنيا، وكثرة مآكلهم، بخلاف الصحابة ﷺ، فعَيْشُهم كان كَفافا، وأما الدنيا فإنها لم تُفتح لهم، ولما فُتحت بذلوها في سبيل الله.

قوله: (خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي): هذا أظهر من الأول؛ لأنه قال: (خَيْرُ النَّاسِ)، فدخل فيه الناس كلهم، وقرنه هم صحابته.

ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ الَّذِيْنَ يَلُوْنَهُمْ، ثُمَّ يَجِيْءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِيْنَهُ، وَيَمِيْنُهُ شَهَادَتَهُ». وَقَالَ إِبْرَاهِيْمُ: كَانُوا يَضْرِبُوْنَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ.

قوله: (قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِيْنَهُ، وَيَمِيْنُهُ شَهَادَتَهُ): لا يبالي شهد أو أقسم بالله، لخفة الدين عندهم، ولأن الله ليس له وقار في قلوبهم، ضعُف تعظيمُ الله عندهم، فصاروا بهذه الصفة، وهذا دليل على أن التوحيد عندهم ليس كاملا؛ إما أن يكون ناقصا، أو معدوما لا وجود له.

قوله: (وَقَالَ إِبْرَاهِيْمُ): إبراهيم النَّخَعي، وهو من تلامذة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

قوله: (كَانُوا يَضْرِبُوْنَنَا): أهلنا وآباؤنا الذين يربوننا.

قوله: (عَلَى الشَّهَادَةِ وَالعَهْدِ وَنَحْنُ صِغَارٌ): حتى يتعوَّدوا، ويظهر ذلك على ألسنتهم، وهذا خلاف ما يفعله بعض الناس، فإنهم يعلمون أبناءهم الكذب، فيقول مثلا: تعالَ أُعطِك كذا، ثم لا يعطيه شيئا، هذا من التربية السيئة، أما السلف فكانوا يعتنون بأطفالهم، ويربونهم على الأخلاق الفاضلة، وعلى احترام أمور الدين وتعظيمها، حتى ينشؤوا على ذلك، ومعلوم أن الصغير إذا نشأ نشأة حسنة، فهذا يكون خُلقا له، وتكون مخالفتُه صعبة عليه جدا، فلا بد من الاعتناء بالطفل وتربيته تربية صحيحة، حتى يثابَ الإنسانُ على ذلك، ويكونَ قد قام بأداء الأمانة والرعاية التي استرعاه

....

الله إياها؛ «**فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته**»، وإذا غش الراعي رعيته، فقد جاء الوعيد أن من فعل ذلك لم يكلمه الله، ولم يَرح رائحة الجنة، «**من مات يوم يموت وهو غاشٌّ لرعيته، لم يَرَحْ رائحة الجنة**»، نسأل الله العافية.

❁ ❁ ❁

بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ

....

الذمة: العهد.

ونقض العهد من المحرمات الكبيرة، وهو من الأمور التي تكون بين المسلمين وبين أعدائهم، فيجب أن تُرعى، ولا يُتساهَل فيها؛ لأن الوفاء بها من محاسن الإسلام، ومن الأمور التي تدعو الكفار إلى معرفة أن الإسلام دين صحيح، وتدعوهم إلى اعتناقه، والمقصود بهذا العقلاء، لا المتعصبون الذين يكون دينُهم عبادةَ الدنيا، فهؤلاء غالبا لا يهتدون، ولكن فيهم العاقل، وفيهم من ينظر في الأمور، فإذا أخفر المسلمون العهود ونقضوها، ونقضوا الذمم، كان هذا قدحا في الدين، ولا يجوز لأحد أن يفعل ذلك.

والمعاهدة: أصلها أن يُذكر العهدُ المعظَّم على اسم الله جل وعلا واسمِ رسوله؛ يقول: لك عهدُ الله وعهدُ رسوله، فإذا كان كذلك فهذا لا يجوز له أن يَتعرَّض له متعرِّضٌ، أما إذا قال: لك عهدي وعهد أصحابي، أو: لك ذمتي وذمة أصحابي، فهذا أسهل، ولهذا أمر الرسول ﷺ، أن يُفعل ما هو أسهل؛ لأنه قد يتعرض جاهل من الناس لهذا الشيء، فيكون ذلك قدحا في الإسلام كله، وفي المسلمين؛ لأنه كما قال ﷺ: «**المسلمون يد واحدة، يسعى في أمرهم أدناهم**» فإذا عاهد أحدُهم كافرا من الكفار يجب أن يُوفى له، وإن لم يكن أميرا، بل من آحاد الناس.

وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ ﴾ [النحل: ٩١].

عَنْ بُرَيْدَةَ قَالَ: كَانَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ إِذَا أَمَّرَ أَمِيْرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ ....

قوله: (﴿ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ﴾): أوفوا بالعقد الذي عقدتم بينكم وبين غيركم، وإن نقضوا هم فالنقض من قِبَلهم، أما إذا صار فيهم مخالفات فيجب أن يُعلَموا، ويقال لهم علانية: عهدنا الذي عاهدناكم نخبركم أنه منقوض، فكونوا على بينة، لكيلا يكون هناك غدر، لا بد أن تنبذ إليهم العهود أولا.

قوله: (﴿ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا ﴾): سميت أيمانا لأنها في الغالب تمد فيها الأيادي اليمنى، كُلٌّ يمُدُّ يدَه اليمنى إلى الآخر، تأكيدا للأمر، هذا من باب التأكيد، وتأكيدُها: بالتماسك، وذكرِ اسم الله جل وعلا فيها، فإذا أُكدت فهذا أشد وأعظم في نقضها.

قوله: (إِذَا أَمَّرَ أَمِيْرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ): السَّرِيَّة: القطعة من الجيش، وسميت سرية؛ لأنها في الغالب تسير في الليل، وتكمن في النهار، حتى لا يعلمَ بها العدو، فتَبْغَتهم.

(أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ): يقول له اتق الله، في نفسه أولا.

وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ خَيْرًا؛ فَقَالَ: «أُغْزُوَا بِسْمِ اللهِ ، فِي سَبِيْلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ أُغْزُوَا، ....

(وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِيْنَ خَيْرًا): بأن يَرفُق بهم، وألا يُوقِعهم فيما هو مهلكة، بل يجب أن يراعيهم، وينظر إليهم، ويرعى مصالحهم، فيكون مسؤولا عنهم، كما كان الرسول ﷺ.

(أُغْزُوَا بِسْمِ اللهِ): اغزوا، اقصدوا العدو في بلاده، وهذا دليل على أن القتال في الإسلام مشروع، وقد قال الفقهاء: يجب على المسلمين أن يغزوا الكفار كل سنة مرتين، على الأقل، فإن لم يفعلوا ذلك سلط الله عليهم الكفار فأخذوا بعض ما في أيديهم، أو استحلوا بلادهم، كما هو الآن؛ لما ترك المسلمون الغزو مُزقت بلادهم، وجُعلت دويلات صغيرة، يتحكم فيها العدو كيف يشاء، وأصبحوا لا قيمة لهم، بل هم مستضعفون، مقهورون، لا عزة لهم ولا نصرة، بسبب تركهم أمرَ الله جل وعلا، وأمر رسوله ﷺ، ولن تكون لهم عزة حتى يراجعوا دينهم.

(فِي سَبِيْلِ اللهِ): أي إن الغزو يكون لله، ويكون في سبيله، وليس لأجل الدنيا، ولا لأجل المال، بل لأجل أن ينشر دين الله، وأن يكون الكفرُ هو الأسفلَ والأحقرَ.

(قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ): هذا الذي يقاتَل، هو مَن كفر بالله جل وعلا، ولا بد أن يُعْلَم، أما إذا جُهِل حاله فلا يجوز قتاله، لا يجوز أن يقاتل إنسانا لا

وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيْدًا، وَإِذَا لَقِيْتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ؛ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ -، فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ.....

يدري هل هو كافر أو غير كافر، يجب أن يعلم أنه كافر، فيقاتله، وبدون ذلك يكون ظالما.

(وَلَا تَغُلُّوا): لا تخفوا شيئا من الغنيمة، ولا تأخذوا شيئا قبل القسمة.

(وَلَا تَغْدِرُوا): هذا هو الشاهد، الغدر: مخالفة العهد.

(وَلَا تُمَثِّلُوا): لا تشوهوا المقتول؛ كأن يقطع أنفه، أو أذنه، أو يبقر بطنه، هذا من المحرمات، لا يجوز أن يفعل؛ لأنه انتهى أمرُه، وقتلُه إنما هو لأجل كَفِّ شره، وإذا قُتل فقد تحقق المقصود، أما التمثيل فلا فائدة فيه.

(وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيْدًا): صغيرا، لا يُقتل إلا المقاتل، الذي يقاتل المسلمين، وكذلك المرأة، لا تقتل، وكذا الكبير، والذي يكون متعبِّدا في صومعة أو ما أشبه ذلك، هؤلاء لا يجوز أن يقتلوا، لا يقتل إلا من يقاتل.

(وَإِذَا لَقِيْتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِيْنَ؛ فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ): ادعهم أولا إلى الإسلام، هذا هو المقصود، فإن قبلوا فهذا هو المغزى وهو المقصود، فيرجع ويتركهم في بلادهم، ولا يتعرض لهم في شيء، فإن أبوا دعاهم إلى بذل الجزية، فإن أعطوها صار بذلُ الجزية مقابلَ حمايتهم، أن يُحمَوا، ويتركوا في بلادهم، فإن لم يفعلوا قاتلهم، ويكون النصر لمن شاء الله تعالى، والغالب

فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَامِ؛ فَإِنْ أَجَابُوْكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ المُهَاجِرِيْنَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِيْنَ وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى المُهَاجِرِيْنَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُوْنُوْنَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِيْنَ يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَى وَلَا ..

أنه يكون للمسلمين، وهم لا يَخْلُون من إحدى الحسنيين، إما النصر وإما الشهادة.

(ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ المُهَاجِرِيْنَ): هذا قبل فتح مكة؛ لَمَّا فتحت مكة قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية»، وهذا ليس منسوخا، وإنما يبقى حكمُه إذا كان نظيرَ الأمر الأول، فإذا أسلم ناسٌ في مكان يُخاف عليهم أنهم يُفتنون عن دينهم، وجب عليهم أن يهاجروا إلى بلاد المسلمين الذين يحمونهم، فإن لم يفعلوا ذلك، يقال لهم: أنتم تحت الخطر، ومع ذلك ليس لكم في المغنم شيء، ولا في الفيء، وهذا دليل على التفرقة بين المغانم والفيء، الغنيمة هي التي يأخذها المقاتلون بالقوة، هذه يجب أن تكون لهم، وتقسم بينهم على ما بينه الشرع، أما الفيء فهو الذي يتركه الكفارُ من الأموال خوفا من المسلمين، بلا قتال ، هذا يكون لله ورسوله، والفقراءِ والمهاجرين وذوي القربى.

(فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا؛ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُوْنُوْنَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِيْنَ): أعراب المسلمين هم الذين يكونون في البادية، لا يحضرون قتالا، ولا

يَكُوْنُ لَهُمْ فِي الغَنِيْمَةِ وَالفَيءِ شَيْءٌ؛ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِيْنَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا؛ فَاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوْكَ؛ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكَفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا؛ فَاسْتَعِنْ باللهِ وَقَاتِلْهُمْ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ؛ فَأَرَادُوْكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ؛ فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ؛ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ..................

يحضرون جماعة ولا جمعات، ولكنهم ملتزمون بالإسلام، هؤلاء ليس لهم من المغانم شيء، إلا أن يقاتلوا، وكذا الفيء، ليس لهم منه شيء، إلا أن يكون لهم جهد في القتال.

(فَإِنْ هُمْ أَبَوْا؛ فَاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ): إذا بذلوها كان ذلك مقابل حمايتهم.

(فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ): لأن الأمر في هذا شديد، يجب أن يقول: لكم ذمتي، وذمة أصحابي، ولا يقول: لكم ذمة الله وذمة نبيه؛ لأنه خطر في المخالفة، إذا أخفر ذمة الله وذمة رسوله، فهذا أمر عظيم جدا لا يجوز، ولكن إخفار ذمته وذمة أصحابه أسهل، يجب أن يُصارَ إلى أسهل الأمرين، ويُجتنَبَ أعظمُهما؛ لأن الناس قد يخالِفون في هذا، وإذا خالف رجلٌ واحد فهذه مخالفة، وبعض الناس يتساهل، ويكون عنده جهل.

فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا). رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

(فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ): ويجب أن يجتهد، حتى يُصيب حكمَ الله، وهذا دليل على أن حكم الله واحد، وأنه غير متعدد، وأنه قد يكون خفيا فلا يكون ظاهرا، فينزلهم عليه.

والمقصود بهذا كله تعظيم ذمة الله وذمة رسوله ﷺ، فلا يجوز أن يُتعرض لها بنقض أو إخفار؛ لأنه قد يعود على الإسلام كله بالضرر، وهذا أمر شديد عظيم.

❋❋❋

بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ

عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللهِ ﷺ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «قَالَ رَجُلٌ: والله لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ ﷻ: مَنْ ذَا الَّذِيْ يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلَانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

قوله: (قَالَ رَجُلٌ: والله لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ ﷻ: مَنْ ذَا الَّذِيْ يَتَأَلَّى...) المؤلف اختصر الحديث، وإلا فأصلُه أن النبي ﷺ قال: إن رجلين كانا في بني إسرائيل متحابَّيْنِ: أحدهما مجتهد في العبادة، والآخر كأنه يقول مذنب، فجعل يقول: أقصِرْ عمَّا أنت فيه، قال: فيقول: خَلِّني وربي، قال: فوجده يومًا على ذنب استعظمه، فقال: أقصر، فقال: خلني وربي، أبُعِثت عليَّ رقيبًا، فقال: والله لا يغفرُ الله لك، ولا يُدخلُك الجنة أبدًا، قال: فبعث الله إليهما ملكًا، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عنده، فقال للمذنب: ادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: أتستطيعُ أن تحظُرَ على عبدي رحمتي؟ قال: لا يا ربِّ، قال: «اذهبوا به إلى النار»، قال أبو هريرة: «والذي نفسي بيده، تكلَّم بكلمة أوبقت دنياه وآخرتَه».

وهذا لأنه قُبض في هذا الوقت، انتهت دنياه، فذهبت دنياه، وآخرتُه لأنه صار من أهل النار، فالحكم على الله جل وعلا لا يجوز؛ لأن الله جل وعلا هو المالك لكل شيء، وهو المتصرف حسبما يشاء ويريد، والخلق كلهم

وَفِي حَدِيْثِ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: «تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ، أَوْبَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ» .

عبيدُه، يتصرَّف فيهم كيف يشاء، فهو يحكم ما يشاء، ويفعل ما يريد، ولا يجوز لعبد مخلوق أن يحكم عليه أن يفعل كذا أو لا يفعل كذا، ولكن جاءت بعضُ الأحاديث عن النبي ﷺ بخلاف هذا؛ أنه قال: «**رُبَّ رجلٍ أشعثَ أغبرَ ذي طِمْرين، مدفوعٍ بالأبواب، لو أقسم على الله لأبرَّه**»، هل هو مثلُ سابقه؟ وجاء أن أنسا لَمَّا كَسَرت أختُه الرُّبَيِّعُ ثنيةَ بنت وهم صبيان يلعبون، رمتها بحجر أصابت سِنَّها فانكسرت، فجاء أهلُ البنت المكسورةِ سِنُّها، يطلبون الحكم من رسول الله ﷺ، فقال: يُكسر سن الربيع، فأقسم أنسٌ وقال: والله لا يُكسر، فقال ﷺ: «**كتاب الله القصاص**»، فهو لا يريد بهذا الاعتراضَ على حكم الرسول، ولكن يريد أن يدافع بما يستطيع، بأن يدفع لهم ما يرضيهم، فرضُوا بالأَرْش، فقال ﷺ: «**إن مِن عباد الله مَن لو أقسمَ على الله لأبره**»، فهذا قسم لا يريد به الحكم على الله، وإنما هو من باب الرجاء، أو من باب الطلب لله جل وعلا، وكذا كان في قتال الفرس، يقول له الصحابة: أقسِمْ على ربك أنه يمنحنا أكتافَهم، فيقسم، يقول: أقسمت عليك رب أن تمنحنا أكتافَهم، فمُنحوا أكتافَهم وهُزموا، وفي آخر مرة قالوا له ذلك، فقال: أقسمت عليك رب أن تمنحنا أكتافهم وتجعلني أول قتيل، فقتل رضي الله عنه، على هذا يمكن أن نقول: إن الإقسام على الله ثلاثة أنواع:

....

النوع الأول: في الشيء الذي ذكره الله جل وعلا، وحكم فيه، وأنزله في كتابه؛ كأن يقول الإنسانُ: والله ليُدخلن الله المؤمنين الجنةَ، أو يقول: والله ليُدخلن الله الكافرين النارَ، أو يقول: والله ليَبْعثنَّ الله الخلق ويحاسبهم، أو ما أشبه ذلك، فهذا جائز؛ لأن هذا حسبما أخبر الله جل وعلا به، وأمرنا أن نؤمن ونجزم به.

النوع الثاني: أن يقسم أن الله يحكم على شيء معين، أن الله يفعل بهذا كذا وبهذا كذا، فهذا هو الممنوع الذي لا يجوز.

النوع الثالث: أن يكون القسم من باب الرجاء والطلب لله جل وعلا؛ تكون له ثقة بربه جل وعلا، ليس من باب العُجْب، فإن أغلب من يقسم على الله جل وعلا بالحكم، يبعثه العجب بنفسه، مثل قصة هذا الرجل.

على كل حال: لا يجوز أن يحكم الإنسان على الله جل وعلا في شيء لم يحكم به، ولم يخبر عنه، أما إذا أخبر الله جل وعلا بحكم فلا بأس أن يقسم.

هذا الحديث يدلنا على الخطر في الكلام، الكلام فيه خطر عظيم، قد يتكلم الإنسان كلمة لا يلقي لها بالا، يهوي بها في النار، نسأل الله العافية، ومعلوم أن قصة الرجل هذه، تدل على أنه قال ذلك غضبا لكونه انتهك أمرا محرما، ومع ذلك صار هذا سببا لشقائه، نسأل الله العافية، الحكم إلى الله جل

....

وعلا، هو الذي يحكم بين عباده، وإن كان الإنسان عاصيا، الله جل وعلا هو الذي يتولى الحكم.

وفي عقائد أهل السنة النص على هذا؛ يقولون: لا يجوز أن يجزم لمعين بجنة ولا بنار، لا تقول: فلان في الجنة، ولا تقول: فلان في النار، إلا إذا تيقنت أنه مات كافرا، عند ذلك تحكم بحكم الله جل وعلا.

إذا لم يكن بين الإنسان وبين الجنة أو النار إلا الموت فالموت قريب، ولكنه قد يختم له بأمر يستوجب به النار، وقد يختم له بأمر يستوجب به الجنة، كل ذلك قريب، الموت قريب، وما بعد الموت قريب، وهو إشارة إلى أن الإنسان يلاقي الجزاء بعد الموت مباشرة، وهذا حق، كما جاءت النصوص بذلك، إذا مات الإنسان فلا بد أن يُنعَّم أو يُعذَّب، لا بد، القبر ليس لأن يُلقى فيه ويصبح جثة هامدة، أو ترابا، بل فيه عذاب وفيه نعيم إلى يوم القيامة، ثم يكون بعد ذلك إما في الجنة وإما في النار.

❊❊❊

بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى خَلْقِهِ

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ ﷺ؛ قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺفَقَالَ: يَا رَسُوْلَ اللهِ!

يُستشفع: يُجعل شفيعا على أحد من الخلق، معروف أن الشافع يجب أن يكون أدنى من المشفوع عنده، وأقلَّ قدرا، والخلق كلهم عبيد الله، وكلهم تحت تصرفه، وكلهم يحكم عليهم بما يشاء جل وعلا، ولكنه لا يظلم أحدا، فهو حكم عدل، تعالى وتقدس، ولكن لا بد من مجازاتهم بأعمالهم، فالله يجازيهم على ذلك، فالذي تكلم أعرابي، والأعرابي مظنة الجهل، هو جاهل بالله تعالى، والأعرابي هو ساكن البادية، والأعرابية مظنة الجفاء والجهل؛ لأن التعلم غالبا يكون في المدن، وفي المجتمعات، هؤلاء يتتبعون مواقع القطر؛ لأن أموالهم ماشية، تعيش على الرعي، فهم خليقون بالجهل، لذا أخبر تعالى أنهم أجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله، وهذا السبب في قوله: (جَاءَ أَعْرَابِيٌّ)؛ أي: ليس من الذين يجلسون عند النبي ﷺ، ويسمعون منه العلم والإيمان.

قوله: (فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ): أي أن المسلمين يسألونه ﷺ الاستسقاء، هذا أمر واضح؛ كونهم يسألونه أن يشفع، والشفاعة دعاء، منهم من يقول: ادع لي، ومنهم من يقول: اشفع لي، ولكن هذا في حياته، أما بعد وفاته ﷺ، فلم يحدث شيء من ذلك من الصحابة، ولما استسقى عمر ﷺ، في زمن

نُهِكَتِ الأَنْفُسُ وَجَاعَ العِيَالُ، وَهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ باللهِ عَلَيْكَ، وَبِكَ عَلَى اللهِ. ....

الجَدْب، خرج بالعباس عمِّ النبي ﷺ، يَستسقي به، ثم قال: «**قم يا عباس فادع**»، فصار العباس يدعو والصحابة يؤمنون على دعائه، فهذا هو الاستسقاء، وهو الاستشفاع بالدعاء، وليس بالذات، بذات المخلوق، إذ لو كان بالذات ما عَدَل الصحابةُ عن الرسول ﷺ؛ لأنه لا فرق في الاستشفاع بالذات بين كونه حيًّا أو ميتًا، فدل على أن الاستشفاع والاستسقاء بالدعاء، وهذا لا يكون إلا من الحي الحاضر.

(**نُهِكَتِ الأَنْفُسُ**): هلكت من الجوع؛ لأن أنفسهم على ما ينزله الله جل وعلا من المطر، فإذا تأخر المطر جاعت الأغنام والإبل، فيَبِسَ ما في ضرعها، فيجوع الناس، وقد تموت.

(**فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ**): هذا الطلب لا بأس به، أي: اطلب من ربك السقيا.

(**فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ باللهِ عَلَيْكَ**): هذا هو الذي لا يجوز، الله جل وعلا لا يشفع عند أحد، إنما الخلق يشفعون عنده إذا شاء، والشفاعة تكون بإذنه وبأمره.

(**وَبِكَ عَلَى اللهِ**): أي نستشفع بك على الله، هذا لا بأس به، لكن الأول

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «سُبْحَانَ اللهِ! سُبْحَانَ اللهِ!»، فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ، ثُمَّ قَالَ: «وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ»، وَذَكَرَ الحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُد.

هو الممنوع، الله لا يكون شافعا عند أحد من خلقه، تعالى وتقدس، وهذا هو السبب في كون النبي ﷺ سبَّح وكرر التسبيح وأكثَرَه، حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابه؛ لأن أصحابه يرحمونه، والشيء الذي يشق عليه يشق عليهم، فهذا شق عليه صلوات الله وسلامه عليه؛ لأن هذا كله من خوف الله جل وعلا، وهذا الرجل ما عَرَفَ قدرَ الله، لذا قال: (وَيْحَكَ! أَتَدْرِي مَا اللهُ؟): ويحك: كلمة توجع؛ لأنه وقع في أمر مُهلِك، أتدري ما الله؟ أتدري عظمة الله جل وعلا.

ومعنى (سُبْحَانَ اللهِ): تنزيها لله أن يكون كما قلت، هو تنزيه لله وإبعاد له أن يكون شافعا عند أَحد من خلقه، لأن هذا فيه تنقُّص لله جل وعلا، يجب أن يُنزَّه عنه.

(إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ): أي أعظم من أن يُجعل شفيعا عند أحد من خلقه.

(إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ): لا يطلب أن يكون الله شفيعا عند أحد، تعالى وتقدس، بل المقربون الذين يأذن الله جل وعلا لهم بالشفاعة، إكراما لهم، الشفاعة كلها لله جل وعلا، وذكر بقية الحديث، أي

....

قال: «**أتدري ما الله؟ فإن الله على عرشه، وعرشه فوق سماواته كهذا**» وقبَّب بيده، وقد أخبر تعالى أن كرسيه وسع السماوات والأرض، وعرشه أكبر المخلوقات وأعظمها، وليس فوق العرش إلا رب العالمين، ثم إن فيه تصريحا بأن الاستواء على العرش هو العلو والارتفاع، ولا بد أن ينطوي قلب المسلم على ذلك؛ أنه إذا ذكر ربَّه يقصد قلبُه ربَّه من العلو، من فوق، لا يلتفت يمينا أو شمالا أو تحت، كما هو مذهب أهل الباطل، جهميةً ومعتزلةً ومن تبعهم، مثل الأشاعرة وغيرهم؛ فإنهم يقولون: الله في كل مكان، تعالى وتقدس، الله مكانه العلو، وليس في الأرض، بل هو محيط بخلقه لا يفوته شيء، وهذا يدلنا على وجوب معرفة الله بأسمائه وصفاته، وهذا من التوحيد، ولا يكون الإنسان قد أكمل توحيده إلا إذا عرَف ربه جل وعلا بأسمائه وصفاته وأفعاله التي تَعرَّفَ بها إلى عباده، تعالى وتقدس.



بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيْرِ ﷺ؛ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؛ ....

الباب قريب من السابق، ولكن السابق ذكر الأفعال، وهنا ذكر الأقوال، أي إن الرسول ﷺ، جاء بحماية التوحيد من الأفعال والأقوال التي قد يكون فيها مدخلٌ للشيطان، أو مدخل للشرك أو أسبابه؛ إلى التوحيد، وهذا كثير في كلام الرسول ﷺ، وفي أخباره.

وحماية الشيء: صيانتُه، والحِمَى: هو ما يكون ممنوعا من دخوله أو قُربانِه، وكما يقول المصطفى ﷺ: «ألا إنَّ لكلِّ مَلِكٍ حِمًى، وإن حمى الله محارمُه»، فيجب ألا تُنتهك، وألا يَقرَبَها الإنسان، وإلا وقع في موجب عقاب الله تعالى. **والتوحيد**: هو عبادة الله جل وعلا وحده، كما هو معلوم.

(**وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ**): الطرق التي يمكن أن تخدش من التوحيد، أو تأخذ شيئا منه، وهذه طرق الشيطان، وعبر عنها بالطرق لكثرتها، فيجب أن يكون الإنسانُ متنبها لذلك.

قوله: (**عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ الشِّخِّيْرِ ﷺ؛ قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ؛**...): الوفود كانت سنة تسع، ومعنى الوفود: أن القبائل ترسل جماعة منها تخبر النبي ﷺ بأنهم أسلموا، فلم يبقَ أحدٌ من العرب في

فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «اَلسَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى»، ....

السنة العاشرة إلا وقد دخل الإسلام، ولكن بعض هؤلاء الذين دخلوا الإسلام أفواجا، خرجوا منه بعدما توفي الرسول ﷺ أفواجا، كما دخلوا، حتى رجعوا فيها بعد، وهؤلاء الذين يحمل عليهم الحديث الذي جاء عن النبي ﷺ، أنه يكون على حوضه، ثم يَرِدُ عليه قومٌ يعرفهم، ثم يُحال بينه وبينهم، فيقول: إلى أين؟ فيُقال له: إلى النار والله، فيقول: وما شأنُهم، فيقال له: ما زالوا مرتدين بعدك، فأقول: سحقا سحقا، أي: بُعدًا لهم، وهؤلاء هم الذين ماتوا على الردة، وكثير منهم رجع بعد ذلك، فلم يبق بعد الرسول ﷺ، إلا أصحابُه، من أهل المدينة وأهل مكة وأهل الطائف، وكذلك بلدة في الأحساء، أما البقية فارتدوا.

وفد بني عامر جاؤوا إلى النبي ﷺ، يخبرونه بإسلام قومهم، والوفد هذا يكون من الصحابة الذين قابلوا الرسول، أما الذين أرسلوهم ولم يشاهدوا الرسول فليسوا من الصحابة.

قوله: (**فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: اَلسَّيِّدُ اللهُ**): لسيد: إذا جاء بـ (أل) يقصد به الذي كَمَل في سُؤدَدِه، ولهذا جاء تفسير قول الله جل وعلا ﴿ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ ﴾[الإخلاص: ٢] عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «السيد الذي كمل في سؤدده».

قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا، فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وقد اختلف الناس في إطلاق هذه اللفظة على الله وعلى المخلوق؛ أما المخلوق فشيء واضح أن السيد هو المقدَّم في قومه، أو الذي سادهم بنوع من الأمور التي يحتاجون إليها، ولا بأس في إطلاقها؛ لقول الرسول ﷺ للأنصار: «**قوموا إلى سيدكم**»، أي: سعد بن معاذ، ﷺ، لما جاء ليحكم في بني قريظة.

(**فَقَالَ: السَّيِّدُ اللهُ**): السيد -أي الذي كمل في سؤدده- هو الله.

(**قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا**): أي إنعاما وإحسانا.

(**فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ**): أي كما يخاطب بعضُكم بعضا خاطبوني، هذا المعنى.

(**وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ**): لا يتخذكم الشيطان مَطِيًّا يجريكم في الباطل، احذروا ذلك، لا تجروا في طريقه، يتخذكم مطية، ويأمركم بما يريد، فهو لا يأمر إلا بالشر، وفي هذا النهيُ عن المدح في الوجه، المدح في الوجه قد يكون فيه مفسدة عظيمة، الإنسان قد يغتر؛ لأن النفوس كلها تحب أن تُمدح، ولهذا لَمَّا سمع النبي ﷺ رجلا يثني على آخر، قال: «**قطعتَ عنقَه؛ فإن كنت ولا بُد فاعلا فلا يسمعك**»، أي: لا تقل ذلك في مواجهته، المدح في الوجه لا

وَعَنْ أَنَسٍ ﷺ؛ أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُوْلَ الله! يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابْنَ سَيِّدِنَا! فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُوْلُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ..

يجوز، والغالب أن الذي يمدح في وجهك إذا غاب عنك يذمك، هذا الغالب؛ لأنه يكون كذبا في الغالب، وهذا قد يترتب عليه فسادٌ عظيم، ولا سيما إذا كان الإنسان يتولى أمرا من أمور المسلمين، فإذا اعتاد المدح، وأتاه من لا يمدحه، فقد لا يعطيه حقَّه حتى يمدحَه، فالمقصود أن المدح في الوجه محرم، لا يجوز، ونهي عنه، ولهذا قال: «احثوا التراب في وجوه المداحين».

قوله: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ! قُوْلُوا بِقَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ): هنا (وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ)، والأُولى (وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمْ)، الاستهواء: أن يتخذكم بما يهواه ويريده، فلا تكونوا مطيعين له.

قوله: (أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ الله وَرَسُوْلُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُوْنِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِيْ أَنْزَلَنِي اللهُ ﷻ): الله جل وعلا سمَّاه عبدَه، ورسولَه، وهذا غاية الرفعة، كونه عبدا لله ورسولا، فهو أفضل الخلق بذلك، أن الله عبَّده العبودية الخاصة، ولذلك ذكره الله جل وعلا بلفظ العبودية في أشرف المقامات، في مقام التحدي، كما قال جل وعلا: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي مقام الوحي: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ﴾

أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ الله وَرَسُوْلُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُوْنِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِيْ أَنْزَلَنِي اللهُ ﷻ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

[الفرقان: ١]، وهناك آيات أخرى، وفي مقام الإسراء ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١﴾﴾ [الإسراء: ١]، وفي مقام الدعوة إليه: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٩﴾﴾ [الجن: ١٩] ، هذه المقامات الأربعة أشرف ما قام ﷺ، ذكره الله فيها بلفظ العبد، وكفى شرفا أن يضيفه إليه، (عَبْدُ الله وَرَسُوْلُهُ)، أما الرسالة فهي فضل منه أيضا، فإذا جاءت الرسالة مع العبودية كمل الذي حازهما.

(عَبْدُ الله وَرَسُوْلُهُ): قدم لفظ العبد على الرسول؛ لأن هذا أمر لازم، والرسالة من اصطفاء الله.

وهذا يدلنا على وجوب التوسط، لا يجوز الغلو، ولا يجوز الجفاء، بعض الناس يغلو في النبي ﷺ، ويكون حظه من اتباعه ومن الإيمان به أنه يمدحه بغير الحق، يرفعه فوق منزلته، كما وقع ذلك لبعض الشعراء أو الناظمين الذين ينظمون المدائح، كما يقول البوصيري:

ويكتب في تفسير القرآن، ثم يتجه إلى رسول الله ﷺ ويقول:

....

يا أكرمَ الخلْقِ ما لي مَن ألوذُ به　　سواك عند حدوثِ الحادثِ العَمم
إن لم يكن في معادي آخذًا بيدي　　فضلا وإلا فقل يا زلة القدم
ولن يضيق رسولَ الله جاهك بي　　إذا الكريم تحلي باسم منتقم
فإن مِن جودك الدنيا وضَرتها　　ومن علومك علم اللوح والقلم

الرسول ﷺ يقول: (أَنَا مُحَمَّدٌ عَبْدُ الله وَرَسُوْلُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُوْنِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِيْ أَنْزَلَنِي اللهُ ﷻ)، هذا الواجب على المسلم، أن يُتبع النبيُّ ﷺ، وأن يمتثل قوله، وأن يجتنب نهيُه، فمحبة الرسول ﷺ تقتضي اتباعَه، فمَن كان محبا له اتبعه، كما قال الله جل وعلا: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [آل عمران: ٣١] ، والله أعلم.

❋❋❋

بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧]

....

لما كان التوحيدُ أقساما؛ إما قسمين أو ثلاثة، إذا قلت قسمان: فقسم توحيد العبادة، أي توحيد القصد والنية والإرادة، وقسم توحيد الأسماء والصفات، ويدخل فيه توحيد الربوبية، (توحيد الأفعال)، أما إذا قلت ثلاثة، فهذا من باب التفصيل: توحيد العبادة، وتوحيد أفعال الرب جل وعلا؛ لأنه واحد فيها، وتوحيد الأسماء والصفات، وهذا أوضح وأبين، والكتاب كله في القسم الأول، أراد المؤلف رحمه الله، أن يختم الكتاب بالقسم الثاني الذي هو توحيد الأسماء والصفات؛ لأنه لا يتم الإيمان ولا يصح، إلا بجمع الأقسام الثلاثة كلها، وهي متلازمة، يَلزَم من توحيد الأفعال توحيدُ العبادة، والصفات داخلة في هذا، ولهذا يذكر الله جل وعلا ذلك من باب الإلزام للمشركين، كما قال جل وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١]، الخالق هو الذي يجب أن يعبد، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، هذه الأفعال التي ذكرت لا يفعلها إلا رب

....

العالمين جل وعلا، وليس له فيها مشارك، فهو الخالق وحده، وهو الذي جعل الأرض على هذه الصفة كي يتمكن سكانها من الانتفاع بها، والسير عليها، وهو الذي بنى السماء فوقنا نشاهدها، وهو الذي ينزل المطر، وينبت به النبات الذي ترعاه البهائم ويأكل منه بنو آدم، ولولا إنزالُ المطر ما جرى نهر، ولا وُجد ماء في الأرض، فهو جل وعلا يرعى مصالحَ عباده، ولا يشاركه في هذا أحد، ولهذا قال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، النِّدُّ هو المثل والشبيه، ولو بصفة من الصفات، فهم يَدْعون مع الله غيره، وهذا هو التنديد، يدعون الله ويدعون غيره، يجعلونه واسطة بينه وبين ربهم، يقولون: تشفع لنا آلهتنا، هم الوسطاء، وهذا هو شرك المشركين، وشرك غيرهم، ولكن قد يكون الشركُ متفاوتا في بعض الأزمان، وأما توحيد الصفات فكونُه جلَّ وعلا حيًّا قيوما، لا تأخذه سنة ولا نوم، وكونُه سميعا بصيرا، عليما بكل شيء، لا يخفى عليه شيءٌ، جل وعلا، فلا بد أن يعرف ذلك المسلمُ، ويتعبد الله به، والله جل وعلا قد تَعَرَّف إلى عباده بأسمائه وصفاته وأفعاله، بالخلق؛ خلقِ السماوات والأرض، وهي أكبرُ المخلوقات المشاهدة، وكذلك خلق أنفسهم، ولذلك يذكر هذا كثيرا، حتى يعتبر الناس، ما أصل الإنسان؟ أصلُه ماءٌ مَهِين، نقطة ماء كيف خُلق منها بشر، صار له سمع وبصر وفكر وأيدٍ وأرجلٌ، وجوف وغير ذلك، من الذي يستطيع أن

....

يعمل شيئا من ذلك؟ لو اجتمع أطباءُ العالم بما أوتوا من الآلات، وأرادوا أن يحولوا قطرة المني إلى دم ما استطاعوا، فضلا عن أن يجعلوه مخلوقا، الله جل وعلا هو الخالق والمصور، وهو الباري، يجب أن يعلم بذلك ويُتعبد، ولذلك قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، يلحدون: يميلون بها إلى غير مقصود المتكلم، فذرهم: أمرهم إلى الله، سوف يجازيهم بما يستحقون، فهو تهديد لهم.

أراد المؤلف رحمه الله أن يبين شيئا مما يجبُ لله جل وعلا، يعتقدُه المسلمُ، حتى لا يخلوَ الكتابُ من القسم الثاني من التوحيد، فقال: (بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾) وهو ذكر بعض ما جاء في معنى الآية، وليس كله، ومقصوده ما جاء فيها من النصوص عن النبي ﷺ، والآثار عن الصحابة وأتباعهم، رضي الله عنهم، من المفسرين غيرهم، وذكر قليلا من ذلك، وإلا فالأحاديث في هذا كثيرة جدا.

﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ ﴾: ما عظَّموه حقَّ تعظيمه، ما عرفوا عظمتَه، ما عرفوا قدر عظمته، ولهذا أشركوا به غيرَه، المشرك ما عرف قدرَ الله، حتى يكون موحدا، يعبد الله وحده، ويعلم أنه هو الخالق المتصرف بالكون،

....

الموجد الذي ليس له مغالب، وليس له مثيل، تعالى وتقدس، ولهذا ذكر شيئا من عظمته.

﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾: القيامة يوم يقوم الناس من قبورهم، يحييهم الله جل وعلا، فيقومون، يقبض الأرض بما فيها من بحار وجبال وخلق، يقبضها بيده، وتكون صغيرة، القبض: أن يكون الشيء قد أحاطت به الكف، تعالى الله وتقدس.

﴿جَمِيعٗا﴾: بما فيها.

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾: كما قال جل وعلا: ﴿يَوۡمَ نَطۡوِي ٱلسَّمَآءَ كَطَيِّ ٱلسِّجِلِّ لِلۡكُتُبِۚ﴾[الأنبياء: ١٠٤]، يطويها ويضعها بيده، وتكون صغيرة، ومَنْ هذه صفاتُه كيف يُعبد معه غيرُه؟ كيف يُعتقد أن مخلوقا صغيرا لا يملك لنفسه نفعا ولا يدفع عنها ضرا، كيف يُتوجه به إلى الله، ويُسأل مع الله، هل الذي يفعل ذلك عرَف شيئا من عظمة الله؟ كلا، والسماوات مطويات بيمينه.

(﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾): الأرض قبضة يده؛ لأن الله جل وعلا له يدان، كما قال يخاطب إبليس: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾[ص: ٧٥]؟ يقول تعالى: أنا ما تكبرتُ عن مباشرة طين آدم وخلقِه،

....

باشَرْتُه بيدي، وأنت تتكبر عن السجود له؟ ولكن الكبر والغطرسة والعُجْب تقضي على المخلوق وعقله، حتى تهينه، وتجعله أحقرَ من الذرة عند الخالق العليم البصير جل وعلا، والآية تدل على أن لله يدين؛ لأنه قال: (﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ﴾).

(﴿بِيَمِينِهِۦ﴾): يقابل اليمين الشمال، ولكنها لم تأت تسميتها في كتاب الله، وسيأتي ذكرُها في أحاديث الرسول ﷺ، الله له يدان، إحداهما يمين، وأما الأحاديث التي جاءت بقوله: «لما خلق الله آدم قبض يديه جل وعلا، فقال: اختر، فقال: اخترت يمين ربي، وكلتا يدي ربي يمين»، لا يجوز أن يفكر الإنسان بأن معنى «كلتا يدي ربي يمين»: أن كلتا يديه من جانب واحد، تعالى الله وتقدس؛ لأن هذا تشويه، ولا يجوز، ونقص، لكن المعنى: كلتا يدي ربي تامة كاملة، لا يلحقها نقصٌ ولا عيب، كيد المخلوق، المخلوق يده الشمال أنقصُ من اليمين، والله يخاطب العرب بما يفهمونه ويعرفونه؛ ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝٤٠﴾[الحاقة: ٤٠]، قوله لأنه يبلغه، وإلا فهو قول رب العالمين، أضيف إليه لأنه مبلغ، ثم قال: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ﴾ [الحاقة: ٤٤]، أي قال على الله غير ما قاله، ﴿لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦﴾[الحاقة: ٤٥-٤٦]، ذكر اليمين؛ لأنهم يعرفون أن الأخذ باليمين أقوى، فخاطبهم بما

عَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ ﷺ؛ قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُوْلِ اللهِ ﷺ ....

يعرفون.

(﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾): يوم القيامة، المخلوقات كلها يطويها ويمسكها بيديه، كل المخلوقات، ويهزهن، ويقول: « أَنَا المَلِكُ أَيْنَ الجَبَّارُوْنَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُوْنَ؟» ويوم القيامة يطؤهم الناس بأقدامهم، كما جاء في الحديث، جزاء تكبرهم وتجبرهم على الناس، الكبرياء لله، هو الكبير المتعال جل وعلا، فمَنْ نازعه شيئا من الكبر فإنه يعذبه.

(جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ): الحبر هو العالم، وسمي حبرا لأن أصل العلم الكتابة، والكتابة تكون بالحِبر، الذي هو مداد الكتابة، فنسب إلى ذلك؛ لذلك قال تعالى: ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق: ٤]، التعليم يكون بالكتابة، ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: ٥]، وهذا حبر من اليهود، واليهود فيهم أحبار، وفيهم علماء راسخون في العلم، ولكن عندهم تعنت وكبر، وعدم انقياد للحق، حتى تكبروا على رسولهم، وقد قص الله علينا مما عاناه رسولُهم ﷺ معهم، الشيءَ الكثير، حتى إن الله جل وعلا أمرهم أن يأخذوا التوراة ويعملوا بها، فتأَبَّوا، فرفع الجبل فوق رؤوسهم، جبل رُفع فوق رؤوسهم، فأُمِروا بالسجود وإلا سقط الجبلُ عليهم، ومع ذلك في مرة أخرى قيل لهم: ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، فدخلوا يزحفون على مقاعدهم، ويقولون:

فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ ....

حبة حنطة، فغيروا الفعل والقول كليهما، عنادا وتكبرا، والدخول في الباب ساجدين أي: راكعين؛ لأن الركوع سجود، بل الانحناء سجود، ولا يجوز أن يكون السجودُ إلا لله تعالى، ولهم مواقف كثيرة مع نبيهم، ولهذا لما جاء الشقي الذي قال للرسول: اعدل فإنك لم تعدل، قال ﷺ: «رحم الله موسى، لقد أوذي أكثر مما أوذيت وصبَر»، وهذا من آثار ذكر قصص موسى عليه السلام، ليتسلى بها صلوات الله عليه.

قوله: (**فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ!**): انظر إلى اليهود، لا يسمونه بصفته، بل يقولون: يا محمد، ما يتنزل يقول: يا رسول الله؛ لأنه لا يقر بهذا، مع أنه يعرفه كما يعرف ابنه، أو أكثر، كما قال جل وعلا: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة: ١٤٦]، ويقول عبد الله بن سلام، الذي هو أحد أحبارهم، ولكن هداه الله وأسلم، يقول: «والله إننا لنعرفه أكثرَ من معرفتنا أبناءنا؛ لأن أحدنا يخرج من بيته فما يدري ماذا تصنع زوجته، أما هو فلا نشك فيه»، يعرفونه تمام المعرفة، ومع ذلك لم يتبعوه حسدا، يقولون: لماذا لم يكن من بني إسرائيل؟ فلأنه من ولد إسماعيل لا نؤمن به، هذا هو السبب، وإلا فهم أَتَوا إلى المدينة ينتظرون خروجه، هذا سبب مجيئهم إلى المدينة، ومع ذلك لما خرج كفروا به، نسأل الله العافية، كما ذكر الله جل وعلا ذلك.

(**إِنَّا نَجِدُ**): أي في التوراة التي أنزلها الله على موسى عليه السلام، بل كتبها له

عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِيْنَ عَلَى إِصْبَعٍ، [الزمر: ٦٧].

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللهُ».

كتابةً، وناوله إياها.

(أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِيْنَ عَلَى إِصْبَعٍ): ذكر الصفات في التوراة كثيرة، صفات الله جل وعلا، بل وفي غير التوراة، مع أنك لو تتبعتها ما تجد ذكر المعاد إلا قليلا فيها، لكن ذكر الصفات فيها أكثر؛ لأن هذا من الأمور المُلزِمة التي يعرف الناسُ ربَّهم بها، فأكثَرَها الله جل وعلا ليعلموا ذلك.

(يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ): فيه أن الله يتصرف بها يشاء، ويفعل ما يريد، وفيه أن له يدين، واليدان لها أصابع، وأن المخلوقات كلها صغيرة بالنسبة إليه، ليست شيئا، ولو شاء لجعل المخلوقاتِ كلها، سماواتها وأرضيها، ومن فيهما، على إصبع واحد، ولا يعجزُه ذلك، تعالى وتقدس، لكن كل هذا ليبين ما له جل وعلا من الصفات، حتى يعتقد الإنسان ذلك، ويعرفه بها.

(وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ، فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ -

....

تَصْدِيْقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ - ثُمَّ قَرَأَ ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾)، وفي رواية: «فأنزل الله جل وعلا ﴿ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ﴾ ، نزلت بسبب هذا، ومعلوم أن الآية قد تنزل مرتين.

وضحك الرسول ﷺ، بيَّنه ابنُ مسعود، قال: تصديقا لقوله؛ ولهذا قرأ الآية، فهل يمكن أن يقال: إنه ضحك من جرأة اليهود على الكفر؟ كما قاله بعض الناس، نسأل الله العافية، يقول: اليهود مشبِّهة، فلما قالوا هذا القول ضحك تعجبا من كونهم وقعوا في التشبيه، الذي هو كفر، فهل الرسول يضحك عند ذكر الكفر؟ ولما قيل له: ابن مسعود يقول: تصديقا لما قال، قال: هذا ظن وحسبان من ابن مسعود، ابن مسعود ما فهم، وأتباع جهم بن صفوان هم الذين فهموا المقصود، ثم الرسول يسكت على الكفر وعلى الضلال، ولا يبينه للأمة؟ بل هو يذكر ما هو صريح في أنه قبل هذا وأعجبه ذلك، ولكنه الضلال، نسأل الله العافية، إذا تمادى بالناس لا حيلة فيه، إلا أن يمن الله جل وعلا على العبد بالهداية، وإن لم يفعل ذلك فهو مع الهالكين، وهَلَكَ في هذا المعنى خلائقُ كثير من هذه الأمة، نسأل الله السلامة، أنكروا ما لله من الصفات، وجحدوا، وصاروا طرقا قِدَدا، ولكن في زمن الصحابة وزمن التابعين لم يحدث شيء من ذلك، ولم يذكر ولا كلمة واحدة في إنكار

....

هذا، أو في الشك فيه والتردد، وأول ما ذُكر في تواريخ المسلمين، وما يحفظونه ويذكرونه من الإنكار رجل مشبوه، يقال إنه إما يهودي، أو أنه من تلامذة اليهود، رجل يقال له: الجعد بن درهم، أنكر أن يكون الله يُحِب أو يُحَب، أو أنه يتكلم، فقال: إن الله لم يكلم موسى، ولم يتخذ إبراهيم خليلا، ولكن في ذلك الوقت الحق ظاهر، وإذا فاه طاغوت من الطواغيت، أو زنديق من الزنادقة بالكفر، لا يُترك، يُؤخذ ويُقتل، فأخذه أحدُ ولاة جيوش بني أمية، وهو خالد بن عبد الله القسري، أخذه وكان في ذلك الوقت ما يتولى قيادةَ الجيش إلا مَن هو خطيب مُصَلٍّ بالناس، يستطيع أن يخطب ويصلي، وإلا لا يمكن أن يولى، فجاء إلى صلاة العيد بالناس، وجاء بهذا مقيدا، فوضعه تحت المنبر، ثم صلى بالناس، ثم خطب الناس، ثم قال في آخر خطبته: أيها المسلمون ضَحُّوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مُضَحٍّ بالجعد بن درهم؛ لأنه يزعم أن الله لم يكلم موسى تكليما، ولم يتخذ إبراهيم خليلا، تعالى الله عن قول الجعد بن درهم علوا كبيرا، فنزل من المنبر وذبحه أضحية، ودعا له المسلمون أن يقبل الله هذه الأضحية، فهي أضحية لها وقعُها؛ لأنه قدح في الإسلام، وفي عقائد المسلمين، ولكن قد أخذ عنه رجل آخر، يقال له: الجهم بن صفوان، اشتُق اسمه من جهنم، جهم بن صفوان الترمذي، وهرب إلى الشرق، وتبعه من تبعه، حتى أمسكه أحدُ القادة، وهو أسلمُ بن

....

أحْوَز، أمسكه وقيَّده ليقتله، وكان قد انتشر هذا المذهب، وكان له تلامذة وأصحاب، فجاؤوا يتوجهون إليه، يطلبون أن يطلقه، أو أن لا يقتله، فلما أكثروا عليه قال: اسمعوا، والله لو كان هذا الرجل في بطني لشققته حتى أقتله؛ لأني سمعت منه كلاما لن أتركه، فقتله، وهكذا كان المسلمون وقادتهم، كلما فاه زنديقٌ في أمر من الأمور قُتل، بخلاف اليوم، فإن كلا يتكلم، وكلا يتزندق، ويأتي بالكفر، وربما يُصفَّق له، والله المستعان.

المقصود أن هذا حدث فيما بعد، ثم حدثت الأمور التي صارت حروبا كلامية في الأمة الإسلامية، فمزقتها تمزيقا إلى اليوم، فصارت جهمية وصارت معتزلة، وصارت كُلَّابية، وصارت أشعرية، وغيرها من النحل الفاسدة، التي كلها تتوجه إلى تحريف كلام الله وكلام رسوله ﷺ، حتى لا يؤمنوا به كما قال المصطفى، كلهم يستدركون على الله، والواقع أنهم لم يشهدوا لرسول الله ﷺ بالبلاغ؛ لأنه إذا قيل لهم: هذه أمور ظاهرة جلية؛ كونُ الله جل وعلا يخبر أن له يدا، وأنه فوق، وأنه يسمع، وأنه يبصر، وأنه يقبض إذا شاء، وأنه يخلق، يقولون: هذه يجب أن تؤول، كيف تؤول؟ يؤولونها بأمور غريبة، لا يمكن أن تُفهم من النصوص، ولهذا جاؤوا بقسم جديد من أقسام التأويل؛ لأن التأويل في اللغة المعروف أنه له معنيان: حقيقة الشيء، وما يؤول إليه، كما قال ﷻ عن يوسف عليه السلام، لما سجد له أبواه

....

وإخوته: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠]، أي: هذا حقيقة الرؤيا التي رأيت، وقوله جل وعلا: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا﴾ [الأعراف: ٥٣]، أي: الحقيقة التي أخبروا بها، والمعنى الثاني: التفسير، كما يقول ابن جرير وغيره من المفسرين: القول في تأويل قوله جل وعلا كذا وكذا، أي في تفسيره، جاؤوا هم بقسم ثالث مخترع، وقالوا: التأويل هو صرف الكلام عن ظاهره الذي يدل عليه الظاهر إلى معنى لا يدل عليه إلا بدليل آخر، ما الدليل الآخر؟ عندهم الدليل الآخر هو العقل، وعقل من؟ عقول ناس منحرفين؛ لأن العقل يحتاج إلى مرشد، يحتاج إلى كتاب الله يسترشد به.

على كل حال: نصوصُ كتاب ربِّنا، وأحاديثُ رسوله ﷺ؛ واضحة جلية، في كون الله جل وعلا هو الخالقَ المتصرفَ، الذي يفعل ما يشاء، وأنه تعالى له سمع وبصر، وأنه عليم بكل شيء، وأنه لا يخفى عليه شيء، وعلوه جل وعلا واستواؤه على عرشه، وغير ذلك من الأمور المذكورة في كتاب الله؛ وهي مما يجب الإيمان به؛ لأنها داخلة في الإيمان بالله، أولُ ما يجب على العبد أن يؤمن بالله، والإيمانُ بالله أن يؤمنَ بصفاته التي يتصف بها، ويتعرَّفَ بها إلى عباده، وبأفعاله التي يفعلها حتى يُعرف العبد، وإذا لم يعرفه العبد فكيف يعبده؟

وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «وَيَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ» أَخْرِجَاهُ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوْعًا: «يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ الجَبَّارُوْنَ؟ ....

قوله: (وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: «وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللهُ»).

فيه أنه استوعب المخلوقات كلها، يضعها على إصبع من أصابعه جل وعلا، ثم إنه يهزهن، وتكون صغيرة حقيرة بالنسبة إليه، ثم يقول: (أَنَا المَلِكُ): أي الذي يملك كل شيء، ويتصرف فيه تعالى وتقدس كيف شاء.

(أَنَا اللهُ): المألوه الذي يجب أن يُؤْلَه، والخلائق كلها تَأْلَهُه، إلا كثيرا من بني آدم ومن الشياطين.

(وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِيِّ: «وَيَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ»)، ذكر رواية البخاري ثم قال: (أَخْرِجَاهُ) قصده المجموع في المعنى.

(وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابْنِ عُمَرَ مَرْفُوْعًا: «يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ أَيْنَ الجَبَّارُوْنَ؟...): هذا فيه التصريح بذكر الشمال، وقد طعن في هذه الرواية بعضُ العلماء، وقال: إن

أَيْنَ المُتَكَبِّرُوْنَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرْضِيْنَ السَّبْعَ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُوْلُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُوْنَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُوْنَ؟». وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُوْنَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

فيها مخالفة الثقات، ولكن الراوي ثقة، فإذا كان الراوي ثقة فكيف يُطعن فيها؟ من المعروف أن زيادة الثقة مقبولة، ولا يجوز أن تُرد، وأما قول بعض العلماء: إن هذا شاذ، فهذا غير صحيح؛ لأن الشذوذ مخالفة ما هو صحيح، فأين المخالفة في هذا؟ ليس فيه مخالفة حتى تقولوا: إنه شاذ.

وقد جاء عن ابن عباس وغيره التصريح بذلك، كما روى ذلك ابن جرير في تفسير الآية، والمؤلف ذكر بعضَ الآثار ولم يذكرها كلها، عن الصحابة، وابن جرير روى عن ابن عباس في تفسير هذه الآية ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾)، أنه قال: إن الله جل وعلا يقبض سماواته وأرَضيه كلها بيمينه، وتبقى يدُه الشمال فارغة، وإنما يستعين بيده الشمال من كانت يدُه اليمنى مشغولة، فهل هذا يمكن أن يقال بالرأي؟ لا يمكن، لا بد أن ابن عباس يذكر هذا عن رسول الله ﷺ، وجاء ذكرُها في غير هذا، وإذا صح الحديثُ عن رسول الله ﷺ، وجب قبولُه، ولا يجوز رَدُّه أو تأويله بما يعود عليه بالإبطال، كما فعل مَن فعل.

قوله: (وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ؛ قَالَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُوْنَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ»): هذا فيه إثبات الكف؛ أن لله كفًّا، وفيه إثبات أن الأرضين سبع، والصحيح أنها طبقات سبع، واحدة

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ»، قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ: سَمِعْتَ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيْدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ».

تحت الأخرى، ولا يلزم أن يكون بينهن فُتُوقٌ وفضاءٌ، أما الذي يقول: إنها سبعة أقاليم، ويفسِّرها بالقارات السبع، ونحوها، فإن هذا غيرُ صحيح، هذه كلها في طبقة واحدة، ولهذا جاء في الحديث الذي في البخاري، قولُ الرسول ﷺ: (مَن ظلم قِيدَ شبر من الأرض، طُوِّقه من سبعِ أرَضين يوم القيامة)، طوقه: جعل له طوقا في رقبته.

(وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللهِ ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ...): الترس ليس هو الآلة التي تُمسك باليد ويُستقبل بها السلاح، كانوا هكذا يسمونه ترسا، ولكن الترس هنا هو الكَثِيب من الرمل، أو الهَضْبة في الأرض الكبيرة، تُلقى فيها سبعةُ دراهم، هل تستطيع أن تميزها أو تعرفها؟ معنى هذا: أن الكرسيَّ على كونه وسِعَ السماواتِ والأرضَ، فإنه أوسع منها، هو بالنسبة إلى العرش صغيرٌ، كدرهم ألقي في أرضٍ فلاة، ولهذا فُسر قوله: (وَقَالَ أَبُو ذَرٍّ ﷺ: سَمِعْتَ رَسُوْلَ اللهِ ﷺ يَقُوْلُ: «مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيْدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ

وَعَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ ﷺ؛ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيْهَا خَمْسُمَائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُمَائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُمَائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ خَمْسُمَائَةِ عَامٍ، وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، واللهُ فَوْقَ العَرْشِ......

فَلَاةٍ مِنَ الأَرْضِ)، هذا يفسر السابق، أنْ ليس المقصودُ بالترس الذي يُمسَك باليد، ويُستقبَل به ضربُ السلاح، إنما هو الكثيبُ الكبير من الرمل، أو الهضبة التي تكون في الأرض.

هذا فيه عِظَم خلق الكرسي والعرش، وهو من عظم الخالق جل وعلا، أعظمُ المخلوقات وأوسعُها وأكبرُها العرشُ، وقد ثبت في الصحيح قولُ الرسول ﷺ: «إذا سألتُمُ الله الجنةَ فاسألوه الفردوسَ؛ فإنه أعلى الجنة ووسطُها، ومنه تَفَجَّرُ أنهارُ الجنة، وسَقْفُه عرشُ الرحمن»، سقف الفردوس عرش الرحمن، أي إنه فوق، والجنان كثيرة، وواسعة جدا، والفردوس أعلاها.

(وَعَنِ ابْنِ مَسْعُوْدٍ ﷺ؛ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيْهَا خَمْسُمَائَةِ عَامٍ): هذا تقدير، والمقصود ذكر الارتفاع. (وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ وَسَمَاءٍ خَمْسُمَائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُمَائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ خَمْسُمَائَةِ عَامٍ): الكرسي على الماء، والعرش فوق الماء، والكرسي يقول ابنُ عباس وغيرُه من السلف: هو موضعُ قدمي الرحمن، وفيه إثبات قدمين لله جل وعلا، وقد جاءت النصوصُ في قول الرسول ﷺ: «لا يزال يُلقى في النار،

....

وهي تقول: هل من مزيد؟ حتى يضعَ عليها ربُّ العزة رجلَه»، وفي رواية: «قدمَه»، «فينزوي بعضُها إلى بعض، وتقول: قَطْ قَطْ» أي: حَسْبي، امتلأتُ؛ لأن الله لا يظلم أحدا، وهي واسعة، تسعُ العصاةَ كلَّهم والكفرةَ من بني آدم وغيرِهم، والسببُ في هذا أنه وعدها أنه يملأها، هي والجنةَ؛ فإنه قال: «لكل واحدةٍ منكما عليَّ ملؤُها»، فالنار تطلب هذا العهد، فينتهي الكفرة كلهم، من بني آدم ومن الشياطين، وهي تقول: هل من مزيد؛ ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ۝٣٠﴾[ق: ٣٠]، هنا الاستفهام لطلب الزيادة.

(والله فَوْقَ العَرْشِ): هذا فيه إثبات الفوقية، وأن الله فوق، وفيه إثبات الاستواء، كونه استوى على العرش، أي إنه فوق وأنه علا، وقد جاء تفسيرُ الاستواء عن السلف بأربعة ألفاظ، عن الصحابة والتابعين، منهم من قال: علا، كما ذكر ذلك البخاري في صحيحه، عن أبي العالية، ومنهم من قال: ارتفع، ومنهم من قال: صعِد، ومنهم من قال: استقَرَّ، أربعة ألفاظ، بخلاف قول الجهم: استولى، كما تقوله الأشعرية؛ استولى على العرش، استولى أو مَلَكَ أو قَهَر، فيقال: قولكم: (استولى) يقتضي أنه كان مغلوبًا عليه ثم استولى عليه، ثم على قولكم يجوز أن يقال استولى على كل شيء، فالاستيلاء يتطلَّبُ مُغالَبة، أنه كان مغالَبا ثم غَلَب، كله كلام باطل، وكم من آية في كتاب الله في ذكر العلو، كما قال جل وعلا: ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾ [المعارج: ٤]،

لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ». أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ الله، وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ المَسْعُوْدِيُّ عَنْ عَاصِمٍ عَنِ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ الله. قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، قَالَ: «وَلَهُ طُرُقٌ».

وَعَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ﷺ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ: «هَلْ تَدْرُوْنَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟»

وقال تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١]، وقال: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل: ٥٠]، ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٨]، وقال يخاطب عيسى: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]، في آيات كثيرة، حصرُها يصعب، كلها صريحة في علو الله، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٦]، ولكن إذا كان الإنسان قد ضل في عقله وفي دينه، فلا حيلة فيه، ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

(لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ». أَخْرَجَهُ ابْنُ مَهْدِيّ عَنْ حَمَّادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِ الله)، عبد الله هو: ابن مسعود، وإن كان هذا موقوفا فله حكم الرفع.

(وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ المَسْعُوْدِيُّ عَنْ عَاصِمٍ عَنِ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ الله. قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى)، قال: له طرق متعددة، وصححه.

(وَعَنِ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ ﷺ؛ قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ الله ﷺ:

كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟».

قُلْنَا: اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيْرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ، مَسِيْرَةُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ مَسِيْرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحْرٌ بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلَاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، والله ﷻ فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

(«هَلْ تَدْرُوْنَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُوْلُهُ أَعْلَمُ...): الذي ذكره المؤلف هنا بعضٌ مما جاء في معنى علو الله وعظمته جل وعلا، وهي أمور يجب أن تُعتقد ويُؤمَنَ بها على ما جاءت، كما اعتقدها الصحابةُ وأتباعُهم إلى اليوم، أما الذين انحرفوا وبدَّلوا وغيروا، فهؤلاء على خطر عظيم، وقد يكون لديهم إما شك وريب، كما يقول بعض العلماء: أكثرُ مَن يشك عند الموت أصحابُ الكلام، هؤلاء الذين اعتاضوا بالكلام عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، حتى إنهم كانوا -كما ذُكر عن عدد من كبارهم وأساطينهم- إذا حَضَرهم الموتُ يتمنون أنهم يموتون على عقائد العجائز، ويتبرؤون مما كانوا عليه، ويقولون لأصحابهم: لا تشتغلوا بما اشتغلنا فيه، ولو كنا نعرف أنه يصل بنا إلى ما وصل، ما اشتغلنا به، وهذا مذكور عنهم في تراجمهم، ومعلوم أن الذي لا يعتقد ما قاله الله وما قاله رسوله، يكون في شك؛ لأن العصمة في كتاب الله، وفي قول رسوله ﷺ، نسأل الله ﷻ بأسمائه

....

الحسنى وصفاته العليا، أن يهدينا للحق، ويبيِّنه لنا، ويجعلنا من المتمسكين به، وألا يضلنا، والله أعلم.

❁ ❁ ❁

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
باب قول الله تعالى: ﴿ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا ﴾	١٣٦
بابُ قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾	١٤٥
بَابُ الشَّفَاعَةِ	١٥٣
قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ ﴾	١٦٩
بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الْغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ	١٧٧
بَابُ مَا جَاءَ مِنَ التَّغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ ؟!	١٨٢
بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ الْغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ الله	١٨٧
بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ الْمُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوْحِيدِ وَسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ	١٩١
بَابُ مَا جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الْأُمَّةِ يَعْبُدُ الْأَوْثَانَ	١٩٥
بَابُ مَا جَاءَ فِي السِّحْرِ	٢٠٢
بَابُ بَيَانِ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ	٢١٠
بَابُ مَا جَاءَ فِي الْكُهَّانِ وَنَحْوِهِمْ	٢١٥
بَابُ مَا جَاءَ فِي النُّشْرَةِ	٢١٩

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
بَابُ مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ	٣٨٧
بَابُ مَا جَاءَ فِي المُصَوِّرِيْنَ	٣٩٥
بابُ مَا جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلِفِ	٤٠٠
بَابُ مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ الله وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ	٤٠٩
بَابُ مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى الله	٤١٦
بَابُ لَا يُسْتَشْفَعُ بالله عَلَى خَلْقِهِ	٤٢٠
بَابُ مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيْدِ وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ	٤٢٤
بَابُ مَا جَاءَ فِي قَوْلِ الله تَعَالَى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾	٤٣٠
فهرس الموضوعات	٤٥٠

